الجيل الثالث

رواية

علّام، محمود.
الجيل الثالث : رواية / محمود علّام.
القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2020.
398 صفحة، 20 سم.
تدمك : 978-977-820-065-2
ا– القصص العربية
أ– العنوان : 813
رقم الإيداع : 2019/23908
الطبعة الأولي : يناير 2020
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

KAYAN PUBLISHING

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة – الهرم
هاتف أرضي: **0235611772 – 0235688678**
هاتف محمول: **01000405450 – 01001872290**
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

• إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأى **الناشرين**.

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الجيل الثالث

محمود علَّام

رواية

إهداءٌ خاصٌّ إلى الراحل د.أحمد خالد توفيق:-

من قطرةٍ في جدول، إلى المحيط العذب الشاسع، الذي طالما علَّم الكثيرين، وكان لهم أبًا وصديقًا في أحلكِ اللحظات، دون أن يدري هو أو يفقه..

يقولون إنك قد جعلت الشباب يقرأون.. وأقول أنا: إنك أنت من علمني أن أكتُب..

أنت من علَّمني أن أعيش، وأنت من وهبت عقلي وتفكيره الحياةَ.. هذا كله كان أنت..

حروفي التي مضت، وكُلُّ القادِماتِ هي بفَضلِكَ أنت.. لأنك كنت رجلًا لطيفًا طيبًا، ولم ينكر أحدٌ ذلك يومًا..

فوداعًا..

وداعًا أيها الغريب..

كانت إقامتك قصيرة، لكنها كانت رائعة..

عسى أن تجد جنتك التي فتشت عنها كثيرًا..

وداعًا أيها الغريب..

وداعًا..

فأنت في مكانٍ أفضل الآن..

إهداءٌ إلى زوجتي المستقبلية رضوى محمود:-

روحُـكِ كانـت تطـوف حـولي في كل لحظـة مضـت أثنـاء كتابـة هـذه الروايـة.. وكلُّ حـرفٍ فيهـا يحمـل لمسـاتِك ورأيَـكِ الصائـب، ودعمَـك الـذي دومًـا مـا كان يوقـد بداخـلي شـعلة مـن الطاقـة والأمـل، حافظـتِ أنـتِ عـلى تأججهـا دومًـا، وأبـدًا لم تتركيهـا تنطفـئ.. فأدامـك اللـه عـليَّ نعمـةً وسـندًا دائمًـا، وأدام وجـودك جـواري، في دنيـا فانيـة وآخـرةٍ باقيـة، وإلى أبـد الآبديـن..

بسببك، وبفضلك وُلِد هذا النص..

وإليكِ أهديه..

تنويه:-

هذه الرواية مبنية على فرضيات وأبحاث علمية وتاريخية حقيقية شديدة الدِّقة، كلها واقعية وحدثت فعلًا.. يمكن لراغبي التعمق فيها زيارة شبكات الإنترنت والموسوعات العالمية؛ لفهم أي جزئية أو الاستزادة منها كما يرغبون..

أحداث هذه الرواية هي خيال مبنيٌّ على وقائعٍ وجذورٍ تُرمى بذورها الآن في عصرنا الحالي.. أي تشابه بينها وبين واقعٍ نعرفه جميعًا هو -على عكس المألوف- صدفة مقصودة بشدة..

فتأملوا..

في زمنٍ ما..

في وقتٍ ما..

لم يعُد البشرُ بشرًا..

صاروا آلهة.. ونسوا الإله ذاته..

صاروا سادة أنفسهم، وحُكَّام مخلوقاتهم..

صاروا سادة، وما دونهم عبيد..

ثـم بعدهـا انقلبـت الآيـة.. صـار المسـتحيل حقيقـةً، والحقيقـةُ صـارت مُسـتحيلًا..

وعندها.. تكرر التاريخ ذاته..

تمهيد

في مستقبلٍ بعيد، أو ماضٍ قريب..

هدير الآلات الخافت..

صـوت المحـركات الإلكترونيـة، والأذرع التـي تتحـرك.. حركـة بـلا صـوت، شـكل إنسـيابي يـدور في حيـز ضيـق، ويضغـط عـلى ذلـك الجسـد غـير المكتمـل المعلـق في وضعيـة الصَّلـب، عـلى قـرصٍ معـدني واسـع، ناصـع البيـاض.. يمـر عـلى تفاصيلـه غـير المكتملـة مـرورًا، ينسـج مـن خلالـه اللحـم ذاتـه..

الأنسجة ذاتهـا تُخلـق، وتتشـكَّل مـن لا شيء.. تتشـكَّل مـن نهايـة الـشرارة عـلى طـرف الإبـرة الصغـيرة التـي تحملهـا الـذراع الإلكترونيـة العملاقـة..

لـون الجسـد الأبيـض الناصـع، يعكـس أضـواء القاعـة الواسـعة التـي يحتـل قلبهـا، فيبـدو منظـره مبهـرًا كالمعـدن.. نصـف قفصـه الصـدري يظهـر للعيـان، نظيفًـا بـلا خـدوش أو دمـاء.. حتـى أنسجة اللحـم التـي تكتمـل مـن فوقـه، تبـدو بيضـاء جافـة، كأنهـا لا تحـوي دمـاءً عـلى الإطـلاق..

وعـلى الجانـب الآخـر مـن القاعـة الواسـعة، يقـف ذلـك العالِـم الشَّـاب.. أبيضُ شـعره ناصـع.. كأنمـا شـيبُه يتناسـق مـع بشرتـه وملامـح الغرفـة والجسـد المعلـق.. يرتـدي معطفًـا أبيـضَ، ينكشـف عـن بـذة أنيقـة تتـدلى منهـا تلـك السلسـلة الذهبيـة، ويرتـدي عوينـات طبيـة ذات إطـار مُذهَّـب تنعكـس فوقهـا الأضـواء الناصعـة، فتعطـي مـع لحيتـه البيضـاء المنمقـة متوسـطة الطـول، مظهـرًا أنيقًـا، يريـح الأعصـاب..

أمامـه ذلـك الهولوجـرام المـضيء.. أضـواء الليـزر المركـزة ترسـم شاشـة تجـري عليهـا بيانـات تفـوق سرعـة القـراءة، وتتمثـل أمـام أناملـه التـي تضغـط عـلى

الهـواء، وتسـحبه لنـواحٍ أخـرى، فينسـحب، ويتشـكل..

مشـهد الجسـد المُعلـق يرتسـم عـبر الهولوجـرام، غـير كامـل كـما هـو، وهـو يمـر بيـده عـلى الأجـزاء الناقصـة التـي يختارهـا، فتشـكلها الـذراع الإلكترونيـة العملاقـة التـي تتـدلى مـن الجسـم المعـدني البيضـاوي أبيـض اللـون المُعلـق فوقهـا..

موسـيقى شـوبن الهادئـة التـي ينبعـث صوتهـا في الخلفيـة تريـح أعصابـه وهـو يهمهـم معهـا في سره، ويـده تعمـل في سرعـة، ناقلـةً إشـارات عينـه الخبـيرة إلى أناملـه..

ثـم يحـرك يـده بحركـة دائريـة تنتقـل للقـرص المُعلـق عليـه الجسـد، فيـدور إلى وضعيـة أفقيـة، ويهبـط إلى أسـفل.. ويتحـرك نحـوه العالِـم..

يقـف أمامـه، ويتأمـل في تفاصيلـه.. يضغـط عـلى أنسـجته، فتنضغـط ولا ترتـد.. كأنمـا هـي طـينٌ يتشـكل، أو صلصـالٌ طـازج..

ينظـر إلى الـرأس العـاري مـن الشـعر، والجفنـين المجرديـن، ويمـط شـفتيه.. هنـاك المزيـد مـن العمـل ليتـم.. الجسـد شـديد النحـول أيضًـا، يجـب أن تُـزاد الكتلـة بعـض الـشيء..

ينظـر بطـرف عينـه إلى عضـوه الذكـوري، غـير مكتمـل التشـكل، فيزفـر.. إنـه متعـب، ولا يقـدر عـلى إنجـاز كل هـذا اليـوم..

يعـود إلى شاشـته الهولوجراميـة، ويصـدر أمـرًا بطـرف أناملـه، فتـضيء الأجـزاء الناقصـة بلـون برتقـالي متألـق.. ويـشرع هـو بالمـرور عليهـا بأناملـه، لتتحـرك الـذراع الإلكترونيـة معـه.. العمليـة بطيئـة بعـض الـشيء، ولكـن الوقـت يمـر، والجسـد يكتمـل..

ثـم يغـير الصـورة بيـده، فتخـرج مكانهـا صـورة أخـرى، تحلـق أمامـه في سـماء الغرفـة.. يمـرر أناملـه عليهـا ليختـار الشـعر.. درجـة نعومتـه ولونـه.. شـعر العانـة ومـدى كثافتـه.. شـعر الجسـد..

وبدأت الذراع في العمل..

***

أسفار البدايات

اسمي هو «إندوبسار»..

لا يهم شكلي أو كيف أبدو، فهذا ليس مهمًّا لكم في شيء.. ما يهمكم فعلًا هو ما لدي لأحكيه.. ولدي من هذا الكثير فعلًا..

إنها حكاية طويلة عن الآلهة والخلق.. عن المركبات الطائرة والكارثة الكبرى.. حكاية عن التاريخ والمستقبل معًا.. عن القدر والمصير، وعن النهايات المحتومة لبدايات لم تكن مقدرة من الأساس..

حكاية مذهلة هي.. ربما تلقي الضوء على بعض ما لم يتوقعه الكثيرون منكم.. وربما لا..

شئٌ واحدٌ مؤكد..

هذه هي الحقيقة ولا شيء غيرها.. فأنصتوا..

***

قصة اللوح المفقود

Story of the lost tablet

هــذه هــي الســنة الســابعة.. اليــوم الســابع مــن الشــهر الثــاني بعــد الكارثــة الكــبرى..

ألفيــات بعــد الانغــمار الأعظــم.. حيــث تغــير شــكل الأرض، وتشــكَّل مــن جديــد..

هنــاك.. حيــث الجبــال الموحشــة.. الصخريــة.. وحيــث الغابــات المقفــرة التــي أُقتُلِــع بعضهــا، وترعــرع البعــض بهيًــا خــضرًا، مــورق الأفــرع، نــضرًا، أســير..

حيــث الحيوانــات الضاريــة التــي لا تبــالي بمــن يســير، ولا تأبــه، أخطــو.. ابتغــاءً لخشــبٍ متســاقط، يتقــد ليبعــث نــارًا تدفــئ وتحمــي مــن الــبرد القــارس..

الغيــوم في الســماوات لا تنقشــع.. ضبــاب كثيــف لا تــرى مــن خلالــه أفقًــا.. كثيفٌ كزئبــقٍ شــفاف، لا قــوام لــه، ولا شــكل.. لــه رائحــة المــوت ذاتــه.. كأنمــا الهــواء ذاتــه قــد احــترق، وتــرك بقايــاه تتناقلهــا الأنســام..

ما كانت غايتي وقتها؟؟.. لا أذكر..

هــل كنــت أملــك أطفــالًا؟.. ذكــورًا أو إناثًــا ينتظــرون منــي الــزاد، ليطعــم أفواههــم الجائعــة، ويمــلأ بطونهــم لينامــوا قريــري العيــون.. لا أعــرف.. ليســت تلــك غايتكــم عــلى أي حــال، ولا أظنهــا تعنــي أحــدًا ســواي.. مجــرد نحــات لا دور لــه في الحيــاة ســوى أن يعيــش لتطــأ أقدامــه الأرض، وتــترك عليهــا طبعــة تــزول مــع مماتــه.. كأنمــا هــو لم يكــن.. قزمًــا لا تأثــيرَ لــه أمــام قــوة الدهــر الغاشــمة..

مــا يعنيكــم فعــلًا هــو مــا رأيتــه.. تلــك الزوبعــة التــي جــاءت مــن فوقــي، مــن مــكان لا أعرفــه ولا أفقهــه.. شيء مــا يُشــع منهــا أحمــر اللــون ناصعــه، بــلا صــوت، كأنمــا هــي القــدر ذاتــه.. تقــترب حثيثًــا في الهــواء، وتحــوم فوقــي لبعــض الوقــت.. صــداع خفيــف يعــتري ذهنــي إثــر صــوت طفيــف تلتقطــه أذني، بينــما أرقــب تلــك الأذرع الطويلــة التــي تخــرج مــن الجســد غــير واضــح المعــالم، ليحــط أمامــي مبــاشرة، وتتزلــزل الأرض وقــع عقبيــه..

ســقطت أرضًــا، ولم أفهــم.. ذُعــرٌ غامــر اســتولى عــلى خلايــاي، وجســدي ذاتــه،

كأنما هـذا هـو المـوت وقـد جـاء بغيـة اصطحـابي إلى أرض أخـرى لم يرهـا أحـد مـن قبـل.. دق فـؤادي كالطبـول، مـع رؤيتهـم وهـم يظهـرون عـبر الضبـاب الناجـم عـن الهبـوط العظيـم.. هيئتهـم بهيـة، وملبسـهم نـضر ناصـع اللـون، كأنمـا يشـع نـورًا جميـلًا لا وصـف لـه.. لهـم طلعـة وحضـور مقـدس، كأنمـا هـم رسـل الـرَّب ذاتـه.. ملائكـة كانـوا وسـيكونون..

يتقدمون صوب جسدي المستلقي، وتدوي أصواتهم..

«إندوبسار أيها النَّحات.. الرَّب العظيم يستدعيك اسمًا..»

تسـارعت ضربـات قلبـي للحـد الأقصى، وأنـا أحـدِّق في المشـهد المقـدس، بينـما تابعَـتْ أصواتهـم القويـة جميلـة النـبرات:

- «لا تخـش شـيئًا، فإنمـا أنـت مُبـارك.. قـد اسـتدعاك الـرَّب العظيـم لتكـون شـاهدًا لـه عـلى مـا كان، وعـلى مـا سـيكون.. لتكـون كلماتـه لـك دِينًـا وعهـدًا، وتكـون بحـار الأرض كلهـا مـدادًا لمـا ستسـجله.. قـد جئنـا لنحملنَّـك إليـه، إلى الجزيـرة التـي لم ترهـا عـينٌ قبـلًا..»

فـور أن انتهـت كلماتُهـم، سـطع ضـوء مبهـر مـن الوحـش الـذي يقبـع خلفهـم، وهـدر صوتـه وهـو يعقـد يديـه مـرة أخـرى عـلى جسـده، ثـم يرتفـع عـن الأرض ليـسري عـبر السـماوات..

واقتربـوا هـم.. اقتربـوا ليمسـكوا بذراعـيَّ حاملـين، إلى وجهـي متطلعـين.. صـوب السـماوات مُحلِّقـين حيـث لم يذهـب بـشر أو طـير..

تلـك الأرض البكـر.. بخضرتهـا وشـجيراتها البهيـة.. خديجـة كحوريـة حسـناء في جنـة لم ترهـا عـين مـن قبـل.. محاطـة بالميـاه مـن كل جانـب، فكأنمـا هـي جاريـة يشـتهيها العَالَمـون..

اقتربـوا مُحلقـين.. بـلا صـوت.. ثـم تركـوا ذراعـيَّ فجـأة لأهـوي مـن حالـق نحـو الأرض، فتلقفَتْنـي حانيـةً بـلا مشـقة، كأنمـا هـي ذراعـيْ زوجـة حنـون..

وكان ذلـك الصـداع الـذي عصـف بعقـلي هـو آخـر مـا كان، قبـل أن يعـتري

الغشـاء الأسـود مجـال بـصري كليـةً.. فلـم أعـد أرى، أو أشـعر..

***

«إندوبسار..»

قـواي تعـود إليَّ، كأنمـا ذاك هـو اسـتيقاظٌ مـن أعمـق أعـماق نـوم شـديد.. فأفتـح عينـي كليـةً، ليبهرهـا ضـوءٌ سـاطع، يـأتي مـن اللامـكان.. كأنمـا الجـدران ذاتهـا تشـع ضيـاءً..

«إندوبسار..»

سـبات عميـق ينقشـع عـن ذهنـي، فتتحـرر خلايـاي، وتعـود إليهـا روح ذات طاقـة، كافيـة لأن تختلـج عضـلاتي.. تنقبـض وتنفـرد..

أنهض معتدلًا..

أحدق فيما حولي..

تلـك الغرفـة البيضـاء الواسـعة.. كل شيءٍ داخلهـا أبيـض كضيـاء الملائكـة.. لا حـدود لهـا ولا جـدران، بـل هـي ممتـدة مثـل مـروج عـدن، واسـعة كالسـماء.. كالكـون لـو كان مضيئًـا..

ثـم ذلـك الصـوت.. عميقـة نبراتـه، فصيحـة، كأنمـا تخاطـب لغـة العقـل مباشرة، بـلا أي حواجـز لغويـة مـن أي نـوع..

«إندوبسار أيها النحات.. انهض واستفق..»

الصوت.. يخاطبني أنا..

- «نعم.. نعم.. هذا هو أنا.. هنا أنا..»

يسري الصوت، من اللامكان.. نبراته بتلاء، ولكنها رفيقة:

- «إندوبسـار أيهـا النحـات.. سـليل أدابـا أنـت، وعليـك أقـص قصـة البدايـات والنهايـات.. قـد اخترتـك لتكـون رسـولي.. لـتروي حكايـة الخلـق.. حكايـة الحيـاة،

وأقصوصة الموت ذاتها.. فلئن يتعظ المتعظون، تقع عليهم رحمة الكون، وحنوه.. فلتترفق السماوات بمن نحا وصدق، وبمن كانت له في كلماتي عبرةً يحذو حذوها..»

استولى الصوت على جسدي، وسَرَت إثره رجفة لا سبب لها سوى رهبة وخشوع، فلم أقو على النطق، ولم يجسر لساني على أن يتلفظ ببنت شفة..

- «قد وقعَتْ عليك مشيئتي لتكون رسولًا لمن هم مثلك.. لتقص عليهم حكايتي عبر ألواحٍ مقدسة، تنحتها أناملك في صخرٍ صلب وثيق.. لتكونن كلماتي لمن هم على شاكلتك عظة..»

سطع ذلك الضوء المبهر على ركن عيني، فالتفتُّ لأجد ما يشبه أماكن النحت الجهيزة.. ألواحٌ صخرية رفيعة، ملساء الشكل والقوام، ليس كمثلها شيء وقعت عيناي عليه من قبل.. لا يوجد إزميل ولا قدور طين، بل بدلًا من هذا يقبع شيءٌ لامع مثيلًا للإزميل، يشع قوامُه بضوء بهي..

وعبر الهواء الثقيل، يسري الصوت من جديد، ولا أرى صاحبه..

- «إندوبسار أيها النحات.. يا سليل أدابا الوَرِع.. أنا سيدك العظيم.. استدعيتك لتكون شاهدًا ومُسجلًا لكلماتي على الألواح.. فأنا كَمِدٌ على ما حل بجنسك فِعل الكارثة العظمى.. مشيئتي هي تسجيل الوقائع، ليعلم الكل أن ما حدث كان يمكن تجنبه.. ليس كمثل تلك الكارثة الدينونة شيء حلَ بالأرض، منذ عصر الفيضان الأعظم.. ولكن الفيض كان مقدرًا له الحدوث، فلا يمكن تجنبه.. أما الكارثة الدينونة، فهي من فِعل السادة والعبيد على حدٍّ سواء.. لم يكن من اللازم أن تقع وتتم.. أنا، سيدك الأعظم فعلتُ ما بوسعي لمنع تلك الوقيعة، ولكنما فشلت..»

وقعُ الكلمات كان أثره على أذنيَّ أثر السر الإلهي.. صوتٌ لم يسمعه كائن من قبل، ولن يسمعه، يحكي وقائع لم يتصورها عقل منذ أزلٍ أمِد..

وما زال الصوت مستمرًّا..

- «هل كان ذاك قدرًا، أم كان المصير؟.. هل كان خيارًا أم وَجَب؟.. الأجيال

القادمـة هـي مـن سـتحكم، وهـي مـن سـتقضي بمـا كان، ومـا سـيكون.. فعنـد نهايـة الأيـام، يـومُ حسـابٍ سـيأتي، ويـوم حُكـمٍ سـيكون.. يـوم تُزلـزل الأرض، وتغـير الأنهـار مسـيراتها.. يـوم تُظلِـم السـماء في ظُهـر يومهـا، ويغـزو اللهيـب ثوبهـا مسـاءً.. يـوم عـودة سـيد الكـون الأعظـم يكـون، وحينهـا يفنـى مـن يفنـى، وينعـم مـن ينعـم ببهجـة الخلـود.. فـما وقـع قـدرٌ ومـضى، سـيحدد حسـنه مـن سـوءه مـا جـرى ومـا صـار.. ومـا كان مصـيرًا، في الزمـنِ كالدائـرة سـيقع مـن جديـد..»

صمـت.. صمـت بعـد وقـع عبارتـه، كان لـه أثـرٌ عظيـم.. لربمـا كانـت هـذه نيتـه، وكان يعـرف وقيـع عبارتـه عـلى الآذان.. لأنـه تكلـم مـن جديـد، بعـد صمـت هنيهـات..

- «لأجـل تلـك الأسـباب سـأقص عليـك قصـة الأوقـات السـحيقة، والأوقـات القديمـة.. والأوقـات الحـاضرة.. ربمـا لـن تسـتوعب، ولـن تفقـه مـما أقـول أو أحـكي شـيئًا واحـدًا، ولكنـك طاعـة تطيعنـي، وأمـرًا لتعليـماتي تحفـر في الألـواح.. ففـي المـاضي يقبـع المسـتقبل، ويتشـكل عـلى مثيـل وقائعـه.. لأربعـين يـومٍ وليلـة أنـت ستسـتمع لي، وتسـجل مـا أقـول كـما أقـول.. لأربعـين يـومٍ وليلـة لـن تـذُق زادًا، وليـس لـكَ سـوى كـسرة خبـزٍ وشربـة مـاء بـين كل حـينٍ وحـين، وليشـفينَّ ذاك جوعـك وظـمأك، وقتـما كبسْـنَك، وكـما أشـاء..»

صمـت الصـوت مـن جديـد، ليسـودَ صمـت سـكين.. ثـم أغـشى عينـيَّ مـن جديـد نفـس الضيـاء البهـير، فالتـفَّ نحـوه عنقـي، ليحتـل مجـال بـصري ذلـك الإنـاء اللامـع، والقِـدر العميـق.. كان هنـاك خبـزٌ في الإنـاء، ومـاءٌ في القِـدر..

ثم سرى الصوت من جديد على مسامعي، آمرًا:

- «تنـاول الخبـز، واشرب المـاء أي إندوسـبار، وليكفينـك بمشـيئتي طـوال مـدة مهمتـك، ورسـالتك السـامية لبنـي جنسـك..»

فعلـت كـما أمـر.. اقتربـت مـن الإنـاء والقـدر، وتناولـت كـسرةَ الخبـز، وشربـةً مـن المـاء.. شـعرت بانتعـاش يغمـر أعماقـي، ليـس كمثلـه شيء ذاقـه لسـاني،

وابتلعـه جـوفي.. أمـرني بعدهـا الصـوت أن أجلـس إلى المائـدة التـي تحمـل الألـواح الحجريـة، والإزميـل السـاطع، فجلسـت.. لم أكـن أرى أثـرًا لبـابٍ أو نافـذة عـلى مرمـى بـصرى، وبرغـم ذاك كان الضيـاء سـاطعًا كظهـر يـومٍ صبـوح..

- «ماذا ترى أمامك؟..»

هكـذا قـال صوتـه، فنظـرت وحدقـت.. الألـواح والإزميـل والضيـاء الـذي يغلـف كل شيء..

أجبته:

- «أرى ألواحًـا صخريـة، تشـكيلها جميـلٌ أملـس كـما لم أرَ مـن قبـل.. وأرى إزميلًا مضيئًـا بهيًّـا، سِـنُّه مضمـوم كمنقـار الصقـر، ليـس كمثلـه شيءٌ طالعـه ناظري..»

فأتاني صوته قويًّا رخيم النبرات:

- «هـذه هـي الألـواح التـي عليهـا تسـجل كلـماتي.. بأمـري تـم قطعهـا مـن أصلـد صخـور جبـال الأرض.. لهـا وجهـان أملسـان، عليهـما تخـط مـا أقـول.. وهـذا هـو الإزميـل الـذي تحفـر بـه مـا أُمليـك.. صنَعَتـه أيـدِ الآلهـة، جسـمه مـن عـاجٍ صلـد، وسِـنُّهُ مـن الياقـوت المقـدس.. سـتحمله يـداك حمـلًا مريحًـا، ولسـوف تحفـر بـه مـا أقـول، وليكونـن ذاك سـهلًا ككتابـةٍ في لـوحٍ مـن الطـين.. أعمـدةٌ متجـاورة تحفـر مـا أقـول عـلى وجـه الألـواح، ومثيلتهـا أعمـدةٌ عـلى ظهرهـا تحفـر..»

صمت الصوت لحظة، ثم جاء من جديد بنبرة أعلى وأكثر حزمًا:

- «لا تحرفنَّ ما أقول وإلا كانت غضبتي عليك عظيمة..»

سـاد صمـتٌ رهيـب بعدهـا، فمـددت كفـي لأتلمـس اللـوح أمامـي.. أملـس دافـئ، طـري الملمـس كبـشرة غانيـة حوريـة.. وامتـدت يـداي لتلتقـط الإزميـل، فـكان وزنـه كالريشـة في يـدي، كأنمـا هـو الهـواء ذاتـه..

ثـم بعدهـا، بـدأت كلـمات السـيد الأعظـم تـسري كشعشـعاتِ شـمسٍ تُـشرق في كبـد سـماءٍ بهيـة.. وبـدأت أنـا في كتابتهـا خلفـه..

تمامًا كما يُمليها..

***

الجزء الأول

جون لايدر
John Lieder

-١-

الرمال..

أشعة الشمس تغلف الموجودات بصبغتها الذهبية الحارقة..

الإشـعاعات تنعكـس في العيـون، ويتراقـص في مجـال إبصارهـا الهـواءُ بفعـل الحـرارة، فكأنمـا هـو سـطح مـاءٍ يغـلي، منـذرًا ببخـرٍ عظيـم..

أصـوات الحفـر والعـمال تـدوي وسـط الكثبـان، فتعطـي شـعورًا بالألفـة، وسـط القفـر..

ذلـك الـذي يقـف هنـاك وسـطهم، يصـدر لهـم إشـاراته، ويتصاعـد الغبـار مـن حولـه، فيعطيـه مظهـرًا ضبابيًّـا غامضًـا، يشـترك مـع قبعتـه العريضـة في إضفـاء مظهـر غـير مألـوف..

اسـمه هـو «جـون لايـدر».. يبـدو هـذا واضحًـا عـلى مظهـره.. كلُّ مـن يرتـدون القبعـات العريضـة في الصحـاري وسـط الغبـار يسـمون جـون لايـدر.. هـذه قاعـدة..

ما الذي يفعله هنا؟.. سؤال وجيه ذاك..

لم يكن جون تقليديًّا أبدًا.. فمنذ صغره وهو مهتم بما لا يهتم به أحد..

تلـك الحضـارات الغابـرة.. التقنيـات العتيقـة.. دومًـا مـا كان يثـير اهتمامـه وانبهـاره فكـرة أن بـشرًا آخريـن كانـوا يسـيرون منـذ آلاف السـنين في مواضـع سـار عليهـا هـو منـذ دقائـق.. كان الأمـر بالنسـبةِ لـه أشـبه بآلتـه الزمنيـة الخاصـة.. يـدرس التاريـخ والحضـارات التـي جـاءت مـن قبـل، فكأنمـا قـد جلـس عـلى الكـرسي وأدار المـؤشر إلى بضـع آلاف نحـو المـاضي.. هـذا هـو الإمتـاع ولا شيء سـواه....

خيالـه كان واسـعًا حقًّـا.. كان يمتلـك قـدرة اسـتثنائية عـلى تخيـل المشـاهد والأحـداث التاريخيـة الشـهيرة، كأنهـا جـزء مـن فيلـم سـينمائي، ويقصهـا عـلى

أقرانـه ومعلميـه؛ ليثـير دهشـتَهم بقدرتـه فـوق الطبيعيـة عـلى التخيـل..

ربما لذلك السبب كان لا بد أن يتجه إلى كلية الآثار..

كليـة الآثـار بجامعـة سـتانفورد هـي مـن أفضـل كليـات الآثـار في العـالم.. هكـذا قالـوا لـه، ولهـذا قـرر أن يتبـع طريقـه عبرهـا.. لم يجـد صعوبـة طبعًـا في الالتحـاق، فهـو قـد خُلِـق ليـدرس التاريـخ، ويبحـث عـمًّا خفـي منـه.. ربمـا كان بإمكانـه أن يعلِّـم أسـاتذة اللجنـة شـيئًا جديـدًا في كل مـرة يفتـح فمـه..

لم يكـن وسـيمًا، ولكـن لكنتـه ذات الأصـل البريطـاني الفخـم كانت تذيـب الفتيات أمامـه ذوْبًـا.. كان الأمـر دومًـا يثـير تعجبـه.. في الولايـات المتحـدة؛ حيـث الفتيـات (سـاخنة) وليسـت (جميلـة)، يعشـقون اللكنـة البريطانيـة المفرطـة في الرقـي والأرسـتقراطية.. وعـلى الناحيـة الأخـرى، في المملكـة، يثيرهـم دومًـا الأمريكيـون المتحـررون الذيـن يأكلـون الحـروف أكلًا..

المختلـف دومًـا أكـثر إثـارة كـما يقولـون.. وهـو في كل مـكان كان المختلـف.. لذلـك لم يكـن يجـد عـسرًا في أن يضاجـع مـن يريدهـا، وقتـما أرادهـا.. لم يكـن يتمنـى واحـدة وتصمـد أمامـه.. ليسـت الوسـامة كلَّ شيءٍ فعـلًا..

أسمعكم تتساءلون؛ ما الذي أتى به إلى هنا إذن؟!.. سؤال وجيه آخر..

الإجابـة هـي التنقيـب طبعًـا.. لـكي نجيـب بشـكل مفصـل عـن هـذا السـؤال، يجـب أن نعـود إلى حياتـه الشـخصية بعـض الوقـت.. تحملـوا قليـلًا.. أعـرف أن الأمـر لا يعنيكـم في شيء، ولكنـه ضروري..

جـون، أو «مسـتر لايـدر» كـما كانـوا يطلقـون عليـه، كان الأول عـلى صفِّـه في كل شيء تقريبًـا.. كان عبقريًّـا في أي شيء يتعلـق بالتاريـخ والآثـار.. وكانـت لديـه بعـض الأبحـاث التـي أثـارت دهشـة أسـاتذته في الجامعـة، كلهـا تتعلـق بحضـارات العـراق الغابـرة، التـي كانـت تُعـرف باسـم بـلاد مـا بـين النهريـن Mesopotamia..

تتعلـق بحضـارة واحـدة عـلى الأخـص، هـي أقـدم حضـارة معروفـة في التاريـخ البـشري.. الحضـارة السـومرية..

كانت هناك أقاويل تتناقلها الألسنة في المجال الأكاديمي مؤخرًا، عن أسطورة المقبرة المفقودة التي يختبئ مدخلُها في مكانٍ ما من بلاد ما بين النهرين القديمة، وتخفي بداخلها سرًّا مقدسًا لا يعرف أحد ما هو..

تلك الأسطورة خلبَت لبَّه، حينما سمع عنها للمرة الأولى مع كشف فريق من جامعة توبنجن الألمانية، بقيادة البروفيسور بيتر بفولزنر Peter Pfälzner لبعض النصوص التي نُقِشَت على ألواح حجرية وجدوها في أطلال قصر أثري، اكتُشف سنة 2017 في إقليم كردستان بشمال العراق بداخل أطلال مدينة باسطكي، والتي اتضح بعدها أنها ذاتها تقع على نفس موقع مدينة ماردامان الآشورية المفقودة..

عُرِفت الأسطورة لأول مرة بعد بدء عمليات فك شفرة الكتابات المسمارية التي كانت منقوشة على تلك الألواح بواسطة العالمة بيتينا فايست Betina Faist بجامعة هايدلبرج.. لم يكن أمر تلك الألواح قد أصبح عِلمًا عامًا بعد، وظل مقتصرًا على أوساط القليل جدًّا من بعض العلماء والأكاديميين في تلك الفترة.. حتى فُكَّ اللغز وحُلَّت شفرة النصوص المسمارية المنقوشة عليها.. وحينها، عرف الجميع أن هذه هي ماردامان..

كانت تلك المدينة التي تعود للعصر البرونزي مملكة مهمة وعاصمة إقليمية للآشوريين في يومٍ ما، وكان تاريخها يعود إلى حوالى 2200 -1200 قبل الميلاد، وربما إلى ما هو أبعد من ذلك.. إلى الفترات المبكرة من حضارة بلاد ما بين النهرين..

وفي بعض المصادر القديمة من سلالة أور الثالثة، حوالي سنة 2100-2000 قبل الميلاد، كان تصوُّرُها المبدئي هو أنها مدينة مهمة على الأطراف الشمالية لإمبراطورية بلاد النهرين، ولكن ما اكتشف بعد ذلك هو أن هذه المدينة كانت مملكة خاصة مستقلة تقع على طرق التجارة بين بلاد ما بين النهرين وسوريا القديمة والأناضول، ولكن سُيطِر عليها من قِبَل واحد من أعظم الحكام الآشوريين في ذلك الوقت، هو «شمشي - أداد الأول»، في عام 1786

قبـل الميـلاد، واندمجـت بعدهـا في إمبراطوريتـه في بـلاد مـا بـين النهريـن العليـا..

كان هـذا هـو مـا تحكيـه معظـم الألـواح الحجريـة التـي كان عددهـا هـو 92 لوحًـا.. ولكـن واحـدًا منهـا فقـط، كان يحـكي قصـة مختلفـة بعـض الـشيء.. قصـة لم تخـرج يومًـا للعامـة، ولم يطِّلـع عليهـا سـوى قلـة قليلـة مـن علـماء الآثـار في ألمانيـا وفي جامعـة سـتانفورد بالولايـات المتحـدة الأمريكيـة، التـي كان «جـون» جـزءًا منهـا..

كان ذلـك اللـوح يحـوي قصـة أسـطورة سـومرية قديمـة تحـكي عـن النَّحـات «إندوبسـار» الـذي اختطفتـه كائنـات غريبـة يذكـرُك وصفُهـا بالملائكـة، وحملتـه إلى حيـث قابَـل الـرب الأعظـم القديـر !..

تسـتمر القصـة لتحـكي بعـض التفاصيـل عـن لقائـه ذاك، ثـم تصـف مدخـلًا سريًّـا يقـع بداخـل مقـبرة مفقـودة، أو تحتهـا.. لم يكـن النـص دقيقًـا للغايـة في هـذه النقطـة، ولكنـه كان يؤكـد أن ذلـك المدخـل يقـود لمدينـة مفقـودة تخفـي بداخلهـا الـسر الإلهـي ذاتـه !..

لم يكـن الأمـر يتعـدى كونـه قصـة أسـطورية منقوشـة عـلى بعـض الألـواح الحجريـة، كمثـل القصـص الأسـطورية التـي اكتشـف المنقبـون منهـا المئـات، عـلى برديـات الحضـارة الفرعونيـة القديمـة.. أسـطورة مثـيرة بعـض الـشيء، وليـس أكـثر.. كمثـل الأسـطورة التـي كانتهـا مقـبرة تـوت عنـخ آمـون، قبـل أن يكتشـفها هـاوارد كارتـر Howard Carter بتمويـل مـن اللـورد كارنارفـون Carnarvon في وادي الملـوك بطيبـة القديمـة، أو الأقـصر الحاليـة..

لم يكـن هـو نفسـه يعـرف عنهـا شـيئًا، قبـل أن يطلعـه أحـد أسـاتذته عليهـا بالصدفـة، بسـبب علاقتهـما القريبـة نوعًـا مـا.. رأيـه كان مهـمًّا لمعظـم أسـاتذته عـلى أي حـال، فهـم لم يتوقفـوا يومًـا عـن اعتبـاره عبقريًّـا، يعـرف مـا يتحـدث عنـه.. وكان رأيـه هـو أن ذاك الدُّخـان لا يمكـن أن يكـون بـلا نـار.. لا بـد أن هنـاك شـيئًا مـا، أو درجـةً مـا مـن الحقيقـة في الأمـر.. صحيـح أن الغمـوض يحيـط بالأمـر برمتـه، بدايـةً مـن الألـواح الحجريـة التـي وجدوهـا في أطـلال ذلـك القـصر القديـم،

وتحفظـوا عليهـا للدراسـة، وحتـى الأسـطورة ذاتهـا التـي لم تنتـشر بـين العامـة لسـبب لا يفهمـه..

كان جـون يملـك بعـض الأفـكار غـير التقليديـة عـن ماهيـة تلـك المقـبرة الأسـطورية، وعلاقتهـا بتقـدم تلـك الحضـارة غـير المسـبوق، وظهورهـا للنـور فجـأة في النصـوص الأثريـة التـي تمتلـئ بهـا المتاحـف.. كان الأمـر بالنسـبةِ للجميـع غامضًا وغـير طبيعـي، ولكنهـم كانـوا يفسرونـه دومًـا بعـدم اكتـمال النصـوص، وأن مـا لم يجـدوه بعـد، هـو أكـثر عـددًا بمـا لا يقـاس مـما عُـثِر عليـه بالفعـل..

لكنـه لم يكـن مقتنعًـا بـآراء كل علـماء الآثـار في العـالم.. كان لـه رأيـه الخـاص الـذي لا مجـال لذكـره الآن.. لذلـك لم يكـن مـن الصعـب أن يحصـل عـلى تمويـل خـاص لمـشروع تخرجـه شـديد الطمـوح، والـذي كان يخطـط أن يحولـه إلى رسـالة دكتـوراه PhD كاملـة.. كان يـرى أن هنـاك مكانًـا أثريًّـا شـديد الأهميـة نسـيه المؤرخـون، هـو الهضبـة الصحراويـة، التـي هـي الصحـراء الجنوبيـة الغربيـة، في جنـوب العـراق.. مـكانٌ مـا فيهـا عـلى الأقـل..

لم يكـن يعـرف مـا هـو بالضبـط الموجـود هنـاك، ولكـن دراسـته المتعمقـة للموقـع ولتاريخـه كانـت تورثـه حدسًـا خفيًّـا لا يهمـد.. وتنامـى كل هـذا مـع التمويـل الرسـمي لأحـد رجـال الأعـمال المعروفـين في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة لمشروعـه، حـين طرحـه عليـه في كواليـس مؤتمـر صحفـي..

الرجـل كان متحفظًـا، ولكنـه يجـسر عـلى أن يقـول إنـه قـد تحمـس للفكـرة، ووافـق عـلى منحـه التمويـل الـذي يحتاجـه لسـببٍ غامـض.. لم يكـن هـو نفسـه يظـن أنـه سـينجح في إقناعـه، ولكـن الحيـاة غريبـة كهـذا..

لم يقـل أحـد أبـدًا إنـه ليـس مُقنعًـا.. كانـت لديـه طريقـة معينـة مـع الكلـمات، لا تقـاوم.. فلـو كان يعمـل بالمبيعـات، لصـار بيـل جيتـس جديـد..

الطمـوح.. الطمـوح الـذي لا يقـاوم، ويمحـي كل مـا عـداه.. ليـس في الحيـاة سـوى هـدف واحـد، ليذهـب كل مـا هـو سـواه للجحيم..

لذلـك فأنـت تـراه هنـاك.. يقـف وسـط الكثبـان والغبـار، يعـدل مـن وضـع

قبعتـه السرمديـة التـي تذكـرك برعـاة البقـر، ويـصر كل علـماء الآثـار عـلى ارتدائهـا لسـبب لا أعرفـه..

يفـرك جبينـه، ويمسـح العـرق مـن عـلى لحيتـه القصـيرة المشـذَّبة.. الشـمس توشـك عـلى قتلـه.. بالتأكيـد لم يعتـد ابـن لنـدن وكاليفورنيـا عـلى شـمس صحـاري العـراق مـن قبـل.. ليـس الأمـر مزاحًـا بالتأكيـد، بالإضافـة إلى أن الأهـالي هـا هنـا لا يتمتعـون بحـس دعابـة قـوي تجاهـه، باعتبـاره الأمريـكي المحتـل الـذي جـاء ليزيـد حياتهـم جحيـمًا.. صحيـح إنـه بريطـاني، ولكـن كل مَـن يتحـدث الإنجليزيـة بالنسـبة لهـم هـو ابـن كلـب.. هـذا طبيعـي ولا يمكنـه ادعـاء أنـه لا يفهمـه.. لم يتخلـص العراقيـون مـن عقـدة المحتـل بعـد، وهـو لا يلومهـم..

لكــن الــكل يرضـخ للـدولارات، وهــو يملــك منهـا الكثـير.. لذلـك فقـد كان قـادرًا عـلى شراء خدمـات كتيبـة كاملـة مـن العـمال البـدو، ومعـدات التنقيـب والتخييـم.. بالإضافـة إلى فريقـه الخـاص مـن المسـاعدين، الذيـن يتكـون معظمهـم مـن أصدقائـه في الولايـات..

شـهر كامـل مـن التنقيـب عـبر الرمـال، وهـو ليـس أقـرب مـما بـدأ.. في أوقـات يسـتولي عليـه التفكـير فيـما لـو كان مخطئًـا.. مـاذا لـو لم يكـن عبقريًّـا كـما يظـن، وكـما يعتقـد الجميـع؟.. مـاذا لـو كان يمـارس عمليـة دفـع الصخـرة السـيزيفية الأبديـة أعـلى الجبـل، ولكـن عـلى طريقتـه الخاصـة؟..

مـا الـذي يفعلـه هنـا حقًّـا؟.. لربمـا كان يعـوض مـا يفتقـده مـن حيـاة خاصـة، وعلاقـات وطيـدة بالسـفر حـول نصـف العـالم؛ لينقـب عـن أشـياءَ مـا لا يعلمهـا إلا الـرب.. في حـين أنـه لـو تقـدم بـأي مـشروع آخـر لأسـاتذته؛ لنجـح بمرتبـة الـشرف أيضًـا.. لا يحتـاج لمـشروع مـن الأسـاس.. الفـراغ شيءٌ خطـير فعـلًا، يقـود لتصرفـات لا تفسـير لهـا ولا غايـة سـوى إضفـاء بعـض الإثـارة عـلى حيـاة مملـة رتيبـة لا شيء فيهـا.. فبغـض النظـر عـن كونـه شـخصية (رائجـة popular) كـما يقولـون في الولايـات، وكـون الجميـع يتمنـى أن يصادقـه ويمـضي معـه الوقـت، لم يكـن أبـدًا مـن النـوع الاجتماعـي الـذي يطمـح للعلاقـات ويتغـذى عليهـا.. لم يكـن يحـب

أن يحتفـل مـع أقرانـه كجميـع مـن هُـم في سنِّه، وكانـت التجمعـات البشريـة بالنسـبة لـه شرًّا لا بـد منـه.. لـو أراد أن يصنـع مـن نفسـه شـيئًا مـا في يـوم، فعليـه أن يتحمـل البـشر الأغبيـاء اللحوحـين التافهـين المملـين المغروريـن ضيقـي الأفـق.. لا شيء في الحيـاة مجـاني قطعًـا..

ربمـا هـو غـروره الـذي صوَّر لـه أنـه سـينجح فيـما عجـز عنـه كل علـماء الآثـار في العـالم.. سـيعرف مـا هـو أكـثر.. سـيجد الحقيقـة، والحلقـة المفقـودة في تاريـخ العـالم.. أحـلام تبـدو لمـن يسـمعها طفوليـة للغايـة، ولكنهـا لم تكـن كذلـك بالنسـبة لـه.. ولا بالنسـبة لمـن يعرفـه جيـدًا، ويعـرف إصراره الـذي يقـترب مـن درجـة الهـوس..

ربمـا هـو حـس المغامـرة الـذي دومًـا كان يمتلكـه، وكان مكبوتًـا في داخلـه لسـنين طويلـة، ينتظـر أن يخـرج إلى السـطح، ويصنـع مـن نفسـه شـيئًا مـا.. شـيئًا أكـبر مـن أن يتخيلـه أحـد..

سيتحمل..

سـيتحمل الحـرارة والعـرق والذبـاب الصحـراوي الضـاري الأشـبه بالطيـور الجارحـة..

سـيتحمل العـمال وشـكواهم الدائمـة وتكاسـلهم المسـتمر وتذمرهـم الطفـولي مـن كل شيء وأي شيء..

سيتحمل الملل.. الملل القاتل، وهو أكثر ما يثير أعصابه..

فهو يعرف أنه على أعتاب شيء ما..

يمكنه أن يشعر بطعمه في فمه..

***

الرمال والعرق.. والحفر.. الحفر الذي يستهلك طاقة الروح ذاتها..

الشـمس التـي توشـك عـلى أن تذيـب الـرؤوس، ويتصاعـد أثرهـا الدخـان مـن الشـعور والأجسـاد ومـا يكسـوها، فـكأن حرارتهـا لهيـبُ جهنـم، يسـتعر حارقًـا..

العـرق المالـح يغـزو الجبـاه والأفـواه، ويمـلأ العيـون فيحرقهـا كـما الحمـض الشـديد..

العـمال يتصايحـون فيـما بينهـم، وصـوت المجـارف والفـؤوس يتعـالى؛ ليبلـغ مسـامعه في خيمتِـه، فيـشرد عـلى صـداه..

الوقـت يمـر.. ولا دليـل عـلى أنـه سـيجد شـيئًا هنـا.. كان أحمقًـا كبـيرًا، وربمـا هـو ليـس بالبراعـة التي يحسـبها..

يـشرد تفكـيره رغـمًا عنـه في التمويـل الـذي تلقـاه مـن رجـل الأعـمال ذاك.. مـا الـذي سـيقوله لـه؟.. لم يجـد شـيئًا بعـد شـهرٍ ونصـف تقريبًـا مـن البحـث؟.. سـيكون محظوظًـا لـو لم يقاضيـه حتـى يبيـع سرواله الداخـلي..

الاكتئـاب يسـتولي عـلى كيانـه، ويورثـه جسـدًا متهالـكًا، فـلا يقـدر عـلى النهـوض لـيرى مـا الـذي يدفـع العـمال للصيـاح والشـجار في الخـارج بمثـل هـذا الشـكل.. لم يعـد شيءٌ يهـم.. فليذهبـوا جميعًـا للجحيـم، أو ربمـا هـم فيـه بالفعـل.. لا بـد أن الجحيـم يشـبه مـا هـم فيـه الآن..

يسمع أصواتهم تتسرب إلى مسامعه كالهمسات، وسط شجارهم:

- «هذا هو بداية طريق المدينة المفقودة.. هناك شيءٌ ما يختفي هنا..»

يسـمع العبـارة الهامسـة، ويميـز لفظـة المدينـة المفقـودة وسـطها لينتبـه.. صحيح أنـه لا يفهـم العربيـة، ولكنـه يسـتطيع تمييـز بعـض الكلـمات منهـا، ويخمـن البعض الآخـر.. هنـاك شيءٌ مـا يحـدث هنـاك بالخـارج..

حـاول أن ينصـت بتركيـز أكـبر لمـا يـدور، علَّـه يسـمع شـيئًا أكـثر أهميـة، ولكـن الصيـاح تعـالى، وصـوت الحفـر توقـف.. سـكون يمـتزج بأصـوات الجـدال والسـباب العـربي الـذي لا يفهمـه.. كأنمـا هُـم يتشـاجرون مـع ذاك الـذي همـس بالعبـارة، وينهرونـه لئـلَّا يتفـوه بمـا هـو أكـثر..

يجب أن ينهض..

يسـتند بكفيـه عـلى فخذيـه وهـو يدفـع جسـده واقفًـا، ثـم يتجـه إلى مخـرج

الخيمـة، فقـط ليقطـع مسـاره ذلـك العامـل الـذي اقتحـم مسـاحته داخـلًا بغتـة.. عمامتـه وجلبابـه متسـخين بطبقـة رمـال داكنـة غريبـة الشـكل، تمتـزج بالغبـار وذرات الرمـال الصفـراء اللامعـة..

ما الذي أتى بتلك الرمال الصخرية الداكنة إلى وسط الصحراء العربية؟!..

هـمَّ بالـكلام، فقاطعـه العامـل بلغتـه الإنجليزيـة الكسـيحة، ولكنتـه العربيـة التـي تضغـط عـلى الحـروف بمـا لا يشـابهها، وتحـول الثـاء إلى سـين في كل فرصـة:

- «مستر جون.. يجب أن ترى هذا..»

عادة العرب الدائمة في مناداة الغربيين بأسمائهم الأولى لا الأخيرة..

لم يهتـم، وتطلـع إليـه لحظـات.. هـل يمكـن أن يكـون هـذا هـو مـا كان ينتظـره منـذ دهـر؟.. هـل فعـلًا حظـه جيـد لتلـك الدرجـة؟..

- «مستر جون..»

انتبه، ونفض التفكير عن ذهنه..

- «هيا بنا..»

اسـتدار العامـل خارجًـا مـن الخيمـة، وتبعـه هـو وهـو يحمـي رأسـه بذلـك المنديـل القـماشي المبلـل، اتقـاء الحـرارة الحارقـة، والأشـعة الملتهبـة..

العـمال يكفـون عـن الجـدال، وهـم يتطلعـون إليـه مترقبـين، بينـما هـو يقـترب، ويعـبُر وسـطهم ليصـل إلى المركـز.. تلـك الحفـرة العميقـة الممتـدة لأمتـار عديـدة..

طبقـة عجيبـة الشـكل مـن الرمـال تغلـف أرضيـة الحفـرة، ويمتـزج لونهـا الداكـن بلـون الرمـال الطبيعيـة الذهبـي الناصـع، فيعطـى مشـهدًا غريبًـا، غـيرَ أرضي.. لا يضاهيـه سـوى منظـر أشـعة الشـمس وهـي تنعكـس مـن عـلى قمـم الأطـلال المهدَّمـة التـي تطـل مـن بـين الرمـال عـلى اسـتحياء..

تسـمَّر في مكانـه لحظـات وهـو يحـدق في المشـهد، بينـما عبـارات العامـل العـربي تتنامى إلى مسـامعه:

- «هناك ما يختفي بالأسفل، ولكن لا نفهم ماهيته بعد..»

شرد للحظـة فيـما ينبغـي أن يفعلـه.. هـل يسـألهم صراحـةً عـمَّا كانـوا يتحدثـون عنـه؟.. هـو يتحـرَّق شـوقًا لأن يعـرف، ولكـن ربمـا لا يجيبـه أحدهـم، ويكـون في هـذه الحالـة قـد فقـدَ فرصتـه لاسـتراق السـمع مـن حديثهـم مجـددًا.. هـم يظنونـه لا يفقـه حرفًـا مـن العربيـة، ويجـب ألَّا يثبـت لهـم خطأهـم.. عـلى الأقـل ليـس الآن.. يجـب أن يدعـي البلاهـة لأطـول وقـت ممكـن..

استدار في سرعة، ولوح بيديه وهو يشير للعمال صائحًا:

- «تابعوا الحفر في هذه البقعة.. لا تتوقفوا حتى تتضح معالمها..»

قفـز العـمال بداخـل الحفـرة حاملـين مجارفهـم ومعاولهـم، وجعلـوا يغرسـونها في الرمـال، ويلقـون بمـا تحملـه إلى وراء ظهورهـم.. وببـطء، بـدأت معـالم الأطـلال تتشـكل، وتتضـح..

منظـر الحوائـط القصـيرة، والسـقف المتهـدم، والمدخـل الطينـي المنحـوت، والسـلالم المائلـة المتآكلـة أسـفله، ثـم معـالم الداخـل التـي ترسـم صـورة موحشـة.. كأنمـا هـي قـبر مـن نـوعٍ مـا، ولكنـه صغـير إلى درجـة لا تسـتوعب.. لا يتعـدى حجمـه مـترًا مربَّعًـا..

اقـترب جـون مـن وسـط العـمال وهـو يلقـي بأنظـاره إلى الداخـل، ويحـاول أن يسـتوعب مـا تقـع عليـه عينـاه مـن تلـك الزاويـة الصعبـة..

كلا.. هـذه ليسـت مقـبرة بالتأكيـد.. أسـمعكم تتسـاءلون عـن السـبب، وهـو سـؤال وجيـه..

السـبب هـو ذلـك الجسـم الرفيـع الطويـل، الـذي يطـل طرفـه مـن بـين جزيئـات الرمـال الصخريـة الداكنـة، ويبـدو كأنمـا هـو يحتـل مكانـه فـوق ضريـح أو مذبـح صخـري صغـير، يتصـل بـه لوحـان مـن الطـين المتجمـد الـذي انغـرس فيـه طـرفي الجسـم؛ ليحملانـه بينهـما إلى الأعـلى، مكسـوًّا بالغبـار وذرات الرمـال الداكنـة الممتزجـة بطـينٍ خفيـف..

اقـترب وهـو يحـدِّق في المشـهد، وقلبُـه يخفـق إثـارةً كالطبـول.. هـذه هـي لحظـة الحقيقـة.. قـد وضـع هـذا الجسـم هنـا وضعًـا، كأنمـا أراد واضعـه أن يؤكـد

على قدسيته، وعلى سريته التي ينضح بها موقعه الموغل في قلب الصحراء.. بالتأكيد لم يُرِد صاحبه أن يجده أحد، وفي نفس الوقت أبى إلا أن يحفظه بشكل بادي العظمة والتقديس..

قفز داخل الحفرة، وانغرست قدماه في الرمال الداكنة، فظل ينزعها كحشائش فاسدة وسط حقلٍ مُشجرٍ نَضِر، ثم يغرسها متقدمًا، حاثًّا خطاه نحو تلك الغرفة الضيقة، وعبر أجساد العمال في صعوبة وهو يدلف إلى الداخل، ويتطلع للحظات إلى لوحي الطين البدائيين اللذين يحملان الجسم الغريب مُعلَّقًا بينهما، ثم مد كفَّه ليقبض عليه، وجاهَد حتى انتزعه مصحوبًا بالتراب وذرات الغبار..

مسحه في ملابسه، ونفض الغبار وذرات الرمال الداكنة من عليه، ثم رفعه أمام عينيه في ضوء الشمس، ليلتمع وتنعكس الشعيعات الساطعة من على سنِّه الأزرق الشفاف..

خلف النصل يقبع ذلك اللوح الجيري الأملس الصغير، نُقِشَ عليه بخطٍ صقيل:

- «مفتاح طريق الآلهة..»

حدق إليه في انبهار، ونظرات العمال تنطبع على الجسم وعليه مترقبة..

إنه إزميل.. أو يشبه الإزميل.. شديد الفخامة والبهاء، يلمع سنُّه المدبب في ضوء الشمس.. ياقوت.. هذا ياقوت.. وذلك المعدن الصلد الداكن، مزخرف بشكلٍ لم تره عينٌ من قبل.. الصنع والتصميم متكامل، كأنما خلقته يد أكثر الحدادين مهارة.. متقنٌ بشكلٍ لا يضاهيه شيءٌ رآه في حياته..

التفت إلى العمال من جديد، وصاح:

- «أكملوا الحفر.. هناك أطلال شيءٌ ما هنا، ولن نرتاح قبل أن يظهر بأكمله..»

ثـم قفـز خارجًـا مـن الحفـرة وهـو يحمـل الإزميـل غريـب الشـكل في يـده، وحـثَّ الخُطـى صـوب خيمتـه بغيـة دراسـته وفحصـه تحـت مناظـيره، وكيانـه يهتـز حماسـةً وغبطـة.. قـد كان محقًّـا برغـم كل شيء.. كان محقًّـا..

لم يلحــظ في غمــرة شروده، نظـرات العــمال لــه في ظهــره.. ولم ينتبــه لمـا يضمــرون..

الأمور على وشك أن تتداعى، وهو لا يملك أدنى فكرة..

***

ما هذا؟..

لا يفهــم كيفيــة إتقــان صنعِــه لهــذه الدرجــة.. كأنمــا صورتــه يــد إلــه.. مــن المسـتحيل أن تكـون دقـة الصنـع تلـك متوفـرة منـذ أكـثر مـن سـتة آلاف سـنة.. هــذا غــير ممكــن..

أخـذ يحـك في شـعره وهـو ينظـر للإزميـل في يـده في حـيرة.. حتـى طريقـة الصنـع والزخرفـة غـير متوافقـة مـع أي فـترة مـن فـترات سـومر.. هـذا الإزميـل ليـس سـومري الأصـل بالتأكيـد..

ثـم هنـاك لغـز تلـك الرمـال الداكنـة.. مـا الـذي يمكـن أن يـأتي بمثلهـا لوسـط الصحــراء؟.. هــي ليســت بقعــة واحــدة حتــى، بــل هــو حقــل كامــل، كأن تلــك النقطـة كانـت أرضًـا مختلفـة مـن قبـل، أو كأنمـا طبقـة الرمـال تلـك قـد أتـت مـن مـكان مختلـف تمامًـا.. يشـبه تشـيكلها طبقـات الرمـال المحترقـة الداكنـة بفعـل الضغـط التـي رآى مثلهـا في عمليـات الحفـر المتعمقـة في باطـن الأرض عـادة..

لا يفهـم.. لا يفهـم، ويزيـده ذلـك حـيرةً، ويذيـب عقلـه تفكـرًا.. هـو لا يطيـق أن يـرى لغـزًا لا يقـدر عـلى حلـه.. يحـب الألغـاز حبًّـا جـمًّا؛ لأنهـا تختـبر قدرتـه عـلى الفهـم والاسـتنتاج، ومعلوماتـه الخاصـة عـن الحضـارات الغابـرة التـي لا يضاهيهـا شيء.. لكـن أن يـرى لغـزًا لا يقـدر عـلى حلـه، فـإن ذاك هـو الجحيـم ذاتـه..

وضـع الإزميـل عـلى المائـدة الخشـبية، وهـرش في شـعره البنـي الناعـم كالقـرود،

ثـم نهـض مـن مكانـه والتقـط جهـاز الكمبيوتـر المحمـول مـن الركـن.. يجـب أن يتصـل بــ «جاكلين»..

«جاكلــين» هــي صديقتــه الحميمــة التــي ترافقــه في كلِّ شيء.. هــي بمثابــة واطسـون إلى هولمـز الخـاص بـه.. تعـرف كل شيء عـن شـغفه وهوسـه بالتاريـخ وبالحضـارات، وتعـرف غـروره وظنونـه بأنـه أفضـل مَـن هنـاك فيـما يتعلـق بـأي شيءٍ قديـم، وهـو مـا لم يكـن بعيـدًا جـدًّا عـن الواقـع، وتتعلـق بحـس المغامـرة بداخلـه، وتشـجعه بطريقتهـا الخاصـة التـي ليـس مثلهـا شيء..

سـيتصل بهـا عـبر شـبكة الإنترنـت.. مكالمـة فيديـو بالطبـع، فهـو يحـب أن ينظـر إليهـا.. تسـألون كيـف يمكنـه اسـتعمال الشـبكة في قلـب الصحـراء، والإجابـة هـي الأقـمار الصناعيـة بالطبـع..

لحظـات مـن الرنـين بنغمـة سـكايب المميـزة، ثـم طالعتـه صورتهـا عـبر كامـيرا الكمبيوتـر الخاصـة بهـا، عـلى الناحيـة الأخـرى مـن العـالم.. كانـت جميلـة فعـلًا.. شـعرها أشـقر، ذهبـي اللـون، ناعـم ينسـدل عـلى كتفيهـا كخصـلات الذهـب، وعيناهـا زرقـاوان مكحلتـان كأمـواج بحـرٍ رائـق شـفاف..

شـفتاها ناضجتـان كثـمارٍ طازجـة، حمـراوان اللـون داكنتـاه، تطـل مـن خلفهـا أسـنان ناصعـة البيـاض، متناسـقة الشـكل واللـون.. ترتـدي قميصًـا مفتـوح الأزرار، يظهـر أسـفله وشـم الـوردة الحمـراء التـي تظهـر وريقاتهـا أعـلى صدرهـا وأسـفل عنقهـا البَـضِّ، وتختفـي سـاقها وجذورهـا بداخـل ملابسـها.. سـاخنة فعـلًا كـما يقولـون، سـاخنة كالشـمس في منتصـف يـوم صيـفٍ حـار..

هـل ضاجعهـا مـن قبـل؟.. سـنترك هـذا السـؤال لمخيلتكـم، ولخبرتكـم الخاصـة في متابعـة لغـة الأجسـاد..

- «ما الأخبار؟.. هل وجدتَ شيئًا؟..»

يأتيـه صوتهـا عـبر الأثـير، جميـل مثلهـا.. متناغـم كسـيمفونيات بيتهوفـن.. فيتنهـد.. يزفـر زفـرة حـارة، ثـم يجيـب وهـو ينظـر إلى عينيهـا في الشاشـة مباشرة:

- «ربما..»

صمتت لحظة وهي تتطلع إليه بطريقتها الساحرة، ثم ابتسمت وهي تقول:

- «ماذا تعني؟.. هل..»

قاطعها قبل أن تكمل كلامها بأن رفع الإزميل أمام الكاميرا، فصمتت تمامًا، وساد سكون رهيب وهي تتطلع إلى تشكيله، واللمعة الخلابة في السن الياقوتي، بينما هو يتطلع إلى عينيها وشفتيها اللتين تختلجان إثارة.. يمكنك أن ترى بوضوح في عينيه أنه يشتهيها.. ولكن هذا ما زال لا يجيب عن سؤال هل ضاجعها من قبل أو لا.. لربما فعل، وما زال يشتهيها.. لربما كانت هي فعلًا بمثل تلك الجودة، من يدري؟..

لم يتكلم وهو يتطلع إليها، وساد السكون برهة، قبل أن تبتلع هي لعابها وتقول:

- «ما هذا؟.. أين وجدته؟..»

أدار هو الإزميل في يده ليتطلع إليه، وأجاب:

- «في قلب الصحراء هنا.. إنه إزميل.. ولكنَّ صُنعَه لا يشابه أيًّا من الطرازات السومرية أو الآشورية التي أعرفها، وبالتأكيد لا يشبه شيئًا رأيته من قبل..»

قالت بأنفاس مبهورة وهي تتطلع إليه:

- «قد كنت مُحِقًّا من جديد..»

ابتسم بطرف فمه وهو يقول بلكنته البريطانية الساحرة التي تخلب لبها:

- «بالطبع كنت مُحِقًّا.. هذا ليس جديدًا.. أنا مُحقٌّ دومًا..»

قطع حديثه فجأة نظرتها الغريبة.. نظرة فزع لم يفهمها..

- «هل أنتِ بخير؟..»

أتاه صوتها وهي تهمس:

- «انظر خلفك..»

فاستدار بجسده إلى الخلف، ليطالعه منظر العامل وهو يصوب إليه ذلك المدفع الرشاش العملاق.. وجهه ملثم بذلك الوشاح الأبيض المتسخ.. لا يحتاجه على أي حال، فمنظره مرعب بما يكفي..

أشار له بفوهة السلاح أن انهض، فنهض.. ثم دفعه أمامه إلى خارج الخيمة..

إنه انقلاب.. أو ثورة.. لا يختلف الاثنان على أي حال.. تذكر رغمًا عنه قصص البحارة الذين كانوا ينقلبون على قبطان سفينتهم في عرض البحر، ويطعمونه للأسماك.. هنا هم سيطعمونه للعقارب..

جسده يرتجف، وقدماه لا تجسران على حمله.. تبدو ارتجافاته واضحة للعيان، ولا يقوى هو على بذل جُهدٍ ليخفيها..

- «ماذا تريدون؟..»

مدَّ له الملثم يده، وهو يقول بإنجليزيته الكسيحة:

- «هاتها.. هذه ليست ملكك..»

لا.. كله إلا هذا.. لا يمكنه أن يترك الإزميل لهم، وإلا كان كل ما مر به منذ شهرٍ ونصف هباءً.. يجب أن يماطل..

- «ظننت أنه كان لدينا اتفاقًا..»

باقي العمال يقتربون، ويدفعونه أرضًا، ثم ينحني ذلك الملثم ويلتقط الإزميل من على الأرض، وصوت أحدهم يدوي من خلفه:

- «لا اتفاق مع كلاب الأمريكان..»

هذا من جديد.. هل هي سياسة جيدة أن يبدأ في شرح كيفية أنه بريطاني وليس أمريكيًّا، وهم يملكون سلاحًا ناريًّا يصوبونه إلى وجهه؟.. لا يبدو هذا حكيمًا للغاية.. يجب أن يخرس..

خرس، وهم يسرقون خيمته بأكملها.. الكمبيوتر المحمول والملابس والمعدات والعدسات، والكاميرا.. لم يتركوا له شيئًا.. ثم اتجهوا إلى السيارتين الواقفتين..

أحدهـم يعـترض، يبـدو أنـه ليـس راضيًـا جـدًّا عـمَّا يحـدث.. كلامٌ كثـير بالعربيـة لا يميـز معظمـه، ولكـن مـن الواضـح أنـه يذكرهـم أنهـم كانـوا عـلى عهـد معـه، وأن هـذه ليسـت أخـلاق العراقيـين أو شيءٌ مـن هـذا القبيـل.. هـو لا يلومهـم برغـم كل شيء، فقـد تعلمـوا الكراهيـة والبغـي مـن الغـرب، وتعلمـوا أن يكرهـوا كل مـا هـو ناطـق بالإنجليزيـة، أو أي لغـة غربيـة في العمـوم.. قُتـل شـبابهم وأطفالهـم، واستُحِلَّت حرمـات نسـائهم أمـام أعينهـم.. لا يمكـن أن يلومهـم عـلى تحولهـم لما صـاروا فيـه..

سـبابٌ كثـير، ثـم صفعـة عـلى وجهـه.. هـو يفهـم مـا يحـدث بشـكلٍ مـا.. لا بـد أن هـذا هـو ابـن أحدهـم أو أخـوه الأصغـر، وهـو يحمـل مـن النُّبـل مـا يمنعـه مـن تقبـل مـا يفعلونـه بالغريـب الـذي وثـق فيهـم، ولكنهـم لا يأبهـون لما يقـول.. جـزء منـه يتفهـم مـا يفعلونـه بـه، وجـزءٌ آخـر غاضـب.. غاضـب لدرجـة القتـل..

صـوت محـركات السـيارات يتصاعـد، ثـم تتحـرك.. تتحـرك ويتصاعـد الغبـار ويتناثـر الرمـال خلفهـا، لينقشـع عـن جسـده الوحيـد وسـط الضبـاب الذهبـي الحـارق..

حتـى الخيمـة ذاتهـا تمزقـت، فلـم يعُـد يملـك مكانًـا يأويـه مـن حـرارة الشـمس.. ولكنهـا بـدأت في المغيـب عـلى أي حـال، فلـن يضطـر للتعامـل مـع تلـك المشـكلة إلا في اليـوم التـالي.. مشـكلته الآن تتمثـل في أنهـم أخـذوا كل وسـائل اتصالـه بالعـالم الخارجـي، ومزقـوا كل مـا كان يمكـن أن يأويـه مـن وحشـة الصحـراء.. حتـى المـؤن وزجاجـات الميـاه لم يتركوهـا..

اعتـدل في سـقوطه لينقلـب عـلى ظهـره، ثـم نهـض بنصـف جسـده، وبصـق الرمـال التـي ابتلعهـا فمـه رغـمًا عنـه لَـمَّا سـقط.. نظـره منـه للكثبـان عـلى مرمـى البـصر أوضحـت لـه موقفـه..

هـو في مـأزق.. مـأزق حقيقـي.. مـأزق لـن يُحـلَّ بمكالمـة للشرطـة أو رسـالة لسـلطات الجيـش.. مـأزق يقتـل جوعًـا، ويـترك العظـام في الشـمس ليتبخـر الجلـد ذاتـه مـن عليهـا..

مأزق من النوع الذي لا مخرج منه..

***

-٢-

وحيد هو..

لا أنيس سوى أفكاره، والذكريات..

لا ونيس سوى الرمال، والصحراء القاحلة الممتدة على مرمى البصر.. العقارب التي ترمح في كل ركن، وانعكاسات الشمس التي بدأت في الغروب، لتعكس أشعتها البرتقالية على الرمال اللامعة، وترتد إلى خياله، لتثيره وترسمه..

ينظر حوله.. الخيمة الممزقة التي تتطاير أجزاؤها مع تيارات الهواء الساخنة.. لن تصلح لتقيه حر الشمس حين تجيء في اليوم التالي، ولا برد الرمال والرياح، حينما يجيء الليل الذي يتشكل في بطء..

ينظر إلى أثر عجلات السيارة على الرمال، التي بدأت في الزوال تدريجيًا.. هذا طبيعي.. لن تظل الآثار في الأرض طوال هذه الفترة، دون أن تغطيها الرمال التي تحملها الرياح، وتزيل مواضعها ومعالمها من الكثبان..

الرعب يشل عقله تمامًا، فلم يجسر على أن يتحرك من موضعه منذ رحل هؤلاء، وأخذوا معهم كل ما يملك.. حتى الطعام والمؤن لم يتركوها..

ماذا يمكن أن يفعل؟..

لو بقي هنا، فهي نهايته حتمًا؛ لأن أحدًا لا يعرف موضعه بالضبط، ولا أحد ينتظره سوى أساتذته في الولايات، وجاكلين التي لا تفقه شيئًا عمَّا هو فيه الآن، وإن كانت تملك فكرة بالتأكيد بعد ما رأته في الويب كام، قبل أن يأخذوا الكمبيوتر المحمول بأكمله، ولكن برغم هذا، لا يمكنه أن ينتظر، ويعتمد على مساعدتها التي ربما لا تجيء، أو تأتي بعد فوات الأوان..

وفي نفس الوقت، ليست لديه أي وسيلة تدله على مكان الحضارة، ولا في

أي اتجـاهٍ تقـع.. هـو في وسـط الصحـراء حرفيًّـا، ولا يملـك حتـى بوصلـة.. صحيـح أنــه بإمكانــه الاعتــماد عــلى موضــع غــروب الشــمس ومواقــع النجــوم ليحــدد اتجاهـه، ولكنـه ليـس خبـيرًا في هـذه الأمـور، وبالتأكيـد ليـس بحـارًا.. الأمـر ليـس بهـذه البسـاطة، بالإضافـة إلى أنـه سـيحتاج وقتًـا طويـلًا ليكـون خريطـة نجميـة، ويتعـرف عـلى مـكان غـروب الشـمس وشروقهـا، ولربمـا مـات جوعًـا أو عطشًـا قبـل أن يتمكـن مـن تكويـن فكـرة عـن طريقـة عمـل الأمـر..

فماذا يمكن أن يفعل؟..

نظـرة أخـرى منـه عـلى أثـر إطـارات السـيارة الـذي كاد أن يـزول جعلتـه يحسـم أمـره.. لا بـد أن يتبـع هـذه الآثـار، فبالتأكيـد هـم أخـذوا السـيارة إلى حيـث تقـع الحضـارة.. لـو تتبعهـا في أسرعِ وقـتٍ قبـل أن تمحـي النسـمات معالمهـا، فسـيمكنه الخـروج مـن هنـا..

نهـض مـن مكانـه، والتقـط تلـك العصـا الطويلـة التـي كانـوا يسـتعملونها كوتـد للخيمــة، ودلــف إلى الداخــل ليلتقــط المــلاءة، والوســادة الصغــيرة، والحقيبــة مــن الركــن.. هــذا هــو كل مــا يملكــه، ويجــب أن يســتغله جيــدًا..

نظـرة منـه إلى يسـاره هللـت أسـاريره، برؤيـة زجاجـة الميـاه الصغـيرة في الركـن أسـفل المائـدة، والتـي مـا زال نصفهـا ممتلئًـا.. هـذا هـو كنـزه الصغـير الـذي يجـب أن يحافـظ عـلى كل قطـرة فيـه، فلربمـا كانـت فارقًـا بـين موتـه أو حياتـه..

التقـط الزجاجـة في عنايـة، وغلفهـا بقطعـة مـن القـماش مزقهـا مـن المـلاءة، ثـم وضعهـا في الحقيبـة، وارتداهـا عـلى ظهـره، ثـم وضـع قبعتـه العريضـة عـلى رأسـه، والتقـط العصـا الطويلـة السـميكة، وبـدأ في السـير..

خلـف آثـار الإطـارات، وعـبر الرمـال التـي بـدأ بريقهـا في الخفـوت، مـع تداكـن شـعيعات الشـمس الغاربـة في الأفـق، يسـير.. ثـم يتوقـف للحظـات، ويخفـق قلبـه في قـوة مـع عـواء الذئـب البعيـد، الـذي تنامـى إلى مسـامعه، وغلـف فـؤاده بوجـلٍ متصاعد..

هــذه صحــراء كــما لا بــد أنكــم تعرفــون.. وكأي صحــراء، هــي تحــوي الذئــاب

والضبـاع والأفاعـي والعقـارب، ومئـات الأخطـار الأخـرى التـي تختبـئ في رمالهـا، وتنـزوي منتظـرة اللحظـة المناسـبة لتحظـى بـه كفريسـتها..

وهـو في العـراء.. بـلا حمايـة أو سـلاح سـوى العصـا الغليظـة التـي تقبـض كفـه عليهـا بقـوة، كأنما هـو يستمد منهـا الأمـان.. وحيـد تمامًـا كجزيـرة وسـط المحيـط.. ليـس حولـه شيء، وليـس معـه شيء، أو أحـد.. وهـو فعـلًا يشـعر الآن بمـا كانـوا يصفونـه قديمًـا في حكايـات الأطفـال المرعبـة، وهـم يحكونـه عـلى وهـج لهيـب أكـوام الحطـب، بنبراتهـم المتئـدة المخيفـة، في جلسـتهم وسـط هـذا الحقـل المهجـور، أو ذاك..

يشـعر بنفـس الـذي يشـعر بـه ذاك الـذي يمـشي وحيـدًا وسـط الأمطـار والرعـد، وسـط الضيـاع المقفـرة، التـي لا تسـكنها سـوى الظـلال المسـتطيلة في كل ركـنٍ، ترسـم في خيالـه صـورة ألـف شـبح..

يشـعر بالخـوف.. الخـوف في صورتـه الخـام، التـي لا يجـدي معهـا أي تـوازن أو تعقـل..

يشـعر بـه يـسري في أطرافـه التـي ترتجـف، وفي شـعر سـاعده المنتصـب، وتلـك القشـعريرة البـاردة التـي تزحـف عـلى ظهـره كمخلـب الشـيطان ذاتـه..

يتنهـد، ويزفـر زفـرة حـارة وهـو يـدس العصـا وراء ظهـره خلـف الحقيبـة، ثـم يفـرك كفيـه ببعضهـما وهـو ينفـخ فيهـما طلبًـا لأمـانٍ لا يشـعره..

هـو لا يملـك خيـارًا.. لـو بقـي هنـا، أو في أيِ مـكان واحـد بـلا حـراك، فسـيموت بالتأكيـد.. جوعًـا أو عطشًـا أو بـين أنيـاب ذئـب أو ضبـع.. تعـددت الطـرق والمحصلـة واحـدة.. لا يملـك خيـارًا سـوى أن يمـضي خلـف آثـار الإطـارات، ويأمـل الأفضـل..

لذا فأنت تراه يمضي أمامك، ويتقدم بخطًى راجفة عبر الكثبان..

نحو المجهول..

***

إنه الليل هذه المرة..

قـرص القمـر المـضيء في كبـد السـماء، يلقـي بضيائـه الفـضي عـلى الكثبـان، وقطـع الصخـور المتراميـة عبرهـا مـن مصـدرٍ مـا لا يفقهـه بالضبـط، وسـط خطواتـه التـي تقـوده عبرهـا وخلالهـا، خلـف آثـار الإطـارات التـي بـدأت في الـزوال، حتـى صـار تتبعهـا يُشَـكِّل صعوبـة حقيقيـة..

خطـوات عديـدة، ومسـافة طويلـة قطعهـا منـذ نقطـة بدئـه، ولا تطـور هنـاك.. هـذا لـن يجـدي.. المـأزق يـزداد، والأنشـوطة تـزداد إحكامًـا حـول عنقـه..

هـو قـد بلـغ نقطـة لا يقـدر فيهـا عـلى التمييـز بـين معـالم أرضيـة الرمـال التـي أضحـت أكـثر صلابـة، وبـين أثـر الإطـارات.. فكأنمـا هـو قـد تبخـر.. لا يملـك وسـيلة يتتبعهـا أكـثر مـن ذاك.. هـو الآن وحـده تمامًـا..

توقفـت خطواتـه، وتوقـف هـو للحظـات يلتقـط فيهـا أنفاسـه، قبـل أن تتخـاذل قدمـاه تعبًـا، وتنثنـي ليجلـس بركبتيـه عـلى الرمـال الدافئـة التـي بـدأت الـبرودة تشـع منهـا.. يتطلـع حولـه إلى الأفـق الممتـد في كل الاتجاهـات، لا يحمـل إلى ناظـره سـوى مشـهد الكثبـان والصخـور، والحشـائش الصحراويـة الجافـة التـي تنبـت هنـا وهنـاك..

إلى أين يذهب؟..

لا يوجـد شيءٌ يمكنـه أن يتتبعـه الآن.. ولا يذكـر الاتجـاه الـذي أشرقـت منـه الشـمس، أو غربـت، حتـى يمكنـه تكويـن الاتجاهـات الكاملـة.. أي توغـل أكـثر مـن هـذا الآن لديـه فرصـة كبـيرة في أن يغرسـه أكـثر بداخـل الصحـراء، ويقلـل فرصـه في النجـاة، التـي تقـترب بالفعـل مـن الصفـر لدرجـة مخيفـة..

يجـب أن يبيـت هنـا، وينتظـر الصبـاح حتـى يسـتطيع تتبُـع حركـة الشـمس.. لا حـل سـوى ذاك..

حـلَّ الحقيبـة مـن وراء ظهـره، وفتحهـا ليخـرج المـلاءة والوسـادة، ويفرشـها عـلى الرمـال.. يجـب أن يسـتلقي، وينتظـر الـشروق، مهـما طـال الوقـت.. نظـر للحظـات

إلى زجاجـة المياه التـي تبـدت لـه مـن داخـل الحقيبـة.. هـل يـشرب الآن؟.. مـا يملكـه شـحيح للغايـة، وربمـا ليـس تجَـرُّع بعضـه قـرارًا حكيـمًا للغايـة الآن.. إنـه ليـس عَطِشًـا إلى هـذا الدرجـة عـلى أي حـال.. يمكنـه الانتظـار..

تـرك الزجاجـة مكانهـا، ووضـع الحقيبـة بجـواره، ثـم اسـتلقى عـلى ظهـره عـلى المـلاءة، وأسـند رأسـه إلى الوسـادة وهـو يتطلـع إلى النجـوم التـي ترتسـم أمـام عينـه صافيـةً واضحـة، يتبـدى بهاؤهـا أمـام أنظـاره، كأنمـا هـي تتطلـع إليـه بعيـونٍ مشـعة، مـن سـقف العـالم..

يتذكر..

يتذكـر كلـمات أسـتاذه في سـتانفورد، حينـما سـأله عـن سـبب إخفـاء موضـوع اللـوح الحجـري الـذي يحـوي قصـة الأسـطورة عـن العامـة، وسـبب عـدم حديـث الإعـلام العالمـي عنـه..

- «مـا يـتردد بـين الجميـع هـو أن الأمـر وراءه شـخصٌ مُعـين، أو مجموعـة مـن الأشـخاص.. ربمـا هـو تنظيـم سري مـن نـوعٍ مـا، لا يفهـم أحـد مـا هـو بالضبـط، ولكـن نفـوذه واسـع وقـوي بشـكلٍ لا تتصـوره.. ربمـا هـو اتفـاق بـين الحكومـة العراقيـة وإدارة الجامعـة وهـؤلاء المجموعـة الغامضـة.. لا أدري بالضبـط.. لا يجـب أن تشـغل نفسـك كثـيرًا بالتفكـير في الأمـر عـلى أي حـال.. هـذا لمصلحتـك أنـت الخاصـة..»

- «ماذا تقصد؟..»

- «أقصـد أن هنـاك أشـياءَ أسـوأ بكثـير مـن أن ترسـب في سـنتك الأخـيرة في كليـة الآثار..»

يتذكـر نبراتـه، والتعبـير الـذي احتـل وجهـه حينـما فتـح الموضـوع معـه لأول مـرة.. الطريقـة التـي حـاول أن يبعـده بهـا عـن التفكـير في الموضـوع، وتجنبـه لـه بعدهـا كـما لـو أنـه الطاعـون ذاتـه..

هـذه الأشـياء تُحَـس، ولا تُنظَـر.. هـو يعـرف أن هنـاك شـيئًا مـا مُهِـمًّا يختفـي

خلف كل هذه الجدران من السرية والتعتيم.. وربما كان أمره مختلفًا عن أي كشفٍ أثريٍّ آخر منذ بداية القرن..

لكنه فقد كل ما كان يمكن أن يقوده نحو ذلك الكشف.. وها هو الآن يرقد على الرمال، ويتطلع إلى النجوم، منتظرًا النجاة من مصير أقل ما يمكن أن يوصف به هو أنه مجهول، ومرعب فعلًا..

لم يكن ليتصور أن الأمور قد تبلغ هذا الحد، حينما قرر زيارة (ويزلي كيسنجر) رجل الأعمال الأمريكي المعروف، حتى يعرض عليه الفكرة، ويرى ما لو كان باستطاعته أن يقدم تمويلًا لما هو بصدده..

سبب اختياره له هو بالذات كان جليًا.. فـ (ويزلي) كان مهتمًّا بأخبار الآثار والكشوفات والفتوحات الأثرية منذ أن ظهر على ساحة الاقتصاد والأعمال العالمية بغتة منذ ما يقل عن السنتين.. لا يُعرَف أين كان قبلها، ولا ماذا كان يفعل، أو ما كانت وظيفته بالضبط.. فقط يعرف أنه يملك أموالًا لا تُعَد ولا تُحصى، وأنه يهتم بأخبار الآثار وبعثات التنقيب والدراسات التاريخية بشدة، لدرجة أنه كان ضيفًا في مجلة BBC History لمرات عديدة، تكلم فيها عن التاريخ البشري القديم والحديث، باعتباره أحد الأعلام المشاهير في المواضيع التاريخية.. قصره حتى كان يحوي العديد من التحف الأثرية، التي كانت تضاهي في عددها وجودتها أي متحف في العالم..

من هنا جاء اختياره له، ولم يكن الوصول إليه بالصعوبة التي يتخيلها.. كل ما احتاجه هو دراسة مدققة لمواعيده والندوات التي كان يحرص على حضورها، ومؤتمراته الصحفية التي كان يقيمها كل فترة، ليعلن فيها عن افتتاحه لمشروع جديد، أو تمويله لآخر.. أصدقاؤه كانوا كُثُر، ولم يجد غضاضة في سؤالهم عن معلوماتهم عنه، حتى وصل أخيرًا ليوم المؤتمر الصحفي الذي قابله بعده..

ما زال يذكر حديثه معه كأنما كان ليلة البارحة..

- «مستر كيسنجر.. اسمي هو جون لايدر.. قد خضت العديد من المصاعب

حتـى يتسـنى لي مقابلتـك الآن، لأعـرض عليـك مشروعًـا كبـيرًا، أثـق في كونـه مـما سـيروق لـك..»

نظـر إليـه ويـزلي مليًّـا، ثـم أشـار لحرسـه الشـخصيين أن يدعـوه يقـترب، واصطحبـه معـه إلى حجرتـه الشـخصية بالفنـدق الـذي أقـام بـه المؤتمـر الصحفـي وهـو يطلـب منـه أن يعـرض عليـه المزيـد..

شرح لـه كل شيء.. وحـكى لـه كل شيء.. الأسـطورة التـي تـدور حـول المقـبرة المفقـودة، والقصـة المقتضبـة التـي وجدوهـا عـلى اللـوح الحجـري، والتـي تـم التكتـم عليهـا مـن قبـل جهـات عِـدة..

القصـة كانـت مثـيرة فعـلًا، وكان أثرهـا واضحًـا عـلى معـالم وجـه ويـزلي وهـو يسـمعها بينـما هـو يتجـرع البوربـون مـن الـكأس الكريسـتالي الأنيـق الـذي كان يحملـه بـين كفيـه. يجـسر عـلى أن يقـول إنـه كان مندهشًـا لدرجـة غريبـة.. طريقـة اندهاشـه لم تكُـن توحـي بأنـه يسـتنكر مـا يسـمعه للمـرة الأولى، بـل بـدا الأمـر كأنمـا هـو يعـرف القصـة، ولكنـما يسـتنكر أن يسـمعها منه هـو بالـذات.. كان هـذا جليًّـا في عـدم سـؤاله إيـاه عـن تفاصيـل كثـيرة، وهـو مـا كان غريبًـا للغايـة.. شـخصٌ كهـذا، مهـووس بالآثـار وبالأسـاطير القديمـة، كان لا بـد أن يسـأل سـؤالين أو ثلاثـة عـلى الأقـل.. لكـن عـدم سـؤاله هـو في حـد ذاتـه علامـة اسـتفهام كبـيرة..

مـا زال يذكـر كيـف اسـتأذن منـه، ونهـض ليجـري مكالمـة هاتفيـة قصـيرة، عـاد بعدهـا ليخـبره أنـه موافـق عـلى تمويـل مشروعـه بـشرط أن يظـل طـي الكتـمان.. يجـب أن لا يعرفـه أو يسـمع عنـه مخلـوق؛ لكونـه اسـتثمار كبـير، يمكـن أن يعـود بأربـاح غزيـرة لـو نجـح، أو يسـتغله منافسـوه لتوجيـه ضربـة اقتصاديـة لـه لـو فشـل.. هـذا هـو مـا قالـه عـلى الأقـل..

لم يفكـر كثـيرًا في غمـرة سـعادته بالتمويـل الـذي سـهَّل عليـه أمـورًا كثـيرة فعـلًا.. الأجهـزة والمعـدات، وتذاكـر السـفر والطـيران.. كان الـشرط هـو أنـه يجـب أن يتمـم المهمـة بمفـرده، ولا يقحـم فيهـا أيًّـا مـن أصدقائـه، أو أسـاتذته في سـتانفورد، أو أي عـمال أمريكيـين أو بريطانيـين أو غربيـين عمومًـا.. لـو كان يحتـاج عمالًا،

فالعـراق تعـج بهـم، وهـم لا يفهمـون مـا يبحـث عنـه في الأسـاس، وبالتأكيـد لا تتوفـر لهـم فرصـة تسريـب أخبـار أمـر لا يفقهـون شـيئًا عنـه..

هكـذا بـدأ كل شيء.. وهكـذا بـدأت رحلـة الشـهر والنصـف التـي قضاهـا وسـط الرمـال، حتـى وجـد تلـك البقعـة أخـيرًا، بعـد العديـد مـن عمليـات التنقيـب الفاشـلة في بقـاعٍ أخـرى..

منظـر الرمـال الداكنـة كان مُحـيرًا، ومثـيرًا للغايـة.. لا يفهـم كيـف أتـت إلى وسـط الصحـراء هنـا، بينـما مـن الواضـح أنهـا قـد جـاءت في الأصـل مـن مـكانٍ آخـر، وظـروف بيئيـة مختلفـة تمامًـا..

ثـم تلـك الأطـلال الداكنـة سـحيقة القـدم، والغرفـة الضيقـة التـي وجـد فيهـا ذلـك الإزميـل الغريـب..

هـل هـو إزميـل فعـلًا؟.. بالتأكيـد يبـدو كواحـد، ولكـن جـزءًا منـه يؤمـن أن ماهيتـه ليسـت بمثـل تلـك البسـاطة.. لا بـد أن هنـاك سرًّا مـا خلفـه، أكـبر مـن مجـرد كونـه تحفـة مقدسـة قديمـة متقنـة الصنـع..

لـو كان يملكـه الآن، فلربمـا كان قـادرًا عـلى دراسـته بشـكلٍ أكـثر تفصيـلًا.. ولكنـه رحـل بالفعـل، كـما رحلـت كل معداتـه.. هـؤلاء البـدو نالـوا منـه فعـلًا، وتركـوه لمصـير مظلـم لا يـرى منـه مفـرًّا في الأفـق..

الأفق الذي لا يحوي سوى كثبانًا، ورمالًا..

رمال غزيرة.. رمال في كل مكان، وصخور فوق قدرته على العد..

يشـعر بالجـوع يمـزق معدتـه.. لا بـد أن يـأكل قريبًـا وإلا خـارت قـواه تمامًـا، ولكـن ليـس الآن.. ليـس الآن..

الآن يجـب أن يتغلـب عـلى شـعور العـراء والضعـف هـذا، ويتحصـن بالمـلاءة، ويدعـو الـرب أن لا يأتيـه أثنـاء نومـه ذئـبٌ متحمـس، أو ضبـع يتضـور.. فلـن تكـون تلـك مفاجـأةٌ سـارة..

يجب أن ينام..

***

-٣-

يفتـح عينـه بغتـة، ويحـاول أن يفركهـا بيـده، قبـل أن تعميـه أشـعة الشـمس الحارقـة التـي تبـدو كأنهـا متمركـزة فوقـه مباشرة، حتـى لَيوشـك عـلى أن يشـم رائحـة شـياط جسـده، فينتبـه إلى الرمـال التـي تحـرق جسـده الراقـد فوقهـا، وإلى الشـمس التـي تحـرق جسـده الـذي يقابـل أشـعتها..

ينتفـض مـن مكانـه فجـأة، وهـو يشـعر بـكل خليـة في جلـده تـصرخ، كأنـه يحـترق بلهيـب السـعير.. ينتبـه إلى ملمـس الأقـدام الصغـيرة التـي تزحـف عـلى عنقـه، فتتحـرر صرخاتـه وتـدوي وسـط الأفـق، وهـو ينفـض جسـده وعنقـه بكفيـه كالمجانـين..

إنـه عقـرب.. عقـرب يزحـف عـلى عنقـه، ويوشـك عـلى أن يلدغـه لـو تأخـر ثانيـة واحـدة.. عقـرب ابـن عاهـرة !..

ينظـر إلى جسـد العقـرب الـذي يتقلـب فـوق الرمـال وأقدامـه شـاخصةً في الهواء، قبـل أن يعتـدل ويزحـف مبتعـدًا ليغـوص بداخـل الكثبـان.. لا يصـدق مـا يحـدث لـه، وبالتأكيـد لم يكـن هـذا كلـه في حسـبانه حينـما قـرر أن يـأتي إلى هنـا، سـعيًا خلـف مجـده الشـخصي.. لم يفكـر كثـيرًا في احتماليـة أن تزحـف عليـه العقـارب وسـط نومـه عـلى رمـال الصحـراء الحارقـة، تحـت شـمسٍ توشـك عـلى أن تذيـب خلايـاه لتمتـزج بالكثبـان.. هـذا مفهـوم بالطبـع، فالأخطـار تبـدو بعيـدة للغايـة في ذهنـك وأنـت تجلـس تحـت الأغطيـة في منزلـك الفاخـر، وقـدح الشـيكولاتة السـاخنة بـين كفيـك.. كل هـذا يبـدو بعيـدًا للغايـة، وغـير ممكـن الحـدوث..

وها هو ذا يحدث..

الدخان يتصاعد بالفعل من قماش ملابسه، ويفعم أنفه برائحة الشياط..

الشمس لديها القدرة بالفعل على أن تحرق، لو تركزت على أي جسد لفترة كافية.. لا مزاح هنالك..

نظر إلى ساعة يده، وهو يمسح العرق المالح من على عينيه.. إنها الحادية عشرة صباحًا.. إنها فترة ما قبل الظهيرة.. الجحيم ما زال آتيًا، وما زالت الساعات لا تمضي..

حاول النظر حوله، فلم يقدر على أن يفتح عينيه لينظر جيدًا، بسبب العرق الذي غطى وجهه بأكمله، وملأ عينيه ليحرقها كالحمض.. لا نظر هناك.. على الأقل قبل أن يمسح وجهه جيدًا..

بماذا يمسح وجهه؟.. ملابسه كلها مبتلة بفعل نفس العرق، بالإضافة إلى أنها ساخنة لدرجة الاحتراق، كأنه ينام بداخل فرن.. وهو ما لم يكن بعيدًا جدًّا عن الحقيقة..

لا يقدر على أن يتحمل، فيمسح وجهه وعينيه في كم قميصه، ثم ينتبه إلى قبعته الملقاة جواره على الرمال.. هي جافة لم يبللها العرق بعد.. انحنى عليها ليلتقطها، ثم شرع في مسح وجهه وعينيه فيها حتى جفتا، وصار قادرًا على أن ينظر بحرية، فتطلع إلى المشهد حوله..

كثبان.. كثبان على مرمى البصر، ورمال في كل ركن، تمتزج بالصخور الضئيلة، والحشائش الصحراوية التي تنمو في بعض المواضع وسط الأرضية الصخرية الصلبة..

لا شيء أمامه في الأفق.. هناك جبل أو مرتفع قصير يتبدى من بعيد، ولكنه على بعدٍ لا يصدق، وبالتأكيد لن يقدر على السير نحوه عبر كل هذه المسافة.. بالإضافة إلى أنه لا يدري ما إذا كان هذا قريبًا من الحضارة أو لا.. يجب أن يفهم الاتجاهات أولًا، حتى يمكنه أن يحدد ما لو كان له فائدة..

نظر إلى الشمس التي تحتل وسط السماء، ولم يقدر على أن يواصل النظر إليها، فأشاح بعينيه وهو يضيق أهدابها اتقاء الأشعة الحارقة..

الشـمس بالفعـل في منتصـف السـماء.. يجـب أن يتتبـع حركتهـا، ويـرى كيـف ستغرب، حتـى يعـرف اتجـاه الغـرب، ويحـدد منـه باقـي الاتجاهـات.. لا يـدري لِـمَ لم يسـتيقظ أثنـاء الـشروق، ولِـمَ أضـاع كل هـذا الوقـت.. لا بـد أن جسـده كان منهـكًا فعـلًا بعـد كل مـا حـدث البارحـة، لدرجـة أن شـعور الاحـتراق وخطـوات العقـرب عـلى عنقـه لم تكـفِ لإيقاظـه إلا بصعوبـة بالغـة..

تنهـد في حـرارة وهـو ينحنـي ليسـتند بكفيـه عـلى ركبتيـه، ويلتقـط أنفاسـه للحظـات.. الهـواء ذاتـه سـاخن، يشـعر بـه يحـرق رئتيـه في دخولـه، كأنـه لهـب مسـتعر، لا لـون لـه..

الموجـودات تهتـز، والهـواء ذاتـه يتحـرك، ويبـدو كأنـه يتـلألأ.. تلـك الظاهـرة الشـهيرة التـي تتكـون أثنـاء الحـرارات العاليـة، وتجعـل منظـر الهـواء مهتـزًا كأنمـا هـو ميـاه سـاقطة..

يعـرف أنـه يجـب أن يجلـس وينتظـر أن يـرى حركـة قـرص الشـمس تتغـير، حتـى يفهـم مسـارها.. لـن تتغـير بـين دقيقـة وأخـرى، بـل سـيكون تحـركًا بطيئًـا كالدهـر.. ممـلًّا كالانتظـار..

يتذكـر الظـروف التـي أتـت بـه إلى هنـا مـن جديـد، ويتنهـد.. يحـاول أن يجلـس، فتحرقـه حـرارة الرمـال التـي انتقلـت للمـلاءة المفروشـة فوقهـا.. عظيـم.. لا جلـوس هنـاك.. يجـب أن يظـل واقفًـا مُتسـمِّرًا في مكانـه، لـو كان يريـد أن لا يتسـلخ الجلـد ذاتـه مـن عـلى مؤخرتـه..

يبتسـم رغـمًا عنـه ابتسـامة واسـعة.. لا يـدري لمـاذا، ولكنـه يشـعر أن الموقـف مضحـك أكـثر منـه مرعبًـا.. الجلـد سينسـلخ مـن عـلى مؤخرتـه؛ لأنـه جـرؤ عـلى أن يجلـس فـوق الرمـال.. هـذا مضحـك جـدًّا..

ربـاه.. لا بـد أن عقلـه بـدأ في الذوبـان مـع الحـرارة.. إنـه يخـرف.. لـن يمـر وقـتٌ طويـل قبـل أن يبـدأ في رؤيـة السـراب، والهلوسـة..

ابتسـم مـن جديـد، وتحولـت بسـمته إلى قهقهـة.. ضحكـة واحـدة طويلـة غـير متكلفـة.. لسـببٍ مـا يجـد كل هـذا ظريفًـا جـدًّا.. هـا هـا هـا.. كل هـذا مضحـك..

ظل يقهقه بعض الوقت، وشدة ضحكاته تزداد، قبل أن تخفت بغتة كما بدأت، وهو يمسح الدموع من عينه في صعوبة..

قلبه يخفق بقوة، وسرعته تسابق أي عداء محترف.. يهز رأسه يمينًا ويسارًا كالكلاب لينفض عن نفسه الخبال، ويحاول أن يستفيق..

يجب أن يركز أفكاره لو كان يريد أن ينجو..

الواقع والمنطق يقولان إنه من غير الممكن أن يظل واقفًا مكانه، ينتظر حركة الشمس.. هذا غير عملي.. سيحترق جلده ويتفحم قبل أن تمر ساعة.. يجب أن يتحرك على الأقل في أي اتجاه يستطيع تحديده، أو يسترشد بهدفٍ فيه، يمكن له المضي صوبه..

نظره إلى الأفق الذي لا يحوي سوى الرمال كانت كافية ليعرف أنه لا شيء هناك يمكنه أن يحدد اتجاهًا له.. اللهم سوى هذا المرتفع الذي يتبدى في الأفق من بعيد..

نعم.. هذا قد يصلح..

لم يفكر كثيرًا، وانحنى ليلملم الملاءة والوسادة المبتلة بعرقه، الذي أوشك على أن يتبخر بكامله، واستدار ليضع كل هذا بداخل الحقيبة، ويرتديها على ظهره..

ذراعاها ساخنان لدرجة لا تصدق.. ترى كم درجة الحرارة الآن؟.. لا بد أنها قد بلغت المائة أو شيئًا كهذا.. يمكنه أن يغلي دلوًا من الماء على الرمال.. حتى حذاءه يتصاعد منه الدخان، ولكنه لا يشعر بالحرارة كثيرًا لحسن الحظ بسبب جودته وجودة نعله..

هذه الحرارة ليست طبيعية.. شيءٌ ما غير معتاد فيها.. صحيح أن هذه صحراء، ولكن الحرارة لا يمكن أن تبلغ هذه الدرجة في ظروفٍ طبيعية.. لكن لا وقت للتفكير على أي حال..

يجب أن يبدأ المشي..

***

العصا في يده، يرسم بها خطًا طويلًا غائرًا خلفه في الرمال أثناء سيره..

هـي طريقـة ذكيـة بالفعـل، ويمكنـه أن يعتمـد عليهـا في تحديـد الاتجـاه الـذي جـاء منـه، لـو اختلطـت عليـه الأمـور، وضـل طريقـه..

يمـشي منـذ فـترة طويلـة، وقـرص الشـمس الآن قـد تحـرك لمسـافة كبـيرة، وصـار قـادرًا عـلى أن يحـدد اتجاهـه.. لكنـه مـا زال لا يقـدر عـلى الوقـوف ثابتًـا بسـبب الحـرارة.. يجـب أن يمـشي، حتـى يسـتطيع للهـواء أن يبلغـه، ويخفـف الحـدة بعـض الـشيء.. أنـت تعـرف التـصرف الفطـري الـذي يفعلـه هـؤلاء الذيـن تمسـك ألسـنة النـار بأجسـادهم.. تراهـم وهـم يهلعـون ويركضـون إلى أي اتجـاه، لمحاولـة إطفـاء النـار، وهـو التـصرف الـذي ليـس حكيـمًا جـدًّا؛ لأن محاولاتهـم تلـك تزيـد مـن تعرضهـم للهـواء الـذي يحـوي الأكسـجين، الـذي هـو سـبب اشـتعال اللهـب في الأسـاس، وهـو مـا يسـبب تفاقـم الحريـق أكـثر.. أنـت تفهـم الأمـر بالتأكيـد..

هـل هـو يتـصرف تصرفـات المحترقـين الآن؟.. لا يعـرف، ولكـن جسـده بأكملـه يتـألم بفعـل الحـرارة، وحتـى العـرق لم يعـد يسـيل..

يتبـدى لـه في كل ركـنٍ بحـيرة تتـلألأ بالميـاه، ولا يتحـرك صوبهـا؛ لأنـه يعـرف ويوقـن أنهـا ليسـت سـوى سراب.. الشـمس قـد لوحـت عقلـه تمامًـا، وصـار لا يميـز حقيقـةً مـن هـلاوس.. هـذه هـي ضربـة الشـمس التـي تكلمـوا عنهـا كثـيرًا، ويجربهـا هـو للمـرة الأولى.. هـذا مفهـوم طبعًـا، فهـي لـن تصيبـه في كاليفورنيـا أو لنـدن، ولم يـر هـو صحـراءَ في حياتـه قبـلًا..

المياه؟.. المياه التي في الحقيبة.. يجب أن يشرب..

توقـف وخلـع الحقيبـة مـن عـلى ظهـره، والتقـط زجاجـة الميـاه مـن داخلهـا، وشرع يجـرع منهـا بـلا تفكـير.. حلقـه خشـن كالصخـور، لا يقـوى حتـى عـلى تقبـل المـاء، ولكنـه لا يبـالي.. يُفـرغ الزجاجـة مـن محتواهـا في ثـوان.. صحيـح أن الميـاه سـاخنة، ولكنـه لا يبـالي.. المهـم أن ترطـب جسـده وحلقـه قبـل أن يـذوب.. أي شيءٍ آخـر غـير مهـمٍّ الآن..

يفـرغ مـن الـشرب، فينحنـي ليسـتند بكفيـه عـلى ركبتيـه وهـو يلهـث، ثم يمسـح

العرق من على جبينه، ويضع الزجاجة في الحقيبة، ويرتديها مرة أخرى..

هذا أفضل.. على الأقل هو يشعر بعروقه من جديد.. ينهض، ويتابع طريقه وهو يرسم نفس الخط بالعصا خلفه على الرمال..

هو الآن يعرف اتجاه الغرب، والمقابل له هو الشرق، وهو نفس الاتجاه الذي أتى منه.. إلى أين يذهب إذن؟.. أين الحضارة؟..

لا يعرف، ولا يقدر على التفكير..

فقط يسير..

جزء منه يعتقد أنه يجب أن يتجه شمالًا.. قد رأى الخريطة.. لا يذكر شكلها، ولكنه يذكر أنه يجب أن يتجه شمالًا..

لكن الخطة الأفضل بالتأكيد هي أن يصل إلى ذلك المرتفع البادي في الأفق، والذي بدأ يقترب شيئًا فشيئًا.. ربما استطاع أن يتسلقه، ليتطلع إلى محيط الصحراء من فوقه، ويكوِّن فكرة عن الاتجاهات، وعن المكان الذي يجب أن يذهب إليه..

كان هذا هو ما يحتل تفكيره، حينما سمع لأول مرة صوت الزمجرة..

***

هل رأيتَ ذئبًا من قبل؟..

ربما تظن أنك رأيت، سواء على التلفاز أو في المجلات.. ربما تظن أنك تعرف شكله المميز، ولونه الأبيض المائل للرمادي، وعيونه البراقة.. ولكن دعني أخبرك أنك مخطئ..

لم ير ذئبًا من قبل، مَن لم يشهد فراءه الأشعث، الذي يبدو منظره كأشواك الجحيم ذاتها، تخرج من تحت جلده..

لم ير ذئبًا من قبل ذاك الذي لم ينظر في عينيه المشعتين اللتين تبدوان كأنهما مصباحان، يخرج منهما النور، كشيطانٍ رجيم..

لم ير ذئبًا مِن قَبل مَن لم يرقب أشداقه التي يتساقط منها الزَّبد، وتحيطها رغاوي الجوع، ولم يره مَن لم يسمع نباحه من قبل..

كأنـه نبـاح كلـب أليـف، ولكنـه أعمـق وأكـثر إرعابًـا.. كأنـه يـأتي مـن أعـماق بـئر..

كل هــذا رآه هــو وهــو يقــف في موضعــه تحــت الشــمس التــي تتجــه نحــو الغـروب باضطـراد، وضياؤهـا يغلـف الرمـال بصبغـة برتقاليـة اشـتركت مـع لونهـا الأصفـر في إضفـاء صـورة جحيميـة كابوسـية عـلى المشـهد..

ثـم الخـوف.. الخـوف الـذي يسـتولي عـلى خلايـاه، ويغلـف أطرافـه برجفـة هلـع لا يجـدي معهـا أي تعقـل.. يعـرف مـا يقولـه الجميـع عـن ضرورة أن لا تركـض أمـام الكلـب أو الذئـب حتـى لا يشـم رائحـة خوفـك، ويهاجمـك.. يعرفـه ويذكـره الآن بالـذات وهـو ينظـر إلى الكائـن الغاضـب الـذي يقـف أمامـه وهـو يغـرس أقدامـه في الرمـال، ويخفـض عنقـه كالوتـر، وهـو يطلـق زمجـرة تخلـع قلـب مَـن يسـمعها..

لكـن مَـن قالـوا هـذا بالتأكيـد لم يمـروا بهـذا الموقـف.. يتمنـى لـو أنـه رآهـم يقفـون أمـام ذئـب غاضـب، يطعـن الجـوع معدتـه، ويـرى كيـف سـيتصرفون وقتهـا..

لا تركض أمام الذئب!.. لا بد أنك تمزح..

أطرافـه ذاتهـا تتخلـى عنـه، وتتحـول إلى عجـين.. ويشـعر أن الدمـاء تهـرب مـن عروقـه، وتوشـك عـلى أن تهـرب مـن جسـده ذاتـه، لـو أنهـا تقـدر..

روحـه تنسـحب، ويشـعر أنـه عـلى وشـك أن يُغـشى عليـه.. لكنـه يجـب أن يتماسـك..

الذئـب يبـدأ في التقـدم نحـوه في بـطء.. أنيابـه تطـل مـن وسـط زمجرتـه، ونباحـه المقبـض.. لا بـد أنـه لم يحـظ بوجبـة منـذ زمـن.. أضـف إلى هـذا حـرارة الجـو الجحيميـة، وسـتحصل عـلى ذئـب في مـزاج متعكـر للغايـة، وبالتأكيـد ليـس في حالـة تسـمح بالمـزاح..

يـده ترفـع العصـاة لا شـعوريًا، ويحـاول أن يلـوح بهـا وهـو يتراجـع في ذعـر، مصـدرًا أصواتًـا هسـتيرية يأمـل أن يبعـد بهـا الحيـوان عنـه..

هش.. شو.. ابتعد.. أشياء من هذا القبيل..

لكـن الذئـب لا يبـالي، ويقـترب أكـثر، وجسـده ينتصـب في مشـهد يلقـي الرعـب في قلـوب أكـثر الرجـال شـجاعة.. يسـتعد لأن ينقـض عـلى فريسـته التـي وجدهـا أخـيرًا وسـط يـوم صيـفٍ حـارٍّ، وهـو ليـس عـلى اسـتعداد لأن يتركهـا إلا وهـي جثـة..

«جـون» يتراجـع في هلـع يوشـك عـلى أن يفقـده توازنـه لـولا أنـه يغـرس أقدامـه في الرمـال وهـو يتراجـع، فتحفظـه مـن السـقوط.. يقـاوم رغبـة عارمـة في أن يـولي الذئـب ظهـره، ويركـض.. لـن يسـتطيع الركـض بحريـة فـوق الرمـال، بالإضافـة إلى أن فكـرة أن تـولي ظهـرك إلى ذئـبٍ جائـع هـي فكـرة سـيئة للغايـة..

لم يـدع لـه الذئـب فرصـة للتفكـير عـلى أي حـال؛ لأنـه أنقـض عليـه فجـأة، وهـو يقفـز محـاولًا أن يعـض سـاعده، ولكـن جسـد جـون كان أسرع منـه، فلـم يشـعر بنفسـه إلا وهـو يرفـع العصـا ليـضرب بهـا الذئـب في منتصـف رأسـه بالضبـط، كأنـه كـرة بيسـبول..

تلقـى الذئـب الضربـة وطـار إثرهـا إلى الخلـف، والدمـاء تتفجـر مـن جبهتـه، وتغـرق فـراءه الرمـادي الأشـعث كريـه الرائحـة.. بينـما تراجـع «جـون» إلى الخلـف وهـو يمسـك العصـا بيديـه، وقـد أكسـبه المشـهد شـجاعة بـدأت تـزداد.. نعـم.. الذئـب هـو مجـرد كلـب غاضـب بعـض الـشيء.. كلـب ينـزف ويمـوت، ويهـرب مـن العُـصي كـما الـكلاب جميعًـا..

لا يشـعر بلسـانه وهـو يـردد عبـارات الشـجاعة التـي يحـاول بهـا أن يطمـئن نفسـه، وهـو يـرى الذئـب ينقلـب وينهـض عـلى أقدامـه مـرة أخـرى، وزمجرتـه تتعـالى أكـثر..

- «هيه.. هذا صحيح.. لا طعام اليوم.. لا طعام يابن العاهرة..»

الذئـب يتراجـع، ويسـتعد لأن ينقـض مـن جديـد بقـوة أكـبر، ونباحـه يعلـو أكـثر.. لا يبـدو عليـه أنـه سيفشـل في مهمتـه هـذه المـرة، ويلقـي هـذا الفـزع في قلـب «جـون» الـذي مـا زال يـردد الشـتائم التـي يحـاول بهـا أن يطمـئن قلبـه بشـعور قـوة زائـف، وهـو يقبـض عـلى العصـا الغليظـة أكـثر، ويرفعهـا بيديـه في وضعيـة الاسـتعداد..

- «تعال واحصل على قطعة مني يابن العاهرة.. هيا..»

وكأن الذئب يسمعه، لم يلبث أن وثب بغتة ليضرب بأحد أقدامه العصا في يد «جون»، ويدفعه بوجهه وأقدامه الأخرى ليسقط بظهره على الرمال الحارقة، ويسقط هو فوقه يحاول أن ينال من عنقه..

يحاول «جون» أن يدفعه من فوقه، وهو يحيط وجهه بيديه ويجاهد لإبعاد فكه عنه، وإبقاءه مغلقًا.. يحاول، ولكنه يشعر أن قواه تخور، خصوصًا مع ظهره الذي بدأت الحرارة في التسلل إليه؛ لتغمره بشعور الاحتراق..

والذئب لا يقنط.. يحاول الفرار والتملص من كفي «جون» اللذين أخذا ينزلقان، وهو يحاول جاهدًا إبقاءهما في مكانهما..

لا يقدر.. قواه تنطفئ، ويشعر أن ظهره يُطهى على فرنٍ حارق، ولا يقوى على إبقاء ذراعيه في موضعهما.. يشعر أن الذئب يتغلب عليه، واللعاب يتساقط من بين شدقيه اللذين انفتحا في صعوبة.. ها هي وجبته أسفل فكه، ويوشك على النيل منها أخيرًا.. الجوع يكسبه جنونًا، ويورثه قوةً لا تقنط أو تهدأ، فيحاول التملص بعنفٍ أكبر، صار واضحًا معه أن «جون» قد انتهى أمره..

أغلق عينه، وقلبه يخفق في قوة حتى يوشك على أن يسمع ضرباته بأذنيه.. هذه هي النهاية إذن.. ويالها من نهاية غريبة، لم تراوده حتى في أبشع كوابيسه..

هي نهاية مهينة كذلك.. بعد كل صولاته وجولاته، وإنجازاته في دراسات وأبحاث علوم الآثار والتاريخ، ينتهي مصيره لأن يصير وجبة تقتحم معدة ذئبٍ جائع، في الصحراء الغربية بالعراق.. أيُّ إهانةٍ تلك..

يشعر بالإندورفينات Endorphins تنبثق من غدته النخامية، وتندفع إلى مخه لتورثه شعورًا عارمًا بالارتياح والسعادة.. سمع دومًا عن اللحظات الأخيرة للمحتضرين، وكيف أنهم لا يشعرون بربع الألم الحقيقي لعملية الموت والاحتضار.. وها هو يعيش الآن التجربة بحذافيرها.. يعيشها وتنتهي مقاومته تمامًا، فيستسلم تاركًا ذراعيه يتهالكان، ويفتحان طريقهما للذئب الذي تملص

بسرعـة وهـو ينقـض بأنيابـه عـلى عنقـه..

ثم سمع صوت الطلقة..

سـمعتْها أذنـاه أولًا، قبـل أن يشـعر عـلى وجهـه وجسـده وملابسـه بالدمـاء التـي تطايـرت مـن جمجمـة الذئـب، وهـو يطـير مـن فوقـه مطلقًـا ذلـك الصـوت المتـألم التـي تطلقـه الـكلاب، ويمـزق نيـاط قلبـك شـفقة عليهـا، لـو لم تكُـن قـد حاولـت قتلـك مـن قبـل..

يشـعر بجسـده الـذي فرغـت منـه الحيـاة وهـو يسـتكين ونصفـه السـفلي مـا زال يرقـد فوقـه، فيدفعـه بعيـدًا في صعوبـة وهـو ينهـض ليهـرب بظهـره مـن حـرارة الرمـال، ويشـهق في قـوة مَـن لم يستنشـق هـواءً مـن قبـل.. يشـهق لدرجـة أنـه يسـعل كأنمـا هـو يوشـك عـلى بصـق رئتيـه ذاتهـما..

يسـتند بكفيـه عـلى ركبتيـه بعـض الوقـت وهـو يلهـث، ويسـعل، ثـم يمسـح الدمـاء السـاخنة التـي غمـرت وجهـه وعينيـه في اشـمئزاز، قبـل أن يرفـع جسـده ليواجـه منقـذه، ويتمـلى بعينيـه فيـه..

جسـده الضئيـل، والعبـاءة التـي لوثـت بقـع الغبـار وذرات الرمـال بياضهـا، والعمامـة القماشـية المهترئـة فـوق رأسـه، تحميهـا مـن ضيـاء الشـمس الحارقـة.. وجهـه العـربي الأسـمر الـذي يـشي بصغـر سـنه، وشـعره الأسـود الأكـرت الـذي يطـل مـن أسـفل العمامـة، ولحيتـه السـوداء القصـيرة المنمقـة، التـي تحيـط فمـه وذقنـه بأكملهـا..

بندقيـة الصيـد التـي يحملهـا بـين ذراعيـه، ويجـذب إبرتهـا ليقـذف فـارغ الرصاصـة التـي أطلقهـا منهـا إلى خـارج ماسـورتها، ثـم يعيدهـا إلى مكانهـا ليعيـد تلقيمهـا بالرصاصـة التاليـة..

تبدو ملامحه مألوفة بعض الشيء.. رآه من قبل، ولكنه لا يذكر أين..

يحـاول أن يعتـدل، ويجاهـد حتـى ينجـح في الوقـوف منتصبًـا أخـيرًا، وتخـرج كلماتـه مـن وسـط لهاثـه بنـبرة ممتنـة، وبالإنجليزيـة التـي نـسي أن مـن يوجههـا

لـه ربمـا لا يفهمهـا:

- «شكرًا.. شكرًا لك..»

ســاد الصمــت بضــع لحظـات، قبــل أن يقــول ذلــك الــذي أنقــذه بنفــس الإنجليزيــة، مــع فــارق اللكنــة العربيــة التــي صبغــت حروفهـا:

- «هل أنت بخير؟»

أومــأ «جــون» برأســه إيجابًــا وهــو يلهــث ويتحســس جســده بحثًــا عــن أي جــروح ربمــا كان لا يشــعر بوجودهــا، ثــم قــال:

- «نعم.. لم ينل مني.. ما زلت قطعة واحدة..»

أومـأ ذو العمامـة برأسـه متفهـمًا، وهـو يعيـد بندقيتـه إلى كتفـه، ويتجـه نحـوه ليناولـه زجاجـة صغـيرة أخرجهـا مـن حقيبتـه..

- «خذ.. اشرب هذه..»

نظـر إليـه لحظـة بعيـون لا تصـدق مـا تـراه، ثـم انقـض عـلى الزجاجـة ليعـبَّ المـاء منهـا في جشـع، وقطراتـه تسـيل لتغـرق قميصـه وذقنـه..

شرب وشرب.. شرب حتـى امتـلأت معدتـه بالميـاه، وصـار قـادرًا عـلى أن يشـعر، ويفكـر..

ثـم خفضهـا وأخـذ يلهـث لبعـض الوقـت، قبـل أن يمسـح شـفتيه في كمـه وهـو يناولهـا للشـاب قائـلًا:

- «شكرًا لك.. لا أدري ماذا أقول..»

ثـم يعتـدل، ويوشـك عـلى أن يقـول المزيـد، قبـل أن يتسـمر في مكانـه وهـو يتذكـر بغتـة.. يتذكـر أيـن رأى هـذا الوجـه مـن قبـل..

إنـه الشـاب الـذي كان يتشـاجر مـع العـمال العـرب، بينـما كانـوا يسرقـون كل مـا يملـك، قبـل أن يهربـوا ويتركـوه لمصيره.. هـو نفسـه.. يقـف ويديـر غطـاء الزجاجـة في مكانـه ليغلقهـا ويضعهـا في حقيبتـه الصغـيرة، ثـم يديـر عينـه لـه وهـو يمـد كفـه إليـه مصافحًـا..

- «أنا محمد.. محمد رشيد..»

***

نظر إلى كفه الممدودة في صمتٍ لحظات..

- «أفهمُ من نظرتك أنك تذكرني بالتأكيد..»

تراجع جون إلى الخلف في بطء وهو يقول:

- «أنت كنت معهم.. لماذا أنت هنا؟»

ابتسم رشيد في هدوء وهو يخفض كفه الممدودة قائلًا:

- «صحيحٌ أنني كنت معهم، ولكنني لم أكن مؤيدًا لما يفعلون.. أنت تذكر بالتأكيد، ولا بد أنك رأيتني وأنا أتشاجر مع جميل المنصوري..»

أطلَّت الحيرة جلية من عيني جون، فأردف رشيد مفسرًا:

- «ذلك الذي سرق معداتك..»

تطلع إليه جون لحظات بنفس النظرة، ثم أومأ برأسه متفهمًّا..

- «وما الذي تفعله هنا؟»

أشار له رشيد بأن يتحرك، وقال وهو يستدير ليمضي في طريقه، وجون وراءه:

- «كنت أعرف أن فرصتك في النجاة في قلب الصحراء ضعيفة للغاية.. إضافة إلى أنه لا ذنب لك في كل ما فعلته بلادُك في العراق.. المواطنون دومًا يدفعون ثمن سياسة حكوماتهم، برغم أنهم قد لا يؤيدونها، أو يكونون طرفًا فيها على الإطلاق..»

هذا من جديد.. الأمر يثير أعصابه فعلًا..

- «فقط لمعلوماتك.. أنا بريطاني في الأصل ولست أمريكيًا..»

رمقه رشيد بطرف عينه للحظة، ثم قال:

- «بريطانيا كانت من ضمن قوات الاحتلال أيضًا.. كلكم مثل بعضكم.. لا

اختـلاف..»

ظـل يمـشي جـواره في صمـت.. لا يملـك طاقـة للنقـاش الآن، وبالتأكيـد لـن يوصلـه الأمـر إلى جديـد.. لـن يتغير رأيـه مهـما حـدث..

- «إلى أين نذهب؟»

عدَّل رشيد من وضع البندقية على كتفه، وهو يقول:

- «يجـب أن نخـرج مـن هنـا.. هنـاك كهـف قريـب يمكننـا أن نبيـت فيـه، وصباحًـا نتجـه إلى حيـث الحضـارة..»

ظل جون يمشي بعض الوقت خلفه، ثم سأله:

- «ماذا عن معداتي؟.. والإزميل الذي وجدناه؟.. أين هو؟»

رد رشيد دون أن يلتفت:

- «كلهـم في مخيـم المنصـوري.. ليسـت فكـرة جيـدة أن نذهـب لأخذهـم الآن.. هـم مسـلحون جميعًـا، إضافـةً إلى أن الصحـراء هنـا ليسـت أكـثر الأماكـن أمانًـا.. مسـلحو داعـش في كل مـكان، ولـن يتمتعـوا بحـس دعابـة قـوي تجاهـك لـو رآك أحدهـم..»

داعـش!.. قـد نـسي كل شيءٍ عـن هـؤلاء.. هـو محـقٌّ فعـلًا.. الصحـراء هنـا تعـج بقـوات وميليشـيات داعـش المسـلحة، ولـو وقعـت أعينهـم عليـه، فـما سيحدث لـه بالتأكيـد أشـنع مـن مجـرد القتـل..

بـدأ قلبـه يخفـق بعنـف وهـو يسـتوعب لأول مـرة الموقـف الـذي وضـع نفسـه فيـه.. ضائـع في الصحـراء الغربيـة بالعـراق، وسـط عراقيـين يتمنـون موتـه، ويحاولـون قتلـه بالفعـل، بجانـب سرقـة كل مـا يملـك.. دعـك مـن داعـش التـي تسـتولي عـلى كل ركـنٍ مـن الصحـراء، والتـي يعـدُّ عـدم مقابلتـه إياهـم حتـى الآن معجـزة حقيقيـة..

بالفعل سأل السؤال الذي يدور بخلدنا جميعًا:

- «كيف لم نقابل أي دوريات داعشية حتى الآن؟»

تقـدم رشـيد في ثبـات في نفـس اتجاهـه، نحـو المرتفـع الصخـري الـذي تبـدت ملامحـه واضحـة، وبـات اقترابـه ظاهـرًا وشـيكًا..

- «لأننـي أعـرف مـا أفعلـه بالضبـط، وأعـرف مـن أيـن يأتـون ولأيـن يذهبـون.. كانـت فكـرة جيـدة أن تقـرر التوجـه نحـو ذاك المرتفـع.. هـم لا يقربـون هـذه المنطقـة حاليًّـا، لبعدهـا الشـديد عـن صـور ومعـالم الحضـارة بأكملهـا.. لا يمكننـي قـول هـذا عـن أي بقعـة أخـرى مـن الصحـراء، بـدءًا مـن هنـا، وحتـى السـعودية وسـوريا واليمـن..»

كلامـه يبـدو منطقيًّـا.. وحتـى لـو لم يبـدُ، فـلا خيـار آخـر أمامـه.. يجـب أن يتبعـه لـو أراد أن ينجـو.. يتمنـى لـو كان هنـاك خيـار آخـر، أو طريـق آخـر، فلربمـا وفـر عـلى نفسـه مشـقة التفكـير، وعـلى قلبـه مشـقة التوجـس والخـوف مـن المجهـول..

لا يـدري.. قـد أنقـذه مـن الذئـب بعـد كل شيء.. لـو أراد قتلـه لما تدخـل مـن البدايـة.. إلا لـو كان هـو نفسـه واحـدًا مـن عنـاصر داعـش، وهـو يقتـاده الآن إلى مـا هـو أكـثر مـن مجـرد توبيـخ بسـيط..

لا يـدري شـيئًا، ولا يفقـه.. يجـب ألا يفكـر.. التفكـير يمـلأ كيانـه ذعـرًا، ويسـتولي عـلى سـلامه النفسي ليحيلـه وجـلًا.. يجـب أن لا يفكـر لـو أراد أن يحتفـظ بعقلـه إلى مـا بعـد كل هـذا..

مـا زال يملـك الكثـير مـن الأسـئلة، ولكنـه لـن يحصـل عـلى إجابـات في الوقـت الحـالي.. يجـب أن يتبعـه حتـى يخـرج مـن هـذا الجحيـم المتقـد.. حـرارة الهـواء توشـك عـلى شـيه حيًّـا.. ربمـا كان الكهـف الـذي يتكلـم عنـه مـأوًى لـه مـن كل هـذا.. أي شيء يبـدو لـه مـأوى، مقارنـة بمـا يشـعره الآن..

صـوت معدتـه يتصاعـد حتـى يوشـك أن يصـير مسـموعًا.. إنـه يتضـور.. يوشـك عـلى أن يعـض ذراعـه نفسـها، ليسـد بهـا رمقـه..

يجـب أن يصـبر.. يجـب أن يتحمـل.. المرتفـع ليـس بعيـدًا، والشـمس بـدأت في الغـروب بالفعـل.. قريبًـا ينتهـي كل هـذا..

وحينها سيسأل..

-٤-

إنه الليل أخيراً..

تراهـما جالسـان بداخـل ذلـك الكهـف الـذي يحتـل مسـاحة ضيقـة في باطـن المرتفـع الصخـري إيـاه.. كومـة الحطـب المشـتعلة أمامهـما، يـداوم «رشـيد» عـلى العبـث فيهـا بالعصا الغليظـة الطويلـة، مـن موقعـه فـوق تلـك الصخـرة الصغـيرة المسـتوية التـي يجلـس عليهـا، حتـى يتأجـج اللهيـب المتصاعـد أكـثر، ويجلـب معـه الـدفء..

الجـو قـد اختلـف تمامًـا عـمّا كانـه في النهـار.. الـبرودة تسـتولي عـلى عظامـك ذاتهـا، فتشـعر بهـا تتـأكل أكلًا.. هكـذا تشـعر وأنـت ترقـب «جـون» الجالـس في الركـن أمـام اللهـب، ينتهـي مـن قطعـة الطعـام التـي في يـده، فيمسـح فمـه في كمـه، ويلتقـط زجاجـة المـاء المجـاورة ليتجـرع منهـا جرعـات يسـد بهـا عطشـه، ثـم يفـرك كفيـه ويقربهـما مـن الشـعلة المتأججـة، وينفـخ فيهـما بـين الحـين والآخر طلبًـا لـدفء يراوغـه، ولا يسـتمر.. يتكـئ بظهـره عـلى الحائـط الصخـري الـذي يكتـظ بالنتـوءات، فـلا يجعـل إتـكاؤه مريحًـا كـما يتمنـى.. ولكنـه ليـس في موضـعٍ يسـمح بالاختيـار..

الصمـت يسـود، ومعـه يترعـرع السـكون، فتشـعر بـه يسـتولي عـلى محيـط الكهـف بأكملـه، ويصبغـه بصبغتـه الهادئـة.. لا صـوت مـن أي نـوعٍ، كأنهـما في مسـاحةٍ عدميـةٍ، لا وجـود للعـالم حولهـا.. الـكلام هـو خطيئـة، يمكـن لهـا أن تدنـس قدسـية المشـهد.. ولذلـك لا يتكلـم أحدهـما..

فقـط صـوت قرقعـة النـيران التـي يتـآكل معهـا الحطـب هـو الـذي يسـود.. تسـبَح معـه الأفـكار، وتـشرُد في أفـقِ ذكريـاتٍ بعيـدة، أو مسـتقبلٍ ينتظـر.. فـلا تـدري أو تفقـه..

ثـم يعتـدل «جـون» في جلسـته.. يرفـع رأسـه إلى «رشـيد»، ويسـأله وهـو يفـرد كفيـه فـوق اللهـب:

- «لم تخبرني حتى الآن بالسبب الحقيقي الذي جعلك تأتي إليَّ..»

رفع «رشيد» عينيه إليه في صمت، فتابع «جون»:

- «أعنـي أن قصـة أنـك لا تملـك مشـكلة معـي لأننـي لسـت أمريكيًّـا وليـس لي يـدٌ في سياسـات حكومتـي، هـي قصـة شـائقة أثلجـت صـدري وداعبـت مشـاعري حقًّـا، وأصدقهـا بالتأكيـد.. ولكننـي موقـنٌ أن هنـاك مـا هـو أكـثر..»

ظل «رشيد» ينظر إليه بنفس الصمت، فأردف «جون»:

- «ثـم هنـاك ذلـك الشـعور.. ذلـك الشـعور الـذي لا يفارقنـي.. شـعور أن رفاقـك كانـوا يعرفـون مـا يفعلونـه، ويعرفـون مـا أبحـث عنـه، ويطمحـون لإيجـاده مثـلي بالضبـط، أو أكـثر.. ولم يكونـوا معـي أو ينفـذوا أوامـري إلا لغـرض إيجـاده فقـط.. كانـوا يسـتغلوني لمصلحتهـم الخاصـة التـي لا أفهمهـا بالضبـط.. تمامًـا كالعاهـرة.. وأنـا لا أحـب العاهـرات..»

لم يرد «رشيد»، ولم يغير من جلسته أو نظرته شيئًا، فتابع «جون»:

- «دعنـي أخـبرك أننـي قـد سـمعتكم تتحدثـون.. في ذلـك الوقـت الـذي كنتـم تواظبـون عـلى الحفـر فيـه، قبـل أن يظهـر الإزميـل.. سـمعتكم وميـزت وسـط حروفكـم كلمـة المدينـة المفقـودة، وعبـارة تعنـي أن هـذا الـذي يختفـي في الأسـفل هـو الطريـق لهـا.. أعـرف قطعًـا أنكـم تخفـون شـيئًا مـا، وأنكـم كنتـم مطمئنـين لكـوني لا أتقـن العربيـة.. والحقيقـة أن هـذا صحيـح.. ولكننـي أعـرف مـا يكفـي مـن الكلـمات العربيـة، ليجعلنـي أدرك مـا تتحدثـون عنـه، وأنكـم لسـتم مجـرد عُـمَّال بدويـين..»

ظل «رشيد» صامتًا، وظل وجهه يحمل نفس التعبير، فسأله:

- «من أنتم بالضبط؟»

اعتـدل «رشـيد»، وزفـر زفـرة حـارة وهـو يضـع العصـا جانبًـا، ثـم اتَّـكأ بمرفقيـه

على فخذيه في انحنائته للأمام، وقال وهو ينظر إلى «جون» مباشرة:

- «نحن نعرف لماذا أنت هنا.. كلنا نعرف..»

نظر له «جون» في عدم فهم، فأردف:

- «المقبرة المفقودة.. أليس كذلك؟»

أطل الانفعال من داخل نظرات «جون»، ولم يشعر بلسانه وهو يقول في بطء:

- «ما الذي تعرفه عنها، وكيف..»

قاطعه»رشيد» بإشارة من يده، وقال:

- «وفر كلماتك.. كل ما تعرفونه لا يساوي شيئًا أمام ما نعرفه نحن..»

ضيَّق «جون» عينيه وهو ينظر إليه في ترقب..

- «أسطورة المقبرة المفقودة هي سر تتوارثه قبيلتنا منذ أجيال.. منذ ما قبل الحرب، وقبل العمران، وقبل حتى أن تكون هناك دولة العراق بشكلها الحالي.. أسرتنا تسكن هذه البقاع منذ قرونٍ سحيقة.. وقبل أن يكتشف هؤلاء العلماء الألمان تلك الألواح الحجرية في باسطكي، كنا نحن نعرف القصة، ونتناقلها فيما بيننا لزمنٍ طويل..»

اعتدل «جون» ليجلس القرفصاء، ويستند بوجنته على قبضته المضمومة وهو يسأله في اهتمام:

- «وما هي القصة؟»

التقط «رشيد» العصا من جديد، وجعل يعبث بها في الحطب بعض الوقت مستجمعًا شتات أفكاره، والتقط نفسًا عميقًا قبل أن يقول:

- «أسرتي منذ قديم الأزل كان موكلًا إليها حماية الحدود الصحراوية للعراق.. الصحراء العربية بالتحديد.. منذ بدايات عصر الفتح الإسلامي، قبل عهد الدولة العباسية ذاتها، كانت أسرتي هي واحدة من أسر عديدة منوطة بحراسة الصحراء العربية، وحفظ أسرارها.. لقرون عديدة، دأب أجدادنا على

أداء مهمتهم على أكمل وجه.. في مختلف الظروف والكبوات التاريخية التي مرت بأراضينا، كنا دومًا هناك، ننتظر.. جاء علينا عصر البوهيين والسلاجقة الأتراك، وجاء المغول في القرن الثالث عشر، وظلوا طويلًا، ولم نبتعد يومًا أو نتخلى عن مهمتنا السامية، أو عن أراضينا.. جاء العثمانيون، والإيرانيون والمماليك وظلوا طويلًا، ولم نختفِ.. جاء البريطانيون ورحلوا، ثم جاء كلاب الأمريكان، ولم نفارق أرضنا يومًا.. فمهمتنا كانت أهم من أي شيء، وفوق أي شيء..»

سأله «جون» بنبرات حائرة:

- «تقول أن تلك كانت مهمتكم التي أُوكِلَت إليكم.. ولكن من أعطاكم هذه المهمة؟.. من جعلكم حراسًا لهذه المنطقة؟ ومن ماذا تحرسونها بالضبط؟.. ما الذي تحرسونه؟»

ابتسم «رشيد» وهو ما زال يعبث في النار، وقال:

- «لديك أسئلة كثيرة فعلًا، وربما تستغرق إجابتها بعض الوقت..»

أشار «جون» بيده إلى الكهف وهو يقول:

- «انظر حولك.. ليس لدينا ما هو أكثر من الوقت..»

ابتسم «رشيد» أكثر، وقال:

- «ما أنا على وشك أن أخبرك به هو سرٌّ مقدس، حفظته أجيال عديدة من قبيلتنا لقرونٍ طويلة، ولم يعرفه غريب مهما كان.. ولكنني لم أعد أهتم بعد الآن بما يعتقدونه، فهُم أنفسهم لم يعودوا كما كانوا..»

أطلَّ التساؤل جليًّا في عيني «جون»، فالتقط «رشيد» نفسًا عميقًا، وبدأ في الحكي..

- «منذُ زمنٍ بعيد.. في بدايات القرن التاسع الميلادي، أو هذا ما أذكره على الأقل، جاء إلى قبيلتنا رجل غريب.. كلمة غريب هنا كانت تنطبق عليه بكامل معانيها، فقد كان غريبًا عنَّا، وكان غريبًا عن أي مخلوق آخر رآه أحدُنا

في مثل هذه البقاع..»

عبث بالعصا في النار في بطء، فتعالت قرقعة الحطب وهو يكمل:

- «ما زالت أوصافه تتناقلها الألسنة فيما بيننا حتى الآن.. طويل القامة، مفتول العضلات، أشقر الشعر طويله، حتى ليضاهي جماله جمال نساءنا.. يبدو كصورة حية لما ينبغي أن يصيره الرجال.. وسيم لدرجة لا تتصورها، يبدو وجهه كأنه يضيء.. ولا يضاهي بهاء ملامحه، سوى الضياء الذي كان ينبعث من ملابسه.. ملابسه ذاتها كانت مضيئة.. ينبعث منها النور كأنها رداء الملائكة، توشك هالة الضي المقدس على أن تنبعث منها.. كان الرجل حَسَنَ اللسان، لطيف المعشر، طيب الأخلاق.. لم يكن يريد شيئًا سوى مجالستنا، وضيافتنا..»

تطلَّع إليه «جون» وهو يكمل:

- «استضافته أسرتنا ليالٍ عديدة باعتباره مجرد عابر سبيل.. كان غريبَ الشكل واللون والملبس، كأنه من أرضٍ أخرى أو عصرٍ آخر، ولكن قبيلتنا بكرم ضيافتها المعهود قبلت استضافته في ودٍّ، ووهبناه طعامنا وشرابنا كلما طلب.. ومرَّت أيامٌ عديدة، قبل أن يطلب الاجتماع بكبار مشايخ القبيلة؛ لأنه كان يملك ما يود أن يطلبه منهم..»

اعتدل «جون» في جلسته في ترقب..

- «كان الأهالي متشككين في البداية.. فوقتها كانت لنا عداوة طويلة مع بعض القبائل الأخرى في المنطقة، وكانوا يخشون أن يكون من بينهم، وقد وُكِلت إليه مهمة قتلُ المشايخ أو إيذاؤهم.. ولكن شكله وطريقته لم توحِ بهذا مطلقًا، ولذا قبلوا.. وفي يومٍ بعدها بليالٍ اجتمع بهم، ودلف إلى مجلسهم ليتسامرون.. وحينها، أظهر لهم حقيقته..»

سأله «جون» في سرعة لم يشعر بها:

- «أيُّ حقيقة؟»

ابتسم «رشيد» وهو يرقب الفضول الذي يطل من عينيه، قبل أن يتابع كلامه:

- «كان ما أخبرهم به هو أنه ملاك.. ملاك من جُند الخالق عز وجل ذاته.. اسمه هو «شموئيل»، ومهمته هي أن ينقل لنا رسالة الرب القدير، ويوكل إلينا مهمته السامية التي يجب أن يتوارثها أجيالُنا، وأطفالُنا من بعدنا، حتى نهاية الزمان.. تلك الرسالة كانت هي أننا المختارون من قِبل الله عز وجل، لحماية سرٍّ من أسراره المقدسة، يقع في قلب هذه الصحراء العربية، وكانت مهتمنا هي الحفاظ على قدسية الأرض، ومنع أي كائنٍ كان من تدنيسها أو البحث بين رمالها.. كانت هذه رسالةٌ مقدسة، واختبارٌ من الرب العظيم لعشيرتنا، وتفضيلًا منه لنا جعله ينزِّل علينا أحد ملائكته لينقل لنا كلماته الكريمة كما قيلت، كالقرآن الذي أنزله على نبينا محمد، تعظيمًا لنا ولقدرنا وغايتنا السامية، التي وُكِلَت بحماية قُدس الأقداس، وسر الأسرار..»

ظل «جون» يتطلع إليه منتظرًا أن يكمل، فأكمل:

- «عبر العقود التي مرت على قبيلتنا قبل أن يأتي هذا الغريب، كانت هناك قصة قديمة تتردد فيما بينهم.. قصة لا يدري أحد أصلها، ولا من أين نشأت أو كيف بدأت.. أسطورة لو أردت أن تسميها.. أسطورة تحكي عن مدخل خفي لعالم آخر لا نعرف عنه شيئًا، ولا نفقه وجوده.. عالم يخفي السر الإلهي ذاته.. وأن كارثةً تحل على هؤلاء الذين يحاولون البحث عنه.. هذا المدخل الخفي كان هو قدس الأقداس الذي أوكِلت إلينا مهمة حراسته.. حراسة الأرض التي تحيطه كلها، وحماية ذاك الذي تحويه في جوفِها، دون حتى أن نفهم أو نستوعب، أو حتى نفقه مكانه أو أين يقع..»

تراجع في جلسته قليلًا ليمدد أقدامه أمامه، وتابع:

- «طبعًا كما لا بد أنك تعرف وتتوقع، لم يصدقه المشايخ في البداية وطلبوا منه دليلًا يثبت ما يقول.. وكان حينها هو الوقت الذي رأينا فيها معجزته.. في قلب كفيه اللذين بسطهما إلى الأعلى، كانت صورة الأرض بأكملها تتشكل

بما هو حولها من نجوم وكواكب.. ومع ابتعاد كفيه عن بعضهما، كان المشهد يبتعد ويتسع ليرسم صورة المجموعة الشمسية بأكملها، ثم المجرة، ثم الكون ذاته.. لم يفهم المشايخ في البداية ما يرونه، فلم يكن علم الفلك معروفًا وقتها، وحتى ما كان معروفًا منه لم يكن قد بلغ هذا الحد بعد.. أخبرهم هو أن هذا صنيع وخلق الرب العظيم، وأنه يعرض عليهم آياتهم، لعلهم يتفكرون، ويؤمنون.. قال لهم إن جنته ورحمته تنتظرهم بعد رحيلهم، ما داموا محافظين على عهدهم معه، وداوموا..»

تعالت قرقعة اللهب، وتطاير الشرر منه في بطء مع عبث «رشيد» فيه بالعصا، وهو يتابع:

- «كانت صدمة العجائز والمشايخ مفهومة طبعًا.. خروا أمامه ساجدين مسبحين بحمد الرب، معلنين أنهم على العهد، وسط دموعهم التي أغرقت لحاهم فرحًا بالمهمة المقدسة، وبالتفضيل العظيم لهم على سائر الخلق، وعلى بلاد العالمين.. وهنا أصدر لهم الملاك تعليماته، وقال لهم إن الصحراء هي قدسُهم الأعظم، وأنه لا يجب أن يطأها أحدٌ بقدميه ما دام عيشُهم هم على ظهر الأرض.. لم يفكر أحدهم في أن يسأله عن السبب، أو أهميته التي تدفع الله لأن يرسل ملائكته لتطلب عون البشر الفانين.. ألا يقدر هو على حمايته بنفسه؟.. أليس الله ذاته؟.. لم يجسروا على السؤال وسط ما يرونه من معجزة، ووسط كلمات الملاك الرنانة، ولباسه الذي ينبعث الضوء منه متزايدًا في شدته، حتى ليوشك على أن يعمي عيونهم في وضح شمسِ النهار.. من هُم حتى يسألوه عن حكمة الله، أو عن أسبابه؟»

تساءل «جون» في أنفاسٍ مبهورة:

- «وماذا حدث بعدها؟»

شرد «رشيد» وهو يتطلع إلى اللهب في صمتٍ لبعض الوقت، قبل أن يتابع:

- «رحل الغريب بعدها.. لا أحد يعرف من أين جاء، ولا لأين ذهب، وإن

كانـوا قـد خمنـوا أنـه قـد جـاء مـن السـماء، وإليهـا عـاد مـن جديـد.. هـو مـلاك عـلى أي حـال، أو هكـذا كانـوا يتصـورون.. ومنـذ ذلـك الوقـت، بـدأت مرحلـة جديـدة في حيـاة قبيلتنـا، هـي الانعـزال عـن المجتمـع العراقـي والعـربي بأكملـه.. لـو كنـا نريـد أن ننجـح في تكليفنـا السـامي، فيجـب أن لا نكـون طرفًـا في أي أحداث تقـع في أي بقعـة عـلى ظهـر الكوكـب.. يجـب أن نحافـظ عـلى انعزالنـا، وعـدم اختلاطنـا مـع القبائـل الأخـرى، أو المـدن.. يجـب أن نظـل في صومعتنـا الخاصـة.. نـرى الجميـع، ولا يروننـا.. نُبقـي أعيننـا عـلى مـا يفعلـون، مـن حيـث لا يدركـون وجودنـا ولا يفقهـون أو حتـى يتصـورون.. ولفـترة طويلـة للغايـة ظلـت تلـك هـي مهمتنـا التـي شـب عليهـا صغيرنـا، ومـات عليهـا كبيرنـا.. وتوارثتهـا الأجيـال جميعًـا عـلى حـدٍّ سـواء، بـلا تفرقـة..»

التقط أنفاسه لحظة، ثم أردف:

- «ومـع الوقـت، ومـرور الزمـن، تحولـت القصـة إلى أسـطورة.. خرافـات عجائـز، يضيـف عليهـا كل مـن يحلـو لـه لمساته الخاصـة، التـي تحولهـا مـع مـضي السـنين إلى قصـة مختلفـة تمامًـا عـن القصـة الأصليـة.. كل تفصيلـة حُذِفَـت أو أُضيفَـت إلى القصـة مـع مـرور العقـود، كان لهـا أثـر في تحـول القصـة إلى خرافـة سـحيقة القِـدم.. حتـى أنـا نفسـي وأنـا أحكيهـا لـك الآن، لا أدري بالضبـط مـدى صحـة مـا أعرفـه عنهـا.. ولكـن كل مـا كان الجميـع يعرفونـه هـو أن مهمتنـا هـي مهمـة سـامية، مقدسـة.. يجـب أن لا ننسـاها أبـدًا، أو ننـسى دورنـا في تحقيقهـا؛ لأن فيهـا غايتنـا وثوابنـا.. هكـذا كانـت رسـالة الـرب وتكريمـه لنـا، ولغايتهـا كُنَّـا نحيـا.. لفـترة طويلـة للغايـة..»

اعتـدل «جـون» ليجلـس عـلى ركبتيـه، وبـدا انفعالـه واضحًـا في حـركات فخـذه وأصابعـه المسـتمرة..

- «ثم ماذا حدث؟»

عبث «رشيد» في النار وهو يقول:

- «مـا حـدث بعدهـا هـو الغـزو.. الحـروب العديـدة التـي مـرت بالعـراق

في تاريخهـا.. بـدءًا مـن المغـول ومـرورًا بإيـران وتركيـا، ثـم المماليـك والدولـة العثمانيـة، وانتهـاءً بالاحتـلال البريطـاني.. كل هـذا سـاهم في تغـير فكـر الجميـع.. حتـى العجائـز وشـيوخ القبيلـة.. مـع تدهـور مسـتوى معيشـتنا، وصعوبـة إيجـاد المـؤن الأساسـية التـي يمكنهـا توفـير الحيـاة لنـا، اتجـه الأجـداد إلى تجـارة الآثـار، حتـى يمكنهـم تأمـين معيشـتهم ومعيشـة أطفالهـم..»

وضع العصا جانبًا وهو ينظر إلى «جون» مضيفًا:

- «كانـت مُربحـة للغايـة، ولأول مـرة، عـرف الأطفـال والرجـال والنسـاء معنـى الـثراء، ومعنـى الشـبع.. منطقـة الصحـراء بأكملهـا كانـت تعـج بالعديـد مـن المواقـع التـي كانـت تحـوي آثـارًا عديـدة تنتمـي لحقبـات عديـدة مـن تاريـخ العـراق.. حضـارات سـومر وبـلاد مـا بـين النهريـن، والحضـارة الآشـورية والأكاديـة.. الكثـير مـن الأسرار والقطـع الأثريـة التـي انتشـلت أهالينـا مـن الفقـر والجـوع، وجلبـت لهـم الـثراء، والشـبع.. وبسـبب عملنـا في تلـك التجـارة المحرمـة، وحاجتنـا لإيجـاد الزبائـن الدائمـين، بـدأ رجالنـا لأول مـرة في الاختـلاط بالأهـالي، وبالقبائـل الأخـرى، والمـدن.. تزوجنـا منهـم، وزوجناهـم نسـاءنا وبناتنـا.. صرنـا جـزءًا مـن المجتمـع، وأصبـح لنـا وجـود في البـلاد الأخـرى.. صرنـا نعـرف معنـى كلمـة المدينـة، ونعـرف كيـف نعيـش فيهـا وكيـف نختلـط بالسـكان، ونصـير جـزءًا طبيعيًّـا منهـم، مثـل أي عائلـة عريقـة أخـرى..»

عبث في ذقنه قليلًا وهو يتابع:

- «صـار لعائلتنـا فـروع عديـدة، بأجـداد كُـثر.. عائلـة بنـي المنصـوري، وآل رشـيد، وبنـي ربيـع، وغيرهـم الكثـير.. كل هـذه كانـت فـروع كبـيرة لعائلتنـا الكـبرى، التـي كانـت واحـدة مـن أكـبر القبائـل العربيـة، وأكثرهـا عـددًا.. مثـل قبائـل بنـي عجـل وحنيفـة، وقبائـل عنـزة في السـعودية، وقبائـل الدُّليـم وبنـي لام.. قبائـل عربيـة عديـدة وعريقـة اختلطنـا بهـا، حتـى صـار أحـدٌ لا يفـرق بيننـا وبينهـم، في وقـتٍ اندثـر فيـه النظـام القبـلي، وجـاءت المدنيـة لتغطـي عـلى كل هـذا بـرداء الحضـارة والتقـدم التكنولوجـي.. فقـدت قبيلتنـا طريقهـا، ونبـذت مهمتهـا السـامية،

وأصبحـت تتاجـر بأرضهـا وتاريخهـا، بـدلًا مـن أن تحافـظ عـلى تراثهـا، وتحميـه كـما كان الحـال قديمًـا..»

نهـض مـن فـوق الصخـرة التـي يجلـس عليهـا، وافـترش الأرض فـاردًا قدميـه أمامـه، ومسـتندًا بكفيـه عـلى الأرض خلفـه وهـو يضيـف:

- «ظـل الحـال عـلى مـا هـو عليـه لفـتراتٍ طويلـة.. فـترات دامـت حتـى جـاء الاحتـلال الأمريـكي في بدايـات القـرن الحـادي والعشريـن.. كان وقتهـا قانـون التجنيـد الإلزامـي ساريًا عـلى كافـة فئـات الشـعب، وكانـت سياسـة صـدام حسـين العدوانيـة التـي زجَّـت بالبـلاد في حـرب الكويـت التـي سـببت الغـزو الأمريـكي بعدهـا، وبـالًا عـلى الجميـع.. صـارت المنطقـة كلهـا غـير مسـتقرة، وأصبحـت تجـارة الآثـار شـديدة الخطـورة، بسـبب الجيـش الأمريـكي الـذي كان يسـتولي عـلى كل مـا تقـع عليـه يـده مـن خـيرات، سـواء كان ذاك بـترولًا أو حقـول الغـاز الطبيعـي، أو الآثـار.. وحينهـا بـدأت حقبـة جديـدة في أوسـاط القبيلـة.. حقبـة التعامـل مـع العـدو.. الخيانـة بمعنـى أصـح وأكـثر وضوحًـا في عُـرف المجتمـع العراقـي..»

اعتـدل «جـون» في جلسـته ليجلـس القرفصـاء مـرة أخـرى، وهـو يفـرك يديـه ويضعهـا أمـام النـار طلبًـا للـدفء، بينـما «رشـيد» يتابـع:

- «صـارت قبيلتنـا تتعامـل مـع الجيـش الأمريـكي مقابـل المـال.. فلـم يكـن أحدنـا يملـك وسـيلة أخـرى للعيـش، ولـو لم يفعلـوا ذاك، لقضينـا نحبنـا جوعًـا.. البـلاد بأسرهـا كانـت تتضـور، والشـعب بأكملـه كان يُقتـل في كلِّ يـوم.. كان مـن الواضـح أنـه لا سـبيل للنجـاة مـن الاحتـلال إلا بالانضـمام لـه، أو التعـاون معـه اتقـاءً لـشرِّه عـلى أقـل تقديـر.. ولم نكـن نحـن الوحيـدون الذيـن فعلـوا ذلـك، بـل فعلهـا غيرنـا الكثـيرون.. تلـك الفـترة كانـت غـير مسـتقرة، ولم يكـن هنـاك أي باحـث أو عـالم آثـار يجـرؤ عـلى أن يخطـو متريـن في الصحـراء دون أن يخاطـر بحياتـه، ولـذا كان مكسـبنا نحـن واسـعًا ورائعًـا.. كنـا نحـن الذيـن نحتكـر بيـع الآثـار الآشـورية والسـومرية، وكل مـا كان يمكننـا إيجـاده بسـبب علمنـا وخبرتنـا العريقـة في آثـار الصحـراء العربيـة، إلى قـادة الجيـش الأمريـكي، وكبـار الضبـاط..

وكان ذلك مقابل مبالغ رمزية من المال، تزايدت مع الوقت، حتى أضحت تدر علينا دخلًا واسًعا من الدولارات، ساهم في إعادة معيشتنا إلى سابق عهدها من جديد، خصوصًا مع انهيار العملة العراقية، حتى صارت تلك الدولارات أقرب للذهب منها للنقود..»

ساد الصمت لحظة، ثم أردف:

- «ومع مرور الزمن وانتهاء الاحتلال الأمريكي، بدأت حملات التنقيب، والأبحاث الأثرية في العودة على استحياء.. وكنا نحن دومًا هناك، في وسط أي بحثٍ أثري، أو مهمة تنقيبية.. كان الأمر أشبه بالعُرف في وسطنا، وبين القبائل الأخرى.. لا أحد يعمل في الآثار سوى نحن، ومن نشفع له من رجال القبائل الأخرى.. نحن سادة الآثار، والمواقع الأثرية السحيقة.. نحن من نوفر العمال والمعلومات، ونعرف مواقع الأماكن التي يبحثون فيها، ونستولي على كل ما تحويه، لنبيعها في السوق السوداء، ونكتسب منها ما هو أكثر.. وأكثر.. كان ذلك حتى جاءت بعثة التنقيب الألمانية سنة 2017..»

فرد «جون» ظهره في هذه النقطة، وتطلع إلى «رشيد» في ترقب وهو يتابع:

- «ما اكتشفه خبراء تلك البعثة، كان مهمًّا للغاية.. تلك الألواح الحجرية التي نُقِش عليها تاريخ المنطقة وتاريخ مدينة مارامان المفقودة لم تكن مهمة، بقدر اللوح الذي كان بينها، يحكي أسطورة إندوبسار السومرية القديمة.. قصة مقابلته للرب العظيم، وتعاليمه له التي سجلها على اللوح، وتجربته داخل العالم المفقود، الذي يقع خلف حدود ذلك المدخل المقدس.. كانت تلك القصة مفاجأة كبرى لقبيلتنا.. مفاجأة ذكَّرتهم بالمهمة السامية التي وُكِلَت إليهم من قبل، وأعادت إليهم ذكريات الماضي الذي تناسوه، وتجاوزوا عنه.. أعادت إليهم عزيمتهم للبحث عن مدخل ذلك العالم الآخر.. فقط كان هدفهم في ذلك مختلفًا بعض الشيء، عن هدف قبيلتنا الأصلي الذي كانت تحيا لأجله من قبل.. ففي الأزمان القديمة، كان منوطًا بنا حماية المدخل من أي تدنيس خارجي، وأي بحث.. ولكن السبب الحالي كان عمليًّا للغاية.. لو كان

ذلك المدخل حقيقيًّا فعلًا، وكان يخفي في طياته عالمًا آخر، أو مدينة مفقودة، فإن التفكير فيما يمكن أن تحويه من آثار وتحف لا تقدَّر بثمن كان مما يدير الرؤوس.. لو استطاعوا إيجاده، فإن هذا يمكن أن ينقلنا إلى مكانٍ آخر تمامًا.. دعك طبعًا من فكرة الأسطورة الأساسية، التي كانت تحكي أن السر الإلهي ذاته يختفي في داخل تلك المدينة، وبداخل ذلك العالم المفقود.. السر الإلهي!.. هذا بالتأكيد يعني ما هو أكثر من حفنة من الدولارات.. يعني أنه بإمكاننا أن نتحكم فيما نريد، ونحققه كما نريد.. قوة كمثل تلك التي تصفها الأسطورة كانت تعني أنه بإمكاننا أن نحكم العالم بأكمله.. لم يكن الأمر صعبًا ولم يكن بعيدًا.. كان على مرمى حجر من متناول قبضتنا..»

ثم اعتدل في مكانه، وأحاط فخذيه وساقيه بذراعيه في جلسته المنحنية، وهو يضيف ناظرًا إلى «جون»، بينما شعيعات اللهب البرتقالية تغلف وجهه بحرارتها، ولونها الذي يثير الخيال:

- «وهكذا حاولنا الاختلاط بأوساط علماء بعثة الجامعة الألمانية.. وبعدها بجميع بعثات التنقيب التي جاءت إلى تلك المناطق، حتى جئت أنت..»

وابتسم قليلًا وهو يردف:

- «سذاجتك كانت غير مسبوقة.. تضع إعلانًا عبر الإنترنت وفي الجرائد المحلية، تقول فيه إنك تبحث عن عمال أشداء لمرافقتك في عملية حفر وتنقيب في الصحراء الغربية، بمقابل مجزٍ.. لم ير أحدنا شخصًا أكثر سذاجة منك في تاريخنا بأكمله، وكان واضحًا أنك هاوٍ لا تفهم ما تقحم نفسك فيه.. في ظروفٍ أخرى، كنا سنتركك وشأنك، ولكن ترجمات الألواح الحجرية التي وجدتها البعثة وتمكُنّا نحن من نسخ المنقوش عليها قبل نقلها، ودراستنا لها كانت تجزم جميعًا بأن ما نبحث عنه يقع في مكانٍ ما من الصحراء العربية.. وكانت مهمتك البحثية في قلب الصحراء الجنوبية الغربية العراقية، أو كما يسمونها (الهضبة الصحراوية) -التي هي جزء من الصحراء العربية الكبرى بالمناسبة- هي أكثر شيء لفت أنظار القبيلة ومشايخها ورجالها إليك..

نحـن أكـثر النـاس خـبرة فيـما يتعلـق بالآثـار العراقيـة والعربيـة عمومًـا، وخصوصًـا حينـما يتعلـق الأمـر بأسـطورة المدينـة المقدسـة.. لـذا كانـت رؤيـة أحدهـم يملـك نفـس التصـور الـذي نملكـه نحـن مخيفـة.. كان مـن الـلازم بعدهـا أن يتبعـك رجـال القبيلـة، ويراقبـوك.. ومـاذا أفضـل مـن أن نكـون نحـن العُـمال الذيـن يرافقـون حملتـك البحثيـة؟.. هـذه كانـت هـي الخطـة.. وسـارت كـما ينبغـي حتـى وجدنـا ذلـك الإزميـل الغريـب متقـن الصنـع في محيـط المنطقـة التـي كنـا نبحـث فيهـا بنـاءً عـلى تعليماتـك.. مـا لم تعرفـه أنـت هـو أننـا وجدنـا لوحًـا حجريًـا جديـدًا صغـير الحجـم بداخـل نفـس الغرفـة الضيقـة.. ولكنـه كان مدفونًـا تحـت الرمـال.. وبعدمـا اسـتخرجناه وقمنـا بفـك شـفرة كتابتـه بينـما أنـت داخـل خيمتـك، كان المنقـوش عليـه يؤكـد أننـا نمـضي في الاتجـاه الصحيـح.. كان المكتـوب هـو: هـذا هـو مفتـاح تعاليـم الـرب العظيـم.. عليـه قـد حافظـتُ، ولـه أنتـم حافظـون.. فبغـيره لا طريـق نحـو رحمتـه..»

تطلع إليه «جون» داهشًا للحظة، قبل أن يبتلع لعابه، ويسأل:

- «وأين ذهب هذا اللوح؟»

رد «رشيد» وهو يعدل من وضعية جلوسه:

- «أخـذوه بالطبـع.. وأخـذوا معـه الإزميـل، وكادوا أن يقتلـوك قبـل أن يقـرروا تـركك تواجـه مصـيرك؛ لأن عواقـب قتلـك سـتعود بـضرر بالـغ عـلى (البيزنـس).. ولـن تهـدأ حكومتـك قبـل أن تجـد القتلـة وتعـرف سـبب انقلابهـم عليـك، ولـو أرسـلوا جيشًـا بأكملـه في سـبيل ذاك.. لم تكـن هنـاك فائـدة مـن موتـك، ولـذا تركـوك لتواجـه مصـيرك..»

سـاد الصمـت لبرهـة طويلـة، بينـما «جـون» يحـاول أن يسـتوعب كل هـذا الـذي سـمعه.. لا يقـدر عـلى تصـوره أو تخيـل أن كل هـذا يـدور في هـذه البقعـة مـن الأرض دون أن يعـرف أحـد.. العـالم يمتلـئ عـن آخـره بـالأسرار والغرائـب التـي تجعـل قصـص الخيـال جوارهـا أشـبه بحكايـات الأطفـال.. وهـو لا يفقـه شـيئًا عـن كل ذاك..

فقـط ينظـر إلى «رشـيد» في انفعـال بـدا واضحًـا عـلى خلجـات وجهـه الـذي احتلتـه معـالم وعلامـات التفكـير، قبـل أن يسـأل:

- «ولماذا تخبرني بكل هذا؟.. لماذا أنقذتني من الأساس؟»

ابتسم «رشيد» ابتسامة واسعة وهو يجيب في بساطة:

- «لأنني وجدت المدخل بالفعل..»

تعلقت أنظار «جون» به في ذهول، بينما أردف هو:

- «وأنت من ستساعدني في دخوله..»

***

ظل «جون» يتطلع إليه لحظات دون فَهم..

- «ماذا تعني بأنك وجدته؟»

نهـض «رشـيد» مـن مكانـه في هـدوء، واتجـه نحـو مدخـل الكهـف في ثبـات، فتبعـه «جـون».. ظـل يقـف أمـام المدخـل في هـدوء، يتطلـع إلى الكثبـان، وإلى النجـوم التـي تلتمـع في سـماء الليـل، و«جـون» يقـف جـواره يتطلـع إليـه في صمـتٍ منتظـرًا إيـاه أن يقـول:

- «لـو لم تكـن قـد خمنـت بالفعـل، أنـا لسـت تابعًـا لقبيلتـي.. لم أعـد تابعًـا لهـم منـذ فـترة طويلـة، وأرى أن مـا يفعلونـه هـو خيانـة كـبرى لأسـاس المهمـة التـي أوكِلَـت إلينـا منـذ زمـنٍ سـحيق، وقـرون طويلـة..»

تطلع«جون» إلى الكثبان معه، وهو يسمعه يتابع:

- «معظمهـم كانـوا قـد توقفـوا عـن تصديـق الأسـطورة، وصـارت لهـم مجـرد خرافـات عجائـز.. ولكـن حينـما وجدنـا اللـوح الـذي يحـوي قصـة إندوبسـار في عمليـة التنقيـب التـي قمنـا بهـا بصحبـة الفريـق الألمـاني، أعـاد الأمـر لقبيلتنـا قصـة الأسـطورة، وقـرروا أن يهتمـوا بهـا مجـددًا.. ولكـن ليـس أنـا.. لم أتوقـف أنـا يومًـا عـن تصديقهـا، وكنـت أعـرف أننـي سـأصل في يـومٍ مـا إلى موقـع المدخـل، وسـأكون أنـا أول مـن تطـأ أقدامـه عتبتـه.. هـذا كان هـو دومًـا مـا أطمـح إليـه.. أن أعـرف..»

أخذ يعبث بقدمه في الرمال مليًّا، قبل أن يردف:

- «أبي كان دائـم السـخرية مـمَّا أعتقـده وأصدقـه، ودأب عـلى ضربي وإهانتـي أمـام أقـراني بسـبب مـا أطمـح إليـه.. ولكننـي لم أقنـط يومًـا، وداومـت عـلى مرافقتهـم في جميـع الرحـلات وأعـمال التنقيـب التـي كانـوا يقومـون بهـا، فقـط حتـى يتسـنى لي أن أفهـم.. وفي أحـد تلـك البعثـات غـرب مدينـة (حديثـة) بمحافظة الأنبـار، وجـدت شـيئًا غَـيَّر كل مـا جـاء بعـده..»

أتبـع عبارتـه بـأن مـد يـده بداخـل حقيبتـه الصغـيرة التـي لم ينزعهـا مـن عـلى جسـده مطلقًـا منـذ قابلـه، وأخرجهـا حاملـةً لفافـة صغـيرة، فتحهـا ليمـد يـده بداخلهـا في حـذر ويخـرج تلـك الخريطـة المطبوعـة عـلى جلـد حيـوانٍ مدبـوغ..

- «هذه الخريطة..»

ناولها لـ «جون» الذي التقطها في حذر، وفردها ليتطلع إليها في انبهار..

- «بعـد فحصهـا، أعتقـد أنهـا تعـود إلى العـصر الأشـوري أو البابـلي.. لا أدري بالتحديـد، ولكـن كـما تـرى، تظهـر فيهـا معـالم المنطقـة بتلـك الرسـوم البدائيـة، ومـن بينهـا هـذه المنطقـة التـي حددتهـا بالحـبر هـا هنـا..»

نظر إليه «جون» في استنكار..

- «أنت رسمت بالحبر على خريطة يعود عمرها إلى..»

قاطعه «رشيد» في نفاد صبر:

- «فقط انظر..»

أدار «جـون» وجهـه إلى الخريطـة ليتطلـع إلى العلامـة التـي رُسِـمَت بالحـبر السـائل عـلى تلـك البقعـة الصغـيرة جنـوب غـرب البـلاد.. تلـك العلامـة الصغـيرة جوارهـا، التـي هـي جـزء مـن معـالم الخريطـة، وليسـت مـن صنـع «رشـيد»..

- «ظنـي هـو أن هـذه الخريطـة كانـت ملـك أحـد المستكشـفين القدامـى الذيـن كانـوا يرتحلـون في محيـط هـذه المنطقـة.. كـما تـرى، هـو قـد رسـم خريطـة كاملـة لمـا وجـده أثنـاء ترحالـه في محيـط الصحـراء، ومزجـه بالخرائـط القديمـة لبـلاد مـا بـين النهريـن.. ولكنـه حـدد هـذه المنطقـة بالـذات لكونهـا منطقـة غـير معروفـة، أو غـير مفهومـة بالنسـبةِ لـه.. فلِـمَ؟»

سأله «جون»:

- «وكيف عرفت أن هذا هو معنى العلامة؟.. العلامة لا تعني أي شيء، وربما لا تكون أكثر من مجرد خربشة أو تشققات في الجلد الذي رُسِمت عليه الخريطة..»

ابتسم «رشيد» وهو يرد:

- «كان هذا هو ما ظننته في البداية، حتى قررت الذهاب بنفسي إلى هناك..»

التفت إليه «جون» في فضول..

- «وماذا وجدت؟»

ابتسم «رشيد» لحظات دون أن يرد، ثم يمم وجهه شطر الصحراء من جديد، وقال:

- «سترى بنفسك عمَّا قريب..»

تطلع «جون» إليه في عدم فهم..

- «ماذا تعني؟»

فأجابه:

- «أعني أننا سنذهب إلى هناك معًا..»

صمت «جون» للحظة، قبل أن يسأله:

- «وما الذي يجعلك تظن أنني سآتي معك؟»

رد عليه «رشيد» بنفس البسمة:

- «نفس ما جعلك تترك بلادك المتحضرة المريحة، وتقطع نصف العالم حتى تأتي إلى قلب الصحراء ها هنا..»

ثم نظر إلى عينيه مباشرةً وهو يتابع:

- «أنت طموح يا عزيزي.. مثلي بالضبط.. وطموحك هذا يؤكد لك دومًا أنك أنت الذي ستميط اللثام يومًا ما عن قدس الأقداس، وسر أسرار التاريخ.. طموحك هو من أتى بك إلى هنا، وطموحك هو ما يجعلني أجزم بأنك

ستتبعني صاغرًا.. لأن فضولك هو أقوى من خوفك وتوجسك..»

ثم مد يده ليلتقط الخريطة في حذر من يد «جون»، ولفها في بطءٍ في اللفافة، ثم وضعها في مكانها من جديد في حقيبته وهو يردف:

- «ثم أنك قد جئت بالفعل.. سُرِقَت معداتك، وضِعتَ في قلب الصحراء، وكِدتَ أن تموت فيها بين فكي ذئب.. لذلك فلربما ستتبعني أيضًا.. لا يمكن أن يحدث أسوأ ممَّا حدث بالفعل..»

ساد الصمت لحظة..

- «ولماذا أنا؟.. لماذا لا تذهب وحدك؟»

تطلع «رشيد» إلى ملامحه مليًّا، قبل أن يجيب:

- «لأنك تذكرني بنفسي.. بالإضافة إلى أنك تعرف ما تفعله.. أنت مثقف فعلًا، ولم ترث الوظيفة من أجدادك كما هو الحال مع أفراد قبيلتي الحمقى.. كل ما يعرفونه هو ليس أكثر من مجرد خبرة بائسة أتت من قرونٍ قضوها في الصحراء.. ولكن أنت.. أنت درست كل هذه الأمور، وتعرف ما تفعله فعلًا.. يتجلى هذا في معرفتك للمكان الذي قمت بالبحث فيه، من مكانك على الناحية الأخرى من الخريطة، وإصرارك على إيجاده برغم قلة خبرتك وحداثة عهدك في مجال التنقيب.. أنت تستحق أن تكون شاهدًا على هذه اللحظة، وأحتاج أنا إلى وجودك وعلمك فعلًا.. فرأيك كخبير لا يقدر بثمن..»

ظل «جون» يتطلع إليه لحظة في صمت.. كلامه مقنع، ولكنه ما زال مترددًا.. ما الذي يجعله يثق فيه؟.. صحيح أنه أنقذه من ذئبٍ ومن الضياع في الصحراء، وأطعمه وسد عطشه، وأنه لولاه لكان هيكلًا عظميًّا تلتمع جمجمته بين الرمال على ضي الشمس، ترفرف حوله الصقور، ولكن هل هذا يكفي فعلًا؟..

نعم.. هو يكفي بالتأكيد.. لم يبق بعد كل ما فعله لأجله إلا أن يرتدي فستان طفلة في السابعة، ويضع كسرولة على رأسه وهو يرقص الزومبا لكي يسليه.. ما الذي يحتاج إليه أكثر من كلِّ هذا؟..

مد كفه إليه ليصافحه وهو يقول:

- «حسنًا.. سأتبعك..»

اتسعت ابتسامة «رشيد» أكثر وهو يصافحه، قبل أن يقول:

- «عظيم..»

ثم أردف وهو يمط شفتيه ويهز رأسه:

- «فقط تبقت مشكلة واحدة..»

سأله «جون»:

- «وما هي؟»

أدار «رشيد» وجهه نحو الكثبان والنجوم، وتطلع إليها في صمت للحظات، قبل أن يقول:

- «يجب أن نستعيد الإزميل.. فلن نستطيع إيجاد طريقنا دونه.. اللوح الذي وجدناه في موقع التنقيب يؤكد أنه مفتاح كله هذا، وهو ما كان ينقصني منذ البداية..»

تطلع إليه «جون» لحظة وهو يفكر، قبل أن يقول:

- «ألا تستطيع أنت أن تستعيره منهم؟»

ابتسم «رشيد» وهو يرد:

- «ليت الأمر بهذه السهولة..»

ثم هز رأسه نفيًا، وقال وهو يدير وجهه نحو «جون»:

- «يجب أن نسرقه.. من قلب مخيمهم..»

وساد الصمت بعضها لبرهة طويلة، وكلاهما يشرد بأفكاره في الاحتمالات، وكل ما يمكن أن يحدث لو اكتشفوهما هناك.. لن تكون تجربتهم بعدها مما يسر النَّفس، ولكن لا خيار آخر.. يتمنيان لو كانت هناك طريقة أخرى، ولكن الواقع ليس بسيطًا هكذا.. الحياة دومًا لديها نزعة واضحة نحو الميلودراما، وهي تهوى أن تقود الطموحين نحو هلاكٍ محتوم..

وهما طموحان..

طموحان أكثر من اللازم..

***

-٥-

يومان قد مرَّا..

أنـت تـرى وجهيهـما اللذَيـن لوحتهـما الشـمس، فأكسـبته سـمارًا متزايـدًا.. حتـى «جـون» نفسـه اقـترب لـون بشرتـه مـن لـون بـشرة «رشـيد»، إضافـة إلى التـورد الأحمـر الـذي كسـا وجنتيـه وجبهتـه بفعـل حـرارة الشـمس.. هـذا طبيعـي لـو فكـرت فيـه، فقـد قطعـا مسـافة طويلـة مـن الصحـراء سـيرًا عـلى أقدامهـما.. لم تكن هنـاك وسـيلة أخـرى للأسـف.. لم يحـضر «رشـيد» معـه حصانًـا أو سـيارة لـو كان هـذا مـا تفكـر فيـه.. هـذا ليـس أحـد أفـلام إنديانـا جونـز..

ينـزلان مـن سـيارة النصـف نقـل الصغـيرة التـي وافـق صاحبهـا عـلى أن يُقِلَّهـما، عـلى أطـراف مدينـة السـلمان الصحراويـة العتيقـة.. مركـز قضـاء محافظـة المثنـى، وواحـدة مـن أقـل المـدن العراقيـة اكتظاظًـا بالسـكان.. تعدادهـم لا يتجـاوز التسـعة عـشر ألفًـا وأربعمائـة نسـمة حسـب إحصائيـة 2014.. قـارن هـذا ببلـد آخـر مثـل مـصر، وبتعـداد سـكانه الخزعبـلي، وسـيمكنك أن تكـوِّن فكـرة عـن مـدى صغـر هـذا الرقـم..

يديـر «جـون» عينيـه فيـما حولـه، ويتذكـر مـا راجعـه وقـرأه عـن العـراق ومدنهـا ومحافظاتهـا قبـل أن يـأتي إلى هنـا.. حسـب علمـه، هـذه المدينـة تقـع عـلى مقربـة مـن الحـدود العراقيـة السـعودية، في الباديـة الجنوبيـة للعـراق، وهـي مدينـة صحراويـة غـير متقدمـة، وتقـع عـلى مقربـة مـن سـجن (نقـرة السـلمان)، الـذي كان البعـض يلقبـه بــ «باسـتيل العـراق» نسـبة إلى سـجن الباسـتيل الفرنـسي الشـهير..

تاريخـه يعـود إلى الدولـة العثمانيـة، حيـث اسـتخدم كمـلاذ آمن للقـوات المكلفة بترويـض العشـائر المناهضـة لحكـم الأتـراك، ثـم اتخذتـه القـوات البريطانيـة بعـد دخولهـا إلى العـراق عـام 1914 سـجنًا حصينًـا ليكـون منفـى الوطنيـين الكارهـين

للاستعمار البريطاني .. ثم بعدها أصبح المكان معتقلًا لمعارضي الحكومات العراقية المتعاقبة..

لم يكن اختيار هذه المنطقة عبثًا، فهي عبارة عن منفى في صحراء متناهية الأطراف، مشهورة بالكثبان الرملية المتحركة وبالصخور المسننة، وأقرب منطقة مأهولة إليها تبعد أكثر من مائتي كيلومتر؛ ولذلك فإن أي عملية هروب من السجن تكاد تكون مستحيلة، خاصة أن الحيوانات المفترسة كالذئاب والضباع والكلاب المتوحشة تجوب هذه الأنحاء ليلًا ونهارًا..

الذئاب والضباع، والكثبان ذات الرمال المتحركة والصخور الحادة المدببة.. هذا هو ما ينتظرهما في كل المنطقة المحيطة بينهما.. فلو رآهما أحد، لن يستطيعا الهرب إلا للصحراء مباشرة.. ولن يكون هذا حكيمًا للغاية..

تنهد، وهو يتبع «رشيد» في سيره عبر الأزقة الضيقة.. ليست مدينة بالمعنى الحرفي للكلمة، بل هي أقرب للقرية منها للمدنية.. أزقة متشابكة معظمها غير ممهد، وأبنية قصيرة غير متعددة الطوابق.. أهالٍ بسطاء، لا يعرفون شيئًا عمَّا يدور حولهم، غافلون عن الاثنين اللذين يمشيان وسطهما، ولكنهم بدأوا يلاحظون.. من الصعب أن تمشي وسطهم وأنت تبدو كمتسول عاد لتوِّه من القبر.. دعك طبعًا من البندقية التي تتدلى من كتف «رشيد»، ومنظر «جون» الأجنبي الغريب، وملابسه الممزقة الممتلئة بدماء الذئب، التي تجعله يبدو كأنما هو خارج من فيلم حركة أمريكي..

الجميع يلاحظهما بالتأكيد.. يجب أن يحذرا..

«رشيد» يقول لـ «جون» وسط سيرهما:

- «المخيم قريبٌ من هنا..»

نظر «جون» إلى ما هو حوله، وتملى في الأبنية الصغيرة بعض الوقت، قبل أن يتساءل:

- «لماذا تسميه مخيمًا؟.. أرى الأبنية في كل مكان.. لا أعتقد أنهم يبيتون في

الشارع..»

نظر له «رشيد» وهو يجيب:

- «الضاحية التي نحن مقبلين عليها هي ملكٌ خاص بهم.. يملكون أبنيتها، ويملكون متاجرها.. وإجابةً عن سؤالك، نعم هم يسكنون الأبنية، ويفترشون الشارع ذاته في مخيمات ومجالس عربية.. لا أحد يقرب هذه المنطقة سوى من يشفعون له، أو الأقرباء..»

أومأ «جون» برأسه متفهمًا، ثم سأله:

- «لماذا تأخذني معك إذن؟.. قد تركوني للموت في قلب الصحراء، وبالتأكيد لن يسعدوا برؤيتي من جديد.. لو دخلت معك إلى المنطقة، فهذا انتحار..»

تسمر «رشيد» في مكانه وهو ينظر إلى الأمام، فأدار «جون» عينه إلى حيث ينظر ليطالعه هذان البدويان اللذان يمشيان من بعيد تجاههما، قبل أن يجذبه كف «رشيد» إلى اليمين ليختبئ خلف سيارة الدفع الرباعي العتيقة المركونة جوارهما..

يصمت تمامًا ويحبس أنفاسه وهو ينظر إلى إصبع «رشيد» السبابة، الذي وضعه على شفتيه علامة الصمت.. ينتظر حتى مرا، ثم يلتقط أنفاسه من جديد.. قلبه يخفق كالطبول، ويضخ الدم في جسده بسرعة متناهية توشك على أن تفجر عروقه.. كل هذا الانفعال يدفعه إلى موتٍ قريب، ولكنه – لسببٍ ما- يستمتع بوقته حقًّا..

ليس هذا ما ظن أنه ذاهبٌ إليه حينما استقل الطائرة من الولايات، ولكنه يجرؤ على أن يقول أنه لم يحظ بإثارة مثل هذه في حياته.. لأول مرة، يشعر أنه يحيا حقًّا.. صدق من قال أنك لا تشعر بحياتك فعلًا إلا وأنت في مواجهة الخطر والموت.. لم يشعر قط أنه قد حيا، أكثر ممَّا شعر بحياته في هذه الأيام الماضية.. حتى منظوره عن الحياة والعالم تغير تمامًا..

«رشيد» يقول هامسًا:

- «مـن قـال إنـك سـتأتي معـي؟... أنـت سـتنتظر هنـا ريثـما أدخـل إلى المخيـم وأجالسـهم لبعـض الوقـت.. ربمـا أتأخـر لأن عـليَّ كسـب ثقتهـم.. لـو دخلـت ورحلـت بسرعـة، فبالتأكيـد سيستشـعرون بـشيء مـا..»

أومـأ «جـون» برأسـه إيجابًـا في صمـت، فربَـت «رشـيد» عـلى كتفـه، ونهـض ليخـرج مـن مكانـه خلـف السـيارة، وعـدل مـن هندامـه، وحـاول أن ينفـض عنـه الـتراب، ويصفـف شـعره بأصابعـه للحظـة، ثـم خلـع البندقيـة مـن عـلى كتفـه وأعطاهـا لـ «جـون» ليبقيهـا معـه، وبـدأ في السـير باتجـاه المخيـم..

«جـون» الـذي جلـس في موقعـه للحظـات وهـو يتطلـع إلى البندقيـة، قبـل أن يرفـع رأسـه عـبر زجـاج السـيارة الجانبـي ليتطلـع إلى المقـود.. فكـرةٌ مـا تتكـون في عقلـه، وتدفـع ضربـات قلبـه للتسـارع إثـارةً وانفعـالًا..

وهنـاك.. عـلى الناحيـة الأخـرى، تـرى «رشـيد» يسـير في صمـت.. يسـير حتـى يصـل إلى المجالـس العربيـة والخيـام المنصوبـة عـلى جانبـي الشـارع، وأهاليـه الواقفـين في شرفـات المنـازل.. يرفـع يـده تحيـةً لصاحـب المتجـر الـذي ألقـى عليـه السـلام، وإلى أبنـاء خالتـه الجالسـين، ثـم يتابـع طريقـه وهـو يرمـق بعينـه ابـن عمومتـه وهـو يخـرج مـن خيمتـه وهـو يبتسـم..

- «محمـد.. أيـن كنـت يـا فتـى؟.. بحثنـا عنـك كثـيرًا.. ألـن تتخـلى عـن عادتـك القميئـة تلـك؟.. أنـت تتركنـا وترتحـل لوقـتٍ أكـثر مـمَّا تقضيـه معنـا..»

ابتسـم «رشـيد» ومـد يـده ليصافحـه في حـرارة تحولـت إلى عنـاق، وهـو يجيبـه:

- «أنت تعرف أن حياتي هناك.. وسط الصحراء وعلى الطريق..»

ربت ابن عمه على كتفه، بينما تابع هو:

- «أنـا كائـن سريـع الملـل.. بالتأكيـد لـن أطيـق الجلـوس في مـكانٍ واحـد لفـترة طويلـة..»

ضحك ابن عمه مجاملًا، وقال وهو ما زال يربت على كتفه وذراعه:

- «صدقت..»

ابتسم «رشيد» له، قبل أن يسأله:

- «أين أبي؟..»

أجابه:

- «أباك في رحلة إلى بغداد.. سافر منذ يومين هو وعلي بن ربيعة، وسلطان الرمادي .. لا نتوقع عودتهما بهذه السرعة..»

- «ولِمَ ذهبوا إلى بغداد؟!»

- «لا أعرف.. قد ذهبوا ليقابلوا أحد المستثمرين في قطاع التنقيب تقريبًا.. لا أذكر اسمه..»

أومأ «رشيد» برأسه متفهمًا، ثم تطلع إلى ما هو حوله لبعض الوقت، قبل أن يقول:

- «وجميل المنصوري؟.. أين هو؟»

أشار ابن عمه إلى الخيمة التي على الناحية الأخرى من الزقاق، فربت «رشيد» على كتفه في امتنان، قبل أن يستدير متجهًا إليها..

دلف إلى الخيمة الواسعة ليطالعه ظهر «جميل» الجالس على ذلك المقعد الخشبي العتيق، يستند إلى المنضدة أمامه، جوار مصباح الكيروسين القديم، يتطلع إلى شيءٍ ما في يده بتركيز جعله لا يستوعب أن أحدًا ما قد دخل إلى الخيمة.. فلم ينتبه إلا حينما ألقى عليه «رشيد» السلام.. فالتفت في سرعة ليتطلع إليه، ثم وضع ما بيده ونهض ليصافحه..

- «أين كُنت؟»

صافحه «رشيد» في فتور، وهو يجيب:

- «رحلة قصيرة من ضمن رحلاتي..»

ساد الصمت لبعض الوقت، قبل أن يقول «جميل»:

- «آسفٌ على صفعي لك سابقًا.. لم تكن هناك ضغائن، ولكننا جميعًا كنا متوترين، ورفضك لما كنا نفعله لم يكن مفيدًا جدًّا..»

تجاهل «رشيد» كلامه، وقال وهو ينظر من فوق كتفه إلى الجسم الموضوع على المنضدة:

- «هل هذا هو الإزميل الذي وجدناه في الصحراء؟»

استدار «جميل» وعاود الجلوس على الكرسي مرة أخرى، وهو يرد بالإيجاب، فسأله «رشيد»:

- «هل وجدت فيه شيئًا، أو عرفت عنه أي شيء؟»

هز «جميل» رأسه نفيًا وهو يقول:

- «كلَّا.. لا يشبه طرازه أيٌّ من الطرازات التي أعرفها، ولا يبدو منتميًا لأي حقبة من التاريخ العراقي القديم، سواء الآشوري أو السومري أو البابلي أو حتى الأكادي.. لا مثيل له على الإطلاق.. وهذا في حد ذاته لغز..»

مد «رشيد» يده له في إشارة لأن يعطيه الإزميل، فابتسم «جميل» وهو يقول:

- «من الأفضل أن لا تلمسه.. والدك أعطانا تعليمات واضحة بأن ذلك الجسم لا يجب أن يخرج من هنا تحت أي ظرف، ويجب أن يُدرس بتأنٍ وحذر، لئلا ينكسر أو يُخدَش.. نحن لا نعرف ماهيته بعد، ولا إلامَ يقود.. أنت تفهم هذه الأمور..»

تطلع إليه «رشيد» بعد الوقت، وهو ما زال يرفع راحته، ثم خفض ذراعه وابتسم في هدوء..

- «نعم.. أفهمها بالتأكيد..»

ظل «جميل» يبتسم نفس البسمة الصفراء..

- «لا تقلق.. يومًا ما سنسمح لك بفحصه.. ولكن ليس الآن.. هذه مهمة للكبار حاليًا..»

ظـل «رشـيد» يتطلـع إليـه بنفـس البسـمة.. صحيـح أنـه في التاسـعة عـشرة مـن عمـره، ولكـن عقلـه يقـترب مـن عقـل عالِـم في الأربعينـات.. وهـذا سـبب رئيـسي لغـيرة «جميـل» الواضحـة منـه.. فهـو يفوقـه سـنًّا بمـا يقـارب العـشر سـنوات، ولكنـه لا يتمتـع بربـع ثقافتـه وذكائـه، وكان هـذا دومًـا يورثـه حنقًـا بالغًـا تجاهـه، يخـرج للسـطح في صـورة سـخرية واسـتهزاء كلـما أتيحـت لـه الفرصـة..

لكـم ود لـو لكمـه في منتصـف أسـنانه، ليمسـح تلـك البسـمة المقيتـة مـن عـلى سـحنته؛ ولكـن ليـس الآن.. سـيهدد هـذا الخطـة كلهـا بالفشـل، بالإضافـة إلى أنـه أقـوى منـه بدنيًـا، وحجمـه هـو ضعـف حجـم جسـده تقريبًـا.. أي قتـال معـه لـن يكـون في صالحـه..

أومـأ «رشـيد» برأسـه علامـة اللامبـالاة، ثـم انحنـى وهـو يسـتدير خارجًـا مـن الخيمـة، ليقـف خارجهـا لبعـض الوقـت..

رفـع يـده أمـام عينـه اتقـاء ضـوء الشـمس الـذي يسـطع في مواجهتـه، ثـم هَـرَش في شـعره لحظـات كالقـرود، قبـل أن يخفـض يـده وهـو يضيِّـق عينيـه مفكـرًا، والشـمس تغمـره بحرارتهـا..

مـا الـذي يمكـن أن يفعلـه الآن؟.. ذلـك الوغـد يجلـس بالداخـل، ويـدرس الإزميل بعقلـه الـذي يمتلـك ذكاء السـلحفاة.. بالتأكيـد لـن يفهـم شـيئًا، ولـن يسـتطيع هـو أن يـسرق الإزميـل مـا دام جالسًـا بالداخـل..

يجب أن يفكر في خطةٍ ما..

تطلـع حولـه لبعـض الوقـت، قبـل أن تقفـز الفكـرة إلى ذهنـه بغتـة وهـو ينظـر إلى ذلـك الطفـل الـذي يجـري ويـركل الكـرة في كل ركـنٍ بقـوة، فتوشـك عـلى أن تكـسر زيـر المـاء الفخـاري الـذي يضعونـه في الركـن الظليـل.. لم يُضِـع وقتًـا في التفكـير، وتحركـت قدمـاه مـن تلقـاء نفسـها صـوب تلـك الخيمـة في الركـن البعيـد، بجـوار المنـزل..

زوجتــه - «جميــل»- هنــاك.. وذاك الــذي يركــض ويــركل الكــرة هــو طفلــه «راشـد».. يلعـب في الأرجـاء ولا يتوقـف عـن الركـض في كل مـكان، ولا يوقفـه شيء

سـوى صفعـات أمـه بـين الحـين والآخـر حينـما يثـير أعصابهـا، أو يكـسر شـيئًا.. تمامًـا كـما هـو عـلى وشـك أن يحـدث..

اقـترب مـن الخيمـة، ونظـر بداخلهـا في حـذر ليتأكـد مـن أن الزوجـة في الداخـل، ثـم اسـتدار واتجـه نحـو الطفـل الـذي مـا زال يلعـب بالكـرة، وربـت عـلى شـعره للحظـة، قبـل أن يـركل الكـرة في قـوة نحـو الزيـر الفخـاري، فانتزعتـه مـن مكانـه انتزاعًـا، ليسـقط عـلى الأرض ويتفتـت إلى مليـون قطعـة..

ابتعـد بسرعـة عـن الطفـل الـذي لم يسـتوعب مـا يحـدث، وبـدأ في البـكاء وهـو ينظـر إلى أمـه التـي خرجـت مـن خيمتهـا وهـي تصيـح في غضـب، قبـل أن تتجـه نحـوه لتوسـعه ضربًـا وركلًا..

- «آسف يا صغيري.. لم يكن هناك حلٌّ سوى ذاك..»

قالهـا في سره، وهـو يتطلـع مـن مكانـه في الركـن إلى «جميـل» الـذي خـرج مـن خيمتـه ليستكشـف مـا يحـدث، قبـل أن يهالـه منظـر زوجتـه التـي توسـع الطفـل ضربًـا، فيهـرع إليهـا ليبعدهـا عنـه..

وهنا كانت الفرصة.. لا أحد ينظر، ولا أحد ينتبه..

خـرج «رشـيد» مـن مكانـه في سرعـة، ودلـف إلى الخيمـة ليلتقـط الإزميـل، ويتطلـع إليـه للحظـات كانـت كافيـة ليسـتولي الانبهـار عـلى كل ذرة في كيانـه، وهـو يرمـق تصميمـه الأنيـق، وطرفـه الياقـوتي اللامـع.. هـذا الجسـم غريـب فعـلًا، لا ينتمـي لأي حقبـة معروفـة.. والـسر الـذي يختفـي وراءه غامـضٌ، لا سـبيل لسـبر أغـواره سـوى دراسـة متأنيـة..

أخـذ يقلبـه في يـده للحظـات، ثـم دسـه في حقيبتـه، واسـتدار ليخـرج مـن الخيمـة في سرعـة، ويتجـه إلى مخـرج الشـارع، قبـل أن يتسـمر مكانـه فجـأة مـع صـوت «جميـل» الـذي أتـاه مـن خلفـه..

- «إلى أين تذهب بهذا؟»

***

ظـل «جـون» في موقعـه لبعـض الوقـت، يتطلـع إلى البندقيـة، ثـم نهـض ليتطلـع إلى السـيارة التـي يختبـئ خلفهـا لبعـض الوقـت وهـو يفكـر..

هــما بحاجــة إلى ســيارة بالتأكيــد.. وقتــما يكتشــفون اختفــاء الإزميــل، فمــن المؤكـد أنهـم سـيتبعونهما، ولـن يكـون مـا سـيحدث لـو لحقـوا بهـما مبهجًـا.. لـن ينجـوا طويـلًا وهـما يتنقـلان بـين سـيارات الأجـرة، وشـاحنات النصـف نقـل..

السيارة ضرورية عند هذه النقطة..

أخـذ يتطلـع إلى السـيارة لبعـض الوقـت، ثـم تـرك البندقيـة مسـتندة إلى الحائـط، وبـدأ يـدور حـول السـيارة منحنيًـا وهـو يبحـث عـن نقطـة ضعـف تُمكِّنـه مـن فتـح البـاب، وتهللـت أسـاريره حينـما وجـد جـزءًا مـن الزجـاج الخلفـي مفتوحًـا.. أصحــاب الســيارات يســتعملون هــذه الحيلــة دومًــا في الصيــف أثنــاء درجــات الحـرارة العاليـة، لتهويـة السـيارة، وعـدم حبـس الهـواء السـاخن بداخلهـا، تلافيـا للحرائـق أو ذوبـان محتويـات الصالـون والتابلـوه..

حـاول أن يجـذب النافـذة إلى الأسـفل بأصابعـه، فلـم يقـدر بعـد العديـد مـن المحـاولات.. فاسـتدار عائـدًا إلى حيـث تـرك البندقيـة، وانحنـى ليلتقطهـا، ثـم عـاد إلى النافـذة، ودس الفوهـة بالداخـل، وشرع يدفـع الدبشـك إلى الأعـلي، محـاولًا اسـتغلاله كرافعـة يدويـة، ليخفـض بهـا الزجـاج.. وكان مـا حـدث هـو العكـس.. تشـقق الزجـاج، وانكـسر الجـزء العلـوي منـه دون مقدمـات تمنحـه حتـى فرصـة أن يأخـذ حيطتـه..

تعـالى صـوت الزجـاج المتناثـر لينخلـع قلبـه معـه، فتلفـت حولـه في ذعـر ليتأكـد أن أحـدًا لا يـراه، ثـم تنفـس الصعـداء.. لا أحـد ينتبـه، ولا مـارة في الشـارع مـن الأسـاس.. شـعر بالامتنـان لتعـداد السـكان القليـل الـذي يجعـل المـارة ظاهـرة نـادرة، ثـم علـق البندقيـة عـلى كتفـه، وهـو يـدس يـده عـبر الزجـاج المحطـم، ليجـذب مؤَمِّـن البـاب إلى الأعـلى، ويفتـح البـاب..

دلـف إلى المقعـد الخلفـي بسرعـة وهـو يغلـق البـاب خلفـه، ثـم يلتقـط أنفاسـه للحظـات.. لم يتخيـل يومًـا أنـه سـيأتي عليـه وقـتٌ يجـد فيـه نفسـه يقـوم بسرقـة

سيارة في مدينة صحراوية على أطراف حدود العراق.. العالم له طرق غريبة حقًّا..

هذه هي مرته الأولى أيضًا؛ لذا فهو لا يفهم ما يحتاج إلى أن يفعله بالضبط، وإن رآه كثيرًا في الأفلام الأمريكية.. يجب أن ينحني تحت علبة المقود، ويجذب الأسلاك من داخلها.. هذه هي الخطوة الأولى..

اندس إلى المقعد الأمامي عبر الفراغ بين المقعدين، ثم وضع البندقية جواره، وانحنى بجسده ليدخل إلى التجويف تحت المقود، ثم دسَّ يده إلى الداخل لينتزع الأسلاك.. العديد منها أمامه الآن، وهو لا يفهم بالضبط ما يجب أن يفعله.. لكن لا بد أن الأمر ليس بهذه الصعوبة..

الأسلاك جميعًا تنقسم إلى ثلاث مجموعات، كل منها مغطى بمفتاح كهربي بلاستيكي أو فيوز.. هو لا يفهم ماهيته بالضبط، ولكنه يعرف أن أحد هذه المجموعات من الأسلاك، هو سلك مفتاح التشغيل، وسلكي البطارية ومشغل المُحرك.. تتبع بعينه مسار الأسلاك نحو المقود، حتى استطاع أن يحدد المجموعة التي تخرج من مفتاح التشغيل، ومن البطارية في مقدمة السيارة، فانتزع الغطاء البلاستيكي الذي لا يفهم ماهيته من عليها، ليعري الأسلاك أمامه تمامًا..

أخذ يتطلع إلى الأسلاك للحظات محاولًا أن يفهم..

حسنًا.. الخطوة الثانية الآن هي أن يشغل كهرباء السيارة، حتى يمكنه أن يوفر الطاقة اللازمة لتشغيل المحرك.. كيف يفعل هذا؟..

بالضبط.. يجب أن يلامس سلك البطارية وسلك مفتاح التشغيل معًا..

دس السلكين في فمه وقضم عليهما بأسنانه، وجاهد حتى أنتزع الطبقة العازلة من فوقهما، ثم لامسهما معًا ليجد كهرباء السيارة تعمل في الحال.. ابتسم ابتسامة واسعة وهو يمسح عرقه في كمه، ثم يلوي الأسلاك على بعضها ليثبتها في مكانها، والتقط السلك الآخر الذي هو سلك مُشغِل السيارة أو ما يسمونه (المارش Starter)، وتطلع إليه للحظات..

هــذه هــي الخطــوة الأخــيرة، والأصعــب.. حركــة خاطئــة واحــدة يمكنهــا أن تصعقــه صعقــة كافيــة لتحــرق شــعره، يجــب أن يكــون حــذرًا..

دس الســلك في فمــه، وانتــزع نصــف ســنتيمتر مــن الغطــاء العــازل لــه، ثــم مســح عرقــه مــن جديــد في كمــه، وهــو يقــرب الســلك العــاري مــن الســلكين المتصلــين في حــذر.. وفــور أن لامســهما ببعــضٍ، تنامــى إلى مســامعه صــوت المحــرك وهــو يعمــل، فبــدا وقعــه عــلى أذنــه كصــوت الموســيقى..

قــد فعلهــا.. هــذا رائــع.. لم يعــرف أن بوســعه سرقــة ســيارة مــن قبــل، ولكنــه يتعلــم شــيئًا جديــدًا عــن نفســه في كل يــوم..

حــاول أن يحــرك مقــود الســيارة، فلــم يســتطع.. تبًّــا.. هــذا هــو قفــل المقــود بالتأكيــد.. يجــب أن يحــرره..

حــاول أن يدفــع المقــود إلى اليمــين جاهــدًا، فأخــذت أصابعــه تنزلــق مــن عليــه بفعــل العــرق، ففركهــا في قميصــه، والتقــط البندقيــة مــن جــواره ليدســها في فــراغ المقــود، وشرع يدفعهــا بــكل قوتــه حتــى دوى صــوت البلاســتيك الــذي ينكــسر، وتحــرر المقــود تمامًــا..

أخــذ يحركــه إلى اليمــين واليســار حتــى يتأكــد، ثــم عــدل وضعيتــه إلى المنتصــف تمامًــا، وفتــح بــاب الســيارة ليخــرج قبــل أن يغــرق في عرقــه..

ترى ما الذي يفعله «رشيد» الآن؟..

رمــى نظراتــه إلى مــا يــدور مــن بعيــد، فلــم يتبــين المشــهد جيــدًا بســبب ضيــاء الشــمس، فضيَّــق عينيــه وهــو يضــع كفيــه المفروديــن فــوق جبهتــه ليحمــي عينــه مــن الأشــعة الســاطعة، ويتيــح لهــما النظــر في حريــة إلى مــا يجــري هنــاك.. ولم يكــن مــا رآه مطمئنًــا..

يــرى «رشــيد» وهــو يقــف في منتصــف الشــارع، ويتكلــم مــع ذلــك الرجــل الــذي سرق معداتــه في الصحــراء.. مــاذا كان اســمه؟.. جميــل المنصــوري تقريبًــا.. مــا الــذي يفعله؟..

يـراه يتقـدم مـن «رشـيد» ويجذبـه مـن ذراعـه، ويرقـب «رشـيد» وهـو يحـاول التملـص ودفعـه في صـدره، فينـال لطمـة مـن كفـه عـلى وجنتـه، بينـما باقـي الأهـالي يخرجـون مـن خيامهـم، ومـن المنـزل ليتطلعـون إلى مـا يـدور متسـائلين..

لا بد أن أمره قد كُشِف.. يجب أن يتحرك بسرعة، فلا وقت هنالك..

أنـدس في مقعـد السـائق، وجـذب مفتـاح تأمـين البـاب المجـاور ليفتحـه، ثـم التقـط البندقيـة مـن جـواره ليجـذب إبرتهـا ليلقمهـا الرصاصـة ويعيدهـا إلى وضـع الإطـلاق.. هـذه هـي لحظـة الحقيقـة..

يشـعر بالانفعـال يغلـف حركـة يـده المرتجفـة وهـو يحـرك عصـا السرعـة إلى الوضـع الأول، ثـم يضغـط عـلى دواسـة البنزيـن بـكل قوتـه، لتفـرك عجـلات السـيارة عـلى الأرض الترابيـة، وتندفـع مـن مكانهـا مصحوبـةً بعاصفـة مـن الـتراب والغبـار..

يتجـه بسرعـة نحـو «رشـيد» الـذي يتلقـى الصفعـات، حتـى يقـترب، فيجـذب فرامـل اليـد، ويديـر المقـود إلى أقـصى اليمـين لتـدور السـيارة حـول نفسـها بعـرض الشـارع حتـى تتوقـف بزاويـة تمنحـه فرصـة للعـودة مـن جديـد..

جـذب البندقيـة، وفتـح بـاب السـيارة ليخـرج مصوبًـا البندقيـة إلى «جميـل» الـذي تسـمر في مكانـه وهـو ينظـر إليـه مذهـولًا..

- «اتركه حالًا.. اتركه وإلا أطلقت النار..»

يشـعر بالانفعـال يسـتولي عـلى كيانـه، ويزلـزل جسـده لدرجـة بـدا فيهـا الارتجـاف واضحًـا عـلى أطرافـه، بينـما تعلقـت أنظـار الأهـالي بـه في نفـس الذهـول، ومـن بينهـم «رشـيد» الـذي نظـر لـه مذهـولًا للحظـات، قبـل أن يتحـرك راكضًـا نحـو بـاب السـيارة ليفتحـه وينـدس إلى الداخـل.. في نفـس اللحظـة التـي خرجـت فيهـا كلـمات «جميـل» مـن بـين شـفتيه بنـبراتٍ غـير مصدقـة:

- «أنت حي؟.. مستحيل..»

تراجـع «جـون» في بـطءٍ إلى الخلـف وهـو مـا زال يصـوب البندقيـة إلى منتصـف

جبهتـه، ويقـول بنـبرات أرادهـا واثقـة، فخرجـت رغـمًا عنـه مرتجفـةً منفعلـة:

- «لا تتبعنا.. هذا هو تحذيري الوحيد..»

وجـذب بـاب السـيارة ليدلـف إلى الداخـل، ويحـرك عصـا السرعـة إلى الوضـع الأول، ثـم ضغـط دواسـة البنزيـن بـكل قوتـه وهـو يحـرك المقـود إلى اليمـين، لتنطلـق السـيارة مخلفـةً نفس عاصفـة الغبـار خلفهـا، لتغمـر الواقفـين بذراتهـا، فيسـعلون وهـم يجاهـدون لالتقـاط أنفاسـهم..

«رشـيد» يجلـس في مكانـه بصمـتٍ وهـو يرتجـف، قبـل أن يتمتـم وهـو ينظـر أمامـه إلى الطريـق:

- «ما الذي فعلته؟.. ما الذي فعلته؟»

لم يبـدُ عـلى «جـون» أنـه يسـمعه وهـو يركـز في القيـادة عبر الشـوارع الضيقـة، حتـى خـرج مـن المدينـة تمامًـا، وأطلـق العنـان للسـيارة عـلى الطريـق الصحـراوي الموحـش وهـو يلهـث في انفعـال..

نظـر «رشـيد» إلى الخلـف عـبر الزجـاج الخلفـي، ليرمـق السـيارة العتيقـة التـي تتبعهـم عـلى مسـافة بعيـدة تـكاد تكـون غـير ملحوظـة.. هـو يعـرف هـذه السـيارة.. هـي سـيارة «جميـل».. وليسـت هـذه وحدهـا، بـل هنـاك عاصفـة مـن الغبـار خلفهـا، وتتبعهـا.. لا بـد أن هـؤلاء ليسـوا أقـل مـن خمـس سـيارات.. الجميـع يطاردونهـما..

اعتـدل في مكانـه وقلبـه يخفـق في قـوة، ونظـر إلى «جـون» في صمـت للحظـات، قبـل أن يقـول بنـبراتٍ تبـدى فيهـا التوجـس جليًّـا:

- «هل تدرك حجم ما فعلته؟»

أجابـه «جـون» وهـو ينظـر في مـرآة السـيارة إلى مـا هـو خلفـه للحظـة، قبـل أن يحـرك عصـا السرعـة إلى الوضـع الخامـس:

- «ما فعلته هو أنني أنقذتك.. هذا هو كل ما أعرفه..»

صمـت «رشـيد» للحظـات وهـو يتطلـع إليـه، قبـل أن يعـود إلى مقعـده وهـو

يضـم حقيبتـه إلى صـدره ليعانقهـا..

- «بـل أنـت حكمـت عـليَّ بعـذابٍ طويـل حينـما يلحقـون بنـا، وعـلى نفسـك بمـوتٍ بطـيء، وشـنيع..»

نظـر لـه «جـون» لحظـة، قبـل أن يديـر عينـه إلى مـرآة السـيارة مـرة أخـرى ليرمـق السـيارات التـي تتبعـه مـن بعيـد بنظـرة طويلـة، ولم يـرد..

أصابعـه ترتجـف عـلى المقـود، ويشـعر أنـه عـلى وشـك أن يفقـد وعيـه انفعـالًا، فيحـاول أن يتمالـك نفسـه، ويسـأل:

- «هل أحضرت الإزميل؟»

أومأ «رشيد» برأسه إيجابًا بلا رد، فتابع «جون»:

- «أين سنذهب الآن؟»

سـاد الصمـت لحظـة، قبـل أن يأتيـه الـرد مـن «رشـيد» بعـد زفـرة حـارة طويلـة:

- «إلى النخيـب، فالبقعـة الموجـودة عـلى الخريطـة هـي إلى الجنوب منهـا، بداخل الصحـراء.. أمامنـا رحلـة طويلـة، ومسـافة لا تقل عـن خمسـمائةِ كيلومتر..»

ثم نظر إلى عداد البنزين في السيارة، الذي يشير إلى اكتماله إلا القليل..

- «آمُل أنك أحضرت الكثير من الوقود..»

رمـق «جـون» العـداد للحظـات، قبـل أن يديـر عينـه إلى المـرآة مـن جديـد، ويتطلـع إلى سرب السـيارات في الأفـق بنظـرة طويلـة..

ولم يرد..

***

-٦-

يرمق الطريق الترابي، الذي تترامى الرمال على جانبيه، ويتنهد..

مُدُن عديدة قد مروا عليها، وتابعوا طريقهم بلا توقف.. السيارات التي تتبعهم لم يعد يراها، ولا يدري أين ذهبت.. ربما استطاعوا أن يفروا منها، ولكنه لا يعتمد على هذا كثيرًا..

ألقى نظرة على مرآة الصالون ليتأكد من أن أحدًا لا يتبعهم، ثم نظر بطرف عينه إلى «رشيد» الجالس جواره في صمت، يتطلع إلى الطريق وإلى الصحراء من النافذة جواره في شرود..

أفكاره تسبح بعيدًا هناك في الأفق..

حجم الدمار والمدن التي فقَدَت بريقها، والقوات والفِرَق المسلحة التي قابلوها في طريقهم أكبر من كل ما كان يمكن أن يتخيله.. القوات الأمريكية دمرَّت هذا البلد الجميل حقًّا.. بلد يملك من الحضارة ما يربو على الستة آلاف سنة، وربما أكثر، فَقَدَ في سنوات قليلة كل ما كان يميزه، وأصبح معظمه كومة من حطام المباني، بلا جيش أو قائد حقيقي، وبلا ساحة سياسية موحدة أو مجتمع موحد.. الميليشيات المسلحة عددها يفوق قدرته على الحصر، والجيش لم يعد هناك، فقد فككه الأمريكان كعادتهم.. المدن أصبحت تحت سيطرة هذا الفصيل أو ذاك، ولا عزاء للأهالي الذين صاروا لا يجدون قوت يومهم إلا بصعوبة بالغة.. دعك من الأسلحة والتفجيرات الإرهابية التي أصبحت شيئًا معتادًا لا يمر يومٌ من غيره.. الأمان صار شيئًا بعيدًا للغاية، ومنسيًّا كأنه لا وجود له..

بشكلٍ ما هو يفهم قبيلة «رشيد»، ويفهم دوافعهم في نبذ مهمتهم الأسطورية، وبيع تاريخ بلادهم إلى من يدفع أكثر.. الحي أبقى من الميت

وليس هناك خلودٌ أو دوام.. لن تفيدهم الآثار بشيءٍ وهم يتضورون ولا يجدون ما يسدون به رمقهم.. هؤلاء بشر برغم كل شيء.. بشر لهم أحلام وطموحات، ورغبات واحتياجات.. وكمثل سائر البشر، هُم يطمحون للعيش في أمان، طاعمين شاربين مكسيين.. يطمحون للخروج من هنا في يومٍ ما، وترك كل هذا خلفهم.. وكل هذا بالتأكيد لن يتحقق سوى بالمال.. الكثير منه.. الآثار وفيرة على أيةِ حالٍ، وربما كان الأفضل لها أن تصبح في يد علماء الجامعات الأجانب، وجامعي التحف.. هؤلاء يقدرون قيمتها أكثر من شعبها الأصلي الذي يدمرها في كل يومٍ في حربه مع أعدائه، ومع نفسه..

حتى بلاده نفسها، ليست بريئة جدًّا من كل هذا الذي حدث ها هنا.. بريطانيا كانت تحتل العراق في بدايات القرن الماضي، وبسبب سياساتها، وصل العراق لنقطة حضيض، لم يصل لها في تاريخه، وكانت سببًا فيما فعله صدام بعدها.. بلاده لم تعارض حتى غزو الولايات المتحدة الأمريكية للعراق، بل أيدت القرار في مجلس الأمن برغم أنهم كانوا يعلمون جيدًا أن هذا سيحكم على شعب كامل بالفناء، وعلى حضارة هي من أقدم الحضارات المعروفة على وجه الكوكب بالاندثار المؤلم البطيء.. بلاده شاركت في الغزو ضمن قوات الحلفاء، وكانوا ضمن الدول التي قامت بعلميات القصف المُركز على الأهداف العسكرية والاستراتيجية العراقية، والتي مهدت الطريق بعدها لدخول القوات الأمريكية، وبداية الاحتلال..

كونه بريطانيًّا لا يشفع له كما كان يظن.. صحيح أنه ليس جزءًا من سياسة بلاده، ولكنه جزء من قوتها، وجزءٌ من اقتصادها.. هذا لا يعفيه من المسئولية.. كل هذا الذي رآه هو مسئول عنه بصفة غير مباشرة.. هو يعرف هذا، والأهالي يعرفون هذا.. فلو لم يكن صحيحًا، لِمَ يخفي وجهه إذن ويتسلل كما اللصوص كلما قابل أحد الفصائل المسلحة في الطريق؟.. لأنهم سينتقمون منه لو رأوه بالتأكيد.. وهو لا يلومهم..

صحيح أن سياسة صدام كانت استعمارية وعدوانية، وأنه كان سببًا مباشرًا

فيما تعرضت له بلاده بعدما شن حربه على الكويت، ولكن كل هذا الدمار لم يكن ضروريًّا بالتأكيد، وكان يمكن تلافيه بطرق أخرى أكثر سلمية.. حتى خيار الحرب لو لم يكن هناك مفرٌّ منه، فإنه لم يكن ضروريًّا أن يصير تنفيذه بمثل هذه الهمجية.. هو لا يفهم الكثير عن علوم السياسة وعن طريقة إدارة الحروب، ولكنه يعرف أكثر مما ينبغي عن تاريخ البشر الدموي، وعن تفننهم في إبادة وإفناء بعضهم كلما توفرت فرصة..

جزءٌ من عقله يعرف أنه يهول الأمور، وأن الذنب ليس ذنبه.. على الأقل ليس لهذه الدرجة.. ولكن الجزء الآخر لا يقتنع.. هو يستوعب تمامًا ما حدث، وما يحدث.. يفهم نفسيات البشر الذين تعرضوا طوال ثمانية سنوات منذ بداية الغزو عام 2003، وحتى الخروج النهائي من العراق سنة 2011، إلى أبشع عمليات التعذيب والتنكيل والإهانة على يد القوات الأمريكية، أدت إلى تغير نفسياتهم تمامًا.. القسوة –لا بد- تولد القسوة، والعنف لا يُقابل إلا بالعنف.. هؤلاء الأهالي لم يكُن متوقعًا منهم أن يتركوا بلادهم تذهب إلى الجحيم بالتأكيد.. دفاعهم عن نفسهم لا يعدُّ إرهابًا، حتى وإن سماه الإعلام العالمي بهذا.. الأمر في نهاية المطاف لا يشكل فارقًا..

سياسات الإعلام الغربي القذرة معروفة منذ بدء التاريخ على أي حال.. انظر إلى تعامل الإعلام الغربي والعالمي مع قضايا النزاع الإسرائيلي الفلسطيني، وستفهم ما أعنيه..

هو يفهم كل هذا.. يفهمه، ويفهم دوافعه وأسبابه.. يفهمه أكثر من اللازم، ويولِّد هذا بداخله حزنًا وكآبةً لا تنزوي ولا تزول، فيتنهد..

يزفر زفرة حارة وهو يدور بعينيه في المدينة التي أقبلوا عليها، ودخلوها بالفعل.. يتملى بعينيه في معالمها الصحراوية البدائية، ومبانيها البيضاء القديمة التي لا يزيد طولها عن طابقين.. الشوارع الرملية الصفراء، والمعالم الصحراوية التي تغلف كل شيء، وتحيط كل شيء..

هي ليست مدينة بالمعنى المفهوم، فمثلها كمثل مدينة السلمان التي كان

فيها هـو و»رشـيد».. حجمها متناهـي الصغـر، وربما لا يزيـد عـن ثلاثـة أو أربعـة شـوارع رئيسـية.. هـي أقـرب للقريـة منهـا للمدينـة.. أي شيء رآه هنـا يبـدو مثـل القـرى البدائيـة، بالنسـبة لما يـراه في الولايـات وفي بريطانيـا.. كل مـا تقـع عينـاه عليـه هـو بـدوي بشـكلٍ أو بآخـر.. يتذكـر مـا قـرأه عنهـا أثنـاء دراسـته قبـل أن يسـافر إلى هنـا.. هـي مدينـة بدائيـة يسـكنها بـدو القبائـل العربيـة.. لا يسـتطيع تذكـر أسـماؤهم، فهـي صعبـة جـدًّا عـلى ثقافتـه الغربيـة، ولكـن نعـرف نحـن أنهـم قبائـل عنـزة وشُـمَّر والدليـم..

التفت إلى «رشيد» الشارد بجواره، وقال:

- «نحن هنا..»

لم يـرد «رشـيد»، وظـل عـلى نفـس شروده للحظـات، قبـل أن يقـول وهـو يلتفـت إليه:

- «عظيم..»

صمـت «جـون» منتظـرًا إيـاه أن يتكلـم، ولكنـه لم ينطـق بكلمـة أخـرى، فسـأله:

- «ماذا سنفعل إذن؟»

مـال «رشـيد» في مقعـده لينظـر إلى عـداد الوقـود الـذي قـارب عـلى أن يفـرغ، ثـم قـال:

- «سـنذهب جهـة اليسـار مـن الشـارع المقبـل، نحـو الصحـراء.. لا توجـد هنـا محطـات وقـود بالمناسـبة، وربما لا توصلنـا السـيارة إلى هنـاك.. تحـضر للسـير حتـى الموقـع..»

لم يـرد «جـون» وهـو يديـر المقـود ناحيـة اليسـار في الشـارع الـذي حـدده «رشـيد»، ثـم يضغـط عـلى دواسـة البنزيـن، لتقفـز السـيارة عـبر الطريـق إلى داخـل الرمـال، والأرض الصلبـة بعـض الـشيء، وتواصـل طريقهـا داخـل الصحـراء التـي لا معـالم لهـا..

ظـل ينطلـق بعـض الوقـت، وهـو ينظـر في المـرآة بـين الحـين والآخـر ليتأكـد مـن أن أحـدًا لا يتبعهـما، ثـم سـأل:

- «هل قطعت كل هذه المسافة وحدك؟.. وسط كل هذا؟»

نظر له «رشيد» وهو يبتسم..

- «ماذا؟.. أتعتقد أنني طفلٌ أيضًا؟»

ابتسم «جون» رغمًا عنه وهو يهز رأسه بعلامة النفي..

- «كلا بالطبـع.. أنـا مندهـش مـن إصرارك وشـجاعتك.. هـذا كل مـا في الأمـر.. كـم عمـرك عـلى أي حـال؟»

أتاه الرد بنبرات فخورة:

- «تسعة عشر عامًا..»

نظر له «جون» في دهشة..

- «أنت في التاسعة عشرة؟!»

فضحك «رشيد» ضحكة قصيرة..

- «كنت أعرف أنك ستندهش..»

ساد الصمت للحظة، قبل أن يرد «جون»:

- «لم أكـن أتوقـع هـذا صراحـةً.. كنـت أظـن أنـك في الخامسـة أو السادسـة والعشريـن عـلى الأقـل..»

- «آسفٌ على تخييبِ ظنك..»

تبسَّم «جون» وهو يقول:

- «لا أسفَ واجبٌ..»

ساد الصمت للحظاتٍ أخرى، قبل أن يتبع سؤاله بسؤالٍ آخر:

- «هل ذهبت إلى المدرسة أو الجامعة؟»

هـز «رشـيد» رأسـه نفيًـا في بسـاطة، فتطلـع «جـون» إلى ملامحـه بعـض الوقـت

في شـفقة، قبـل أن يسـأله:

- «ولماذا؟»

صمت «رشيد» لحظات وهو يتطلع عبر النافذة في شرود، قبل أن يجيبه:

- «أبي لم يهتـم بهـذا يومًـا.. بالنسـبةِ لـه، كانـت مسـاعدتي لهـم في عمليـات التنقيـب أهـم مـن التعليـم.. بالإضافـة إلى أننـا دائمـي التنقـل ولا نسـتقر في مـكانٍ واحـد لفـترة طويلـة.. لم أكـن لأسـتمر في أي مدرسـة عـلى أي حـال..»

ظل «جون» يرمقه في صمتٍ دفعه لأن يضيف:

- «ثم هناك مشكلة النقود بالطبع..»

ظل «جون» يرمقه بنفس النظرة، قبل أن يتساءل:

- «وكيـف إذن تعـرف كل هـذا الـذي تعرفـه عـن التاريـخ القديـم، ومواقـع الحضـارات وحقباتهـا؟»

التفت إليه «رشيد» وهو يبتسم..

- «كل مـا في الأمـر هـو أننـي أحـب القـراءة، وأملـك الكثـر جـدًّا مـن الكتـب.. هـذا هـو كلُّ شيء..»

ظـل «جـون» يتطلـع إليـه في صمـتٍ يمتـزج بإعجـابٍ خفـي، وشـفقة واضحـة.. هـذا العبقـري الصغـر قـوي الشـخصية الـذي يجلـس بجانبـه يسـتحق أن يـدرس ويتعلـم في أفضـل مـدارس وجامعـات العـالم.. يسـتحق أن يمتلـك فرصـة حقيقيـة في الحيـاة.. ولكـن كل ذنبـه أنـه وُلِـد في بلـدٍ مُدمَّـر، مُحتـل اقتصاديًّـا، لأبٍ بـدوي لا يفهـم أهميـة التعليـم ولا يهتـم.. ربمـا لـو حظـي بنفـسِ فرصتـه، لفاقـه نجاحًـا وعلـمًا وثقافـة.. لكـن الحيـاة غـير عادلـة، لا تميـز بـين مـن يسـتحق ومـن لا يسـتحق.. هـي فقـط تمـضي في عشـوائية، ولا تهتـم بمـن يفوتـه القطـار، أو لا يجيئـه مـن الأسـاس..

- «أنا سعيدٌ حقًّا أنني قابلتك يا رشيد..»

اتسـعت ابتسـامته حتـى أكسَـبَتْ ملامـح وجهـه الأسـمر وسـامةً فـوق وسـامته،

وقال بعد صمتٍ لحظة:

- «أُفَضِّل لو ناديتني باسم محمد..»

أومأ «جون» برأسه متفهمًا، قبل أن يقطع حديثهما صوت المحرك الذي توقف عن العمل، وصوت عجلات السيارة وهي تهدئ سرعتها حتى تتوقف تمامًا..

نظرا لبعضهما نظرة ذات معنى، ثم حاول «جون» أن يلامس سلك التشغيل في السلكين الملفوفين من جديد، ولكن السيارة لم تستجب..

- «الوقود قد فرغ..»

قالها «رشيد» وهو ينظر إلى عداد الوقود، قبل أن يجذب مقبض الباب ويفتحه ليخرج من السيارة..

- «سنكمل سيرًا من هذه النقطة.. قد اقتربنا على أيةِ حال، وربما نصل قبل مغيب الشمس..»

أتبع عبارته بأن التقط حقيبة المؤن التي ابتاعها من متجر في طريقهما، وحملها على كتفه، ثم بدأ في المشي وهو يناول البندقية لـ «جون» الذي ترجَّل من السيارة وهو يحمي عينيه بكفه اتقاء الشمس وضيائها الساطع..

نظر إلى الأفق خلفهما وتملى بنظراته فيه للحظاتٍ قصيرات.. لا أحد يتبعهما، ولا يرى شيئًا في مجال بصره..

زفر في حرارة قبل أن يستدير، ويدفع قدماه إلى الأمام خلف «رشيد»..

ونحو المجهول..

***

الشمس تغيب، وتصبغ كبد السماء بأشعتها الحمراء القانية، فتبدو كدماءٍ تلطخ ثوبَ المساء الذي يجاهد لكي يجيء، ويسود..

وهما يمشيان في بطء، يمسحان عرقهما بين الحينِ والآخر، ويتجرع «جون»

مـن زجاجـة المياه المعدنيـة الكبـيرة التـي يحملهـا، ويطفـئ عطشـه، ثـم يضعهـا في حقيبـة المـؤن مـن جديـد..

هـما يسـيران منـذ مـا يزيـد عـن الأربـعِ سـاعات، ولا شيء يتبـدى هنـاك في الأفـق.. لا شيء سـوى الكثبـان في كل جانـب، وكل اتجـاه..

- «هل أنت متأكدٌ أننا نسير في الاتجاه الصحيح؟»

نظر «رشيد» إلى البوصلة التي يحملها في يده، وقال:

- «أجل.. هذا هو الاتجاه الصحيح.. اصبر، فقد أوشكنا..»

صمـت «جـون» وهـو يمـشي وراءه شـاردًا.. يفكـر في كلِّ مـا دار منـذ جـاء إلى هنـا..

يفكر في «جاكلين»..

قـد رأت كل مـا حـدث، ونـسي هـو تمامًـا أن يتواصـل معهـا ويطمئنهـا أنـه بخـير.. بالتأكيـد الجميـع هنـاك قـد قلبـوا الدنيـا بحثًـا عنـه، ويظنونـه ميتًـا الآن أو أسـيرًا، أو أبشـع..

تنهد، وواصل سيره بلا نُطق..

سـيتواصل معهـم في وقـتٍ قريـب.. ربمـا حينـما يصلـون إلى البقعـة التـي يقصدونهـا منـذ بـدأت كل تلـك الرحلـة، ويطلعهـم عـلى مـا وجـده.. لتكونَـنَّ دهشـتهما عظيمـة، وفخـره أعظـم..

هـو يقـف عـلى بُعـد خطـوات مـن أحـد أكـبر الكشـوفات التاريخيـة والأثريـة في القـرن، وربمـا القـرون السـابقة.. عـلى بعـد أمتـار مـن المـكان الـذي سـيخلد اسـمه في التاريـخ كأهـم مكتشـف جـاء منـذ اكتشـاف الحضـارات العراقيـة القديمـة.. الانفعـال يسـتولي عـلى قلبـه وعـلى جسـده بأكملـه، فيداعـب فيـه شـعور الفخـر والخيـلاء..

لا يحـض مـن شـعوره هـذا، إلَّا حيرتـه إزاء شيءٍ آخـر لا يسـتطيع إخراجـه مـن ذهنـه..

ذلـك العالِـم الجامعـي الـذي أطلعـه عـلى الأسـطورة منـذ بدايتهـا، وكلماتـه التحذيريـة التـي أثـارت التوجـس في نفسـه حـين سـمعها تخـرج مـن شـفتيه..

مـا الـذي كان يعنيـه؟.. مَـن الـذي يخفـي الأمـر عـن المجتمـع العالمـي، ولمـاذا لا تتحـدث عنـه الصحافـة والإعـلام؟.. كشـفٌ أو فرضيـة كهـذه يمكنهـا أن تثـير المشـاهدين، وترتفـع بأسـهم مشـاهدات القنـوات ومبيعـات الجرائـد إلى حـدودٍ قصـوى غـير مسـبوقة؛ فلـماذا كل هـذا الصمـت؟..

ثـم رجـل الأعـمال هـذا، الـذي مـوَّل حملتـه.. «ويـزلي كيسـنجر».. مـا مـدى علمـه بالأسـطورة حقًّـا، ولمـاذا كان الأمـر يبـدو كـما لـو أنـه يعـرف كل مـا حـكاه لـه، قبـل أن ينطـق لسـانه بكلمـة واحـدة؟.. كيـف يمكـن أن يعرفـه في الأسـاس؟.. ربمـا كان يملـك صديقًـا مـن بـين العلـماء الذيـن شـاركوا في الحملـة أو في فـك شـفرات الألـواح.. ولكنـه لسـببٍ مـا يشـعر أن هنـاك مـا هـو أكـثر مـن ذاك.. يشـعر أن سرًّا مـا يقبـع بـين الظـلالِ وينتظـر، ويورثـه هـذا وجـلًا وتوجسًـا لا يـدري لـه سـببًا أو تبريـرًا..

هنـاك رائحـة كريهـة خلـف هـذا كلـه.. رائحـة تفعِّـم أنفـه، ولا تفارقـه.. مـن الجيـد أنـه هنـا وحـده بـلا آخريـن، عـلى الأقـل هـو يضمـن أن لا يَنسِـب أحدُهـم اكتشـافه لنفسـه، أو لجامعـةٍ مـا.. هـذا أفضـل بالتأكيـد.. برغـم كل مـا عانـاه في رحلتـه، وكل مـا مـر بـه، ولكنـه أفضـل..

قطع حبل أفكاره فجأة صوت «رشيد» الذي استولت الغبطة على نبراته:

- «لقد وصلنا.. أخيرًا..»

رفع «جون» عينه في سرعة ليطالعه المشهد أمامه..

تلـك التَّبـة الرمليـة متوسـطة الطـول، التـي تمتـزج صخورهـا بالرمـال الصفـراء، وعـلى جانبيهـا نفـس تلـك الرمـال الداكنـة التـي وجدهـا مـن قبـل في موقـع التنقيـب الـذي وجـد فيـه الإزميـل.. ولكـن كل هـذا لم يكـن مهـمًّا، بقـدر أهميـة ذاك الـذي كان موجـودًا هنـاكَ في سـفحِها..

ذلـك الكهـف الصغـير الـذي يقـود إلى الأسـفل، وذلـك الضـوء المتألـق الأزرق

الخافت الـذي يـأتي مـن داخلـه، فـلا يبـدو واضحًـا إلا بسـبب عتمـة الليـل الـذي يُقبِـل عليهـما في سرعـة..

تسـارعت أنفاسـه واتسـعت عينـاه في ذهـول، وهـو يركـض نحـو المـكان ولا يشـعر بنفسـه في غمـرة انفعالـه.. وتبعـه «رشـيد» في سرعـة والرمـال تتناثـر تحـت أقدامهـما..

دلـف إلى الكهـف في بـطء وتطلـع إلى مـا هـو حولـه في انفعـال وضربـات قلبـه تخفـق كالطبـول.. أصابعـه ترتجـف بـلا سـيطرة وهـو يتمـلَّى في تضاريـس الكهـف الملسـاء، التـي تبـدو كأنمـا هـي نُحِتَـت نحتًـا في الصخـر ذاتـه!.. الجـدران الملسـاء، والسـقف الأملـس المتشـقق الـذي غزتـه شـباك العناكـب، والحـشرات الصغـيرة..

كيـف يمكـن أن يحـدث هـذا؟.. مـن المسـتحيل أن تكـون عوامـل التعريـة قـد شـكلت الكهـف بهـذه الطريقـة الدقيقـة!.. هـذا مصنـوع.. هـذا الكهـف قـد حفرتـه يـد كائـن عاقـل.. لا.. ليـس يـده، بـل حُفِـر باسـتعمال تكنولوجيـا متطـورة، ربمـا تتفـوق عـلى تكنولوجيـا الحفـر الحاليـة !.. فكيـف؟!..

حبـس أنفاسـه منبهـرًا وهـو يتقـدم داخـل الكهـف، ويـدور مـع النفـق الهابـط إلى اليمـين قليـلًا، ثـم يبـدأ الهبـوط عـلى الدرجـات المنحوتـة في الأرض، بنفـس الجـودة التـي لا تُسـتوعَب..

كان هـذا قبـل أن تقـع عينـاه عـلى مـا ينتظـره في نهايـة الـدرج الـذي يقـوده إلى الأسـفل، ويشـهق في انبهـارٍ وذهـول بلـغ مرحلـة لا يمكـن معهـا أن يصـف مـا يشـاهده بكلـمات فانيـة..

الآن عـرف سر ذلـك الضـوء الأزرق الخافـت المتألـق الـذي كان يـأتي مـن داخـل الكهـف..

ذلـك البـاب المعـدني الضخـم، الـذي يحتـل حجمـه عـشرة أضعـاف حجـم حائـط تقليـدي، طـولًا وعرضًـا.. تكوينـه المتطـور لدرجـة لا تُسـتوعَب، ومـادة صنعـه المعدنيـة الغريبـة التـي لم يـرَ لهـا مثيـلًا في حياتـه.. تغزوهـا عـروق متفرقـة مـن مـادة شـفافة لا يـدري ماهيتهـا.. ربمـا هـي المـاس أو الكريسـتال.. تتألـق بنـورٍ أزرقٍ

هـادئ، يتمـوج مـع اقترابهـما، ويـزداد سـطوعًا، حتـى يـضيء كل مـا هـو حولهـما بضيائـه، مـع اقترابهـما الحثيـث الـذي قـاد خطواتهـما إلى مـا هـو أمامـه، لا يفصـل بينهـما وبينـه سـوى أمتـارٍ قليـلات..

«رشـيد» يرمـق «جـون» في صمـتٍ وهـو يبتسـم، بينـما «جـون» يتطلـع إلى مـا هـو أمامـه في ذهـول دام لحظـاتٍ، ودقائـق، وربمـا لـو تـرك نفسـه لأضحـت سـاعات..

لا يسـتوعب مـا يـراه، ولكـن شـيئًا واحـدًا أكيـدًا.. هـذا ليـس مـن صنـع حضـارة قديمـة!.. مسـتحيل أن يكـون هـذا مصنـوع منـذ سـتة آلاف عـام أو أكـثر!.. هـذا غـير قابـل للتصديـق أو حتـى الاسـتيعاب في ذهـن أكـثر العلـماء طموحًـا وتفتحًـا وحياديـة علميـة..

هـذه تكنولوجيـا صناعيـة حقيقيـة تشـبه مـا يمتلكـه البـشر الحاليـون، وربمـا تفوقـه تطـورًا وحداثـة!..

كيف؟!..

حبـس أنفاسـه للحظـات، قبـل أن يقـترب مـن البـاب الضخـم، ويلمسـه بأصابعـه في انبهـار؛ ليشـعر بمادتـه الملسـاء تقتحـم ذهنـه وعالمـه، فتلقـي في نفسـه عـدم تصديـق يوشـك عـلى أن يصيبـه بلوثـةٍ لا غلبـة لهـا..

يبتلـع لعابـه، ويسـأل بنـبرات متحشرجـة، لا تجـسر الكلـمات معهـا عـلى مفارقـة لسانه:

- «كيف؟!.. كيف وجدت هذا المكان؟!»

قـال «رشـيد» وهـو يتطلـع إلى ملامحـه الذاهلـة مبتسـمًا في فخـر يمتـزج بانبهـاره الدائـم هـو الآخـر تجـاه مـا يـراه للمـرة الثانيـة:

- «الخارطة.. الخارطة هي من صنعت كل الفرق..»

لم يرد «جون» وهو يتحسس الجدران بكفيه، فأردف «رشيد»:

- «هـذا الكهـف لم يكـن ظاهـرًا للعيـان بالمناسـبة.. بـل كان مغلفًـا بطبقـة

مـن الرمـال المتجمـدة، الممتزجـة بطبقـة الرمـال الداكنـة نفسـها التـي وجدناهـا أثنـاء الحفـر في موقـع الإزميـل.. أنـا مـن حفـرت خلالهـا، ليظهـر المدخـل بهـذا الشـكل..»

أدار «جـون» عينـه إليـه في انبهـار.. لا يسـتوعب أنـه يقـف هنـا والآن، في وسـط هـذا كلـه.. يريـد أن يـصرخ في نشـوة.. يريـد أن يخـبر أحـدًا بـكلِّ هـذا..

- «ناولني هاتف القمر الصناعي..»

قالهـا وهـو يتجـه صـوب «رشـيد» في سرعـة، فناولـه الهاتـف الـذي ابتاعـوه مـن متجـر الأدوات الإلكترونيـة خـلال طريقهـم، وهـو يسـأله:

- «ماذا ستفعل؟»

لم يجبـه وهـو يكتـب الأرقـام عـلى شاشـة الهاتـف في سرعـة.. كـود الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، ثـم رقـم هاتـف «كيسـنجر» الـذي حفظـه كاسـمه..

التغطيـة لا تعمـل جيـدًا، والهاتـف لا يُكمِـل عمليـة الاتصـال.. لا بـد أن هـذا بسـبب أنهـم في قلـب الكهـف.. يجـب أن يصعـد إلى الأعـلى..

قفـز عـلى خطـوات الـدرج صاعـدًا في سرعـة وهـو يعـاود عمليـة الاتصـال مـن جديـد، وانتظـر لحظـات قبـل أن يأتيـه رنـين جـرس الهاتـف المميـز.. لحظـات مـرت طويلـة كسـاعاتٍ أو دهـور، قبـل أن يأتيـه صـوت «كيسـنجر» المتسـائل مـن الناحيـة الأخـرى مـن العـالم.. ألا فلتحيـا التكنولوجيـا..

- «مستر كيسنجر.. وجدتها.. قد وجدت المدخل أخيرًا..»

أتاه صوت «كيسنجر» المنفعل من السماعة:

- «ماذا؟!.. ماذا قلت؟!»

لم يقـدر «جـون» عـلى أن يكبـح انفعالـه عنـد هـذه اللحظـة، فهتـف بأقـصى قوتـه:

- «وجدتهـا.. وجدتهـا يـا مسـتر كيسـنجر.. وجـدت مدخـل المدينـة المفقـودة أخـيرًا..»

لحظات يسمع فيها همهمات على الناحية الأخرى من الخط، ونقرات على مفاتيح أجهزة إلكترونية، قبل أن يأتيه الصوت:

- «أين أنت الآن بالتحديد؟»

يفرك «جون» جبهته مترددًا فهو لا يذكر العنوان، وتطلع إلى «رشيد» الذي حرك شفتاه بالعنوان هامسًا، دون أن ينطق، ثم ردد الكلمات وراءه:

- «جنوب مدينة النخيب في الصحراء العربية.. ربما عشرون أو ثلاثون كيلومترًا داخل الصحراء..»

قالها ورفع عينه إلى وجه «رشيد» وهو يبتسم، قبل أن ينتبه فجأة إلى النظرة التي تعلو وجهه الممتقع، فيدير عينيه إلى الاتجاه الذي ينظر إليه..

سرب السيارات الذي ظهر في الأفق يقترب في سرعة، يخرج من نوافذها هؤلاء الرجال الملثمون الذين يحملون الأسلحة الآلية والبنادق ويصوبونها إليهم، تصحبهم سحابة عظيمة مرعبة من التراب والغبار والرمال المتناثرة..

خفق قلبه في ذعر وهو يتسمر في مكانه للحظات، قبل أن يدوي صوت الطلقات من بعيد، وتبدأ الرمال في التطاير حوله بفعل الرصاص الذي يغمر موقعه كالسيل..

ظل متسمرًا في مكانه وهو يرقب المشهد بلا حراك، قبل أن يدفعه «رشيد» ليسقط أرضًا، ثم يصرخ فيه:

- «اخرج من هنا..»

قالها واستدار ليركض نحو مدخل الكهف، فنهض «جون» ليتبعه في سرعة وهو يتعثر في كل خطوة حتى يوشك على أكل الرمال المتناثرة في وجهه وعينيه..

يبلغ الكهف أخيرًا، ويحتمي بمدخله، بينما الطلقات ترتطم بالجدران الملساء، وترتد منها في كل ركن في سرعة اجبرته على الانحناء لتفاديها.. وصوت السيارات يقترب، يقترب حتى صار وشيكًا..

صـوت «كيسـنجر» يخـرج مـن سـماعة الهاتـف صارخًـا، حتـى يوشـك عـلى أن يعلـو عـلى صـوت الرصاصـات:

- «ما الذي يحدث عندك؟!.. جون !.. جون !»

لم يجبـه وهـو ينحنـي، ويتذكـر البندقيـة التـي عـلى كتفـه، فانتزعهـا ومـد يـده خـارج الجـدار الـذي يحتمـي بـه وهـو يجـذب الزنـاد، فـدوت الطلقـة لتدفـع كتفـه إلى الخلـف، وتطـير إلى الخـارج موقفـةً معهـا سـيل الرصـاص المنهمـر.. فلـم ينتظـر، وجـذب إبرتهـا ليلقمهـا الرصاصـة التاليـة، ثـم ضغـط الزنـاد مـرة ثانيـة.. وثالثـة.. ورابعـة..

سـيل الرصـاص الآتي مـن الخـارج توقـف لحظـات، بينـما الرجـال يهبطـون مـن سـياراتهم، ويحتمـون بأجسـامها والأبـواب، ثـم أطلقـوا النـار مـن جديـد، فحمـى «جـون» وجهـه، بينـما «رشـيد» يجلـس القرفصـاء جـواره وهـو يمسـك رأسـه بـين كفيـه في هلـع..

ظـل سـيل الرصاصـات ينهمـر لبعـض الوقـت، قبـل أن يتوقـف فجـأة كـما بـدأ، ويتبعـه صـوت «جميـل المنصـوري» المقيـت وهـو يهتـف مـن الخـارج:

- «نحـن نحيـط بالمـكان كلـه، وعددنـا أكـبر مـمَّا تتصـوره.. لا سـبيل آخـر للخـروج مـن هنـا..»

لم يـرد أحدهـما، وظـل «جـون» يلهـث في انفعـال، بينـما أدار «رشـيد» عينـه التـي ملأتهـا الدمـوع إلى حيـث مدخـل الكهـف في ذعـرٍ جـليٍّ..

- «أخـرج مـن موقعـك يـا رشـيد أنـت وهـذا الكلـب الأمريـكي.. لا أحـد يجـب أن يمـوت اليـوم..»

أدار «جون» عينه لينظر عبر جدار الكهف في حذر..

أكـثر مـن عـشر سـيارات واقفـة، وفـوق العشريـن رجـلًا، مسـلحون بالبنـادق والرشاشـات الآليـة العتيقـة..

«جميـل المنصـوري» يقـف هنـاك وسـطهم خلـف بـاب إحـدى السـيارات، وهـو

يصيح محيطًا شفتيه بكفيه علامة النداء:

- «اخرج من موقعك.. هذا هو ندائي الأخير، وبعده سأبدأ في العد حتى خمسة.. لو لم تلقيا البندقية إلى خارج الكهف، وتخرجا وأيديكما فوق رأسيكما، فسنبدأ في استعمال القنابل..»

تراجع «جون» ليستند بظهره إلى الحائط من جديد كأنما هو يوشك على أن يغوص بداخله، وضربات قلبه تخفق كالطبول، بينما نهض «رشيد» من جلسته، واقترب بجسده ليلتصق بـ «جون» في رعب، في حينِ أتاهم الصوت المُقبِض من الخارج..

- «واحد..»

***

يتطلع إلى ما حوله محاولًا البحث عن مخرجٍ ما، يعرف يقينًا أنه ليس موجودًا.. الكهف ليس له سوى مخرج واحد، وهو الآن يقف جواره.. لا طريق سوى من هنا..

- «اثنان..»

شعور الحصار يستولي عليه، فيورث قلبه فزعًا فوق فزعه.. يشعر بالأدرينالين يجري في عروقه، ويكسبه قوةً تقهر الجيوش، لو أنه فقط يجرؤ على استعمالها..

- «ثلاثة..»

«رشيد» جواره يرتجف وهو يتشبث به في هلع، ومنظر عينيه يشي بما يدور في ذهنه من أفكار.. بالتأكيد يفكر فيما سيحدث له حينما يمسكوهما، وهو بالتأكيد ليس شيئًا لطيفًا جدًّا.. ليس قططًا صغيرة وفراشاتٍ وأزهار لو كنت تفهم ما أعنيه..

- «أربعة..»

يتطلع إلى البندقية في يده.. قد أطلق منها أربع رصاصات بالفعل، وهو لا يعرف إلى كم رصاصة تتسع.. لا يملك ذخيرة، وقطعًا لن يستطيع مقاومتهم بما تبقى معه.. هي عديمة الفائدة الآن.. الحقيقة التي يخشى الاعتراف بها

لنفسـه هـي أنـه لا مخـرج آخـر.. يجـب أن يستسـلم، وإلا كانـت هـذه هـي النهايـة فعـلًا.. وهـو ليـس مسـتعدًا للمـوت.. ليـس الآن..

- «خمسة..»

لم تكـد الكلمـة تتـم، حتـى ألقـى «جـون» بالبندقيـة إلى الرمـال خـارج الكهـف، ثـم رفـع صوتـه صائحًـا:

- «حسنًا.. حسنًا.. سنخرج الآن.. لا تطلقوا النار..»

سـاد الصمـت وهـو ينظـر إلى «رشـيد» الـذي هـز رأسـه نفيًـا في ذعـر، فالتقـط نفسًـا عميقًـا وخـرج مـن خلـف الجـدار وهـو يرفـع ذراعيـه إلى الأعـلى، جاذبًـا إيـاه معـه..

الرجـال الملثمـون يقفـون في كل ركـن، وصـوب كل اتجـاه.. لا سـبيل للهـربِ منهـم فعـلًا.. هـو الآن في موقـفٍ لا يحسـد عليـه، ولا بـد أن القـادم شـنيع..

«جميل المنصوري» يخرج من موقعه وهو يضحك في جذل، قبل أن يقول:

- «كنت تظن أننا فقدنا أثركم، أليس كذلك؟»

لم يـرد «جـون» وهـو يرقـب خطواتـه التـي تقـترب منـه في ثبـات، حتـى صـار أمامـه مبـاشرة، وهـو يقـول:

- «نحـن نتعقبكـم منـذ خرجتـم مـن السـلمان.. ولكـن كانـت فكـرتي هـي أن نعطيكـم وقتًـا ومسـافة كافيـة لتتوجهـان إلى حيـث تريـدانِ أن تذهبـا.. كنـت أعـرف أنكـما تتجهـانِ نحـو مـكانٍ مـا بالتحديـد، وهـا نحـن ذا..»

صحـب عبارتـه بـأن رفـع كفـه وهـو يشـير إلى الكهـف مبتسـمًا، قبـل أن يلطـم «جـون» بغتـةً عـلى جبهتـه بدبشـك البندقيـة التـي يحملهـا، لتتفجـر الدمـاء مـن رأسـه وتُغـرِق عينيـه وملابسـه وهـو يسـقط أرضًـا وسـط تأوهـاتِ ألمـه المتصاعـد..

تراجـع «رشـيد» في مكانـه وهـو ينتفـض مـع مـرآى الـذي يحـدث، فابتسـم «جميـل» أكـثر وهـو يقـول مشـيرًا لــ «جـون» الـذي تكـوَّم عـلى الأرض كالخرقـة الباليـة:

- «هذا هو من تخون قومك لأجله؟.. هذا الكلب؟!»

أتبع كلماته بركلة في معدة «جون» دفعته لأن يصرخ متألمًا، بينما انتفض «رشيد» من جديد وهو يحاول التماسك، فقط لتخونه عيناه وتنحدر منهما عبرةٍ نافرة..

- «أراهن أنك تظنُ نفسك ذكيًا.. كنت تظن بالتأكيد أننا لن نقدر على تعقبكما حتى هنا.. كُنتَ مخطئًا يا صاحِبي..»

ثم اقترب في بطءٍ من «رشيد» الذي ارتجف جسده في وضوح ناقلًا هلعه إلى المشهد، وقرَّب وجهه إلى بعد سنتيمترات من وجهه، وهو يقول:

- «لولا أباك، لنِلتُ مِنكَ هنا والآن.. ولكن هذه ليست التقاليد لحسنِ حظك..»

ثم استدار إلى «جون» وأشار إلى جسده الذي بدأ يزحف على الرمال محاولًا أن ينهض..

- «لكِنَّ التقاليد لم تذكر شيئًا عن ذاك..»

انحنى بعدها ليقبض على شعر «جون» الذي صرخ متأوهًا، وبدأ يسحبه عبر الرمال حتى السيارة، ثم وضع وجهه تحت عجلاتها وهو يشير لأحد الرجال أن يساعده.. فأتى هو وآخر، وجعلا يثبتان جسده على الرمال، بينما دلف «جميل» إلى السيارة ليعبث بالداخل بعض الوقت، قبل أن يخرج حاملًا في يده حبلًا طويلًا، شرع يحيط به عنق «جون» كالأنشوطة..

«جون» الذي حاول التملص وهو يشهق ويبصق الرمال التي ابتلعها في ارتياع، محاولًا أن يلتقط أنفاسه في صعوبة، بينما «جميل» يحيط عنقه بالحبل حتى ربطه في إحكام، ثم استدار وربط طرفة الآخر في السيارة، ودلف بداخلها ليجذب عصا السرعة إلى الخلف، ويضغط دواسة البنزين بقوة..

تعالت صرخات «جون» وهو يُجَرُّ خلف السيارة التي تتراجع إلى الخلف وتغمره بذرات الرمال المتطايرة التي توشك على شي وجهه.. يشعر بعنقه يوشك أن ينفصل من موضعه، ويورثه ذاكَ ألمًا لا يُحتمل.. لحظات يحاول فيها أن يقاوم ويشهق، ويحاول أن يبعد الحبل عن عنقه أو يدس يده بينه وبين

أليافـه كدعامـة لئـلا ينكـسر..

لحظـات مـرت كدهـور، قبـل أن يتوقـف «جميـل»، ويهبـط مـن السـيارة ليركلـه في بطنـه مـن جديـد، ويبصـق عليـه وهـو يشـير لــ «رشـيد» قائـلًا:

- «هذا هو الذي فضلته علينا؟.. سأجعل منه عبرة بعد لحظات..»

ثم اتجه نحوه في خطواتٍ واسعة، وهو يمد كفه إلى الأمام مضيفًا:

- «أين الإزميل؟»

لم يـرد «رشـيد» وهـو يتراجـع إلى الخلـف في وجـل، فأتبـع «جميـل» عبارتـه بصرخـة زلزلـت قلبـه:

- «أين هو؟»

دس «رشـيد» يـده في الحقيبـة، وأخرجهـا حاملـةً الإزميـل، فتناولـه منـه وجعـل يتفحصـه لحظـات، ليتأكـد مـن سـلامته..

- «عظيم.. شكرًا..»

ثـم نظـر مـن فـوق كتـف «رشـيد» إلى مدخـل الكهـف الـذي يقفـون أمامـه لحظـة، قبـل أن يسـأل:

- «ما الذي بداخل هذا الكهف؟»

لم يجبـه «رشـيد»، فكـرر سـؤاله مجـددًا بنـبرة أعـلى دفعـت جسـده لأن ينتفـض، و يجيب:

- «لا شيء.. لا شيء..»

نظر له «جميل» وهو يرفع حاجبيه علامة السخرية..

- «لا شيء؟!.. حقًّـا؟.. أنتـم قطعتـم أكـثر مـن خمسـمائة كيلومـتر، وسرتـم كل هـذا وسـط الصحـراء مـن أجـل لا شيء؟.. إلى أيِّ حـدٍّ تظننـي غبيًّـا؟!»

هز «رشيد» رأسه نفيًا، وهو يغمغم:

- «لا أظنك.. لا أظنك..»

قرَّب «جميل» وجهه منه وهو يسأل ممسكًا أذنه بكفه علامة الإنصات:

- «ماذا؟.. ماذا تقول؟»

فرت عبرة أخرى من عيني «رشيد» وهو يقول بصوتٍ أوضح:

- «لا أظنك.. لا أظنك غبيًّا..»

صفَّق «جميل» بكفيه في استهزاء وهو يقول:

- «هذا هو ما أود أن أسمعه.. شكرًا.. شكرًا يا عزيزي..»

ثم استدار لباقي الرجال وهو يشير لأحدهم أن يأخذ الإزميل ليحفظه، ولآخرٍ تجاه «جون» الذي يتلوى على الأرض متألمًا..

- «حسنًا يا رجال.. اربطوا ابن العاهرة هذا وضعوه في السيارة، واتبعوني داخل هذا الكهف..»

ثم التفت إلى «رشيد» وهو يبتسم في تشفٍّ:

- «لِم لا تأتي معنا؟»

ولكن نظرة منه إلى ملامح «رشيد» التي تغيرت وهو ينظر إلى ما هو خلفه ألقت رعبًا خفيًّا إلى داخلِ نفسه، خصوصًا مع صوت الهدير المتعالي الذي بدأ يتنامى لمسامعه، فالتفت إلى الخلف بسرعة ليري ما يتطلع إليه، وتراجع إلى الخلف في ذهول امتزج بالتوجس مع رؤياه للمشهد الدائر..

طائرات الهليوكوبتر قاتمة السواد التي تقترب في سرعة، وصوت هدير مراوحها يتعالى، ولكنه ليس عاليًا جدًّا.. طائرات كاتمة للصوت.. سمع عنها كثيرًا من قبل.. استعمالها يكون في مهمات الإنقاذ والتجسس..

ثلاث طائرات تقترب في اضطراد، وتخفض من ارتفاعها حتى تصير معالمها جلية، ويظهر في وضوح هؤلاء الجنود المتشحون بالسواد الذين يطلون من جوانبها حاملين أسلحتهم الأوتوماتيكية المتطورة..

انبطح «رشيد» على الرمال بحركة لا شعورية، بينما تسمر «جميل» في مكانه للحظات كانت كافية لتصيبه الرصاصة الأولى التي انطلقت في صمتٍ من فوهة سلاح أحد الجنود، لتخترق منتصف صدره، مصحوبة بوابل من الطلقات الصامتة التي تفجرت في أجساد الرجال الآخرين وغمرت الرمال

حولهـم..

دقيقـة واحـدة.. دقيقـة بالضبـط هـي التـي اسـتغرقها المشـهد كلـه، قبـل أن ينقشـع الغبـار ودخـان الأسـلحة عـن مذبحـة كاملـة..

الرجـال جميعًـا ممـدون عـلى الرمـال، تختلـط دماؤهـم بترابهـا وغبارهـا، وأسـلحتهم مُلقـاةٌ بجوارهـم، بينـما الطائـرات تحُـط في مكانهـا عـلى الرمـال، وتتصاعـد مـن تحتهـا سـحابة عظيمـة مـن الغبـار والـتراب لتغمـر العيـون والأجسـاد، فـلا تـرى شـيئًا لثـوان..

ثـوانٍ قبـل أن ينقشـع كل هـذا عـن الجنـود الذيـن هبطـوا مـن الطائـرات الثلاثـة بملابسـهم السـوداء الغريبـة، وأقنعتهـم السـوداء الداكنـة التـي لا معالِـمَ لهـا، حاملـين أسـلحتهم القاتمـة كملابسـهم، يحيطـون بالمـكان بأكملـه في حـركات سريعـة احترافيـة لا مثيـل لهـا..

ثم خرجت من بين صفوفهم هي..

تقـترب بخطـواتٍ واثقـة مـن جسـد «جـون» المُلقـى عـلى الأرض لا يسـتوعب الـذي حـدث، وتنـزع عـن وجههـا ذلـك القنـاع الأسـود القاتـم الـذي لا معـالم لـه، ليكشـف وجههـا الفاتـن وشـعرها الأسـود القصـير، وعينيهـا الخضراويـن؛ ثـم مـدت كفهـا لـه لتسـاعده عـلى النهـوض..

مـد يـده في صعوبـة ليقبـض عـلى كفهـا، واسـتند عليهـا ليقـف في مكانـه مـن جديـد، بينـما التفتـت هـي لترمـق «رشـيد» بنظـرة سريعـة لتتأكـد أنـه لا خطـر منـه، ثـم اسـتدارت إلى «جـون» مـن جديـد وهـي تمـد يدهـا لـه مصافحـة..

- «جيما..»

نظـر لهـا «جـون» للحظـاتٍ غـيرَ مسـتوعب، ثـم انتبـه لكفهـا الممـدود، فتلقفـه مصافحًـا..

- «جيما جرين..»

***

-٧-

صمت..

صمتٌ تام، ورائحة الدماء المميزة، التي تمتزج بطعم الغبار والرمال التي يحملها الجو في أرجائه..

منظر الأجساد المُلقاة في كل ركن، تتكوم على نفسها كالخرق القماشية، يمتزج كساؤها بالدماء بالرمال، فيثير في النفس هلعًا ورجفة، وفي الجسدِ قشعريرةً باردة..

«رشيد» الذي ينظر حوله بلا استيعاب.. هؤلاء أهله جميعًا.. هم جزء من قبيلته وعشيرته، ومعظمهم أولاد عمته أو أولاد خالته.. صحيح أنه يكره أكثرهم ولا يطيقهم، ولكنهم ما زالوا أهله.. وهم الآن جثث..

لا يصدق، ولا يستوعب.. فخذاه يرتجفان في وضوحٍ سافر، ولا تقويان على حمله، فيتهالك جسده ليستند بكفيه على ركبتيه وهو يلهث في سرعة ويحاول أن يلتقط أنفاسه.. يشعر أنه يختنق.. لا يقوى على التنفس، ويجاهد لكي يُدخِل الهواء إلى رئتيه.. إنها نوبة هلع Panic Attack كما يبدو، وهو على موعد مع تجربة شنيعة..

«جون» على الناحية الأخرى يصافح تلك الفتاة المتشحة بالسواد، ويرتجف وهو يتطلع إلى عينيها الخضراوين الجميلتين، ويرقب شفتيها الحمراوين تتحركان، لتخرج الكلمات من بينهما:

- «هل هناك أحد آخر يعرف أنكما هنا؟»

هز «جون» رأسه نفيًا في بطء وهو يحدق فيها وهي تستدير وتشير بيدها في حركات استراتيجية للرجال الذين تحركوا ليطوقوا المكان ويحتلوا مواقع حيوية في كل ركنٍ فيه، ثم اتجهت في ثبات نحو أحد الجثث المسجاة

على الرمال، وانحنت لتلتقط الإزميل من بين كفه المنقبضة عليه، ونهضت وهي ترفعه أمامها متفحصة، ليلتمع سِنُّهُ الياقوتي المدبب في الشمس..

ظلت تتفحصه بعض الوقت، ثم استدارت إلى «جون» ورمقته للحظات، قبل أن تضع أحد أصابعها على أذنها وتتحدث إلى الميكروفون الموجود في كُم ردائها الأسود المدرع:

- «البيت مؤَمَّن، والشحنة في حوزتنا..»

ثم أنصتت للأوامر التي تأتيها من السماعة للحظات، قبل أن تقول:

- «تعاملنا مع الأهداف كلها، والصقر بخير..»

ثم أدارت بصرها إلى «رشيد» الواقف يلهث محاولًا التقاط أنفاسه في صعوبة، قبل أن يُفرِغ ما بمعدته على الرمال مراتٍ عديدة..

- «هناك هدفٌ آخر لم يتم التحضير له، ويبدو أنه صديق.. نطلُب وسيلة للتعامل..»

أنصتت للحظات، قبل أن تقول:

- «عُلِم وسينفذ..»

ثم اتجهت نحو «جون» لتردف:

- «المدخل بداخل هذا الكهف؟»

لم يقدر «جون» على كبح جماح تساؤلاته أكثر من هذا، فسألها في انفعال بدا واضحًا على نبرات صوته المرتجفة اللاهثة:

- «مَن أنتِ؟.. مَن أنتم بالضبط؟»

لم ترد وإن افترَّ ثغرها عن بسمة غامضة، فأتبع هو سؤاله بآخر:

- «هل أنتِ من الجيش الأمريكي؟.. قوات خاصة أو دلتا؟»

ظلت تبتسم نفس البسمة الغامضة، ثم قالت:

- «أنت حقًا لا تعرف.. لا تملك أدنى فكرة..»

هز «جون» رأسه في حيرة وهو يقول:

- «فكرة عن ماذا؟!»

تذكر رغمًا عنه كلمات العالِم التي حذره بها منذُ زمنٍ يبدو بعيدًا للغاية الآن..

«ما يتردد بين الجميع هو أن الأمر وراءه شخصٌ مُعين، أو مجموعة من الأشخاص.. ربما هو تنظيم سري من نوعٍ ما، لا يفهم أحد ما هو بالضبط، ولكن نفوذه واسع وقوي بشكلٍ لا تتصوره.. ربما هو اتفاق بين الحكومة العراقية وإدارة الجامعة وهؤلاء المجموعة الغامضة.. لا أدري بالضبط.. لا يجب أن تشغل نفسك كثيرًا بالتفكير في الأمر على أي حال.. هذا لمصلحتك أنت الخاصة..»

مجموعة غامضة؟!.. لا يشعر بارتياح كبير.. بالإضافة إلى أن منظر بسمتها الهادئة لا يلقي شعورًا طيبًا في نفسه..

تتطلع إليه لحظة، ثم تقول وهي تتراجع خطوة إلى الوراء ليغمر ضوء القمر المتبدي في الأفق ملامحها، وينعكس من على عينيها فتبدو كأنما هي تبعث نورًا:

- «نحن مجموعة من الأشخاص يهمهم أمر ما تبحث عنه بعض الشيء، ونعدُّه من خصوصياتنا التي نحب أن نبقيها سرًّا بقدر الإمكان..»

صمت «جون» لحظات وقلبه يدق في سرعة، ثم سألها في حذر:

- «ماذا تقصدين بمجموعة من الأشخاص؟.. ما هو الكيان الذي تنتمون له بالضبط؟»

دست الإزميل في حزامها في مكانٍ مخصص لحجمٍ يماثله، ثم أتاه ردها بنبرات رنانة أثارت الرهبة في نفسه مع كل حرف:

- «نسمي أنفسنا بـ «تنظيم المصدقين الحقيقيين The Order of the True Believers».. هذا هو كياننا، ودلالته واضحة.. أصولنا تعود إلى زمن سحيق

لا يُستوعب، قبل زمن المسيح وموسى، وقبل أيِّ زمنٍ آخر تعرفه أو تتصوره.. قبل التاريخ ذاته.. أما عن ماهية ذاك الذي نصدقه، فهذا سرٌّ قديم ومقدس، لم يُسمح يومًا للغرباء بمعرفته، ولكنني أثق في أنك ستتعرف عليه خلال دقائق..»

ساد الصمت في محيط المشهد، وبدا الجو نفسه كأنه قد توقف تهيبًا ممَّا قيل، وحدق «رشيد» فيها متوجسًا وهو يحاول استيعاب ما قالته، بينما سأل «جون» بعد تفكير لحظات:

- «وكيف جئتم إلى هنا؟.. كيف عرفتم هذا المكان؟!»

ابتسمت في صمت وهي تنظر له، بينما قفزت الإجابة إلى ذهنه فور أن انتهت كلماته..

- «كيسنجر !.. كيسنجر واحدٌ منكم..»

- «أهنئكَ على ذكائك.. لم يكذبوا حينما قالوا إنك عبقري فعلًا..»

ما زال لم يفهم..

- «لكن كيف قطعتم كل هذه المسافة بهذه السرعة؟!.. لم تمر أكثر من عشر دقائق على اتصالي به !»

أجابته وهي تصفف خصلات شعرها بأصابعها:

- «حجم التنظيم العالمي لا تستوعبه أنت.. لدينا فرق تدخل سريع في كل دولة في العالم، وقواعد كاملة سرية لا يعرف عنها أحدٌ شيئًا.. لا توجد بقعة في العالم بعيدة، لو أردنا بلوغها..»

صمت ذاهلًا وهو يرقب بطرف عينه «رشيد» الذي يسمع كل هذا في صمت، وعلى عينيه نظرة لا يميزها جيدًا ولا يفهم الشعور الذي يختبئ خلفها.. ثم قال بأنفاسٍ مبهورة:

- «ومَن يمول كل هذا؟..»

طقطقت بلسانها وهي تلوح بإصبعها السبابة في بطء يمينًا ويسارًا..

- «هـذه أشـياء لا يصـح أن تعرفهـا يـا عزيـزي.. تنظيـم المصدقـين الحقيقيـين هـو تنظيـم واسـع ذو رقعـة عالميـة مفرطـة في الغمـوض.. سريـة وجودهـم هـي هـدف أسـاسي، وشرط رئيـسي لقدرتهـم عـلى الاسـتمرار.. لا أحـد يـدري مـن يمولهـم، ولا مـن أيـن يأتـون ولأيـن يذهبـون.. لا أحـد يفقـه حجـم وجودهـم العالمـي، ولا أحـد يجـسر حتـى عـلى أن يتخيـل مـا يعملـون لأجلـه.. هـذه أشـياء لا يصـح السـؤال عنهـا أو العبـث فيهـا، فالقبـور تعـج بمـن عرفـوا أكـثر مِـمًّا ينبغـي.. أنـت ذكي وتفهـم مـا أرمـي إليـه بالتأكيـد..»

أعقبـت عبارتهـا بـأن جذبتـه هـو و«رشـيد» مـن ذراعيهـما، واتجهـت نحـو الكهـف مضيفـةً:

- « كفانـا كلامًـا.. هنـاك مـا يجـب أن نـراه.. ولـو لم يتضـح أنـه حقيقـي، فأنتـما في ورطـة كبـيرة للغايـة..»

مَلَّصَ «جون» ذراعه من ذراعها وهو يقول:

- «لـن أذهـب إلى أي مـكانٍ معـكِ.. مـا الـذي يضمـن لي أنـك لـن تحاولـين قتلنـا نحـن؟.. قـد خلفتـم وراءكـم أكـثر مـن عشريـن جثـة.. اعذرينـي لـو لم تكـوني لنـا شـديدة الجـدارة بالثقـة..»

نظرت له وهي تقول:

- «اعـذرني أنـتَ، ولكـن آخـر مـرة تفحصـت فيهـا الموقـف، كنـت لأقسـم أن العشريـن رجـلًا هـؤلاء كانـوا يوشـكون عـلى تمزيقكـما أحيـاء..»

تسـمَّر «جـون» في مكانـه ولم يتحـرك، بينـما ظـل «رشـيد» ينظـر لهـا بنفـس الصمـت كأنمـا قـد أصابـه الخـرس.. بالتأكيـد مـا قـد رآه ومـر بـه في هـذه اللحظـات قـد غـير نفسـيته لـلا بـد.. ربمـا لا يتكلـم لفـترة طويلـة.. صحيـح أنـه رآى الكثـير مـن الخـراب والدمـار في فـترة عمـره القصـيرة، ولكنـه لأول مـرة يراهـا في أهلـه هـو.. عـشرون منهـم.. رميًـا بالرصـاص أمـام عينيـه.. بالتأكيـد هـو ليـس أكـثر الأشـخاص عقـلًا واسـتقرارًا نفسـيًّا الآن..

تنهدت «جيما» للحظة، وزفرت زفرة حارة قبل أن تقول:

- «أتعلـم؟.. في ظـروفٍ أخـرى كان يُمكـن أن أهددكـما بالسـلاح، وأصطحبكـما رغـمًا عنكـما.. ولكـن مـا سـأفعله الآن أبسـط مـن ذاك بكثـير..»

أتبعـت عبارتهـا بـأن سـحبت جهـازًا لوحيًّـا صغـيرًا مـن أحـد جيـوب سروالهـا العسـكري الضيـق، وأخـذت تلمـس شاشـته للحظـات قبـل أن ترفعهـا في مواجهـة «جـون»، الـذي تطلـع مـا يرتسـم عـلى شاشـتها للحظـات، قبـل أن تختلـج ملامحـه ويرتجـف قلبـه كأن قبضـة بـاردة قـد اعتصرتـه..

- «كـما تـرى.. نحـن نعـرف عنـك كل شيء.. نعـرف أيـن تسـكن وأيـن تذهـب ومـن أيـن تـأتي.. نعـرف مـن أيـن تبتـاع طعامـك وملابسـك، ونعـرف عائلتـك فـردًا فـردًا، وقطعًـا؛ نعرفهـا هـي..»

انعقـد لسـانه تمامًـا وهـو لا يقـوى عـلى الـرد، بينـما هـو يطالـع المشـهد الـذي يطـل مـن الشاشـة.. مشـهد «جاكلـين» النائمـة في سريـر بيتهـا في سـكون، وأمامهـا يقـف ذلـك الغريـب المتشـح بالسـواد، يمسـك مسدسًـا ضخـمًا طويـل الفوهـة إلى حـدٍّ بالـغ.. لا بـد أن هـذا كاتـم صـوت.. هـي لا تشـعر بمـا ينتظرهـا.. هـذا يبـدو عـلى حركـة تنفـس صدرهـا الطبيعيـة، وتكومهـا عـلى نفسـها كالقطـط في وضعيتهـا المريحـة التـي تفضلهـا..

- «نعـرف أنهـا صديقتـك الحميمـة، ونعـرف كـم مـرة أمضيتـما الليلـة معًـا، ونعـرف مـدى ثقتـك بهـا ومـدى اهتمامـك بمـا يحـدث لهـا.. لا داعـي لأن أخـبرك بمـا سـيحدث لـو اسـتيقظت فجـأة لتجـد ذاك العميـل أمامهـا، أو لـو رفضـت أنـت التعـاون غـير المـشروط.. أنـت ذكي وبوسـعك التخيـل بالتأكيـد..»

ظـل «جـون» يتطلـع إلى المشـهد بعـض الوقـت وانفعالـه يتزايـد، ثـم لم يلبـث أن انقـض عليهـا بغتـة وهـو يـصرخ:

- «لو لمستم شعرة منها فأقسم..»

قطـع عبارتـه بآهـة ألم شـديد، بينـما «جيـما» تمسـك بمعصمـه بوضعيـة معقـدة، وتضغـط عليـه لينثنـي أكـثر، وتتعـالى تأوهاتـه أكـثر..

- «مـن الأفضـل أن لا تكـرر هـذا مـن جديـد، لأن المـرة القادمـة سـتكون غـير

لطيفـة..»

أعقبـت عبارتهـا بـأن أشـارت إلى أحـد الجنـود القادمـين نحوهـا أن لا يـأتي، وأن الأمـور تحـت السـيطرة، فعـاد إلى موقعـه مـن جديـد..

- «الأمـر ليـس سـيئًا إلى هـذا الحـد.. كل مـا نحتاجـه هـو مسـاعدتكما لفتـح البوابـة والدخـول.. يمكنكـما الرحيـل أو الذهـاب إلى الجحيـم بعدهـا، ولـن أبـالي..»

ثـم تركـت معصمـه، ودفعتـه بعيـدًا، فجعـل ينفـض معصمـه وهـو يتحسسـه متألمًـا، ثـم نظـر لـ «رشـيد» الـذي مـا زال لا ينبـس ببنـت شـفة.. رمقـه بنظـرة اعتـذار.. ليـس لـه علاقـة بـ «جاكلـين» وبالتأكيـد ليـس واجبًـا عليـه أن يخاطـر بحياتـه لأجلهـا، ولكنـه بحاجـة إليـه فعـلًا.. لا بُـد ولا مفـر..

- «حسنًا.. سنتبعك..»

ابتسـمت في هـدوء، ثـم اسـتدارت متجهـةً إلى المدخـل بـلا كلمـة أخـرى، بينـما تبعهـا الاثنـان بخطـوات وَجِلَـة، مـترددة..

يدخـلانِ إلى الكهـف، ويتبعانهـا في صمـت.. يهبطـون عـلى الدرجـات الحجريـة الملسـاء إلى البوابـة الضخمـة التـي تحتـل آفـاقَ بصرهـم، خلفهـا.. لا يبـدو عليهـا الدهشـة مـن هـذا كلـه.. ربمـا تبـدو، ولكـن ليـس لهـذه الدرجـة.. الطبيعـي أن يندهـش المـرء بشـدة أمـام مشـهد كهـذا.. ربمـا تسـمر في مكانـه لدقيقتـين يتأمـل فيهـما في تفاصيلـه في ذهـول.. ولكـن أن يواصـل طريقـه بـلا رد فعـل أكـثر مـن مجـرد التحديـق فيـما حولـه هـو سـلوك غريـب وغـير طبيعـي.. بالتأكيـد هـي قـد رأت شـيئًا كهـذا مـن قبـل.. وهـذا لا يعنـي سـوى شـيئًا واحـدًا..

هذا ليس الموقع الوحيد !..

هكـذا اسـتنتج وهـو يقـف أمـام البوابـة جوارهـا، و«رشـيد» عـلى ناحيتـه الأخـرى، يتطلعـون إلى تفاصيـل المعـدن الأملـس المُزخـرف، ولا يتكلمـون..

صمـتٌ يـدوم للحظـات، ويسـتمر لدقائـق.. هـي تُحـدق في تفاصيـل البـاب،

وتدير عينيها في كل ركنٍ فيه، بينما هما يرقبونها هي، منتظرَين ما ستقوله..

تتفحص هي أركان البوابة لبعض الوقت.. لا شيء هناك يدل على أي وسيلة تمكنهم من فتحه، فتلتفت إلى «جون» و»رشيد» وتسأل:

- «الآن ماذا؟..»

لم يجبها أحدهما، فأردفت موجهة كلماتها إلى «جون»:

- «من المفروض أنك أنت العبقري هنا.. ما التصرف الآن؟»

نظر لها «جون» في تحدٍّ للحظة، ثم أدار عينه في المكان بتركيز أكبر هذه المرة..

المعدن الأملس الثقيل الذي لا يشبه ملمسه شيئًا آخر رآه في حياته.. الجدران المحفورة بدقة تقترب من الكمال.. الضوء المتوهج الذي يتموج في قوة كلما تحرك أحدهم، أو زاد اقترابه ولو لسنتيمترات..

هذا الضوء.. شيءٌ ما فيه غير طبيعي.. تموجه ذاك لا يدل على أنه ضوء تقليدي، بل هناك جهاز استشعار شديد الحساسية في مكانٍ ما، وبالتأكيد هو ما يدفع هذا الضوء للتألق كلما اقترب منه جسد حي..

جهاز استشعار مُصمم وما زال يعمل منذ ما يتجاوز الستة آلاف سنة !..

هذا مستحيل.. ما يفكر فيه الآن هو كلام لا يمكن تقبله.. كيف يمكن أن تتوفر تكنولوجيا كهذه لحضارة بدائية؟!.. إلا لو لم تكن هذه التكنولوجيا قادمة من البشر التقليديين !..

ربما كان هذا كله غير أرضي !..

ارتجف جسده بقشعريرة باردة عندما وصلت أفكاره إلى هذه النقطة، فجاهد للسيطرة على كفه الذي بدأ في الاهتزاز، وهو يحاول أن يستوعب معنى الرموز المرتسمة في كل مكان، وماهية الضوء المتألق..

ثم قفزت الفكرة فجأة إلى ذهنه، فالتفت إلى «جيما» وهو يقول:

- «أين الإزميل؟!»

مـدت كفهـا لتنتزعـه مـن حزامهـا وناولتـه لـه، فأخـذ يتفحصـه لبعـض الوقـت.. المعـدن المصنـوع منـه لـه نفـس ملمـس المعـدن الـذي صنعـت منـه البوابـة.. نفـس الشـكل والخصائـص الشـكلية.. هـذه ليسـت صدفـة بالتأكيـد..

لكـن السـن المدبـب الياقـوتي لا يبـدو مماثـلًا لشـكل العـروق الشـفافة التـي تجـري مرتسـمةً عـلى البوابـة، ولونـه حتـى مختلـف.. لا يفهـم.. مـا هـذا إذن؟..

تمتم في شرود مخاطبًا «جيما» و»رشيد»:

- «هـذا ليـس إزميـلًا.. هـذا شيءٌ آخـر لـه علاقـة وثيقـة بهـذه البوابـة، ولكننـي لا أفهـم مـا هـي..»

تذكـر في عقلـه مـا قالـه لـه رشـيد عـن اللـوح الـذي وجـدوه في موقـع الحفـر، وأكـد لهـم أن للإزميـل علاقـة وثيقـة بالمدخـل.. دعـك مـن العبـارة التـي كانـت منقوشـة عـلى اللـوح الصغـير الـذي كان معلقًـا خلفـه.. (مفتـاح طريـق الآلهـة).. أي آلهـة بالضبـط؟.. لا يفهـم.. ولكنـه يعـرف قطعًـا أن لهـذا الإزميـل علاقـة وثيقـة بـكل هـذا..

تطلعـا إليـه بعـض الوقـت، قبـل أن يتنحنـح «رشـيد» ويتحـرك مـن مكانـه ليتنـاول منـه الإزميـل، ثـم اقـترب مـن البوابـة، وشرع يبحـث في طرفهـا الأيمـن عـن شيءٍ مـا..

أخـذ «جـون» و»جيـما» يتطلعـان إليـه في عـدم فهـم أو اسـتيعاب.. مـاذا يفعـل بالضبط؟..

لم يُبـالِ هـو بـذاك، واسـتمر في بحثـه حتـى وجـد ضالتـه أخـيرًا في جـزءٍ مربـع صغـير وسـط أجـزاء البوابـة المعدنيـة المُصمطـة.. ضغـط بإصبعـه عليـه بقـوة، فانضغـط إلى الداخـل في سلاسـة ليختفـي في مكانـه كأنمـا لم يوجـد قـط، وسـط دهشـة العيـون التـي ترقـب مـا يفعلـه..

تقـدم منـه «جـون» منبهـرًا وهـو يراقبـه يقلـب الإزميـل في يـده، ثـم وضعـه في الفـراغ الناشـئ عـن ذاك الجـزء الـذي ضغطـه في الحائـط؛ لينطبـق عليـه في سلاسـة، ويصـدر منـه صـوت إلكـتروني مميـز، صحبـه صـوت تفريـغ هـواء دام لثـوان، قبـل

أن يصـدر الصـوت العظيـم..

صـوت انفتـاح البوابـة بزوايـا متطـورة، يُسحَب منهـا جـزء إلى الأسـفل جهـة اليمـين، والآخـر إلى الأسـفل جهـة اليسـار، ليكشـف عـن ذلـك الـدرج الطويـل الممتـد للأسـفل إلى مـا لا نهايـة، تضيئـه مصابيـح غريبـة الشـكل بـدأت في العمـل واحـدًا تلـو الآخـر في سـقفه..

تراجـع «رشـيد» وهـو ينظـر إلى كل هـذا، وسـط نظـرة «جـون» و»جيـما» التـي أطـل منهـا الذهـول الـذي فـاق حـد الوصـف.. لا ينبـس أحدهـم ببنـتِ شـفة، ولا يجـرؤ عـلى الـكلام في حـضرة المشـهد المهيـب..

«جون» ينظر إلى «رشيد» قائلًا:

- «كيف عرفت هذا؟!»

صمـت لحظـة، قبـل أن يجيبـه ليخـرج صوتـه لأول مـرة منـذ فـترة مـرت كأنهـا دهـور، محمـلًا بمشـاعر متضاربـة، بـين انبهـار بالمشـهد، إلى غصـة ألم ومقـت خفيـة:

- «قـد جئـت هنـا مـن قبـل، ولم أتـرك شـبرًا في المـكان دون أن أفحصـه.. هـذا الجـزء الـذي كان في الجـدار لفـت انتباهـي مـن قبـل، ولكننـي لم أفهـم ماهيتـه إلا الآن !»

«جيـما» تتقـدم نحـو المدخـل، وهـي تقـول بأنفـاسٍ متقطعـة نسـت معهـا تهديدهـا لهـما منـذ دقائـق:

«أنتما عبقريَّان !»

لم ينتبـه أحدهـما إلى غرابـة الموقـف في ظـل هيبـة المشـهد الدائـر، التي اسـتولت عـلى كل شـبرٍ في كيانهـما..

تقدمـت هـي نحـو المدخـل، ودلفـت إلى الداخـل وهـي تتطلـع إلى الدرجـات الهابطـة إلى مرمـى البـصر، ثـم اسـتدارت لهـما وقالـت:

- «يمكنكما أن تتبعاني.. قد استحققتما رؤية ما هو هناك في الأسفل..»

«رشـيد» يتطلـع إليهـا بنظـرة لا تتبـين بدقـة مـا تكنـه مـن مشـاعرَ وأفـكار متضاربـة، تتصـارع مـع بعضهـا بداخـل نفسـه، وتطفـو عـلى سـطح وجهـه وانفعالاتـه، فتفنـى بعضهـا كـما جـاءت؛ لتـترك وجهـه بـلا أي تعبـيرات مـن أي نـوع..

«جون» يقول وهو يتقدم نحوها:

- «سـنتبعكِ.. ولكـن لا داعـي لوجـود ذاك الـذي يقـف في غرفـة جاكلـين الآن.. سـأكون أكـثر سـعادة لـو انـصرف..»

ابتسـمت «جيـما» لـه بشـفتيها السـاحرتين، ثـم أعطـت أمرهـا في الميكروفـون الـذي يختفـي في كمهـا الداكـن:

- «إيكـو.. تانجـو.. نايـتر.. بلغنـا الهـدف بالفعـل.. تخـلَّ عـن المهمـة.. أكـرر، تخـلَّ عـن المهمـة..»

أنهت عبارتها وهي تنظر إلى «جون» بنفس البسمة، وتقول:

- «عـلى العكـس مـمَّا تعتقـده، نحـن لا نضمـر لكـما شرًّا.. هـذا كلـه ضروريـات روتينيـة حتـى يمكـن لنـا الحفـاظ عـلى سريـة التنظيـم.. ولكِـنَّ كلَّ مـا نسـعى إليـه حقًّـا هـو المعرفـة.. أن نفهـم..»

فسألها:

- «معرفة ماذا؟!»

أشارت له بيدها نحو المدخل وهي تجيبه:

- «هذا هو ما سنراه بأنفسنا..»

ثـم اسـتدارت وبـدأت في هبـوط الدرجـات بـلا كلمـة أخـرى، ودون أن تلتفـت وراءهـا.. فتطلـع «جـون» بطـرف عينيـه إلى «رشـيد» للحظـة..

طريقتهـا التـي تسـارعت إلى شرح ماهيـة التنظيـم الـسري الـذي تنتمـي إليـه وكشـفها لاسـمه بـلا تفكـير بمجـرد أن سـألها عنـه تثـير ريبتـه.. تـراوده فكـرة الهـرب، فهـو لا يثـق فيهـا، ولكـن مـاذا عـن كل هـؤلاء الذيـن ينتظرونهـم في

الخارج ويحيطون المكان كله بطوقٍ لا فكاك منه؟.. لن ينجحا في عبور مترين قبل أن تمزقهما الرصاصات.. لا خيار سوى أن يتبعها.. برغم عدم ثقته في كلامها، وبساطتها الغامضة التي تثير توجسه، يجب أن يتبعها..

ثم أن الفضول يستولي على نفسه، ويوشك أن يقتله انفعالًا..

يجب أن يفهم ما هذا كله.. هذا هو ما جاء هنا لأجله بعد كل شيء.. لم يقطع نصف العالم ليأتي إلى قلب الصحراء العراقية لمجرد أنه يبحث عن حمام شمس طبيعي..

تقدم نحو المدخل حين بلغت أفكاره هذه النقطة، وبدأ في الهبوط على الدرجات الممتدة إلى أفق بصره، وهو يشير لـ «رشيد» أن يتبعه..

يجب أن يفهم..

***

يهبط ثلاثتهما الدرجات في تؤدة، ولا يتكلم أحدهما..

صمتٌ طويل، تتخلله أفكار وذكريات وتشكُكاتٍ وريبة..

«رشيد» يفكر في جثث رجال قبيلته وأقاربه التي امتلأت بها رمال الصحراء في الأعلى.. يتذكر طريقة «جيما» و«جون» نفسه في التعامل مع الموقف، الذي مر مرور الكرام، كأن هؤلاء الذين قتلوا وفاضت أرواحهم إلى بارئها في أقل من دقيقة، هم كلاب ضالة وليسوا بشرًا.. كأنما حياتهم هي أدنى من حياة البشر الطبيعيين.. ليسوا مُهمين ولن تُذرَف دمعة لفقدانهم؛ لأنهم بدوٌ عراقيون عرب.. فلو كان أحدهم عاملَ نظافة أمريكي أو بريطاني، لما حدث كل هذا.. طريقة «جون» الذي تناسى الموقف وتابع ما أتى لأجله مع «جيما» كأن شيئًا لم يكن.. وطريقتها هي في السخرية والضحك كأنما هي لم تُزهِق عشرين روحًا منذ دقائق..

التفكير يورثه غضبًا فوق غضبه، ومقتًا فوق مقته، وببطءٍ يحول شخصيته إلى ما لم يكن يتصور أن يبلغه يومًا.. جزءٌ منه حزين لدرجة الانتحار.. والجزء

الآخـر غاضـب.. غاضـب لدرجـة تنـذر بـبركانٍ قريـب..

لكن ليس الآن.. يجب أن يصبر..

«جـون» الـذي يفكـر في غمـوض الموقـف كلـه، ومـدى غرابـة مـا يـراه أمامـه ويمـر بـه.. لم يـرَ شـيئًا كهـذا في حياتـه.. دقـة الصنـع والحفـر تلـك لم يرهـا حتـى في المـدن الحديثـة، أو شـبكات مـترو الأنفـاق المتطـورة.. هـذا الـذي يـراه أمـام عينيـه سـواء هنـا أو عنـد البوابـة في الأعـلى متطـور لدرجـة مذهلـة.. درجـة غـير أرضيـة..

مَـن صنـع كل هـذا، ولأي غايـة؟!.. لا يفهـم، وإن كان يطمـح للفهـم والاسـتيعاب..

يثـير رهبتـه وتوجسـه كونـه يغـوص لـكل هـذه المسـافة في باطـن الأرض، بصحبـة امـرأة لا يعرفهـا، قتلـت هـي وفريقهـا أمـام عينيـه عشريـن شـخصًا في أقـل مـن دقيقـة.. لمـاذا لم تقتلـه هـو الآخـر، و«رشـيد»؟.. ولمـاذا كشـفت لهـما كل تلـك المعلومـات عـن التنظيـم الـذي تنتمـي إليـه، برغـم كونهـم يطمحـون دومًـا للحفاظ عـلى طابـع السريـة الخـاص بهـم؟.. الأمـر غامـضٌ وغـيرُ مفهـوم، ويثـير القلـق في نفسـه.. شـعور عـدم الراحـة الـذي يجعـل أطرافـك تكتـسي بالـبرودة، وتشـعر بقلبـك وهـو يرتجـف بـين ضلوعـك، ويخفـق في سرعـة تأهبًـا لمـا قـد يحـدث..

ثم هي..

«جيـما» التـي تواصـل الهبـوط في سرعـة تقـترب للركـض، دون أن تنظـر خلفهـا مـرة واحـدة، غـيرُ مباليـة بـأي شيءٍ سـوى أن تصـل إلى نهايـة كل هـذا..

في مـاذا تفكـر؟.. لا نعـرف.. هـي ليسـت بطلـة أحداثنـا كـما تعـرف، ولم نتعـرف عليهـا سـوى الآن.. لا تصـدق أي شـخص يحـكي لـك عـن أفكارهـا بعـد أن رآهـا لثـلاث مشـاهد، حتـى المؤلـف ذاتـه.. تحليـل الشـخصيات ليـس مزاحًـا، وهـو يحتـاج لدراسـة سـلوكية طويلـة تتكـون بعـد أن تنخـرط الشـخصية أكـثر بداخـل الأحـداث، فيبـدأ المؤلـف في رؤيـة صورتهـا الحقيقيـة، وتتشـكل في ذهنـه..

أسـمعك تتسـاءل عـن نوعيـة المؤلـف الـذي لا يـدري فيـمَ تفكـر شـخصية

روايتـه، ولـك أقـول إن الأمـر أعقـد مـمَّا تتصـور..

«جيـما جريـن» هـي مـن أنـواع الشـخصيات التـي لا تظهـر أفكارهـا عـلى ملامحهـا، ولا تدلـل تصرفاتهـا عـلى مكنـون ذهنهـا.. هـي مـن النـوع الـذي يسـمونه في علـوم السـلوكيات بــ (غـير المتوقـع Unpredictable).. لا نفهـم دوافعهـا أو شـعوراتها أو مـا تضمـره، ولـن نفهمهـا سـوى حـين تفعـل شـيئًا مـا نسـتدل بـه عـلى ذاك.. وهـو مـا لم يحـدث حتـى الآن، وربمـا لا يحـدث لفـترة.. هـذا هـو الواقـع، فحـاول أن تتقبلـه..

تلـك الدرجـات الهابطـة.. طويلـة وغزيـرة لعـددٍ لا يُسـتوعب.. هُـم يهبطـون عليهـا في خطـوات سريعـة أقـرب للركـض، منـذ مـا يزيـد عـن السـاعة.. سرعـة مـشي الإنسـان الطبيعـي هـي حـوالي ثمانيـة كيلومـترات في السـاعة تقريبًـا، فلـو حسـبت خطواتهـم الراكضـة التـي تقـترب مـن ضعـف سرعـة المـشي الطبيعيـة، عـلى المـدة التـي قطعـوا فيهـا كل هـذه المسـافة، والتـي تجـاوزت السـاعة بدقائـق عديـدة، فلربمـا تحصـل عـلى مسـافة ناتجـة تثـير دهشـتك.. ربمـا تقـترب مـن العشريـن كيلومـترًا !..

هذا الممر يقترب طوله من العشرين كيلومترًا، وهو ما زال ممتدًا !..

كيـف لم تتغـير درجـة الحـرارة لتعكـس هـذا العمـق الـذي وصلـوا إليـه بعـد كل هـذا الهبـوط؟.. لا بـد أنهـم عـلى عمـق يقـارب العـشرة كيلومـترات تقريبًـا بسـبب ميـل الدرجـات الـذي يشـكل زاويـة حـادة مـع سـطح الأرض، وليسـت قائمـة.. عمـق العـشرة كيلومـترات هـذا يجـب أن ينتـج عنـه هـواء سـاخن كأنـه قـد خـرج لتـوِّه مـن فـرن كهربـائي.. فكيـف مـا زال الهـواء بـاردًا؟!.. هـل هـذا السـلم الطويـل يحـوي آليـة تهويـة وتكييـف مـن نـوعٍ مـا؟!.. هـذا لا يُسـتوعَب.. احتماليـة وجـوده حتـى تديـر الـرؤوس !..

ثم ما الذي بعد كل هذا الهبوط؟.. ما الذي ينتظرهم في الأسفل؟..

وهـل كان النازلـون إلى هنـا مـن قبـل يقطعـون نفـس تلـك المسـافة كلهـا نـزولًا عـلى أقدامهـم؟.. بالتأكيـد كانـوا يمتلكـون وسـيلة هبـوط أخـرى، ولكنهـا غـير

متوفـرة لهـم بالطريقـة التـي دخلـوا بهـا.. هنـاك أسرار أكـثر تنتظـر كشـفها تتعلـق بـكل هـذا بالتأكيـد، ولكـن ليـس هـذا وقتـه..

شـعور (الكلوسـتروفوبيا Claustrophobia) أو الخـوف مـن الأماكـن الضيقـة والمغلقـة يبـدأ في الإعـلان عـن وجـوده، فهـو موجـود لـدى البـشر جميعًـا بدرجـات متفاوتـة.. العمـق المبالـغ فيـه، والجـدران المنطبقـة عليهـم بـلا اتجاهـات أو مهـرب تولـد فزعًـا خفيًّـا يجاهـد لـكي يصعـد إلى السـطح.. أنـت تعـرف الشـعور الـذي جربـه كل مـن دخـل إلى الهـرم الأكـبر مـن قبـل، وزحـف في ذلـك النفـق الضيـق الصاعـد، في تلـك الأيـام الباسـمة التـي كانـوا يسـمحون فيهـا بدخولـه للسـياحة..

لكنهـم يجـب أن يتماسـكوا.. هـذا مجـرد دَرَج ليـس أكـثر.. دَرَج يقـود لمكانٍ مـا، وهـو ليـس بعيـدًا جـدًّا بالتأكيـد، فهـا هـو ذا يلـوح في الأفـق..

تألُّـق الضـوء الأبيـض الآتِي منـه يتضـح عـلى بعـدٍ كبـير، ويسـقي نفوسـهم بأمـل الخـلاص مـن كل هـذه المسـيرة الطويلـة، فيحثـون أقدامهـم أكـثر..

يقتربـون، ويقتربـون، وترتجـف أجسـادهم بالترقـب ونشـوة المعرفـة المحرَّمـة.. نشـوة أن تكـون الأول.. أول مـن يكشـف السر، ويـرى مـا وراء السـتار..

ثـم يصلـون أخـيرًا، فيدلفـون إلى داخـل البوابـة الضخمـة عظيمـة الحجـم في سرعـة، واحـدًا تلـو الآخـر، ويقفـون في مكانهـم متسـمرين وهُـم يحدقـون فيـما حولهـم في ذهـولٍ تـام إلى المـكان الذيـن يقفـون في مدخلـه..

يتطلعـون إلى حجمـه الهائـل الـذي يقـترب مـن حجـم السـماء نفسـها.. سـقفه لا يظهـر للعيـان، وتشـعر أن الليـل وسـماءه المظلمـة ذاتهـا تحـدق إليـك لـو نظـرت للأعـلى.. ثـم الأفـق ذاتـه الـذي يبـدو طولـه الـذي لا تكفـي عينـاك لرصـد نهايتـه كمدينـة كـبرى أوسـع وأكـبر حجـمًا مـن المُـدن التـي يحملهـا السـطح..

تلـك الشـبكة العملاقـة مـن الأنفـاق، والقضبـان المتطـورة ذات الشـكل الغريـب التـي تظهـر لعيونهـم، وتمتـد إلى أبعـادٍ غـير مُمكنـة، حتـى تختفـي في أنفـاقٍ بعيـدة لا تسـبر نظراتهـم أغوارهـا، ولا ترصـد أعماقهـا..

ألسـنتهم قـد انعقـدت تمامًـا، وعجـزت عـن التلفـظ بكلمـة واحـدة تعـبر عـن

مشاعرهم تجاه ما يرونه أمام أعينهم، ولا تفلح الكلمات في مفارقة شفاه أحدهم سوى «جون» الذي تمتم لنفسه دون أن يشعر:

- «يا إلهي..»

يتقدمون إلى الداخل وهم يديرون أعينهم في معالم ما يحيطهم محاولين الاستيعاب..

هذا الذي يرونه حولهم لم تبنِه حضارة قديمة.. هذا غير قابل للشك أو النقاش، ومن المستحيل تقبل عكسه.. هذا الذي بُني بهذه الدقة والتطور، وعلى ذاك الحجم هو غير أرضي بالتأكيد !..

ثلاثتهم فكروا في نفس الفكرة وهم يحركون سيقانهم لتخطو إلى الأمامِ بلا هدى، بلا كلماتٍ أو تعليقات، كأنهم قد نسوا كيفية الكلام أمام هيبة المشهد المتمثل أمامهم..

«رشيد» يشير بسبابته إلى بناءٍ متوسط الحجم يقع بجوار القضبان المتطورة بالضبط، ويبدو كما لو كان جزءًا منها، فيوجه الكُل خطواتهم إليه، فلربما كان فيه جوابًا على ذاك الذي تجيش به صدورهم، وتموج به أذهانهم.. لربما استطاعوا أن يفهموا، أو يكونوا فكرةً ما عن كل هذا على الأقل..

يمشون لدقائق عديدة بلا مبالغة حتى يبلغون المبنى، فيدلفون إليه وهم يتطلعون إلى تصميمه الغريب الذي لا ينتمي لأي حقبة تاريخية أو طراز معين يعرفوه منذ فجر التاريخ..

يبدو من داخله مظلمًا، وقد احتوت أركانه على ألواح شفافة مربعة مثبتة على مسافاتٍ قريبة من بعضها بالتوازي.. الطاقة التي كانت ظاهرة عند البوابة الخارجية، وتلك التي تضيء كل هذه المدينة الكبرى التي لا تكفي أنظارهم للوصول إلى طرفها يبدو أنها لا تعمل هنا..

«جون» يقول في أنفاسٍ مبهورة:

- «نوع الطاقة الذي استُعمِل لبناء مثل هذا المكان لم أر له مثيلًا في

حيــاتي..»

لم يـرد أحدهـما والأنظـارُ تـدور وتجـيء في كل هـذا الـذي يحيطهـم.. ثـم تـرى «جيـما» وهــي تثبـت عينيهـا عـلى جُـزءٍ مـا في الحائـط البعيـد المظلـم، وتقـترب منـه محاولـةً أن تتفحصـه، فـلا تـراه جيـدًا بسـبب الضـوء الخافت.. سـحبت كشـافًا صغـيرًا مـن حزامهـا لتصـوب ضيَّـه القـوي عـلى ذلـك الجـزء مـن الجـدار لتطلـع إلى المرتسـم عليـه، وتتزايـد دهشـتها بحـدودِ أضعـافٍ مضاعفـة..

ذلـك الشـعار المُعَقـد المرتسـم عـلى الحائـط، بألـوانٍ ثابتـة لم يُزلهـا الزمـن أو التـآكل.. يتكـون مـن جسـم بيضـاوي صغـير يرسـل ضـوءًا إلى الأسـفل مـن فتحـة صغـيرة، يغلـف جسـد إنسـان عـار يقـف واضعًـا ذراعيـه بجـواره، وفـاردًا كفيـه بجانـب جسـده.. ذلـك الجسـم البيضـاوي العريـض يعلـوه مثلـث غريـب الشـكل، ومزخـرف، يحـوي بداخلـه عينًـا منقوشـة، ترقـب المشـهد.. وأسـفله وتحـت جسـم الإنسـان العـاري، يرتسـم مثلـث آخـر كبـير مفـرغ، يحـوي كل طـرف مـن أطرافـه رمـزًا معينًـا، أشـبه بهـلالٍ ونجـوم، عـدا طرفـه السـفلي الـذي يحـوي شـكلًا أشـبه بالفرجـار الـذي يتكـون رأسـه مـن مثلـث مفـرغ آخـر أصغـر حجـمًا، عـلى جانبيـه رمـزان دائريـان يرتسـم بداخلهـما تكويـن الـذرة المميـز !.. حتـى إطـار المثلـث نفسـه كان يرتسـم داخلـه شـكل نجـوم وكواكـب بعيـدة !..

«جـون» يقـترب منهـا ليتفحـص نفـس الشـعار الغريـب تحـت ضـوء الكشـاف، ويغمغـم:

- «ما هذا بالضبط؟!»

كان هـذا قبـل أن يأتيهـم صـوت «رشـيد» مـن خلفهـم، متوتـرًا، يتسـاءل في نـبرة يكسـوها التوجـس:

- «يا رفاق.. ما هذا الصوت؟!»

فينتبهـا فجـأة إلى صـوت الهديـر الخافـت الـذي بـدأ في التعـالي.. صوتـه أشـبه بمحـرك سـيارة صغـيرة أو طائـرة..

مهلًا.. سيارة أو طائرة؟!..

التفتت «جيما» نحو المدخل وتحركت أقدامها صوبه في خطواتٍ سريعة، قبل أن تتسمر فجأة وهي تصوب ضوء الكشاف على ذلك الظل الواقف في مجال بصرها على عتبة البوابة العريضة..

ملامحه تنكشف تحت تأثير الضوء.. ذلك الجسد الضخم مفتول العضلات، والوجه أبيض البشرة شديد الوسامة، والشعر الأشقر والطول الفارع.. رداؤه الهفهاف الذي يشع منه ضوءٌ غريب المصدر، يبدو كأنما هو آتٍ من أنسجة القماش الذي صنع منه ذاك الكساء، أو من الجسد نفسه !..

«جون» يتقدم ليحدق في ذلك الغريب وهو يتذكر شيئًا ما.. ملامحه وأوصافه تبدو مألوفة.. ثم يأتي صوت «رشيد» الذاهل من خلفه:

- «شموئيل؟!»

وهنا تذكر «جون» أين سمع بهذا الوصف الذي يراه أمامه الآن..

«شموئيل».. أسطورة الملاك الغريب الذي كلَّف قبيلة «رشيد» القديمة منذ زمنٍ سحيق بحماية مدخل المدينة المقدسة.. هذا هو !.. نفس وصفه بالضبط..

سألت «جيما» في نبراتٍ متوترة وهي تمد يدها نحو غمد مسدسها المعلق على فخذها الأيمن:

- «من هذا بالضبط؟!»

وكان هذا هو آخر ما قالته، وآخر ما سمعوه جميعًا، قبل أن يرفع الغريب كفه الأيمن إلى مواجهتهم، لتنطلق منه موجة هوائية غريبة شفافة غمرت رؤوسهم بصداعٍ عنيف، قبل أن تتخاذل أقدامهم عن حملهم، ويتهالكون أرضًا كغصونِ شجرةٍ ذابلة..

وأمام أعينهم في خلالِ لحظاتٍ قصيرات، أغشى عيونهم سوادٌ حالك سحبهم إلى فراغٍ بلا وعي أو إدراك..

وأظلمت الدنيا تمامًا..

***

حلكة قاتمة، وسواد..

ظلامٌ دامس.. ظلامٌ يستولي على نفسه وعلى روحه، ويغلف كيانه بجهلٍ يخشاه، ويثير توجسه عدم إدراكه ذاك، فيحاول أن يفتح عينيه، ولكنه يشعر كأن وزنها هو أطنان ثقيلة.. يحاول ويحاول، ولكنه لا يقوى، فيستسلم..

كأن جسده ذاته لم يعد ملكه.. قد فقد السيطرة عليه، ولم يعد يملك سوى أفكاره السابحة في محيطِ ذكرياتٍ مُظلمة، ومستقبلٍ مقبض، لا يدري ما ينتظره فيه..

لا يشعر.. لا يحس.. لا يسمع.. لا يري.. لا يشُم.. لا شيء حرفيًّا.. كأنما ذاك هو العدم الذي تحدثوا عنه كثيرًا.. هل ما ينتظره هو جنةٌ فردوس أم نارٌ مستعرة؟.. ربما كان هذا هو ما سيحيا فيه لما تبقى من عُمر.. لا شيء.. فقط عدم، وتفكراتٍ فيما مضى، وفيما سيجيء.. وظلام.. الكثير منه..

يمر وقتٌ عليه ويمضي، فلا يدري قلبه ما لو كان دقائق أم شهور أم سنين.. ربما كانت سنوات.. ربما مر دهرٌ عليه وهو في عدمه الخاص، ولن يشعر أبدًا.. لن يفقه..

ثم يفتح عينيه أخيرًا..

الضوء القوي الذي يحيطه يعميه، فيطبق جفنيه على بعضهما من جديد، ثم يفتحهما في حذر مضيقًا أهدابه اتقاءَ السطوع الذي يحرق عينيه كأنما هو ألفُ شمسٍ وهاجة.. يمر وقتٌ قصير حتى يعتاد على الضياء، فيدير عينيه فيما حوله..

هي غرفة.. غرفة فارغة، ضخمة لحد أنها تصلح لأن تكون ردهة فندق.. إضاءتها بيضاءُ ساطعة تبدو كأنها تأتي من الجدران الملساء ذاتها، وجوها معتدل لا تلقي في نفسه برودةً ولا حرارة..

ما هذا المكان بالضبط؟!.. لا يعرف، ولن يعرف بالتأكيد لو ظل راقدًا في

مكانـه هكـذا.. يجـب أن ينهـض..

يضغـط عـلى عضـلات جسـده التـي يشـعر أنهـا قـد انسـحقت تحـت تأثـير ضغـط رهيـب.. يجـز عـلى أسـنانه وهـو يقـف عـلى أعقابـه، ويحـاول أن يمـط عضلاتـه لتجـري فيهـا الدمـاء..

شـعور الصـداع هـذا.. كأن عقلـه يرتـج بداخـل جمجمتـه.. يشـعر بـكل حركـة يتحركهـا تـرن كالطبـول بداخـل أروقـة ذهنـه المتـألم، الـذي يـصرخ بهـا معلنًـا تمـرده..

يتوقـف في مكانـه.. يضـع كفـه عـلى جبهتـه وهـو يعقـد حاجبيـه في محاولـة لتخفيـف الألم ومحاولـة تفاديـه.. يجـب أن يتحمـل.. يجـب أن يخـرج مـن هنـا..

ينظـر إلى مـا هـو حولـه باحثًـا عـن مخـرج.. بـاب أو نافـذة أو شرفـة.. أي شيء.. ولكنـه لا يـرى سـوى الضيـاء الأبيـض الـذي تتألـق بـه الجـدران الملسـاء، فتبـدو كأنهـا تنبـض.. عقلـه الـذي مـا زال يتـألم يقـول لـه إن هـذا مسـتحيل.. لا بـد أن يكـون هنـاك أي مخـرج.. كيـف خـرج مـن بِنَـى الغرفـة إذن؟.. هـذا لا يعقـل..

يخطـو إلى الأمـام محـاولًا البحـث.. يقـترب مـن الحائـط ويتحسسـه.. ناعـمٌ ملمسـه كالحريـر، دافِئٌ كالنسـاء، ينبعـثُ منـه ضيٌّ بهـي كأبـواب السـماوات.. لكـن لا شيءَ آخـر..

يحـاول أن يبحـث في باقـي الغرفـة.. يـدور حـول نفسـه ويتحسـس الجـدران، ويمـشي بـلا هـدى في كل ركـن.. بخطـواتٍ بطيئـة يخطـو، تفاديًـا لإرهـاق عقلـه الـذي يرتـج بداخـل دماغـه مـع أقـل حركـة..

ثم في اقترابه من الطرف الآخر من الغرفة؛ يراه..

البـاب الـذي يبـدو كأنـه جـزءٌ مـن الحائـط الأبيـض الناصـع.. ينزلـق إلى الجانبـين بسلاسـةٍ وبـلا صـوتٍ.. ويكشـف خلفـه عـن ردهـة أخـرى أكـثر وسِـعًا ومسـاحة..

يتقـدم، ويخطـو صـوب البـاب.. يعـبر عتبتـه إلى الخـارج وهـو ينظـر حولـه، فيـسر قلبَـه وعينيـه مرآهُـم ويؤنسـون وحشـتَه ووحـدةَ نفسـه..

«رشـيد» و«جيـما» يقفـان هنـاك، أمـام مدخـل غرفتـين تتوازيـان مـع غرفتـه.. يتطلعـان حولهـما بنفـس الحـيرة، ويسرهـما مـرآه ليتقدمـا ناحيتـه..

- «ما الذي حدث؟!»

يسأل، فتجيبه «جيما»:

- «لا أدري، ولا يعـرف هـو.. كل مـا أعرفـه هـو أن شـيئًا مـا قـد أصابنـي، فأغـشي عـليَّ.. استيقظت لأجـد نفـسي هنـا.. هـل لـدى أحدكـم فكـرة أيـن نحـنُ بالضبـط؟»

يهز رأسه نافيًا، بينما يقول «رشيد»:

- «ذلـك الـذي رأينـاه قبـل أن نغيـب عـن الوعـي.. ذاك الشـخص وراءه قصـةٌ مـا، وربمـا كان هـو مـن أحضرنـا إلى هنـا..»

يطلـع إليـه «جـون» بنظـرةٍ ذات معنـى.. يعـرف أنـه يقصـد «شـموئيل» الـذي حـكى لـه عنـهُ قبـلًا، وعـن أسـطورته التـي شـكلت تقاليـد قبيلتـه لـردحٍ طويـل مـن الزمـان، حتـى نبذوهـا فيـه مـن أجـل الأمـوال.. انتظـرَ حتـى انتهـت عبارتـه، فتسـاءل:

- «لكن أين هنا بالضبط؟.. أين نحنُ، وكيف نخرج من هنا؟!»

لم يجبه أحدهما، فتلفت حوله..

المـكان الـذي يقفـون فيـه شاسـعٌ لحـدٍّ لا يُسـتوعَب.. حجمـه يمكـن بسـهولة أن يحتـلَّ حيًّـا كامـلًا مـن أحيـاء نيويـورك أو واشـنطن.. جـوار غرفتـه وغرفتيهـما، تقبـع غـرف أخـرى متوازيـة غزيـرة العـدد.. هـل هـي تحـوي بداخلهـا أناسًـا آخريـن؟.. يتحـرك بالفعـل ليقـترب مـن أحدهـا، ولكـن بوابتهـا لا تنفتـح، فيلتفـت حولـه بحثًـا عـن شيءٍ آخـر..

هنـاك، عـلى الناحيـة الأخـرى مـن الغرفـة، وبعيـدًا عـن مجـال بـصره، يـرى عرشًـا عملاقًـا يطـل وسـط ضيـاء السـاحة الواسـعة البهـي، يقـع أعـلى درجٍ قصـير يرفعـه عـن باقـي موجـودات الغرفـة البيضـاء الناصعـة، التـي تتألـق جدرانهـا بضيـاءٍ

خافت متموج، فيكسبه مظهرًا بهيًّا وعظمةً مُتبَدية.. مرآه يلقي توجسًا خفيًّا في نفسه، ويغمر قلبه بشعورٍ مقبض.. فيقول:

- «ما هذا؟!»

لم يجبه أحدٌ للحظات، ثم قال «رشيد»:

- «كنت أظن أحدكما يعرف..»

نظر إليه «جون» بطرف عينيه، ثم قال وهو يتقدم صوب العرش:

- «لا أعرف، ولن نعرف دون أن نفحصه.. هيا..»

يتبعانه في سرعة وهو يحث الخطى نحو الدرج، فيرتقيه صاعدًا حتى يبلُغ العرش، ثم يتفحصه بعينه محاولًا سبر أغواره، والفهم..

تكوينه شديد التطور، فلا يمكن أن يكون أثريًا أو قديمًا.. مصنوع من ذهبٍ خالص، تغطيه نقوش وبروزاتٍ متموجة، تعطيه شكلًا مهيبًا، يوشك على أن يبلغ درجة القدسية.. فقط وقوفه جواره وأمامه يلقي في نفسه إحساسًا عارمًا بالرهبة.. كأنما هذا هو عرش الرب ذاته متجسدًا!..

وهو يقف أمامه.. على بُعدِ خطوات..

يتلفت حوله، فلا يجد شيئًا هناك.. لا أحد، ولا موجوداتٍ حتى.. كل ما يحيطه هو بياضٌ أشبه بفراغٍ قاتمٍ معكوس اللون لا يحتله شيء.. حتى الجدران لا يراها ولا يفقه وجودها، فيشعر أنه ينظر عبر أفقٍ بلا نهاية..

يلتفت إلى العرش مرة أخرى، ويتملَّى فيه، بينما «جيما» تقترب وتلمسه في انبهار، وأصابعها تجري على نتوءاته وبروزاته، وسط نبرات صوت «رشيد» الذي سأل بأنفاسٍ متلاحقة، يطل الانفعال منها جليًّا:

- «ما هذا بالضبط، ومَن ذا الذي كان يتخذه موضِعًا؟»

لم يجبه «جون» وهو يتملَّى في العرش لبعض اللحظات، ثم يصعد على الدرجة القصيرة التي تفصله عن المقعد المخملي الوثير، فيستدير، ويجلس عليه..

ملمسه مريح للغاية.. مريح لدرجة لم يتصورها عقله من قبل، ولم يتخيلها بشر في أحلامه، ولم تسرح فيها أفكار إنسان في أمنياته عن جنة الخلد.. يشعر أنه يحتويه، ويدفئ عظامه ذاتها، فيتراجع في مكانه، ليلمس جسده ظهر المقعد..

يسترخي في مكانه لبعض الوقت، بينما «جيما» و«رشيد» ينظران له بأنفاسٍ متلاحقة، ولا يجرؤ أحدهما على الكلام انفعالًا.. فقط يكتفون بالتحديق، وتعبيرات وجوههم تعكس ما تعجز ألسنتهم عن قوله..

ثم بعدها حدث أمرٌ غريبٌ للغاية..

تشكلت أمامه فجأة مائدة شفافة لم تكن هناك منذ ثوانٍ، وكان هو نفسه يقف مكانها بالضبط !.. لم تأت من الأرض أو السماء، فلو كان الأمر كذا لرأوا صعودها أو هبوطها..

هذه جاءت من الهواء حرفيًّا !.. كأنها خُلقت لتوها من العدم أمام أعينهم الذاهلة، وانبثقت من فراغٍ لا يفقه أحدهم وجوده، إلى الواقع والحياة لينحفر منظر ظهورها في خيالاتهم، ويحتل ذلك الجسم الصغير الموضوع فوقها مجال أنظارهم التي تركزت عليه..

تسمَّر ثلاثتهم في أماكنهم للحظاتٍ دامت لدقائق، ثم طالت لوهلاتٍ غير قصيرات.. برهة من زمنٍ يمُر، ولا يشعر أحدهم بمضيه في غمرة نظره إلى المشهد، وعدم استيعابه لما قد حدث..

ثم ينهض «جون» من مكانه..

يقترب من المائدة الصغيرة، ويتطلع إلى الجسم الموضوع فوقها متفحصًا..

مستطيل الشكل، شفاف القوام أملسه، يبدو مظهره أشبه بقطعة داكنة من الزجاج النقي.. حوافه مستديرة لها تصميمٌ انسيابي ينفي صفة المستطيل عن تكوينه..

يمد يده نحوه في حذر، ويلتقطه ليرفعه أمام أعينهم الذاهلة.. حجمه ليس

كبيراً، بل هو أقرب إلى جهاز لوحي متطور.. يقلبه في يده ويتفحصه للحظات في غير فهمٍ أو استيعاب، ثم يلمسه بأصابعه من المنتصف محاولًا فهم ماهيته.. وكانت هذه هي اللحظة التي أضاءت فيها مادته فجأة، ليتراجعوا جميعًا مجفلين، ويوشك «جون» على أن يسقط الجهاز من بين كفيه، قبل أن يتمالك نفسه ويحفظ توازنه..

الجهاز يضيء !.. هو أشبه بشاشة متطورة تحمل عليها بيانات لا يفهم معناها !.. هو الآن يرى أمام عينيه شيئًا مستحيلًا.. معجزة حقيقية، لا يفهمها ولا يدرك وجودها !..

يرفع الشاشة اللوحية أمام عينيه متفحصًا، ويضيِّق عينيه ليحاول تمييز البيانات المرتسمة عليها، فيشعر كأنه قد تلقى قبضة باردة في معدته وقلبه وعقله في آنٍ واحد، حينما يميز اللغة التي كُتِبت بها تلك البيانات..

الإنجليزية !..

هذه البيانات مكتوبة بلغة إنجليزية سليمة، لا يفهم كيف جاءت إلى مكانٍ كهذا، ولا ماهيتها بالضبط !..

هو في قلبِ لغزٍ يبدو كأنه قد جاء من وراء ستار الكون، خلف عرش الخالق.. كأنه الآن يكشف أسرار الخلق، وحكاية البدايات والنهايات، ويروي عقله بمعرفةٍ حُرِّمت عليه وعلى جنسه تحريمًا..

يتملَّى في البيانات، ويقرأها محاولًا أن يستوعب..

تصميم وتنفيذ غريب لم ير مثله من قبل في أي نظام تشغيل إلكتروني يعرفه العالم، تنقسم فيه أجزاء الشاشة إلى اختيارات مستطيلة غزيرة تتداخل مع بعضها في طريقة عرض ثلاثية الأبعاد تبدو أشبه بهولوجرام يتشكل داخل الزجاج نفسه.. خلفية الصورة أيضًا يرتسم عليها نفس الشعار الغريب الذي وجده هو و«جيما» على حائط المبنى، قبل أن يجدهم «شموئيل».. تحته كُتِب بخطٍ أنيق (Project G.E.N.III)..

مشروع (الجيل الثالث).. ما الذي يعنيه هذا؟!..

وهنـاك، في أعـلى الشاشـة، ميَّـزَ اسـمًا بعينـه، كُتـب في المنتصـف بالضبـط بخـطٍّ عريـضٍ ثقيـل..

دكتور «إدوارد تاسك»..

تجـري عينـاه عـلى بيانـات الشاشـة، والاختيـارات المعروضـة عـلى الصفحـة الرئيسـية لنظـام التشـغيل، حتـى تلتقـط عينـاه أحدهـا، فيجذبـه أكـثر مـن غـيره..

(مذكرات)..

يضغـط بسـبابته عـلى موقـع الاختيـار في الشاشـة، فينفتـح بطريقـة سلسـة انسـيابية، تبـدو فيهـا حركتـه كقطـرة مـن المـاء تسـتطيل لتغطـي الشاشـة كلهـا، ويغـوص المشـهد بداخلهـا ليعـرض المكتـوب بداخلهـا..

أجزاء كثيرة.. كثيرة جدًّا، وطويلة لدرجة لا تُستوعَب !..

ما هذا بالضبط، ومَن هذا؟!.. لا يفهم، ولا يقدر على التخمين..

ينظـر بعينيـه إلى «جيـما» و«رشـيد» الواقفـين يتطلعـان إليـه في ترقـب، ويلتقـط نفسًـا عميقًـا، ثـم يديـر عينـه إلى الشاشـة مـرة أخـرى ويبـدأ في قـراءة المكتـوب، ليغـوص بعقلـه في رحلـةٍ لم يكـن مقـدرًا لبـشرٍ أن يعرفهـا مـن قبـل..

رحلة عبر الزمن، وخلف ستار الواقع ذاته !..

***

الجزء الثاني

إدوارد تاسك

Edward Tusk

-١-

(التسجيل الأول)

تفريغ مكتوب للتسجيل الصوتي الأول لإدوارد تاسك

مرحبًا بكم..

هذا هو العام 2123..

أعـرف أن التاريـخ بعيـد فعـلًا، وأنـه صعـبٌ عـلى الاسـتيعاب، ولكـن الأمـور ليسـت كـما تتصـورون..

دعـوني أحـكي لكـم القصـة مـن البدايـة.. فأنـا أرى أعينكـم الواسـعة، تتطلـع إليَّ في فضـول، متسـائلة.. تحلَّـوا بالصـبر، فسـتجدون إجابـة عـن أسـئلتكم جميعًـا في التسـجيلات القادمـة..

الواقـع أن الأمـر معقـد.. أعقـد مـن أن يُمكننـي حتـى مـن أن أشرح، فـلا أفقه من أيـن أبـدأ؛ لـذا سـأتكلم وحسـب.. الـكلام هـو خـير عـلاج لمـا أشـعر بـه الآن.. هـذا هـو دليـلي للأجيـال القادمـة، وللمسـتقبل البعيـد.. فلربمـا كان في المسـتقبل إجابـة المـاضي، وكان في المـاضي مسـتقبلًا خفيًّـا ينتظـر.. لا أدري، ولا أريـد التفكـير..

اسـمي هـو «إدوارد تاسـك Edward Tusk».. أسـتاذ الفيزيـاء النظريـة والكيميـاء الحيويـة بمؤسسـة «جينيسـيس GENYSIS»، ومبتكـر مـا تعرفونـه أنتـم الآن باسـم تكنولوجيـا الخليـة الرب..

أنـا هـو ذلـك المجنـون الـذي قـرر أن يلعـب دور الإلـه، وأن ينصـب نفسـه ملـكًا عـلى الأجنـاس جميعهـا، أو هكـذا قالـوا لكـم بالتأكيـد.. وهـو مـا لم يكـن بعيـدًا جـدًّا عـن الحقيقـة..

منـذ صغـري وفكـرة الهندسـة الجينيـة والوراثيـة تبهـرني وتثـير خيـالي.. فكـرة

أن تصنع أجيالًا جديدة من كائناتٍ لم تكن موجودة قبلًا.. أيُّ عظمةٍ تلك، وأي قوة.. دراستي للكيمياء الحيوية والهندسة، جنبًا إلى جنب مع الفيزياء النظرية بجامعة «إم أي تي MIT» في ماساتشوستس، كانت أشبه بالحلم بالنسبةِ إليَّ.. أن يمكنك دراسة ما تحبه وتتطلع إليه منذ صغرك لهو حلم لم يكن ممكن التحقيق في الماضي.. لم يكن ممكنًا دراسة ثلاثة تخصصات جنبًا إلى جنب حتى في بدايات القرن، ولكن كل هذا تغير منذ سبعين سنة.. وجه العالم والسياسة الدولية ذاتها أخذت شكلًا جديدًا، ولكن هذا ليس موضوعنا الآن.. ستفهمون كل هذا فيما بعد..

بداية أبحاثي كانت في مطلع القرن.. تحديدًا عام 2107.. كنت وقتها خريجًا جديدًا، لم يسبق له العمل خارج المجال الجامعي، وكانت مخيلتي تعج بطموحاتٍ لا حدَّ لها.. لم يكن الوصول لـ (جينيسيس) صعبًا، فأحد كبار العلماء بها كان أحد أساتذتي في الجامعة، وكانت علاقتي به جيدة نوعًا ما، وألقى عني كلمة طيبة لمجلس الإدارة، ومهد لي مدخلًا سهلًا لهم، لم يكن متوفرًا لأي شخص طبيعي خارج نطاق الشركة..

وقتها كان مجمل أبحاثي التي قدمتها في قسم الأبحاث الفيزيائية والحيوية مبنيًّا على فكرة نوع جديد من الهندسة الوراثية، قائم على تخليق الخلايا الجينية ذاتها.. كان ذلك هو مشروع تخرجي في الجامعة، والذي أبهر الجميع هناك بلا استثناء، والذي كان حتى تلك اللحظة نظريًّا فقط.. كان تنفيذه وتنسيقه وإثباته مبهرًا جدًّا، وكان أستاذي ذاك من ضمن المشاركين بالمساعدة البحثية فيه؛ ولذلك خرج متكاملًا بذلك الشكل.. لم يكن من الصعب بعدها أن أجد تمويلًا ضخمًا ومعملًا على أعلى مستوى في أي مؤسسة كبرى تابعة للشركات العالمية الأربعة.. ولكن (جينيسيس) بالذات كانت شيئًا فريدًا، يختلف عن أي مؤسسة أخرى.. الأمر يحتاج لبعض الشرح..

في الواقع، ومنذ عام 2072، منذ بدأت الشركات الأربعة الكبرى التي سُميت بـ (العظماء الأربعة The Four Giants) في التشكل، تغيرت السياسة العالمية

ذاتها لتختفي الدول من على الخارطة، وتحل محلها الشركات التعاونية الكبرى.. لم يعُد هناك ما يسمى بالدول، بل صار الاقتصاد والجيوش ذاتها تابعة لشركات كبرى حلت محل الحكومات ذاتها..

كان ذلك يعني نهاية الصراعات والحروب العالمية، وبداية ما يسمى بحروب الشركات، أو الحروب المعلوماتية.. الشركات الأربعة التي تشكلت تباعًا بدأت بالشركة الأولى من نوعها، والتي استولت على الاقتصاد الأمريكي والكندي كله، وبسطت نفوذها على المكسيك أيضًا، لتقع قارة أمريكا الشمالية والجنوبية أيضًا تحت نفوذها.. تلك الشركة هي «جينيسيس GENYSIS».. معنى الكلمة وأصلها حرفيًّا هو «المنشأ Genesis»، ولكن نُوِّع كاختصار للحروف الأولى من عبارة «Global Establishment of the New York Science and Information Society» أي (المنشأة العالمية لمجتمع نيويورك للعلوم والمعلومات) مع استبعاد حروف الجر والعطف والتعريف.. وكان هذا اسمًا على مسمى بالفعل.. كانت تلك الشركة هي أول مؤسسة تتجه للأعمال الشاملة بكل فروعها، في بدايات القرن.. فمنذ سنة 2029 بدأت المنظمة في التطور؛ لتنخرط مع الوقت في الاقتصاد الأمريكي والكندي بشكل لا يمكن فصله عن الحكومة الفيدرالية ذاتها.. ومع مرور الزمن، أصبحت «جينيسيس» هي المالكة الرئيسية للاقتصاد الأمريكي بالكامل.. أصبحت تحرك الحكومات الأمريكية والكندية والمكسيسكية، وبعدها مع توقيع إتفاقية «راميرو Ramero» بين الحكومة الفيدرالية الأمريكية والبرلمان الكندي وحكومات بعض الدول الأخرى، أصبحت «جينيسيس» هي القائمة الرسمية بأعمال قارة أمريكا الشمالية كلها بكل دولها، وبعض دول أمريكا الجنوبية.. وكان لها اقتصاد رائد وقائد، هو الاقتصاد الأمريكي الكندي المشترك..

ثم؛ كتأثير الدومينو، بدأت بعدها الشركات الكبرى في التشكل، وبدأ الصراع على النفوذ، الذي استمر حوالي اثنين وأربعين سنة، حتى عام 2072.. كان هذا هو العام الذي حدث فيه الانهيار الاقتصادي العظيم، أو ما يسمونه (الانهيار الفيدرالي الأعظم The Great Federal Collapse)؛ لتسقط حكومات

أوروبا وآسيا والشرق الأوسط تمامًا، وتبدأ ثورات التغيير السياسي التكنولوجي الكامل.. صعدت وقتها ثلاث منظمات أخرى للصورة العالمية، لتشكل عالمًا متحدًا جديدًا غريب الشكل..

تلك الشركات هي: «إيورو كورب جلوبال Euro-Corp Global» والتي استولت على الاقتصاد والسياسة الأوروبية بالكامل، ما عدا تركيا، وكانت لها قائدة غير معلنة هي المملكة المتحدة.. و«لانلونلج فاونديشن LanLong Foundation» التي قامت على الحكومات الأسيوية بأكملها، بما فيها الصين واليابان وماليزيا وإندونيسيا، ولكنها لم تتمكن من ضم الحكومة الروسية التي ظلَّت مستقلة حتى وقتنا هذا، وكانت هناك العديد من الانقسامات داخلها..

أيضًا كانت هناك «مؤسسة يعقوب الاتحادية Jacob United Foundation» أو اختصارًا (JUF)، التي ضمت تحت مظلتها كامل دول الشرق الأوسط والخليج العربي، عدا قطر وإيران.. وكانت لها قائدة معلنة وموحدة باعتراف الدول كلها، هي مصر، وكان جيشها الاتحادي هو مصري إسرائيلي بالشراكة، بعد اندماج الدولة المصرية بالإسرائيلية في رقعة واحدة سنة 2087، وانتهاء المشكلة العربية الإسرائيلية للأبد.. يترأس مجلس إدارتها العربي متعدد الجنسيات رجل الأعمال العربي اليهودي الأغني، والعسكري السابق«سمير يعقوب»..

بعض الدول لم تكُن تريد ترك هويتها وتاريخها الاقتصادي لشركات اندماجية عابرة للقارات، فقد كانت سياساتها الدولية واقتصادها أعقد من أن يسمح بهذا.. ولكن الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا لم تكونا من بينهم لحسن الحظ، فلولا الأبحاث التكنولوجية في مجالات الفيزياء والفضاء والهندسة، والكشوفات العلمية التي قدمتها شركتا «إيورو كورب» و«جينيسيس» لما كنا في موقعنا اليوم..

«جينيسيس» بالذات كانت تضم تحت لوائها منظمات عملاقة مثل «ناسا

NASA» ومركـز مكافحـة الأمـراض أو مـا يسـمونه «سي دي سي CDC»..

أيضًـا كانـت تضـم «كالتـك Caltech» في كاليفورنيـا.. باختصـار كانـت تضـم أكبر مراكـز الأبحـاث، وألمـع العقـول العلميـة والبحثيـة في العـالم.. جنبًـا إلى جنـب مـع علـماء «إيـورو كـورب» الذيـن كانـوا يملكـون مختـبرات عظيمـة مثـل «سـيرن CERN» عـلى حـدود سـويسرا..

عـلى مـر السـنين، كانـت «جينيسـيس» و«إيـورو كـورب» بالـذات هـما الشركتـان اللتـان قدمتـا معظـم الفتوحـات التكنولوجيـة التـي قـادت إلى بدايـة القـرن الثـاني والعشريـن.. وجـه العـالم كلـه كان يتغـير..

لذلـك فأنتـم تـرون.. تفهمـون لمـاذا كنـت وقتهـا أريـد الانضـمام إلى «جينيسـيس»..

لماذا «جينيسيس» بالذات؟..

كان هنـاك سـببٌ مـا، ليـس مجالـه هنـا والآن، وأيضًـا لم أكـن أحبـذ «إيـورو كـورب» عـلى الرغـم مـن مسـاهماتها، فقـد كانـت «جينيسـيس» تملـك تاريخًـا أطـول، وبنيـة تحتيـة أكـثر ثباتًـا وتطـورًا.. كانـت عضويـة «جينيسـيس» بالنسبةِ لي وقتهـا حلـمًا كبـيرًا، يذكـرك بأحـلام مواطنـي العـالم الثالـث في الحصـول عـلى تأشـيرة لأوروبـا وأمريـكا في بدايـات القـرن المـاضي..

العضويـة هـي طريقـة تعريـف المواطنـين الجديـدة.. لم تعـد هنـاك قيمـة لمـا يسـمى بالجنسـيات.. انقسـم العـالم لعضويـات عاملـة أو منتسـبة.. عـلى حسـب الدرجـات الاجتماعيـة للمواطـن ذاتـه.. الجنسـيات صـارت شـيئًا منسـيًّا، لا تأثـير حقيقـي لـه سـوى في الـدول المعـدودة غـير المنضمـة للـشركات الكـبرى..

كلا، لم يغـدُ العـالم يوتوبيـا فجـأة، بـل ظـل نفـس سـلة القـاذورات التـي نعرفهـا جميعًـا.. لم تكـن الوحـدة العالميـة النسـبية كافيـة لتحريـر الجنـس البـشري مـن الآثـام والصفـات السـيئة.. هـذه طبيعـة بشريـة كـما تعلمـون.. ظلـت هنـاك طبقـات اجتماعيـة كـما كانـت دومًـا، كل طبقـة اجتماعيـة عـلى حسـب العديـد مـن المميـزات والخصائـص كانـت تتمتـع إمـا بالعضويـة المنتسـبة الفقـيرة التـي

لا تقدم لهم سوى الفتات من الخدمات المجانية، أو العضوية العاملة التي كانت تشبه الطبقة المتوسطة بعض الشيء.. كانت هناك أيضًا العضوية المميزة، وهي أشبه بطبقة الأغنياء والرؤساء ورجال الأعمال، وذويهم، وهم كانوا السادة حقًّا.. ومنهم كانت عائلتي.. كانوا من الطبقة المميزة بشركة «إيورو كورب» وكانوا يتمتعون بمزايا لا حصر لها، تذكرك بنجوم هوليوود.. كنت غنيًّا لدرجة لم أحتج فيها يومًا إلى سنتٍ واحد لو صح القول؛ لذلك فأنتم تفهمون غرابة قراري بالانضمام لـ «جينيسيس» الذي صدمهم تمامًا، وأورثهم ضدي مقتًا بالغًا عززه شعورهم الغامر بالإهانة.. كأنني بصقت على إنجليزيتهم النبيلة، وتبولت عليها، ثم قذفتهم جميعًا بروث الأبقار..

كنت أملك هدفًا لم أستطع التخلي عنه يومًا، وهو العمل على مشروع «الخلية الرب The God Cell» باستخدام أفضل وأحدث تكنولوجيا متاحة للجنس البشري.. ولم تكن هناك شركة أو دولة قادرة على توفير ذاك مثل «جينيسيس»..

أعرف أنني أصبتكم بصداعٍ غامر.. التفاصيل كثيرة، مررت عليها مرور الكرام، بلا شرحٍ مفصَّل، ولكن هذا ليس ذنبي.. القصة كبيرة ومتشعبة لدرجة تصيبني بالإحباط.. أنتم تعرفون شعور الكسل وعدم الجدوى الذي يتصاعد مع تعقيد الحكاية التي ترغبون في قصِّها.. شعور مقيت لدرجة تجعل المرء يفضل الصمت واللامبالاة، على خوض عملية التعذيب الإغريقي المسماة بالحكي..

لكنني لا أملك خيارًا.. لو لم أقص ما أملكه وأحكيه لأحد، فسوف أنفجر حتمًا.. حتى لو كان من أحكي له هو جهاز تسجيل صوتي كهربائي عتيق..

ورثت هذا الجهاز عن أبي منذُ زمنٍ بعيد.. كان قد أهداني إياه في عيد ميلادي الذي سبق انضمامي لـ «جينيسيس» مباشرةً.. لم يغفر لي بعدها تركي لـ «إيورو كورب» وخيانتي للتراث الإنجليزي ودماء الإمبراطورية المزعومة أبدًا.. ولكن منظوري في الحياة وخلفيتي عن العالم وجدواه كانتا مختلفتين بعض

الـشيء..

جميعًـا كانـوا منحصريـن في التفكـير الكلاسـيكي الأرسـتقراطي الـذي يـأبى في عنـادٍ أن ينـدثـر.. تفكـير الإمبراطوريـة الإنجليزيـة ووقـت الشـاي وكل هـذه الأشـياء التـي كانـت بالنسـبةِ لي بـلا قيمـة معنويـة مـن أي نـوع.. هـذا مفهـوم طبعًـا، فأنـا لم أرَ أيـام الإمبراطوريـة، ولم أعـاصر العـالم القديـم.. لم أرَ الـدول التـي كانـوا يتكلمـون عنهـا، وإن درسـتها وقـرأت عنهـا في كتـب التاريـخ.. مهـما وصفـوا وشرحـوا فلـن أفهـم بالتأكيـد، فكونـك قـرأت عـن الملـك أرثـر أو فرسـان المائـدة المسـتديرة لا يعنـي أنـك صرت واحـدًا منهـم..

كنـت أؤمـن دومًـا أن تمسـكهم ذاك بالقيـم والمبـادئ التـي غـاب عنهـا الزمـن هـو غالبًـا تذكرتهـم للانهيـار.. لا يحتـاج الإنسـان للقيـم والتاريـخ والمبـادئ النبيلـة التـي تسـتند عليهـا أنقـاض المـاضي ليكـون متقدمًـا ويهـزم خصومـه.. بـل هـو يحتـاج للعمليـة والبراجماتيـة والعلـم والنقـود.. الكثـير منهـا.. وهـذا كان بالضبـط تفكـيري حينـما قـررت الانضـمام لــ «جينيسـيس»، والـذي أبـوا هُـم أن يفهمـوه، أو لم يجـسروا عـلى اسـتيعابه يومًـا.. بالإضافـة إلى سـببٍ مهـمٍّ آخـر لا يعرفـه أحـد، يقبـع بداخـل نفـسي ولا أشـعر برغبـة في حكيـه الآن..

فلنعـد لموضوعنـا.. لـديَّ ميـول قويـة للاسـتطراد، ويبـدو أنـه يجـب أن أسـيطر عـلى نفـسي وإلا تحدثـت إلى أبـدِ الأبديـن..

مـشروع الخليـة الـرب كان نـواة لمـا يحـب العلـماء الحاليـون أن يسـموه (بدايـة العـصر الجديـد The Beginning of the new age).. ذلـك كان بسـبب أن قدرتـه وقيمتـه كان بمقدورهـا رفـع الجنـس البـشري بأكملـه إلى مصـاف الآلهـة.. بإمكانـه أن يجعـل البـشر سـادة العـالم والحيـاة حرفيًّـا.. لذلـك فقـد كان هـذا هـو السـبب الرئيـسي الـذي دعـا مجلـس إدارة «جينيسـيس» لأن يقبـل عضويتـي كفـرد عامـل سـنة 2108، بعـد لقـاء مُطَـوَّل مـع «فرانـك جودويـن Frank Goodwin» رئيـس مجلـس الإدارة، غطـى فيـه جميـع جوانـب دراسـتي الأكاديميـة وخلفيتـي العلميـة والاجتماعيـة، وعضويتـي المميـزة بــ «إيـورو كـورب» وسـبب تـركي لـكل هـذا..

كان «جودويـن» متشـككًا كـما يجـب عليكـم أن تخمنـوا.. لا أحـد يـترك كل هـذا مـن أجـل العمـل عـلى مـشروع واحـد مهـما كانـت أهميتـه.. بالإضافـة إلى أن السـبب الـذي أعطيتـه إيـاه، وهـو كـوني أحتـاج إلى تمويـل ضخـم وتكنولوجيـا متطـورة، كان واهيًـا جـدًّا.. فقـد كان مـن السـهل جـدًّا أن أجـد نفـس الإمكانيـات ونفـس التمويـل أو مـا يقاربـه مـع «إيـورو كـورب».. كان يعـرف أن هنـاك سـببًا مهـمًّا يدفعنـي للتخـلي عـن كل هـذا، وقـد عقـد العـزم عـلى أن يعـرف مـا هـو.. ولكـن فكـرة التخـلي عـمًّا أملكـه ورفـض مـا يمكننـي تقديمـه كانـت غـير قابلـة للحسـبان مـن الأسـاس.. بالطبـع وافـق، ومنحنـي عضويـة عاملـة مبدئيـة، تمهيـدًا للترقـي فيـما بعـد، مـع تمويـل بقيمـة 100 مليـون بيـت كويـن Bit-Coin، أو مـا يقـدر في عملـة العـالم القديـم بــ 30 مليـار دولار..

وكانت هذه هي البداية الحقيقية..

***

-٢-

من قال أن البشر غير كاملين؟.. هو متدين، أو أحمق بالتأكيد..

لا شيء يقيد البشر سوى أجسادهم الفانية..

لو لم نكن حقائب من الدم والأنسجة والمواد الكيماوية، لها تاريخ صدور وانتهاء، فلربما كنا نقدر على تحقيق الكثير فعلًا، في وقت أقل ممَّا كنا نتخيله.. لو كانت أجسادنا تسمح لنا بما هو أكثر..

الموت هو ليس أكثر من تاريخ انتهاء لكل ما تحمله أجسادنا من خبرات ومعارف وعلوم.. الخلايا الحيوية عمومًا ليست لها القدرة على تحمل فترات طويلة من الظروف البيئية.. الأمراض وتأثيراتها ليست سوى طريقة الطبيعة في التعامل مع هذه العناصر الدخيلة عليها.. كالعطس مثلًا حينما تدخل ذرة من التراب لأنفك.. الموت هو عطسة الطبيعة، للتخلص من جراثيمها المسماة بالبشر..

لكن ماذا لو كانت هناك طريقة لتكوين الخلايا الحيوية ذاتها؟..

ماذا لو لم يكن الموت هو النهاية؟.. ماذا لو لم تكن هناك نهاية من الأصل؟.. ماذا لو كنا قادرين على خلق الخلايا الحيوية والجينية ذاتها من الصفر، والتلاعب بها كما نشاء؟.. ما الذي يمكن أن ينقصنا لو توفرت لدينا تلك القدرة، حتى نحصل على لقب الإله ذاته؟..

هذا كان مشروعي.. فكرتي وحلمي الذي بدأ مع بداية الأبحاث الجينية الأولى في مختبرات البيولوجي والكيمياء الحيوية في (إم أي تي MIT).. باستعمال القليل جدًّا من الحمض النووي البشري، والتلاعب به فيزيائيًا وهندسيًّا، كنت قادرًا على أن أستنتج -نظريًّا فقط- كيفية تخليق الخلايا الصناعية من لا شيء أكثر من بعض الحمض النووي.. لكن الدخول في مرحلة عملية

للتصنيـع الفعـلي كان يحتـاج إلى مـوارد ومعامـل وتكنولوجيـا لم تكـن متوفـرة لي في الجامعـة.. كان يحتـاج لأعـلى تقنيـات متوفـرة للجنـس البـشري بأكملـه، وحتـى عندهـا كان صعبًـا..

لذلـك فعندمـا توفـرت لـدي فرصـة الانضـمام لـ «جينيسـيس»، وبعـد مقابلتـي الناجحـة مـع «جودويـن»، لم يكـن هنـاك شيء يقـدر عـلى أن يثبـط عزيمتـي، أو يدفعنـي إلى الـوراء..

المعمـل الـذي حظيـت بـه كان حلـمًا لأي عـالم في التاريـخ المسجل.. محتوياتـه كانـت قـادرة عـلى جعـلي أنـا نفـسي أنبهـر.. تقنيـات لم أرهـا في سـنيني الأربـع والعشريـن.. وبالطبـع لم أكـن قـادرًا عـلى إنجـاز أبحـاث واختبـارات بمثـل ذلـك الحجـم وحـدي؛ لذلـك فقـد وفـروا لي فريقًـا كامـلًا مـن ألمـع الفيزيائيـين التطبيقيين والكيميائيـين والأطبـاء، والمهندسـين الكيميائيـين ومهنـدسي الوراثـة..

حـين بـدأت الأبحـاث والاختبـارات، لم يكـن هنـاك الكثـير مـن الوقـت متوفـرًا لأتطلـع إلى مـا وصلـت إليـه.. العمـل صـار هـو كل مـا في يومـي حرفيًّـا.. بالإضافـة إلى أن الإدارة بأكملهـا، وبأوامـر مـن «جودويـن» ذاتـه، فرضـت علينـا زمنًـا قصـيرًا جـدًّا للانتهـاء مـن شـوطٍ كبـير مـن الأبحـاث.. كانـوا كـما تعرفـون جميعًـا، شـديدي الشـوق لمعرفـة نتيجـة الأبحـاث، ورؤيـة التكنولوجيـا التـي سـنتمكن مـن الوصـول إليهـا، والتـي اسـتثمروا فيهـا مبلغًـا طائـلًا للغايـة..

عمليـة تخليـق الخلايـا الصناعيـة لم تكـن صعبـة في البدايـة.. لا تنـسَ أن أبحـاثي عـلى «خلايـا الـرب» وفَّـرت عـليَّ شـوطًا كبـيرًا يقـدَّر بالسـنين.. المشـكلة والصعوبـة الحقيقيـة كانـت في الـذكاء الاصطناعـي، والوعـي..

كيف؟.. دعوني أشرح لكم..

عمليــة تخليــق الخلايــا الصناعيــة، والأجســاد الكاملــة في حــد ذاتهــا لم تكــن صعبـة بقـد مـا كانـت طويلـة.. المشـكلة الفعليـة كانـت تكمـن في كيفيـة إكسـاب تلـك الأجسـاد المخلَّقـة صناعيًّـا، وعيًـا كافيًـا يُمكِّنهـم مـن الفهـم والاسـتيعاب وطاعة الأوامـر؟.. لم يكـن هـذا نوعًـا تقليديًّـا مـن الـذكاء الاصطناعـي الـذي كنـا بالفعـل

بارعين فيه، بل كان شيئًا مختلفًا وجديدًا..

تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي التي كنا قد توصلنا إليها في ذلك الوقت كانت أشبه بالمعجزات.. باستعمال ميكانيكا الكم، ومعادلات الارتباط الكمي Quantum Entanglement وعمليات الحوسبة الكمية الفائقة Quantum super computing، جاء أول حاسوب يعمل بالتكنولوجيا الكمية في بدايات القرن، وتحديدًا عام 2021، وكان يملك وحدة معالجة مركزية CPU بسعة 100 كيوبيت Qu-Bit .. كان هذا وقتها كشفًا وصرحًا علميًّا يقترب من درجة الخيال.. فقد كان أقوى من أقوى أجهزة الحاسوب الخارقة Super Computers بنسبة 300%.. كان هو بداية العبور إلى ما عرف باسم الحوسبة الكمية..

ظل التطور ساريًا بمرور السنين والعقود، ومع تغير الساحات التكنولوجية بدخول (جينيسيس) أولًا، ثم باقي العظماء الأربعة، وتحول الاقتصاد العالمي، إلى وحدة واحدة رقمية متصلة، كان هذا عاملًا أزال الكثير من العوائق أمام سهولة وسلاسة البحث التكنولوجي، وكان العمل المشترك وتدفق المعلومات عنصرًا أساسيًّا في ابتكار الجيل الجديد من وحدات الحوسبة الكمية الفائقة، أو ما عُرِف اختصارًا بـ .S.Q.C.U أو (إس كيو سي يو) اختصارًا لـ (Super Quantum Computing Units).. كان هذا الجيل هو الذي بدأ مع سنة 2046.. وتلاه الجيل الثاني سنة 2050، والجيل الثالث المتطور عام 2089، مع تخليق ألياف النانو-سيليكون، وهي ألياف إلكترونية فائقة القوة والشدة، وشديدة التحمل لعمليات الصناعة الدقيقة، ومناسبة جدًّا للصناعات الكمية.. كان ابتكارها وقتها أشبه بنفس القفزة التي قفزها العلم والتكنولوجيا البشرية، حين اكتُشف الترانزستور وابتُكر لأول مرة في أربعينيات القرن العشرين.. تحديدًا سنة 1947..

أعطى هذا لحواسيب الـ .S.Q.C.U قدرة فائقة على إجراء المعادلات والحسابات ومعالجة المعلومات، تفوق قدرات العقل البشري ذاتها بنسبة لا يمكن استيعابها حتى.. هذا الجيل عرف عالميًّا باسم (S.Q.C.U.3.0).. وكان

بدايـة التطـور الشـامل في كافـة مجـالات التكنولوجيـا والابتـكار البـشري الـذي جـاء بعدهـا..

أول تطبيـق استُعمل هـذا الجيـل مـن الحواسـيب الكميـة فيـه، هـو مـشروع (المصعـد الفضـائي Space Elevator).. مـشروع شركـة Space.X المسـتقلة اقتصاديًّـا، بالتعـاون مـع وكالـة ناسـا N.A.S.A لأبحـاث الفضـاء، والتـي كانـت جـزءًا مـن (جينيسـيس)..

كان هـذا الابتـكار هـو الـذي أدخـل الحضـارة البشريـة في عـصر الفضـاء الجديـد، مـن خـلال صنـع مصعـد كامـل، مـن سـطح الأرض إلى الفضـاء، يسـتعمل لنقـل البضائـع والمـواد الأوليـة الخـام التـي تسـتعمل في بنـاء سـفن ومحطـات الفضـاء، ناهيـك طبعًـا عـن السـياحة.. أول مـن اقـترح هـذا المـشروع كان فريـقٌ مـن المهندسـين وعلـماء الفيزيـاء النظريـة، ومهندسـو الطـيران، في شركـة Space.X لمالكهـا «إيلـون ماسـك Elon Musk»، والـذي ظـل خيـالًا علميًّـا حتـى توصلـوا لابتـكار نـوع متطـور مـن أليـاف النانـو كربـون الفائقـة، التـي قللـت مخاطـر العمليـة لحدٍّ أقصى، وأيضًـا مـع التوصـل لــ (S.Q.C.U.3.0)، لم تكـن التكنولوجيـا اللازمـة لذلـك مشـكلة، ولم يكـن الأمـر يحتـاج حتـى لعـمال بشريـين معرَّضـين للخطأ، بـل كان الموضـوع كلـه مميكنًـا، يعمـل بنفسـه.. لم يحتـج أكـثر مـن عمليـة البنـاء فقـط، والتـي ظنهـا الكثـيرون خيـالًا جامحًـا، حتـى منتصـف القـرن الحـادي والعـشرون..

في الواقـع، الكثـير مـمَّا نملكـه الآن مـن تكنولوجيـا، كان الجميـع يظنـه نوعًـا مـن الخيـال العلمـي، منـذ سـبعين سـنة فقـط.. التطـور البـشري لا حـدود لـه، ولا سـقف.. فقـط هـؤلاء الذيـن كانـوا دومًـا يقفـون عائقًـا ضـد كل خطـوة تكنولوجيـة أكـثر تقدمًـا، هُـم أولئـك الذيـن يحرِّمـون كل شيء، ويخرِّبـون كل مـا يسـتطيعون، بدعـوى أنـه محـرم، وأن الـرب حـرم عليهـم ذلـك..

شـيئان، لا حـد لهـما ولا نهايـة.. الكـون، والغبـاء البـشري.. أينشـتاين كان محقًّـا فعـلًا..

المهم.. كفى استطرادًا، ولنعد لموضوعنا الرئيس..

أقول، مع ابتكار الجيل الثالث من حواسيب المعالجة الكمية أو ما تعرفونه باسم S.Q.C.U.3.0، بدأت تطورات عديدة على أصعدة واسعة، من بينها موضوع المصعد الفضائي، وتنكولوجيا السفر البين نجمي Interstellar Travel، ومنها أيضًا موضوعنا الحالي، وهو الذكاء الاصطناعي المتطور Advanced Artificial Intelligence أو اختصارًا A.A.I..

منذ بداية معرفة ميكانيكا الكم، مع اكتشافات نيلز بور Bohr وماكس بلانك Max Planck، وبدايات علم الفيزياء الكمية رسميًّا على أيدي فيرنر هايزنبرج Heisenberg وإروين شرودنجر Schrodinger، كانت الفيزياء الكمية، وعلوم الكوانتم عمومًا من الأشياء المستعصية على الفهم البشري الكامل.. فكرة أنه لا شيء أكيد في عالم الكم، وأن كل شيء هو احتمال وليس أكيدًا، ومبدأ عدم التأكد Uncertainty Principle لهايزنبرج، كانت جميعًا عوائق أمام التطور البشري الحقيقي..

بداية علوم الفيزياء الحديثة واجهت العديد من الصعوبات، والعديد من الأخطاء.. فالعلم البشري ذاته كان طفلًا يحبو في ذلك الوقت.. ولكن مع تطور التكنولوجيا والعقول ذاتها بين كل عقدٍ وعقد، حدثت تلك الثورة التقنية والعلمية، بشكل لم يجسر أكثر كُتَّاب الخيال العلمي تفاؤلًا على تصوره..

الفتوحات التي قدمتها ميكانيكا الكم، في أوجِ مجدها، كانت كافية لتقلب الخريطة العالمية للتكنولوجيا رأسًا على عقب.. بإسهامات من معامل سيرن CERN للأبحاث، ومختبرات كالتك Caltech في كاليفورنيا، وناسا N.A.S.A، فقد توصل العلم إلى فهم كامل لخواص الارتباط الكمي Quantum Entanglement، وكيفية عمل مبدأ الاحتمالية، وعدم التأكد Uncertainty Principle لهايزنبرج.. ومن خلالها، توالت الفتوحات في مجال تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي، والاتصالات، وتكنولوجيا السفر البين نجمي..

كيفية تحقيق هذا ليست موضوعنا الآن، لأن التفاصيل كثيرة وطويلة لا

مجال لها هنا، وليست هي أساس موضوعنا.. ما يهمنا، هو أن تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي المتقدم A.A.I وفرت لي ولفريقي الأساس الذي كنا نحتاجه للعمل على الجيل الجديد منها..

برغم كل التطور الذي أدخلته ميكانيكا الكم، والحوسبة الكمية إلى مجال الذكاء الاصطناعي، كان الأمر ما زال مقيدًا بالتقنية ذاتها.. المعدن..

كون الأمر لا يتعدى في واقعه سوى كونه جهاز كمبيوتر خارقًا صغيرًا، يقوم بمليارات العمليات الحسابية في أجزاء من الثانية؛ ليصنع ما يبدو لنا كقدرة فائقة على التعلم.. ولم يكن هذا هو ما أريده..

ما زلت أذكر الحوار الذي دار بيني وبين جودوين وقتها..

- «قد قطعتَ شوطًا طويلًا في البحث، وصرتَ قاب قوسين أو أدني من النهاية.. أول كائن صناعي مخلق بالكامل هو في مرمى قبضتكَ.. فلماذا تنتظر؟..»

قالها لي في قلب مكتبه الذي يقع في الطابق السبعين من برج جينيسيس الإداري في لوس أنجيليس، بينما هو يصب لي بعض البراندي في أحد كؤوسه البلورية الفخمة، أتبعها بزيتونة صغيرة في قلب السائل الرائق، قبل أن يستدير، ويناولني الكأس منتظرًا إجابة شافية..

وكان هذا ما قلته..

- «لأنه لن يكون كاملًا..»

نظر لي في اهتمام وهو يجلس خلف مكتبه، مشيرًا لي بالجلوس، وهو يقول:

- «ماذا تعني؟»

جلست، وأدرت الكأس في راحتي مليًّا، ثم قلت بعد رشفاتٍ عكرت صفو سطح السائل:

- «تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي الحالية ليست كافية.. لن تقدم أبدًا لنا

مـا كنـت أطمـح لتقديمـه مـن البدايـة.. لـو اسـتعملتها، فالناتـج لـن يتعـدى كونـه روبوتًـا متطـورًا عـلى أقـصى تقديـر..»

صمت لحظات وهو يتطلع إليَّ، ثم سأل:

- «وما هو ذاك الذي تطمح لتقديمه؟!»

رشـفت رشـفة أخـرى مـن الـكأس، ثـم وضعتـه أمامـي عـلى المنضـدة، وأنـا أقـول في بسـاطة:

- «مـا أطمـح لتقديمـه هـو ذلـك الـذي اتفقنـا عليـه منـذ البدايـة.. وسـبب تـركي لإيوروكـورب في المقـام الأول.. كائـن حـي.. كائـن حـي كامـل، مصنـوع بواسـطتنا نحـن..»

لم يـرد، وتراجـع في مقعـده وهـو يشـبك أصابـع كفيـه أمـام وجهـه، متابعًـا إيـاي وأنـا أسـتطرد:

- «واحـد مـن الأسـباب التـي تركـتُ لأجلهـا إيوروكـورب، هـي كونهـم منغلقـي التفكـير.. لم أكـن أبـدًا لأحظـى بحريـة بحثيـة، وحريـة فكريـة كـما هـو الحـال هنـا.. كان الأمـر سـيضحى أعوامًـا عديـدة مـن الضغوطـات والشـجار، وكان سـينتهي لرحيـلي في نهايـة المطـاف.. لأن مـا أريـده، لا يقـدِر أي شـخص طبيعـي عـلى اسـتيعابه..»

ظـل صامتًـا لا يتكلـم، فتطلعـت إليـه لحظـة، ثـم مِلـتُ نحـوه في مقعـدي بعـد نحنحـةٍ بسـيطة:

- «اسـمع.. أنـا اخترتُـكَ، واخـترت جينيسـيس؛ لأنـك مـن هـؤلاء النـاس الذيـن يملكـون قـدرة عـلى رؤيـة الطمـوح واسـتيعابه.. قـد بـدأتَ مـن الصفـر، وتدرجـتَ حتـى وصلـتَ لموقعـك هـذا بالانتخابـات.. وهـذا نجـاحٌ لا يقـدر أي أحـد عـلى إنجـازه.. أي أحـدٍ طبيعـي أقصـد..»

وتطلعت لعينيه مباشرة، وأنا أضيف:

- «المـشروع الـذي أقدمـه لـك، هـو مـشروع لـن يفتـح حقـلًا جديـدًا مـن العلـم

فقـط، بـل سـيفتح أمامـك المسـتقبل كلـه.. سـيرفع الجنـس البـشري بأكملـه لمصافِّ الآلهـة، وسـيغير مـن خارطـة المسـتقبل تمامًـا، بـلا رجعـة..»

نقرتـان مـن إصبعـي السـبابة عـلى خشـب المكتـب الأبنـوسي الأسـود، تبعتهـم كلـماتي الطامحـة، متابعـةً:

- «كل ما أحتاجه هو التمويل والوقت.. وثقتك..»

ظـل هـو ينظـر إليَّ طـوال حديثـي دون أن يتكلـم.. كان يعلـم جيـدًا بداخلـه أننـي أخفـي سرًّا مـا، لم يكـن يعرفـه.. وكان هـذا يورثـه فضـولًا لا يخمـد.. فضـولٌ دفعـه لأن يتسـاءل وهـو يميـل ليسـتند بمرفقيـه وسـاعديه عـلى المكتـب:

- «وما باقي الأسباب التي دفعتك لترك إيوروكورب؟..»

لم أرد، وأنا أنظر له بلا تعبير، فأضاف:

- «قلتَ أن هذا أحد الأسباب، بمعنى أنك تملك أسبابًا أخرى.. فما هي؟»

شردتُ قليـلًا وقتهـا أمامـه، وأنـا أسـتعيد بعـض الذكريـات التـي دفنتهـا منـذُ زمـنٍ بعيـد، وابتلعـت لعـابي، قبـل أن أجيبـه في سلاسـة، وبجمـودٍ أخفـى عواصـفَ بداخـلي لا تنطفـئ:

- «أخبرتكم بها من قبل.. التمويل اللانهائي والحرية غير المشروطة..»

ابتسم ابتسامة هادئة بطرف فمه الأيمن، وهو يقول:

- «أنت تعرف كما أعرف أن هذا هراء..»

ابتسمتُ أنا الآخر، وأنا أرد بنفسِ الهدوء:

- «ربمـا.. ولكنـه الهـراء الـذي أملكـه.. ربمـا كان لا يعجبـك، ولا تصدقـه، ولكـنَّ ذاك لـن يجعلـه أقـل صدقًـا..»

صمـتَ لحظـات وهـو يتطلـع إليَّ بنفـس البسـمة الهادئـة، قبـل أن يضحـك ضحكـة قصـيرة، ويتراجـع في مقعـده وهـو يشـير لي بإصبعـه السـبابة قائـلًا:

- «وراءك سِرٌّ كبـير يـا مسـتر تاسـك.. سِرٌّ واضـحٌ عـلى معالمـك، ولا يغيـب عـن ناظـريَّ.. وربمـا وافقتـكَ عـلى منحـكَ عضويـة جينيسـيس، وصرت واحـدًا منَّـا، ولكن

هـذا لا يعنـي أننـي لـن أعـرف يومًا مـا.. وعندهـا، سـنتحدث مـرة أخـرى..»

ابتسـمت في هـدوءٍ وأنـا أنهـض مـن عـلى مقعـدي، وأغلـق أزرار معطفـي بيـدٍ، وأنـا أمـد لـه يـدي الأخـرى مصافحًـا:

- «لا أتوقع أقل من ذلك..»

مـد يـده ليصافحنـي دون أن ينهـض مـن مقعـده، ثـم اسـتدرت وأنـا أنحنـي نسـبيًّا بلباقـة..

- «مستر جودوين..»

واتجهت نحو الباب في هدوء..

كنـت أعـرف جيـدًا أنـه مـن النـوعِ الفضـولي، الـذي يحـب أن يضـع عاملِيـه جميعًـا تحـت نظـره وإمرتـه وإشرافـه الشـخصي.. لم تكـن الأسرار مـن الأشـياء المحببـة لقلبـه كثـيرًا، وهـذا مفهـوم.. لا أحـد يصـل لأن يكـون رئيـس مجلـس إدارة جينيسـيس بكونـه رقيـق القلـب Sweetheart .. ليـس الأمـر بهـذه السـهولة، لا أحـد ينجـو في عـالم السياسـة دون أن يمتلـك حاسـة سادسـة لا تهمـد..

وحاسـته كانـت تنبئـه بأننـي أخفـي شـيئًا مـا.. لم يكـن يعلمـه، ولكنـه كان مـصرًّا.. كان يملـك قناعـة شـخصية بـأن مـا أخفيـه ليـس سرًّا مـضرًّا لجينيسـيس عـلى الإطـلاق، فقـد قـام جهـاز الاسـتخبارات المركـزي للمؤسسـة G.C.I بعمـل تقريـر كامـل عـن تاريخـي بأكملـه منـذ أن كنـتُ نطفـة صغـيرة في رحـم أمـي، وحتـى اللحظـة التـي دخلـت فيهـا الـبرج.. كلُّ سرٍّ في حيـاتي مهمـا كان صغـيرًا، كان أمامهـم عـلى الشاشـات، ومكتوبًـا عـلى الأوراق، ومسـجلًا بالصـوت والصـورة.. وكل هـذا لم يثبـت أن ورائي خطـرًا مـن أي نـوع.. لم يكونـوا يمزحـون في مثـل هـذه الأمـور، فتجسـس الـشركات Corporate Espionage كان هـو النـوع الجديـد مـن الحـروب البـاردة وقتهـا، وكان حجـم التطـور التكنولوجـي في وسـائل الاتصـالات وتقنيـات التجسـس يسـتدعي منهـم عينًـا ثالثـة في منتصـف جبهتهـم، ورابعـة في مؤخـرة رأسـهم.. وإلا فالانهيـار ليـس بعيـدًا إلى هـذا الحـد..

لذلـك يمكنـك أن تتأكـد أنـه لـو كان جهـاز الاسـتخبارات قـادرًا عـلى أن ينصـح

بقبولي، فإن ذلك يعني أنهم متأكدون بما لا يدع مجالًا للشك أنني وديع كطفلٍ رضيع، خالٍ من الذنوب كالمسيح، توشك أجنحة الملائكة على أن تبرز من تحت معطفي..

كلُّ ما كان يعرفه هو أنني -لسببٍ ما لا يعرفه أو يفهمه- كنتُ مصرًّا كالقدر.. وآثر هو أن يكسبني في صفه، وينتظر، ويرى ما سينتج من استثماره.. كان يملك بصيرة ثاقبة، وحدسًا يخبره أنني كنت على أعتاب كشفٍ سيغير كل شيء..

ولم يدر إلى أي حدٍّ كان محقًّا..

(نهاية التسجيل الأول)

***

(التسجيل الثاني)

تفريغ مكتوب للتسجيل الصوتي الثاني لإدوارد تاسك

*(تحذير من المؤلف : هذا التفريغ التسجيلي الذي يُسرد في الفصول الثلاثة التالية يحوي بعض العلوم والشروحات التفصيلية المبسطة عن بعض ألغاز ميكانيكا الكم، والأبحاث العلمية المبنية عليها.. لو كانت هذه الأمور تضجرك، يمكنك تجاوزها، وإن كنت أفضل أن تقرأها وتحاول الفهم؛ لأن ما سيقال هنا مهم وضروري.. لكن احرص على قراءة الفصل الخامس؛ لأنه محوري لفهم الأحداث التالية في مذكرات إدوارد تاسك.)

-٣-

مرحبًا بكم من جديد..

في التسـجيل المـاضي.. انتهـت الأمـور بعـد خروجـي مـن مكتـب «فرانـك جودويـن» بعـد أن كان يتسـاءل عـن سـبب عـدم اقتناعـي بالنتائـج التـي توصلنـا لهـا في عمليـات التصنيـع، ومـشروع خلايـا الـرب..

كان سـببي واضحًـا، وعرضتـه بأكـبر قـدر ممكـن مـن الشـفافية.. تقنيـات الـذكاء الاصطناعـي التـي كانـت متوفـرة لنـا وقتهـا، كانـت متطـورة فعـلًا، وشـديدة الكفـاءة، ولكنهـا لم تكـن مـا أبحـث عنـه.. مـا كنـت أبحـث عنـه هـو أكـبر مـن مجـرد ذكاء اصطناعـي تقليـدي، مهـما كان متقدمًـا..

ما كنت أبحث عنه هو الوعي ذاته..

دعوني أحدثكم قليلًا عن ميكانيكا الكم، ومفهوم الوعي بداخلها..

ميكانيـكا الكـم هـي أحـد أقطـاب الفيزيـاء الحديثـة، والتـي بـدأت مـع أوائـل القـرن العشريـن، في صـورة معـادلات نيلـز بـور Bohr وشرودنجـر Schrodinger وهايزنـبرج Heisenberg وغيرهـم الكثـير.. ومعهـا، بـدأت ثـورة علميـة كبـيرة، تمثلـت في صـدام مبـاشر بـين علـماء الكوانتـم، وعلـماء النسـبية، المتمثلـة في قائدهـا والأيقونـة الأسـطورية ألـبرت أينشـتاين Albert Einstein.. لمـاذا حـدث كل هـذا؟.. سـأخبركم..

ميكانيـكا الكـم في الواقـع، تقـول إن العـالم -عـلى المسـتوى الـذري- عـالم مـن الاحتـمالات، لا توجـد فيـه أحـداث منظمـة أو معروفـة.. عـالم الكلمـة العليـا فيـه هـي قاعـدة (اللاتأكيـد Uncertainty)، أو مبـدأ عـدم التأكـد Uncertainty Principle كـما سـماها هايزنـبرج .. ولذلـك فـإن ميكانيـكا الكـم تقـدر عـلى توقـع الاحتـمالات فقـط لنتيجـةٍ مـا أو أخـرى.. أنتـم تعرفـون كل مـا قيـل عـن قطـة

شرودنجر Schrodinger’s Cat الحية والميتة في نفس الوقت، وغيرها الكثير..

طبعًا، فتحت تلك الفكرة الباب أمام الخيال البشري إلى صورة جديدة لعالم غير مستقر ولا يمكن توقع أحداثه .. عالم لو تمكنّا من رؤيته بأعيننا المجردة لأصبنا بالجنون..

القوانين في العالم الكمي (Quantum Realm) مختلفة تمامًا عن تلك القوانين الفيزيائية الكلاسيكية التي نعرفها .. مثلًا، لا وجود لما نسميه بالاتجاهات.. لا يوجد أعلى أو أسفل أو يسار أو يمين.. العالم الكمي هو عالم مجنون ببساطة.. السائد فيه هو الاحتمالية عوضًا عن الحتمية، بمعنى أن حدوث أي حدث فيه محكوم باحتمال معين، وليس أكيدًا.. بل -والأدهى من كل هذا- عدم حدوث حدث معين لا يعني أنه لم يحدث فعلًا، بل يمكن أن يكون قد حدث بالفعل في عالم مختلف عمّا نراه في تلك اللحظة بأعيننا !..

باختصار.. كل شيء محتمل في ميكانيكا الكم والعالم الكمي، ولا يوجد أي شيء مؤكد..

الجميع ظن مع بداية اكتشافها أن الموضوع بأكمله لا يتعدى كونه خيالًا جامحًا من مجموعة من العلماء، يقترب من درجة الجنون المطبق.. ومن بين هؤلاء كان أينشتاين نفسه الذي قال جملته الشهيرة «الله لا يلعب النرد بالكون God Doesn’t Play Dice With The Universe»، كناية عن عدم اقتناعه بفرضية الاحتمالات لهايزنبرج.. والذي أدى بعدها لرد هايزنبرج عليه بجملته الشهيرة «لا تخبر الرب بما يجب أن يفعله Don’t Tell God What He Should Do».. الصراع بين هذين العالمين الكبيرين كان سببًا في تشكيل القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، وفتح الباب أمام تطور الفيزياء النظرية Theoretical Physics ومعها تطور الفيزياء التطبيقية Applied Physics، ومهد الطريق أمام كل التطور التكنولوجي الذي شهده التاريخ البشري منذ وقتها، وحتى وقتنا هذا سنة 2123..

من حينها وحتى الآن، تظل ميكانيكا الكم هي أفضل وأقوى نظرية

يملكهـا العلـم البـشري، لتفسـير الكـون عـلى المسـتوى الـذري المتناهـي الصغـر، ووصفـه بدقـة غـير مسـبوقة، عـلى الرغـم مـن كل الألغـاز التـي تحملهـا معادلاتهـا وتجاربهـا المعمليـة..

مـن بـين تلـك الألغـاز، وربمـا كان ذاك أشـهرها بالنسـبة لي عـلى الأقـل، حقيقـة أن ناتـج أي تجربـة ذريـة يمكنـه أن يتغـير تمامًـا، بنـاءً عـلى قيـام أو عـدم قيـام المُجـرِّب بقيـاس أيٍّ مـن خـواص الأجسـام الذريـة الداخلـة في التجربـة..

عندمـا لاحـظ رواد نظريـة ميكانيـكا الكـم هـذا التأثـير الغريـب الـذي سـموه بــ «تأثـير الملاحـظ Observer's Effect» لأول مـرة، تضاربـت مشـاعرهم جميعًـا، واسـتقرت عـلى حـيرة وقلـقٍ عظيمـين.. ذلـك لأن ذلـك التأثـير الغريـب، وتلـك الخاصيـة الغامضـة كانـت عـلى مـا يبـدو، معارضـة صريحـة لـكل الخصائـص المنطقيـة التـي يقـوم عليهـا العلـم.. إنـه عـلى الرغـم مِنَّـا ومـن كل مشـاركاتنا وتلاعبنـا بالطبيعـة مـن خـلال التجربـة والخطـأ Trial and Error، فإنـه هنـاك عالمًـا موضوعيًّـا يحتوينـا جميعًـا، لا تتغـير قواعـده..

لـو كان فعـلًا مـن الممكـن أن يتغـير العـالم، وطريقـه تصرفـه وتكونـه، بنـاءً عـلى مـا إذا كنـا نراقبـه ونسـجل ملاحظاتنـا، أو لا؛ إذن فـما معنـى الحقيقـة؟.. مـا معنـى الواقـع Reality ذاتـه؟..

وقتهـا، العديـد مـن هـؤلاء العلـماء شـعروا بأنهـم مُجبريـن لاسـتنتاج أن (الموضوعيـة Objectivity) نفسـها ليسـت أكـثر مـن وهـم Illusion.. وأنهـا ليسـت منطقيـة، بـل نسـبية في واقعهـا، تتغـير بتغـير المعطيـات والأحـداث.. كانـوا مجبريـن لتقبـل فكـرة أن الوعـي Consciousness ذاتـه لـه دور في العـالم الكمـي، والنظريـة الكميـة بأكملهـا.. ولكـن لبعـض الآخريـن، لم يكـن هـذا شـيئًا يمكنهـم تقبلـه أو اسـتيعابه.. ألـبرت أينشـتاين ذاتـه اعـترض عـلى الأمـر قائـلًا «بالتأكيـد القمـر لا يوجـد فقـط عندمـا ننظـر إليـه !» «Surely, The Moon does not exist only when we look at it».. وكان معـه حـق، وأظنني أفهمـه بشـكلٍ مـا.. الأمـر فعـلًا يصعـب فهمـه أو اسـتيعابه.. وحتـى لـو اسـتوعب، مـن الصعـب أكـثر تقبلـه بهـذه

البسـاطة..

بغـض النظـر عـن تصديقهـم وقتهـا لكـون الوعـي يؤثـر في ميكانيـكا الكـم أو لا، فإنهـم كانـوا مؤمنـين بـأن الوعـي ذاتـه ينبـع مـن ذاك العـالم الكمـي، ومـن طريقـة عمـل مكوناتـه ذاتهـا.. يمكنكـم أن تفكـرون في الأمـر عـلى أنـه كـما تتوفـر للأجسـام الذريـة والكميـة قـدرة غريبـة عـلى الوجـود في مكانـين في وقـت واحـد، فإنـه يمكـن للعقـل أيضًـا التفكـير في العديـد مـن الأشـياء ومعالجتهـا في وقـتٍ واحـد.. الأمـر لا يختلـف كثـيرًا..

الأمر عسير على الفهم والاستيعاب؛ لذلك، سأشرح لكم شيئًا..

واحـدة مـن أشـهر التطبيقـات العمليـة لتأثـير العقـل عـلى ميكانيـكا الكـم، هـي تجربـة تُدعـى «تجربـة الشـق المـزدوج **Double-Slit Experiment**».. تقـوم فكـرة عملهـا عـلى شيءٍ بسـيط للغايـة.. فلنتخيـل أننـا نسـلط حزمـة مـن الضـوء عـلى لـوحٍ خشـبي.. ولنتخيـل أن ذلـك اللـوح الخشـبي يملـك شـقين طوليـين صغيريـن مزدوجـين، متوازيـين مـع بعضهـما.. ولنتخيـل أن وراء ذلـك اللـوح حائـط يرتسـم عليـه الضـوء الناتـج مـن مـرور حزمـة الضـوء المبدئيـة مـن شـقيِّ اللـوح..

الضـوء يمكـن التفكـير فيـه عـلى أنـه نـوع مـن أنـواع الموجـات، تـردده يمتلـك قمـة وقـاع.. عندمـا يمـر هـذا الضـوء مـن خـلال الشـقين المتوازيـين في اللـوح، فإنـه ينقسـم لموجتـين تمـرَّان مـن كل شـقٍ منهـما.. وكل موجـة مـن هاتـين تتداخـل مـع الأخـرى بطريقـة معينـة.. فعندمـا تتلاقـى قمـم الموجـات مـع بعضهـا، تندمجـان معًـا إلى موجـة أقـوى، وأكـثر سـطوعًا.. بينـما إذا تلاقـت قمـة مـع قـاع، فإنهـما تلغيـان بعضهـما، ويكـون الناتـج ظـلامٌ دامـس..

هـذا التداخـل يسـمى بالانحـراف **Diffraction**، وهـو مـا ينتـج عنـه سلسـلة مـن البقـع الطوليـة المضيئـة السـاطعة التـي تنتـج مـن تأثـير تلاقـي القمـم مـع بعضهـا، تفصـل بينهـا بقـع طوليـة مسـاوية لهـا، ولكنهـا مظلمـة تمامًـا، وتنتـج تلـك مـن تلاقـي القمـم مـع القيعـان..

تلـك التجربـة البسـيطة كانـت تسـتعمل لدراسـة تلـك الصفـة المميـزة لسـلوك

الموجـات، منـذ فـترة أكـبر مـن ثلاثمائـة سـنة مضـت مـن وقتنـا الحـالي.. قبـل حتـى أن تكتشـف نظريـة الكـم بوقـت طويـل..

لكـن مـاذا لـو فكرنـا في تنفيـذ نفـس التجربـة، ولكـن هـذه المـرة باسـتعمال جسـيمات ذريـة مشـحونة Charged Subatomic Particles؟.. مثـل الإلكترونـات مثـلًا التـي هـي أحـد مكونـات الـذرة، ذات شـحنة سـالبة..

مـن المعـروف -عكـس مـا قـد يعتقـده العامـة غـير المتخصصـين- أن الجسـيمات الذريـة بإمكانهـا التـصرف مثـل الموجـات بالضبـط.. بمعنـى أنـه بإمكانهـا المـرور بعمليـة الانحـراف والتداخـل أيضًـا، إذا مـا مـر سـيلٌ منهـا خـلال الشـقين المتوازيـين، مُنتجـين نمطًـا معينًـا مـن التداخـل Interference Pattern.. كيـف؟..

فلنتخيـل أن تلـك الأجسـام الذريـة تُرسَـل عـبر الشـقوق واحـدًا تلـو الآخـر.. ووصولهـا إلى الجـدار يُـرى ويُسـجَّل أيضًـا واحـدًا بعـد الآخـر.. سـيكون مـن الواضـح أن تلـك الجسـيمات الذريـة لا تملـك أجسـامًا أخـرى لتتداخـل معهـا.. بمعنـى أنـه يجـب أن تصـل إلى الناحيـة الأخـرى دون أي تداخـل مـن أي نـوع.. هـذا هـو المفـروض..

ولكـن مـا يحـدث فعـلًا، هـو أنـه عنـد ملاحظـة الحائـط بعـد مـرور سـيل معـين مـن الـذرات عـبر الشـقين، سـنجد أن الـذرات متداخلـة برغـم كل شيء !.. برغـم أنهـا أُرسـلت واحـدة تلـو الأخـرى نحـو الجـدار، بـلا أي رفيـق لهـا مـن أي نـوع، فـإن كل واحـد فيهـا مـا زال يتداخـل مـع جسـيم آخـر غامـض..

الاسـتنتاج هنـا، والمضمـون يكمـن في أن كل جسـيم ذري يُرسَـل عـبر الألـواح، يتداخـل مـع نفسـه، ويمـر عـبر الشـقين معًـا في نفـس الوقـت !.. تمامًـا كـما اسـتنتج مبـدأ عـدم التأكـد، وفرضيـات ميكانيـكا الكـم.. الجسـيم في الواقـع يوجـد في المكانـين معًـا في وقـتٍ واحـد، ويتداخـل مـع نفسـه ذاتهـا.. يمكنكـم أن تفكـروا في الأمـر عـلى أنـه بسـبب سرعـة الجسـيم الـذري التـي تبلـغ مرحلـة اللانهائيـة، فإنـه يمكنـه التداخـل مـع نفسـه ذاتهـا، والوجـود في مكانـين في وقـت واحـد، ليمـر عـبر الشـقين في نفـس الوقـت، ويتداخـل مـع نفسـه ذاتهـا !..

هـذا الاندمـاج والتداخـل الغامـض يسـمى بحالـة التراكـب Superposition State.. وهـو أحـد الأساسـيات المعروفـة لتـصرف الجسـيمات الذريـة في ميكانيـكا الكـم وفيزيـاء الجسـيمات Particle Physics..

كل هذا جميل.. إليكم الشيء الغريب في الأمر، والذي لا يمكن استيعابه..

لـو أننـا وضعنـا حسـاس استشـعار Detector بداخـل أو خلـف أحـد الشـقوق، فإنـه سـيمكننا أن نعـرف ونتأكـد مـن مـرور أيٍّ مـن تلـك الجسـيمات موضـع التجربـة أو عـدم مـروره.. لكـن عنـد معرفتنـا بذلـك، فـإن ذلـك التداخـل الناتـج في نهايـة التجربـة يختفـي !.. حتـى لـو كانـت ملحوظتنـا تلـك لا تؤثـر في حركـة الجسـيم ذاتـه، فإنهـا عـلى الرغـم مـن ذلـك، تغـير نتيجـة التجربـة ذاتهـا.. مجـرد معرفتنـا للمعلومـة، ودخولهـا إلى وعينـا وذهننـا، تغـير الطبيعـة ذاتهـا لتؤثـر عـلى ناتـج التجربـة، وتجعـل منـه شـيئًا آخـر تمامًـا !..

أحـد الفيزيائيـين الذيـن عملـوا مـع العظيـم نيلـز بـور في كوبنهاجـن سـنة 1920 ومـا تلاهـا، والـذي أقـدِّر جـدًّا إسـهاماته في علـوم الفيزيـاء الجسـيمية، هـو الفيزيـائي باسـكال جـوردان Pascual Jordan، والـذي قيَّـم الأمـر ووصفـه عـلى النحـو التـالي:

«الملحوظـة لا تؤثـر عـلى مـا نقيسـه فقـط، بـل هـي تنتجـه مبـاشرة.. بمجـرد ملاحظتنـا للجسـم الـذري موضـع التجربـة، فإننـا (نُجـبره) عـلى أن يتخـذ موضعًـا معينًـا، وننفـي عنـه حالـة التراكـب Superposition.. بمعنـى آخـر، نحـن الذيـن (نخلـق) نتائـج التجربـة والقيـاس !..»

الأمـر غريـب جـدًّا، وغامـض.. أليـس كذلـك؟.. كأنمـا الموضوعيـة ذاتهـا تلقـي بنفسـها مـن النافـذة.. وليـس هـذا حتـى أغـرب مـا في الأمـر..

لـو افترضنـا أن الطبيعـة تغـير سـلوكها اعتـمادًا عـلى مـا لـو كنَّـا ننظـر لهـا، ونرقبهـا أو لا، فإننـا -نظريًّـا- يمكننـا أن نخدعهـا، ونـرى مـا تملكـه في يدهـا مـن أوراق بطريقـة أو بأخـرى.. لـكي نسـتطيع أن نفعـل ذلـك، يمكننـا أن نقيـس ونحـدد المسـار الـذي يتخـذه أي جسـيم مـن بـين هـؤلاء خـلال الشـقين المتوازيـن، ولكـن

يجب أن يتمَّ ذاك فقط بعد أن تمر الجسيمات عبرهما.. فوقتها، ستكون الطبيعة قد أظهرت أوراقها، وقررت أي مسار سيتخذه الجسيم، إن لم يكن كلاهما..

واحدة من التجارب التي تحاول فعل ذلك، عُرِضَت وقدِّمت بواسطة عالم الفيزياء الأمريكي «جون ويلر John Wheeler» في سبعينيات القرن العشرين، تحت مسمى تجربة القرار المتأخر Delayed Choice Experiment.. ونُفِّذت بالفعل في العقد الذي تلاها.. كانت تلك التجربة تستعمل وسائل ذكية بمقاييس ذلك العصر، تسمح للملاحظ بقياس نقاط معينة على مسار حزمة من الجسيمات الذرية للضوء، والتي تدعى بالفوتونات Photons، والمفترض أن تلك القياسات تحدث بعد أن تكون الجسيمات قد قررت أن تتخذ مسارًا واحدًا فرديًّا، أو حالة تراكب Superposition مكونة من مسارين..

وكان الناتج غريبًا وصادمًا..

كما تنبأ نيلز بور بالضبط، لا يختلف الأمر لو كنا نؤخر عملية القياس أو لا، ولا يشكل فارقًا على الإطلاق.. لو كُنا نقيس مسار أحد الفوتونات، قبل أن يُسجَّل وصوله في أحد أجهزة الكشف والاستشعار Detectors، فإننا -قطعًا- سنفقد التداخل !..

كأنما الطبيعة (تعرف) أننا نقيس المسار.. تعرف حتى ما لو كنَّا نخطط، ونفكر في قياس المسار.. تعرف أفكارنا ذاتها!..

أظهرت تلك التجارب أنه وقتما اكتشفنا مسارًا معينًا لأحد تلك الجسيمات الذرية موضع القياس، فإن كل المسارات والأماكن المحتملة المتراكبة Superposition(s) التي يمكن أن يتخذها ذلك الجسيم، تنهار Collapses إلى مسار واحد، وحالة واحدة واضحة ومحددة المعالم.. بل وأكثر من ذلك، أثبتت تجربة القرار المتأخر Delayed Choice أن مجرد الملاحظة ذاتها، بعيدًا عن أي تدخل عملي يمكن أن يؤدي إلى إزعاج فيزيائي Physical Disturbance لأحد مكونات التجربة، يمكن أن تؤدي لهذا الانهيار..

ما الذي كان يمكن أن يعنيه ذاك؟.. هل يعني أن ذلك الانهيار يحدث فقط عندما نلحظه نحن؟.. بمعنى أن الانهيار وتغير السلوك، لا يحدث أو يقع فعلًا، إلا عندما نلحظه نحن ونقيس أحد مدخلات التجربة؟..

تلك الفرضية اعترف بها العالِم الفيزيائي إيوجين ويجنر Eugene Wigner في ثلاثينيات القرن العشرين، حينما قال:

«من المؤكد أن الخصائص الكمية للأجسام والجسيمات، تتحدد وتتأثر بالانطباعات والأفكار والقناعات التي تدخل وعينا ذاته..»

جون ويلر أيضًا وضع فرضية أكثر جموحًا، تقول إنه مجرد وجود الكائنات الحية ذاتها، وقدرتها على (الملاحظة Noticing) من خلال وعيها، قد حولت ما كان سابقًا عددًا لا نهائيًّا من الاحتمالات الكمية للتاريخ ذاته، لخطٍّ تاريخي واحد نعرفه، ونؤمن به جميعًا.. وبهذا المنطق، فإننا بمجرد وجودنا في هذا الكون الكبير، قد أصبحنا مشاركين في تطور الكون ذاته منذ بدايته.. بمعنى أننا نعيش في كونٍ تشارُكي Participatory Universe..

يعني هذا أن مجرد قدرتنا على التفكير والملاحظة، قد أجبرت الكون ذاته على أن يتخذ مسارًا واضحًا محددًا منذ بدايته وحتى اللحظة التي نلحظه فيها.. بمعنى أننا نخلق التاريخ ذاته، وليس العكس.. فلو لم نكن موجودين لنلحظ تطور الكون وماضيه من خلال النظر إلى الفضاء عبر التليسكوبات والتجارب المعملية، فإن الكون بأكمله ربما قد كان في حالة تراكب Superposition.. وكذلك التاريخ، بلا مسار محدد ومعروف..

حتى وقتنا هذا بعد قرون، يصعب أن نتفق على فهم واحد واضح لهذه التجارب.. ولكنه من الصعب أيضًا إغفال دور التفكير والوعي ذاته على العالَم الكمي، أو إنكار الترابط الوثيق بين الاثنين..

هذا كان مدخلي، وما كنت أهتم به حتى النخاع..

في بدايات الثمانينيات من القرن العشرين، العالِم البريطاني روجر بينروز Roger Penrose، اقترح أن ذلك الترابط يمكن في الواقع أن يعمل بطريقة

عكسـية.. بمعنـى أنـه كـما يؤثـر وعينـا ذاتـه عـلى نتائـج أي تجربـة أو حـدث كمـي؛ ليجعلـه يتخـذ مسـارًا معينًـا، فإنـه يمكـن لحـدث كمـي أيضًـا أن يؤثـر عـلى وعينـا ذاتـه.. أو عـلى جسـيمات كميـة بداخـل ذهننـا، يمكـن أن تتأثـر بحـدث كمـي معـين؛ لتتخـذ حالـة متراكبـة Superposition State كـما تفعـل الجسـيمات في تجربـة الشـق المـزدوج بالضبـط.. ويمكـن أيضًـا لهـذه الحـالات الكميـة المتراكبـة أن تظهـر وتُلاحـظ في الطُّـرق التـي تسـتثار بهـا الخلايـا العصبيـة وتتواصـل مـع بعضهـا، مـن خـلال الإشـارات الكهربائيـة داخـل المُـخ..

بمعنـى أنـه ربمـا قدرتنـا، وقـدرة العقـول البشريـة عمومًـا عـلى الدخـول في حـالات عقليـة ومزاجيـة معينـة، والحفـاظ عليهـا معًـا في وقـتٍ واحـد، هـي ليسـت صنيعًـا مـمَّا نسـميه بـالإدراك.. بـل ربمـا هـي نتـاج تأثـير كمـي حقيقـي Real Quantum Effect..

فبرغـم كل شيء، العقـل البـشري مـا زال بإمكانـه أن يعالـج عمليـات إدراكيـة أكـثر تعقيـدًا بمراحـل مـن أي جهـاز كمبيوتـر خـارق ابتكرنـاه منـذ بدايـة إنتـاج الحواسـيب في القـرن العشريـن، وحتـى وقتنـا هـذا في القـرن الحـادي والعشريـن.. يفـوق حتـى أجهـزة الحوسـبة الكميـة التـي تعمـل بطريقـة تقليديـة وطبيعيـة..

بيـنروز تكلـم عـن فكـرة أن التأثـيرات الكميـة تظهـر في العمليـات الإدراكيـة البشريـة لأول مـرة في كتابـه «العقـل الجديـد للإمبراطـور The Emperor's New Mind» الـذي نـشره سـنة 1989، وهـو واحـد مـن مقتنيـاتي الثمينـة القليلـة التـي أحتفـظ بهـا في صيغـة ورقيـة عاديـة..

تلـك الفكـرة سـماها بيـنروز بــ «التخفيـض الموضوعـي المُنَسَّـق Orchestrated Objective Reduction».. أو اختصـارا Orch-OR.. عبـارة «التخفيـض الموضوعـي Objective Reduction» تعنـي أنـه -حسـب اعتقـاد بيـنروز- انهيـار التداخـل والتراكـب الكمـي للجسـيمات الذريـة، هـو في الواقـع عمليـة فيزيائيـة حقيقيـة، وليسـت تخيليـة.. قـرِّب الأمـر للأذهـان بتشـبيهه إياهـا بمشـهد انفجـار فقاعـة هـواء.. تشـبيه عبقـري فعـلًا.. لا تنسـوا أنـه مـن العباقـرة القلائـل الذيـن عملـوا

مـع العظيـم سـتيفن هوكينـج Stephen Hawking في أواخـر القـرن العشريـن..

ذلـك التخفيـض الموضوعـي ينبـع مـن افـتراض بيـنروز أن سـبب عـدم ظهـور تلـك الخـواص والميـزات الكميـة عـلى الأجسـام الكبـيرة نسـبيًّا، كمثـل المقاعـد والمناضيـد، وحتـى الكواكـب، هـو تأثـير الجاذبيـة Gravity.. فهـو يعتقـد أن الحـالات التراكبيـة الكميـة Quantum Superposition(s) تصبـح مسـتحيلة في الأجسـام الأكـبر مـن الـذرات.. وذلـك لأنـه حينهـا، قـوة الجاذبيـة الكونيـة وتأثيرهـا سـتجبر نوعـين مختلفـين مـن الجسـيمات، أو بمفهـوم أشـمل؛ نوعـين مختلفـين مـن الزمـكان Space-Time ذاتـه، لأن يوجـدَا معًـا.. وهـذا مسـتحيل علميًّـا ونظريًّـا ومنطقيًّـا حتـى.. ولذلـك فنحـن لا نـرى تلـك التأثـيرات الكميـة في الأجسـام الكبـيرة التـي تشـكل واقعنـا، وإلا كُنـا نعيـش في عـالم غريـب للغايـة..

عَمِـلَ بيـنروز عـلى تلـك الفكـرة أكـثر، وطورهـا بمسـاعدة عـالم الفيزيـاء الأمريـكي سـتيوارت هامـروف Stuart Hameroff.. وفي كتابـه «ظـلال العقـل Shadows of the Mind» الـذي نـشره سـنة 1994، اقـترح لأول مـرة فكـرة أن الأجسـام والتشـكيلات التـي تشـارك في تلـك العمليـات الكميـة، بداخـل العقـل البـشري، هـي شرائـط دقيقـة مـن البروتـين Protein Strands، تدعـى بالأنابيـب الدقيقـة أو الميكرو-أنابيـب Microtubules.. توجـد تلـك الشرائـط البروتينيـة في معظـم الخلايـا الجسـدية البشريـة، بمـا فيهـا خلايـا المـخ ذاتهـا.. مـا كان يناقشـه بيـنروز وهامـروف هـو أن اهتـزازات تلـك الأنابيـب البروتينيـة الدقيقـة يمكنهـا أن تتبنـى حالـة تراكـب كميـة Quantum Superposition.. ودُعِّمـت فرضياتهـم بالفعـل في نتائـج أبحـاث تجربـة معمليـة أُجريـت سـنة 2013.. ولكـن المجتمـع العلمـي ظـل متشـككًا في تلـك الاحتماليـة؛ لأنـه بالنسـبة لهـم، زمـن انهيـار الحالـة التراكبيـة لتلـك الجسـيمات لـو وجـدت، سـيكون قصـيرًا جـدًّا، أقـصر بمليـارات المـرات مـن تلـك الفـترة التـي تسـتغرقها الخلايـا العصبيـة لإرسـال إشـارة بينهـا وبـين بعضهـا.. ولـذا لم يكـن الأمـر عمليًّـا، ولم يسـتطيعوا اسـتعماله لتفسـير الإشـارات العصبيـة والتفكـير، أو هكـذا قالـوا..

بالنسبة لهم، كان الأمر مخيفًا فعلًا..

أن يعترفوا بأن قدرتهم على التفكير، وعالمهم نفسه يتشكل وفقًا لرغبتهم وإرادتهم وخيالهم.. أن كل شيء ناتج عن الوعي الجمعي للعالم كله، وأنه لا سبيل لهم لفهم ذلك، إلا لو توصلوا لسبر أغوار أعمق أسرار فيزياء الكم، وأكثرها غموضًا..

أظنني أفهمهم بشكلٍ ما، فمجرد التفكير في الأمر قد يصيبك بالدوار، ويلقي في قلبك وجلًا لا تدري من أين أتاه..

ولكنَّ الأمر لا ينتهي هنا..

***

-٤-

في دراسة أُجريت عام 2015 بواسطة عالم الفيزياء ماثيو فيشر Matthew Fisher من جامعة كاليفورنيا، استُنتِج من النتائج أن المخ يمكن أن يحتوي على جزيئات ذرية أكثر قدرة على تحمل حالات تراكبية كمية أكثر قوة وتأثيرًا.. هذه الجسيمات، كانت أنوية ذرات الفسفور على وجه التحديد..

دعوني أشرح لكم كيف..

ذرات الفسـفور موجـودة في كل مـكانٍ في الجسـم البـشري، وتقـع في كل الخلايـا الحيـة بداخـل جسـم الإنسـان.. وفي المعتـاد، تكـون في صـورة كيميائيـة تسـمى بأيونـات الفوسـفات Phosphate ions، والتـي تتكـون مـن ذرة فسـفور تتحـد مـع أربـع ذرات مـن الأكسـجين..

تلـك الأيونـات هـي وحـدة الطاقـة الأساسـية بداخـل الخلايـا الحيـة.. فالطاقـة التـي تحتويهـا الخلايـا مخزنـة في معظمهـا بداخـل جزيئـات معينـة يعرفهـا الطـب باسـم ATP، وتحتـوي تلـك الجزيئـات بداخلهـا عـلى خيـطٍ يتكـون مـن ثـلاث مجموعـات مـن أيونـات الفوسـفات، متصلـة بـكل جـزيء واحـد مـن الخلايـا الحيـة.. وعنـد تحريـر كل ذرة مـن أيونـات الفوسـفات، تنتـج طاقـة مـن ذلـك التحـرر الكيميـائي، وتسـتعملها الخليـة في عملياتهـا وتفاعلاتهـا الكيميائيـة..

الخلايـا في الواقـع تمتلـك قـدرة غريبـة، أشـبه مـا تكـون بالميكانيكيـة، عـلى تكويـن مجموعـات مـن أيونـات الفوسـفات، وشـطرها مـن جديـد لإنتـاج الطاقـة واسـتعمالها في تشـغيل كامـل العمليـات الحيويـة بداخـل الجسـم البـشري.. مـا اقترحـه فيـشر ولاحظـه كان عبـارة عـن حالـة معينـة تدخـل فيهـا ذرتـان مـن أيونـات الفوسـفات معًـا.. تلـك الحالـة، هـي نـوع خـاص مـن التراكـب الكمـي Superposition، يسـمى بالحالـة المتشـابكة Entangled State.. وهـي إحـدى الخصائـص الغريبـة والغامضـة أيضًـا في ميكانيـكا الكـم..

أنويـة ذرات الفسـفور تحتـوي عـلى خاصيـة كميـة غريبـة، تدعـى بالـدوران السريـع Spin.. هـذه الخاصيـة تجعـل منهـا أشـبه بقطـع متناهيـة الصغـر مـن المغناطيـس، لهـا أقطـاب تشـير إلى إتجاهـات معينـة في كل لحظـة.. ولكـن في حالـة التشـابك الكمـي، أو مـا يسـمونه بالحالـة المتشـابكة Entangled State بـين ذرتـين مـن الفسـفور، فـإن معـدل دوران وتوجـه إحـدى الذرتـين يعتمـد عـلى معـدل دوران الـذرة الأخـرى..

بمعنًـى آخـر، الحـالات الكميـة المتشـابكة، هـي في الواقـع حـالات تراكـب كمـي طبيعيـة Superposition(s)، ولكنهـا تتضمـن أكـثر مـن جسـيم كمـي واحـد.. ولذلـك هـي (متشـابكة Entangled)..

يقـول فيـشر إن التصرفـات الميكانيكيـة الكميـة لـدوران تلـك الـذرات، يمكنهـا أن تتحمـل الانهيـار أو التداعـي إلى نتيجـة واحـدة أو اتجـاه واحـد محـدد، لفـترات أطـول بكثـير مـن تلـك الشرائـط البروتينيـة التـي اقترحهـا بيـنروز وهامـروف.. فترات قـد تصـل لأوقـات بشريـة طبيعيـة يمكـن للبـشر اسـتيعابها وملاحظتهـا.. فالشرائـط البروتينيـة Microtubules التـي تكلـم عنهـا الأخـيران، تتداعـى مـن حالـة التراكـب الكمـي في فـترة متناهيـة الصغـر، أصغـر بمليـارات المـرات مـن أي وحـدة زمنيـة يمكـن للبـشر اسـتيعابها، وذلـك لأنهـا شـديدة التأثـر بمـا يحيطهـا ويتصـادم معهـا طـوال الوقـت بداخـل الخلايـا.. ولكـن الـدورات الذريـة Nuclear Spins التـي اقترحهـا فيـشر لا تتأثـر بمـا يحيطهـا بمثـل تلـك الشـدة.. ولذلـك فمعـدل انحلالهـا وتداعيهـا يحـدث في وقـتٍ أطـول بكثـير..

ولكـن لـكي يحـدث هـذا بكفـاءة، ويمكـن لنـا رصـده، فإنـه يجـب أن تكـون ذرات الفسـفور محميـة مـن التداعـي والتصـادم بطريقـة قويـة.. وذلـك يمكـن أن يحـدث لـو انضمـت ذرات الفسـفور إلى مجموعـات ذريـة أكـبر تدعـى بجزيئـات بوزنـر Posner Molecules..

تتكـون جزيئـات بوزنـر تلـك مـن سـتة أيونـات فوسـفات، مندمجـة مـع تسـعة أيونـات مـن الكالسـيوم.. وحتـى ذلـك الوقـت كانـت هنـاك أدلـة كثـيرة عـلى

وجـود تلـك الجزيئـات في الخلايـا الحيـة، ولكـن لم تكـن قـد وصلـت لتأكيـد كافٍ، أو مشـاهدة عمليـة..

تلـك الجسـيمات التـي يتكلـم عنهـا فيـشر، يمكنهـا أن تقـاوم التداعـي الكمـي ذلـك، لمـدة يـوم كامـل أو أكـثر.. حتـى بداخـل الخلايـا الحيـة ذاتهـا.. وكان هـذا يعنـي أنهـا تملـك القـدرة عـلى التأثـير كيميائيًّـا وفيزيائيًّـا في طريقـة عمـل المـخ ذاتـه..

الفكـرة في الأمـر هـي أن جزيئـات بوزنـر تُبتَلَـع بداخـل الخلايـا العصبيـة في المـخ.. وحالمـا تكـون في الداخـل، ومـن خـلال تفاعلاتهـا الكميـة، فإنهـا تحـث الخلايـا العصبيـة التـي تغلفهـا عـلى إرسـال إشـارات للخلايـا العصبيـة الأخـرى، والتواصـل معهـا.. وذلـك مـن خـلال تداعيهـا ذريًّـا، وتحـرر أيونـات الكالسـيوم منهـا..

وبسـبب التشـابك Entanglement الـذي يميـز جزيئـات بوزنـر ككل، فـإن تلـك الإشـارات التـي تطلقهـا تلـك الخلايـا العصبيـة بينهـا وبـين بعضهـا بسـبب تداعـي جزيئـات بوزنـر بداخلهـا، يمكنهـا أيضًـا أن تصبـح متشـابكة كميًّـا مثـل مسـبباتها.. كأنهـا تصبـح (أفـكار متراكبـة كميًّـا Quantum Superposition of a Thought)..

كان تفكـيرًا عبقريًّـا، وبحثًـا عظيـمًا فتـح أمامـي الطريـق نحـو فهـم ماهيـة الوعـي، ومهـد طريـق الـذكاء الحقيقـي الـذي أسـعى لتحقيقـه الآن، والـذي سيشـكل فتحًـا ومضـمارًا جديـدًا مـن علـوم الفيزيـاء ذاتهـا.. والأدهـى أنـه حتـى لم يكـن يفكـر في كل هـذا، سـوى حـين تأمـل بعـض الوقـت في خصائـص الأمـراض العقليـة التـي تصيـب البـشر..

على حد قوله هو:

«بدايتـي مـع مجـال الكيميـاء الحيويـة للمـخ، كانـت عندمـا قـررت منـذ ثـلاث أو أربـع سـنوات مضـت، أن أسـتكشـف سـبب امتـلاك أيونـات الليثيـوم Lithium ions تلـك القـدرة الكبـيرة عـلى عـلاج الأمـراض والحـالات العقليـة..»

كان يعـرف، كـما نعـرف جميعًـا الآن، أن الليثيـوم يسـتعمل في عـلاج الأمـراض

العقليـة.. ومنهـا بشـكل حـصري، مـرض الاكتئـاب ثنـائي القطبيـة Bipolar Disorder.. كان الجميـع يعلمـون أن أدويـة الليثيـوم تعمـل، ولكنهـم لم يكونـوا يعرفـون لِـمَ تعمـل..

«لم أكن أبحث عن تفسير كمي، أو مرتبط بالفيزياء الكمية في حد ذاته..»

هكـذا قـال.. ولكنـه قـرأ بعدهـا بحثًـا علميًّـا يؤكـد أن الأدويـة المحتويـة عـلى الليثيـوم، تؤثـر بطـرق مختلفـة عـلى سـلوك الفـئران المعمليـة، ويعتمـد تأثيرهـا على نـوع النظائـر Isotopes الداخلـة في الاختبـار..

كان الأمـر غريبًـا جـدًّا، ففـي قواعـد الكيميـاء، نظائـر أي مـادة كيميائيـة تتـصرف وتتفاعـل كيميائيًّـا بنفـس الطريقـة بالضبـط.. وكان هـذا يعنـي أنـه لـو كان الليثيوم يعمـل كـما تعمـل الأدويـة الطبيعيـة، فإنـه كان مـن المفـروض أن لا يختلـف التأثـير بـين الليثيـوم الطبيعـي، أو أي مـن نظائـره.. إلا لـو كان الأمـر نفسـه لا يتعلـق بالكيميـاء !.. بـل هـو يتعلـق بـشيء آخـر.. شيءٌ أكـثر غموضًـا مـن ذاك بمـا لا يقـاس..

مـا لاحظـه فيـشر، وعكفـت أنـا عـلى دراسـته لأكـثر مـن عـشرة شـهور متواليـة، هـو أن أنويـة ذرات النظائـر المختلفـة مـن الليثيـوم، تختلـف عـن بعضهـا تمامًـا فقـط في خاصيـة الـدوران الكمـي Quantum spin التـي شرحتهـا لكـم.. وهـذا الاختـلاف يمكـن أن يـؤدي إلى تبايـن تأثـيرات أدويـة الليثيـوم، واختـلاف نتائجهـا عـلى مواضيـع الاختبـار.. ولـو فرضنـا عـلى سـبيل المثـال، أننـا جئنـا بجـزيء بوزنـر، وغيرنـا ذرات الكالسـيوم التـي يحويهـا، بـذرات ليثـيوم، فـإن الـدوران الكمـي Quantum spin لليثيـوم يمكنـه أن (يشـعر) ويؤثـر عـلى معـدل واتجـاه دوران ذرات الفسـفور التـي يحويهـا جـزيء بوزنـر، وبالتـالي يؤثـر في التشـابك الكمـي Quantum Entanglement الخـاص بهـا، ويحثهـا لدفـع الخلايـا العصبيـة للتواصل فيـما بينهـا بشـكل متزايـد..

ولهـذا، تسـتعمل أدويـة الليثيـوم في عـلاج مـرضى الاكتئـاب ثنـائي القطبيـة، وبعـض الأمـراض العقليـة الأخـرى؛ لأنهـا تحـث خلاياهـم العصبيـة عـلى التواصـل

فيـما بينهـا، مـما يسـبب الشـفاء..

كان هـذا فتحًـا، وفرضًـا علميًّـا كبـيرًا للغايـة، ولكـن لم يسـتطع العلـماء تأكيـده أبـدًا بالتكنولوجيـا المتاحـة لهـم في ذلـك الوقـت.. ومـع تطـور العـالم والسياسـات، والتكنولوجيـا، ومـع الانهيـار الاقتصـادي العظيـم الـذي بـدأ سـنة 2072، واسـتمر لثلاثـة سـنوات انهـارت معـه حكومـات معظـم دول العـالم الأول، وخرجـت بعدهـا الـشركات العالميـة الأربعـة، كان للعلـماء أولويـات أخـرى غـير الأبحـاث الطبيـة الكيميائيـة، وغـير ميكانيـكا الكـم.. أنتـم تفهمـون مـا أرمـي إليـه..

ولكـن ليـس أنـا.. فمنـذ بـدأتُ في دراسـة الفيزيـاء النظريـة، وفيزيـاء الكـم، والكيميـاء الحيويـة، كان موضـوع نظائـر الليثيـوم هـذا يثير فضـولي، حتـى ليوشـك عـلى أن يكـون هوسًـا كامـلًا.. وهـذا هـو مـا قصدتـه حينـما قلـت لـ «جودويـن» إننـي أعمـل عـلى خلـق نـوع جديـد مـن الـذكاء الاصطناعـي، لم تـره عـينٌ مـن قبـل.. وكنـت أعنـي مـا أقـول..

ما كنت أعمل على خلقه، هو الوعي ذاته..

لمـدة تفـوق العـشر شـهور قبـل مجيئـي إلى «جينيسـيس» سـنة 2108 كنـت أجـري أبحـاثي الخاصـة في «إيـورو - كـورب» عـلى نظائـر الليثيـوم، وتأثيراتهـا الكميـة عـلى الخلايـا العصبيـة في المـخ، محـاولًا أن أستكشـف العلاقـة بـين ميكانيـكا الكـم، والوعـي البـشري ذاتـه..

مثـلًا، كيـف يمكـن لعقولنـا الواعيـة التمييـز والتفرقـة بـين اللـون الأحمـر وباقـي الألـوان؟.. كيـف يمكـن لهـا التمييـز بـين رائحـة الزهـور، ورائحـة العفـن؟.. جميعنـا نعـرف كيـف (يبـدو) اللـون الأحمـر.. وجميعنـا (نشـعر) أو (نُحِـسُّ) برائحـة الزهـور، ولكـن لا سـبيل لنـا لوصـف اللـون أو الرائحـة بطريقـة فيزيائيـة عمليـة.. مـا ماهيـة وعينـا بالاختلافـات بـين تلـك الألـوان والروائـح ذاتهـا؟

تلـك الشـعورات والمؤثـرات الحسـية تسـمى بالـ «كواليـا Qualia».. نحـن نـدرك تلـك المؤثـرات كـما لـو أنهـا خصائـص موحـدة لعالمنـا الخارجـي، ولكنهـا في الواقـع أوهـام ناتجـة عـن وعينـا نحـن ذاتـه.. الأمـر صعـب عـلى الفهـم والاسـتيعاب بعـض

الشيء..

وهنا يأتي موضوعنا الرئيسي، وما أطمح لأن أشرحه لكم منذُ بداية هذا التسجيل.. كانت البداية هي مع اكتشافي الأعظم الذي نلت عنه جائزة نوبل في الفيزياء بعد تأكيدي المعملي والتجريبي للعلاقة بين التأثيرات الكمية والوعي البشري، بعد عامين من انضمامي لـ «جينيسيس»..

عامين فقط، فصلوا بين حديثي مع «جودوين»، وفوزي بجائزة نوبل في الفيزياء سنة 2109 عن الاكتشاف، والتأثير الذي سُمي باسمي.. (تأثير تاسك The Tusk Effect)..

كان البحث يؤكد كون العلاقة بين الوعي البشري، والتراكب والانهيار الكمي في الذرات وأنويتها، علاقة وثيقة ومترابطة، بمعنى أن كلاهما يؤثر في الآخر، بطريقة علمية تجريبية مُثبتة.. كانت التجربة التي أجريتها هي مثال للتطور المعملي، والذكاء العلمي في أنحاء العالم.. ولوهلة، احتل اسمي جميع الشاشات والصحف الورقية والإلكترونية العالمية.. وحتى بعد كل هذا، كان كل هذا بالنسبة لي مجرد بداية.. بداية لما كنت أطمح لتحقيقه، واستكشافه فعلًا.. نظرية فيزيائية فلسفية موحدة، تُفسر العلاقة بين ميكانيكا الكم، والفيزياء الذرية، والوعي البشري ذاته، وتفتح الطريق أمام التكنولوجيا البشرية، لخلق الوعي نفسه في المعمل.. ربما تكوين الروح ذاتها.. نظرية تبلغ أهميتها نفس الأهمية التي أوليت لنظرية أسطورية أخرى شكلت كشوفاتها القرن العشرين بأكمله، هي نظرية النسبية العامة General Relativity لأينشتاين..

وبعد أكثر من خمس سنوات من الأبحاث، قدمت خلالها «جينيسيس» أكبر تمويل علمي ومعملي لعالم أو لمختبر أبحاث في التاريخ البشري المسجل، قمت أخيرًا سنة 2113، بوضع أساسيات وقواعد النظرية التي كانت لا تتعدى كونها خيالًا جامحًا من قبل..

النظرية الكمية للوعي Quantum Theory of Consciousness..

***

-٥-

في فـترات مختلفـة مـن التاريـخ العلمـي لفيزيـاء الجسـيمات، وفيزيـاء الكـم، كان العديـد مـن العقـول العلميـة، والباحثـون يسـمعون دومًـا عـمَّا يسـمى بالوعـي الكمـي Quantum Consciousness..

مـا يقدمـه ذلـك المفهـوم، هـو إدمـاج المفاهيـم الراسـخة التـي تتحـدث عـن الـروح والحيـاة بعـد المـوت، وإمكانيـة وجـود أبعـاد أخـرى مـن الحيـاة لا نعـرف عنهـا شـيئًا، مـع النظريـات العلميـة التـي تدمـج مـا بـين الجسـد، والوعـي البـشري، والفيزيـاء الكميـة، التـي تصـف طريقـة عمـل الجسـيمات الذريـة..

إدمـاج المنظـور الشـخصي البـشري للعـالم والكـون، مـع المفهـوم الموضوعـي الحقيقـي للواقـع الفيزيـائي Physical Reality.. تلـك كانـت المسـألة..

مـا كان يوضحـه هـذا المفهـوم، ويطرحـه؛ هـو أن الوعـي البـشري ذاتـه هو أشـبه بكـرة وهميـة غـير حقيقيـة مـن المعرفـة، أو نطـاق واسـع مـن الطاقـة والمعلومـات الذكيـة، الواعيـة لذاتهـا Self-Aware، والتـي توجـد في مـكانٍ يقـع خـارج الواقـع ثـلاثي الأبعـاد الطبيعـي الـذي نعرفـه.. مـكان تخيـلي خـارج حـدود الكـون ذاتـه، وخـارج الأبعـاد الطبيعيـة التـي نعرفهـا ونسـتوعبها..

يمكنكـم تخيـل الموضـوع عـلى أن عالمنـا كلـه، وكل مـا نعرفـه ونسـتوعبه يقـع في محيـط الغرفـة التـي نسـكن فيهـا.. ولكـن كل مـا هـو خـارج هـذه الغرفـة، هـو في مـكانٍ تخيـلي نظـري، لا يمكـن لحواسـنا اسـتيعابه أو حتـى تخيـل وجـوده وماهيتـه مهـما حاولنـا.. لأن ماهيتـه لا يمكـن لعقولنـا اسـتيعابها؛ لأنهـا غـير مؤهلـة لذلـك.. الأمـر أكـبر مـن قدراتنـا البشريـة الطبيعيـة ذاتهـا عـلى الفهـم والإدراك..

جسـدنا البـشري الطبيعـي الموجـود في واقـع طبيعـي ثـلاثي الأبعـاد، يتلقـي المعلومـات الذكيـة، التـي تشـكل مـا نعرفه نحـن باسـم (الوعـي Consciousness)،

من ذلك المكان التخيلي، الذي يقع خارج حدود كوننا وواقعنا ذاته، بطريقة أشبه بالبث Transmission..

يذكرك الأمر بطريقة عمل الراديو..

تخيلوا معي أن العقل ذاته هو أشبه بجهاز راديو تقليدي.. يتلقى المعلومات التي يعالجها ويخرجها في صورة التفكير الذكي أو الوعي، من محطات الإذاعة Broadcast التي تقع في مكان آخر خارج حدود الغرفة -أو البعد Realm- التي يقع بداخلها ذلك الراديو التخيلي..

نحن نشعر بذلك البث أو الاتصال في صورة الأفكار والمشاعر والصور الخيالية، وكل أشكال التفكير الذكي أو العاقل.. ونتخيل أن كل نشاطنا العقلي يحدث بداخل جسدنا، وينشأ بداخل بُعد داخلي من التجارب التي نحتفظ بها في عقلنا، مثل حفظ القرص الصلب Hard Disk للمعلومات بداخل أجهزة الحاسوب.. بالضبط كما نتخيل الصوت الذي يخرج من جهاز الراديو آتيًا منه هو ذاته.. بينما الواقع والحقيقة تختلف عن ذلك تمامًا..

فكما نتخيل الصوت الذي يصدره جهاز الراديو كأنه آتٍ منه هو نفسه، بينما هو ينشأ في الواقع من محطة إذاعية بعيدة خارج حدود المكان الذي يقع فيه؛ تنشأ الأفكار والمشاعر والخيالات، والتفكير البشري الذكي الذي نتخيل أنه نابع من داخل الجسد والمخ، من مكان وبُعد آخر بعيد، يحتوي على وعينا الحقيقي ذاته..

هذا المفهوم الغريب للعلاقة بين العقل والجسد عُرِفَ لأولِ مرة في القرن التاسع عشر، من خلال دراسات الفيلسوف الشهير الحائز على جائزة نوبل «هنري بيرجسن Henri Bergson».. وكان المثير للاهتمام في هذا المفهوم وقتها هو كونه يدمج بين أكثر النظريات الفيزيائية والكمية، ودراسات وأبحاث الطب والمخ والأعصاب صعوبة وعمقًا، وبين أكثر الأطروحات الدينية غرابةً وعُسرةً على التصديق.. وربما كان هذا سببًا في تطور المفهوم، وكثرة الكلام حوله في الأوساط العلمية والدينية في بدايات القرن الحادي والعشرين، قبل أن

ينبذ معظم البشر الأديان ذاتها؛ لتنحسر رقعتها وتأثيرها على الفلسفة وثقافة الحضارة البشرية، إلا من آلافٍ معدودين..

هذا كان أساس نظريتي الكبرى التي كنت أعمل عليها.. لو كان المُخ فعلًا هو عبارة عن جهاز راديو، يتلقى بثًّا عقليًّا ذكيًّا نسميه بالوعي، من خارج الزمكان Space-Time، ويرسل نفس البث إلى نفس العقل الكلي الأكبر الذي يقع خارج حدود الواقع ذاته؛ فإنه لو تأذى ذلك المخ أو تلفت بعض خلاياه، سيمكننا أن نلحظ تأثير الأمر على الوظائف العقلية للإنسان، وترديه نحو الجنون أو ما نسميه بالمرض العقلي.. تمامًا مثل كون تأذي جهاز الراديو أو تحطمه، يؤثر على قدرته على تلقي البث وإرساله من وإلى محطة الإذاعة.. ولكن موت المُخ لا يسبب موت العقل أو الوعي بالضرورة..

فالمخ ما هو إلا وسيلة لتلقي ذلك البث، من العقل الحقيقي الذي يسبب الوعي، ويخلقه بداخل المخ والجسد.. تمامًا مثل كون تحطيم جهاز الراديو، لا يلغي البث الذي يأتي من محطة الإذاعة.. وإنما هو فقط يلغي قدرة الجهاز على تلقيه ومعالجته..

كان الأمر شديد الطموح، واستمرت الأبحاث الخاصة به لفترة طويلة للغاية، كان يعمل عليها فريق من علماء الفيزياء الكمية، وعلوم الأعصاب والأطباء الباحثين، تحت توجيه وإشراف مني.. أكبر فريق علمي في تاريخ البحث العلمي البشري، يعمل على نظرية أشبه بالفلسفة الوجودية منها للعلم، ولا يقنطون..

كان بعض العلماء الكبار الآخرين في الشركات العالمية الأربعة يرون أن ما أقوم به هو جنون وتضييع للموارد والتمويل.. فبالنسبةِ لهم، كان الاعتقاد السائد هو أن المُخ هو المسئول عن توليد الوعي والتفكير الذكي.. وأن الوعي لا يمكنه أن ينجو دون وجود المُخ.. ولكن ما كنت أؤمن به أنا هو أن الوعي موجود قبل تكون المُخ ذاته.. قبل الولادة حتى.. وكنتيجة لذلك، يمكن له أن يستمر في الوجود، حتى بعد موت خلايا المخ..

في الواقـع، يمكـن لنـا مـن خـلال هـذا المنظـور، عكـس نظرتنـا الطبيعيـة التـي نتخيـل بهـا العلاقـة بـين العقـل البـشري، والكـون بأكملـه.. فنحـن نعتقـد عـادةً أن الكـون الـذي يتكـون مـن سلسـلة عظيمـة وواسـعة لا يمكـن حصرهـا مـن الأحـداث الفيزيائيـة، هـو الـذي خلـق تفكيرنـا الـذكي الواعـي، مـن خـلال وجودنـا فيـه.. لكـن مـاذا لـو كان العكـس هـو الصحيـح؟..

مـاذا لـو كان الوعـي ذاتـه يقـع خـارج حـدود كوننـا، وواقعنـا المعـروف، وكان موجـودًا قبـل وجـود الكـون ذاتـه؟.. مـاذا لـو كان هـذا الوعـي العظيـم هـو سـبب وجـود الكـون نفسـه؟..

سمه وعيًا أو بثًّا، أو سمِّهِ الرب ذاته.. لا أهتم.. فقط تأمل معي الفكرة..

مثـل حـالات التراكـب الكمـي Quantum Superposition في الـذرات، مـاذا لـو كان الكـون بأكملـه غـير موجـود إلا بسـبب كوننـا قادريـن عـلى ملاحظـة وجـوده؟.. كأن وجـوده في فضـاء ثـلاثي أو رباعـي الأبعـاد يعتمـد حرفيًّـا عـلى وجـود العقـل والوعـي القـادر عـلى ملاحظتـه.. ومـن غـير ذلـك، فلـن يكـون قـادرًا عـلى أن يكـون مـن الأسـاس..

يعنـي هـذا أنـه دون وجـود العقـل البـشري، فـإن الكـون الفيزيـائي بأكملـه سـيكون في حالـة تراكـب Superposition غـير واضحـة أو محـددة المعـالم، وسـيغدو عبـارة عـن سلسـلة أو نطـاق لا نهـائي مـن الأحـداث الممكنـة الحـدوث.. سلسـلة طويلـة مـن الـ (مـاذا لـو؟).. بمعنـى أنـه لـن يكـون موجـودًا عـلى الإطـلاق بطريقـة فيزيائيـة، إلا لـو كان العقـل البـشري موجـودًا.. ومـن هـذا المُنطلـق، يمكننـا اسـتنتاج أن العقـل والوعـي البـشري ذاتـه هـو الـذي يخلـق ويحفـظ مـا يبـدو لنـا كونًـا عملاقًـا واسـعًا لا نهائيًّـا شـديد القـدم والأصالـة، ويحافـظ عليـه وعـلى شـكله دومًـا بصـورة مسـتمرة دائمـة أبـد وجـود الوعـي ذاتـه سـواء كان بشريًّـا أو غـير ذلـك..

لم يكـن سـهلًا عـلى أي مـن هـؤلاء الذيـن يسـمون أنفسـهم بالعلـماء النظريـين تقبـل هـذه الفكـرة، فضـلًا عـن اسـتيعابها.. وذلـك لأنهـا تطـرح أشـياءَ طالما سـخروا

منهـا، وتمنحهـا واقعيـة وقابليـة حـدوث.. أشـياءَ مثـل الأرواح والأشـباح والقـوى الخارقـة مثـل التخاطـر والتحريـك عـن بعـد والأبعـاد الأخـرى التـي تقـع خلـف سـتار واقعنـا ذاتـه.. كل هـذه الأشـياء غـير المرئيـة يمكـن اسـتنتاج أنهـا واقعيـة تحـت فرضيـات نظريتـي؛ ولذلـك فقـد سـخر منهـا هـؤلاء باعتبارهـا امتـدادًا لفلسـفة القـرون الوسـطى الأوروبيـة الجاهلـة، التـي أدى انغلاقهـا وتحجرهـا وقمعهـا للمنطـق، إلى أعـمال وحشـية عديـدة مثـل محاكـم التفتيـش الإسـبانية وصيـد السـاحرات، وتشـويه الأمـراض العقليـة الطبيـة المعروفـة، وتصويرهـا في صـورة مـس شـيطاني ومـا إلى ذلـك.. كانـوا يظنونني امتـدادًا لهـذه الثقافـة الدينيـة الجاهلـة، غـير مدركـين أننـي أمقـت كل هـذه الأمـور مثـل الطاعـون، لأسـباب قويـة سـأحكيها لاحقًـا.. كانـوا محقـين في شـكوكهم وعـدم ارتياحهـم النابـع مـن عـدم تفهمهـم للصـورة الكاملـة، وأظننـي أفهمهـم بشـكلٍ مـا.. فكيـف يمكنهـم أن يُبـدوا رأيًّـا علميًّـا حياديًّـا ومنطقيًّـا، وهـم لا يملكـون الحقائـق والمعطيـات الكاملـة؟..

العلـم ذاتـه في تعريفـه، هـو دراسـة الواقـع الفيزيـائي الطبيعـي الـذي يمكـن للبـشر لمسـه أو رؤيتـه أو اسـتيعابه.. ولكـن هـذا لا يعنـي أن هـذا هـو الواقـع الوحيـد..

بلغـة العلـم، كونـك تقـول إنـك تـدرس نطاقًـا واحـدًا مـن الواقـع، لا يعنـي منطقيًّـا أنـه ليسـت هنـاك مجـالات وأبعـاد أخـرى لذلـك الواقـع الأعظـم لا نراهـا أو نعرفهـا نحـن، ولا نسـتوعبها حتـى.. الأمـر يشـبه كونـك تقـول إنـك سـتقوم بدراسـة المحيـط الهـادي عـلى سـبيل المثـال.. جميـل ومفهـوم.. ولكـن كونـك تـدرس المحيـط الهـادي، لا يعنـي أنـه ليسـت هنـاك محيطـات أخـرى لا تعـرف عنهـا شـيئًا ولا يمكنـك دراسـتها؛ فلـن يكـون هـذا منطقيًّـا..

بعبـارةٍ أخـرى، العلـم والمنطـق العلمـي الفاسـد، هـو أن تفـترض أن مشـاهداتك وملاحظاتـك فقـط هـي التـي يمكـن أن توجـد، وأنـه لا يمكـن لأي فرضيـات أو مشـاهدات أخـرى أن توجـد؛ لأنـك لم تلحظهـا.. هـذا ليـس منطقًـا علميًّـا، بـل هـو ضيـق أفـق..

وإنطلاقًا مـن هـذا الافـتراض، فـإن العلـم الطبيعـي حـصر نفسـه في عـالم أو بُعـد واحـد فقـط مـن الاستكشـاف المعمـلي.. وهـذا يعنـي –سـواء أعجبهـم ذلـك أم لا- أنـه لا يمكـن علميًّـا أو منطقًّـا إبـداء أي رأي أو تعليـق عـلى العـوالم الأخـرى الافتراضيـة التـي نجهلهـا.. كل مـا يمكنـك قولـه هـو «لا أعلـم».. كـما يقـول هـؤلاء المسـلمون الذيـن تعـج بهـم مؤسسـة يعقـوب الاتحاديـة في الـشرق الأوسـط.. برغـم رفـضي لديانتهـم بأكملهـا، فإنهـم يملكـون عبـارة واحـدة أجدهـا دقيقـة علميًّـا بشـكلٍ اسـتثنائي، هـي تلـك التـي تقـول بلغتهـم : «مـن قـال لا أعلـم، فقـد أفتـى..»

مـن الطبيعـي أن لا نشـعر بالارتيـاح تجـاه الغريـب والمجهـول، ولكـن يجـب علينـا عـلى الأقـل أن نكـون صادقـين مـع أنفسـنا ولا ننكـره.. يذكـرني الأمـر بمـا شـعره الجمهـور الـذي عُـرِض عليهـم الميكروويـف لأول مـرة.. جهـاز يمكنـه تسـخين الطعـام في ثـوانٍ معـدودة، مـن الداخـل للخـارج.. كانـوا يظنـون هـذا مسـتحيلًا، ولا يتعـدى كونـه تخاريـف.. ولكنـه كان حقيقيًّـا، وأصبـح أمـرًا طبيعيًّـا نـراه في كل مـكان..

كل شيءٍ ممكـن، ولا شيء مسـتحيل مهـما كان.. ربمـا كان عسـيرًا عـلى التصديـق حتـى يُكتَشَـف، ولكنـه –حتـمًا- ليـس مسـتحيلًا.. كل إنجـازات البشريـة الحاليـة كان الجميـع يظنونهـا نوعًـا مـن الخيـال العلمـي منـذ أقـل مـن قرنـين.. القنبلـة الذريـة والطائـرة النفاثـة والغواصـة والاتصـال الرقمـي بالصـوت والصـورة، والأقـمار الصناعيـة ومركبـات الفضـاء.. حتـى المصعـد الفضـائي ذاتـه كان يعـدُّ نوعًـا مـن الخيـال العلمـي العسـير جـدًّا عـلى التنفيـذ، منـذ أقـل مـن قـرنٍ واحـد..

لـو كان مَـن يسـمعنى منـذ سـنين معـدودات واحـدًا مـن القطيـع، فإنـه بالتأكيـد كان سـيجد أننـي غـارق في خيـالاتي الخاصـة، لدرجـة المـرض العقـلي أو الهـوس.. ولكـن الآن لا أعتقـد هـذا عـلى الإطـلاق..

فخـلال خمـس سـنوات مـرت بعـد انضمامـي لـ «جينيسـيس»، توصلـت لوضـع النظريـة الأولى التـي تصـف العلاقـة بـين الجسـد والوعـي البـشري، وفيزيـاء الواقـع

ذاتـه..

معادلاتهـا كانـت تعتمـد عـلى مجـالاتٍ شـتى مـن العلـوم، مـن بينهـا علـوم طـب المـخ والأعصـاب والفيزيـاء الكميـة وفيزيـاء الجسـيمات والهندسـة الوراثيـة والرياضيـات، ولكـن عنـد فـك شـفرتها أخـيرًا، أصبحـتُ أول عـالم بـشري في التاريـخ يملـك القـدرة عـلى تخليـق الوعـي البـشري ذاتـه في معمـل..

مـن خـلال خلايـا المُـخ الصناعيـة التـي صنعتهـا باسـتعمال تكنولوجيـا (خلايـا الـرب)، التـي تعتمـد عـلى الشـفرة الوراثيـة والحمـض النـووي البـشري المحفـوظ، قمـت بتخليـق مـخ بـشري صناعـي كامـل مـن الصفـر، بالتـوازي مـع أبحـاثي عـلى نظريـة الوعـي الكمـي.. ولم يكـن أحـد يفهـم لمـاذا في البدايـة.. فتخليـق المُـخ البـشري كان أكـثر العمليـات التـي قـام بهـا فريقـي صعوبـة.. تخليـق الجسـد البـشري شيء، وتخليـق المُـخ وخلايـاه شيءٌ آخـر تمامًـا أكـثر صعوبـة بمـا لا يقـاس..

لم يكونـوا يفهمـون وقتهـا سـبب إصراري عـلى صُنـع المُـخ بأكملـه، فقـد كان مـن السـهل جـدًّا الاسـتعاضة عنـه بوحـدة حوسـبة كميـة فائقـة متقدمـة، مـن وحـدات الـ S.Q.C.U.3، وكان سـيؤدي الغـرض المطلـوب منـه وأكـثر.. كان سـيصبح أكـثر كائـن مُخَلَّـق شـبيه بالبـشر في التاريـخ البـشري الحديـث.. ولكننـي لم أكـن أريـد شـبيهًا.. كنـت أريـد الأصـل ذاتـه..

وعنـد انتهـاء عمليـة صنعـه أخـيرًا، والانتهـاء مـن الحسـابات الرياضيـة والفيزيائيـة لمعـادلات نظريـة الوعـي الكمـي التـي صنعتهـا أنـا وفريقـي، أجريـت عمليتـي الأولى في المختـبر..

لا مجـال للخـوض في المعـادلات أو التفاصيـل العلميـة للتجربـة، فلـن يسـتوعبها شريـط تسـجيل بالتأكيـد، ولكـن الفكـرة كانـت تقـوم ببسـاطة عـلى كـون ذلـك المخ البـشري أشـبه بجهـاز اسـتقبال للوعـي الـذي يقـع خـارج حـدود واقعنـا ذاتـه كـما افترضـت.. كل مـا كنـت أحتاجـه هـو حـث تلـك الخلايـا الرماديـة والعصبيـة عـلى الاتصـال ببعضهـا عـن طريـق الترابـط الكمـي Quantum Entanglement بـين جزيئـات بوزنـر المعدلـة، ودفعهـا لأن تتواصـل مـع ذلـك الوعـي الجمعـي الأعظـم،

وتقتبس قَبسًا من نارِه.. ولكن التجربة لم تنجح..

حاولنا، وحاولنا وحاولنا، ولكن شيئًا لم يعمل كما كان يفترض به أن يعمل.. حتى أتى أحد علماء الرياضيات البارعون الذين وضعوا المعادلات الرياضية للنظرية، بتعديل بسيط في أساساتها، أدى لتغيير شامل في حساباتها التي كانت مبنية على خطأ جسيم في البداية، وعاودنا التجربة بعدها على ذاك الأساس..

وكانت سنة 2114 هي البداية.. كانت تلك هي المرة الأولى التي نخلِّق فيها كائنًا حيًّا.. وخطوتنا الأولى نحو لقب الآلهة الحقيقية..

كان هذا هو آدم..

(نهاية التسجيل الثاني)

***

-٦-

(من مذكرات إدوارد تاسك المكتوبة على جهازه اللوحي الشخصي)

«أين أنا؟»

كانت هذه هي أول عبارة صدرت منه.. هل تتخيلون؟..

رد الفعل ذاته وطريقة الاستيعاب التي نتج عنها هذا السؤال، كانت أكبر إنجاز بشري في التاريخ المسجل كله.. كون هذا الكائن المصنع بالكامل بأيدي بشرية، يملك وعيًا حقيقيًّا يجعله يفكر.. ويسأل أين هو..

في مكانه هناك، في غرفة التخليق، كُنَّا نقف أمامه جميعًا.. أنا و«جودوين» وباقي فريق العلماء.. بينما هو ينظر إلينا بلا فهم.. عيناه تتنقل على وجوهنا، في حيرة لا تُشفى..

كمية الأسئلة التي تدور في عقله.. وكمياتها في عقولنا نحن.. أسئلة بلا نهاية..

هل هو يفهم؟.. هل يعي ما يحدث حوله؟.. ماذا يظن؟.. ما شعوره، وهو يفتح عينيه على الحياة لأول مرة، بجسد متكامل، وعقل كامل النضج، مكتمل الخلايا؟.. ما شعوره وهو يملك ذكاءً يساوي ذكاء أي واحد في الغرفة؟.. هل يستوعب؟..

لم يكن يبدو عليه ذاك وقتها.. ولكنه كان منبهرًا بكل شيءٍ حوله.. انبهارًا لا يمكن أن تقارنه بشيء.. فقط تخيل أن هذا الجالس أمامك لم يكن يعرف شيئًا عن الحياة منذ دقائق، ولم يكن موجودًا فيها من الأصل..

لا يعرف معنى الكلام أو السؤال أو المشاعر أو الخيال أو الجنس أو التذوق أو اللمس أو الدين أو الفيزياء أو المخدرات..

لا يعـرف شـكل الجبـال ولا رائحـة الزهـور ولا طعـم القهـوة.. لا يعـرف معنـى المعرفـة أصـلًا..

هـذا طفـل.. طفـلٌ في جسـد بالـغ، وعقـل عـالم فيزيـاء.. هـو أقـرب مـا يكـون لمـا كان يتخيلـه كُتَّـاب الخيـال العلمـي القدامـي عـن الكائنـات الفضائيـة.. كأنمـا سـتيفن سـبيلبرج قـد بُعِـث مـن جديـد، ليقـدم فيلـم ET ولكـن بقصـة جديـدة..

عبـارة جودويـن الآتيـة مـن جـواري كانـت تحمـل رهبـةً فشـل في إخفائهـا، ولم تكـن غـير ذات سـبب..

- «هل هو يفهم؟.. هل يعرف من نحن؟»

مـا أفكـر فيـه بالضبـط نفسـه.. وأراهـن أنـه كان مـا يفكـر فيـه جميـع مـن كانـوا موجوديـن وقتهـا حـولي.. أسـئلة كثـيرة لدرجـة يمكنهـا أن تدفـع عقلـك للذوبـان..

أجبتـه بعـد شرود طويـل تطلعـت فيـه عينـاي إليـه –آدم- وهـو يديـر عيونـه الحائـرة في كل مـا حولـه:

- «لا أعتقـد.. هـو يـرى كل هـذا لأول مـرة.. بالنسـبة لـه، نحـن آبـاؤه.. ربمـا لـو كان عقلـه بالنضـج الـذي أعتقـده، كان يفكـر فينـا الآن باعتبارنـا الآلهـة أنفسـهم..»

كنـت لأكاد أسـمع نبضـات قلبـه وانفعالاتـه وهـي تـدور بـين أروقـة عقلـه مـن موضعـي، وأنـا أميـل عـلى أذنـه، وأهمـس:

- «نحـن في لحظـة غـير مسـبوقة مـن تاريـخ الكـون بأكملـه.. لحظـة معرفتنـا لـسر الخلـق، ووقوفنـا في نفـس الموضـع، ونفـس الحـذاء الـذي أقنعتنـا الأديـان أنـه ليـس لنـا مـن قبـل.. وأنـه أكـبر مـن أن يمكننـا اسـتيعابه.. هـذا هـو حـذاء الخلـق ذاتـه، ونحـن الـذي نرتديـه..»

عبـاراتي كان تصنـع رنينًـا في نفـس مـن يسـمعها وقتهـا.. كلهـم كانـوا مشـدوهين، يتطلعـون إلى «آدم» في بلاهـة، ويحدقـون في جسـده العـاري مكتمـل التكويـن..

جسـد يحلـم بـه أي ريـاضي في العـالم، أعطينـاه نحـن أيـاه..

اقتربت منه حثيثًا، وأنا أقول:

- «اسـمك هـو آدم.. ونحـن سـادتك.. نحـن مـن صنعنـاك، وأتينـا بـك إلى الحيـاة.. وكل مـا سـتعرفه عنهـا وعـن نفسـك، هـو مـن صنيعنـا نحـن.. هـل تفهـم؟»

ينظـر لي، مذهـولًا بـلا نطـق.. لا يعـرف حتـى معنـى إيمـاءة الموافقـة.. كل مـا يملكـه هـو الصمـت، والتحديـق.. كونـه يعـرف اللغـة التـي تلقنهـا باسـتعمال الــ S.Q.C.U.3 هـو الـشيء الوحيـد الـذي يجعلـه لا يُجـن..

- «أنـت الأول مـن نوعـك.. وأنـت مـن سـيقع عـلى عاتقـك قيـادة جنسـك بأكملـه، وتلقينـه خدمتنـا، وتقديسـنا.. تلـك هـي مهمتـك السـامية التـي سـتحيا لإتمامهـا، أو تمـوت دونهـا..»

لم ينطـق أيضًـا.. عقلـه كان يوشـك عـلى الانفجـار تحـت كـثرة الأفـكار والأسـئلة.. ربمـا أكـثر مـا كان يريـد أن يسـأله وقتهـا هـو:

- «وما معنى أن أحيا؟.. أو أموت؟»

نظـرت لجودويـن نظـرة ذات معنـى.. واسـتدرت لـه مـرة أخـرى.. فـلاش كامـيرا هاتـف أحـد العلـماء سـطع ليضفـي عـلى المشـهد طابعًـا غريبًـا، مـا زال منطبعًـا في ذهنـي كحفـر الأزاميـل..

- «ستعرف يا صغيري.. ستعرف كل شيء، وستتعلم كل شيء..»

ثـم تراجعـتُ واعتدلـتُ في وقفتـي، وأنـا أرفـع نـبرة صـوتي نسـبيًّا، لتخـرج رنانـة بقـدر الإمـكان:

- «أنت بداية ما سنعرِّفُه نحن باسم الجيل الثالث..»

نظروا لي جميعًا في ترقب، بينما تابعت:

- «نحـن الجيـل الأول، وجيلـك الثـاني الأقـدم هـو الروبوتـات ذات الـذكاء الاصطناعـي المحـدود التـي واظبنـا عـلى صُنعِهـا مـن قبـل في فـترةٍ مـا.. ولكنـك شيء مختلـف تمامًـا..»

صمتُّ لحظة أستجمع فيها أنفاسي، وأبتلع لعابي بلا صوت.. نبراتي كانت يجب أن تكون رنانة، لتنطبع في ذهنه وتنحفر.. فبالنسبة له، كنت أنا الرب ذاته، يتكلم..

- «أنت الكائن الحي الأول الذي نبث فيه من وعي الكون، ليصحو وينطق.. البداية كانت أنت، وبعدك سيكون الكثيرون.. وستكون أنت لهم أبًا ومعلمًا ومثلًا يحتذون به وحذوه..»

منظر الدموع التي كانت تجري على وجنته دون أن يشعر أو يفهم معناها حتى كان يزلزل كيان الموجودات..

يبكي من الحيرة.. والأدهى أنه لا يفهم حتى أنه يبكي..

- «لا أفهم..»

أصابع جودوين المتوترة تنطبع على ذراعي، الذي امتدت كفه لتمسكه بقوة لا شعوريًّا..

- «سنعلمك كل شيء.. ولتكونن هذه هي بدايتك، وبداية جديدة لنا نحن..»

ثم أشرت بيدي للحراس الواقفين في الركن.. وكانوا يفهمون جيدًا معنى الإشارة.. اقتربوا منه ببطء، ثم وضعوا محقن المخدر بداخل عروقه، بينما هو ينظر لهم في ذعر مَن لا يفهم شعور الألم..

فرغ وعيه مع فراغ المحقن، فتهالك بين ذراعي الحارس الذي حمله بين يديه، ثم اتجهوا إلى الباب جميعًا.. كانوا يعرفون جيدًا ما يجب عمله..

إبقاؤه في غيبوبة وحالة سبات كان هدفًا رئيسيًا وساميًا.. لا يمكنه أن يستيقظ الآن، وإلا كانت مخاطرة بأن يُجن تمامًا، ويضيع كل ما عملنا من أجله كل هذه الفترة بلا رجعة..

كنت أشعر بقوة بالغة تستولي على جسدي، ونشوة تجري في عروقي مجرى الدماء.. أشعر بأنه لا شيء يمكنه أن يؤذيني أو يقترب.. شعور أنك أقوى

مـن الكـون ذاتـه.. أنـت الـرب نفسـه مُجسـدًا.. يمـشي بـين النـاس، ويتكلـم..

لم يحُـض مـن شـعوري ذاك إلا صـوت جودويـن الـذي جاهـد لإبقائـه هادئًـا، ولكـن الارتجافـة كانـت تطـل مـن بـين نبراتـه بوضـوح..

- «أنـا غـير مطمـئن.. نحـن نعبـث في أشـياء وقواعـد لا يمكننـا فهمهـا.. لم أكـن أتخيـل أن نصـل لهـذه الدرجـة.. هـذا ليـس صحيحًـا.. ليـس خـيرًا أبـدًا..»

نظرت له في سخرية وأنا أبتسم..

- «ليس خيرًا؟.. لا تقل لي أنك واحد منهم..»

نظر لي بلا فهم، فتابعت:

- «دعني أخمن.. يهودي؟»

الرهبـة التـي كانـت تطـل مـن وراء عيونـه كانـت أبلـغ مـن أي كلامٍ أو وصـف.. ولكنـه تمالـك نفسـه، واعتـدل في وقفتـه.. يجـب أن لا يدعنـي أنـسى مـن هـو السـيد هـا هنـا..

- «لا أرى أن الأمـر يخصـك في شيء.. أنتظـر منـك تقريـرًا كامـلًا بـكل دراسـاتك التـي تنتـوي أن تجريهـا ونتائجهـا..»

أومـأت بـرأسي إيجابًـا بنفـس البسـمة.. فنظـر إليَّ قليـلًا وتفـرَّس في ملامحـي، ثـم اسـتدار منصرفًـا..

كنـت أعـرف أننـي أثـير في نفسـه القشـعريرة نفسـها التـي يلقيهـا فيـه عنكبـوت يزحـف عـلى سـاعده.. يهابنـي، ويهـاب مـا يـدور بعقـلي ولا يفهمـه، ولكنـه يحتفـظ بي للسـبب نفسـه الـذي يحتفـظ بـه حـواة الهنـد بثعابـين الكوبـرا.. النقـود.. كنـت قـادرًا بأبحـاثي عـلى جلـب أمـوال لا يحلـم بهـا كائـن حـي، في أكـثر أحلامـه طموحًـا.. ولـذا لم يكـن مسـتعدًا للتخـلي عنـي أو مضايقتـي..

وكان هـذا مـا أعتمـد عليـه، ولأجلـه جئـت لجينيسـيس.. كـوني فـوق المسـاءلة، أو الحسـاب.. عنـصر أسـاسي أشـبه بملـوك الـدول، أو الأمـراء.. لا يجـرؤ أحدهـم على أن يوجـه إلي اتهامًـا أو يرفـض لي طلبًـا، وإلا كان ذاك مـضرًّا للشركـة بكاملهـا..

ولِمَ؟..

لأن المرحلة التالية كانت مفتاحًا لما هو قادم كله..

***

-٧-

(الجزء القادم ليس من مذكرات إدوارد تاسك)

خط الحديد والنار..

يعـبر أمـام عينيـه.. يتجمـل بجـماره ولهبـه، ولكـن لا يفقهـه عقـل.. بالتأكيـد ليـس عقلـه هـو، فهـو لا يفهـم، ولايسـتوعب.. لا يـدرك حتـى معنـى الفهـم والاسـتيعاب..

هـل الأحـلام طبيعـة فطريـة، أم أنهـا غُرسـت في عقلـه غرسًـا، كـما البـذور في أرض موحشـة لا تُنبِـت؟..

يفتـح عينيـه، ثـم يضيقهـما اتقـاء النـور المُبهـر.. ينهـض مـن رقـاده وهـو يحمـي جفنيـه بكفـه، ويحـدق فيـما حولـه.. الاخـضرار الـذي يكسـو كل شيء، وتتجمـل ببهائـه الموجـودات.. حشـائش قصـيرات بهيـة المظهـر، تمـر عليهـا الأنسـام فتتمايـل كجـوارٍ حسـناوات، تنعكـس عليهـا أشـعة الشـمس الدافئـة.. صفـراء اللـون ذهبيـة، تلقـي في نفسـه شـعورًا متناقضًـا.. راحـة مـع حـيرة.. أو ربمـا توجسًـا، فـلا وصـف لـذاك..

ينظـر إلى جسـده العـار.. كفـاه وسـاقاه.. لا يفهـم، ولا يسـتوعب، ولكنـه بشـكلٍ مـا يشـعر أنـه يملـك فكـرة عـن هـذا كلـه.. الأمـر فقـط مدفـون في ثنايـا ولفائـف عقلـه، يتفـادى مرمـى أفـكاره الحيـارى، ولا يسـتكين في موضعـه لحظـة تمكنـه مـن التذكـر، أو الفهـم..

في الأفـق هنـاك شـمس ضخمـة.. قرصهـا أكـبر مـن الخيـال، أكـبر مـن عالمـه، ومـن محتـوى أفـكاره ذاتهـا.. يمـلأ عينيـه ولا يـترك مجـالًا لهـا لتتطلـع لمـا هـو آخـر.. ولكنهـا ليسـت قريبـة.. لا يفهـم كيـف تجتمـع الأضـداد، فـلا شيء مفهـوم

وسـط كل ذاك..

لا نهايـة للأخـضر في مرمـى نظراتـه.. كأنمـا الأفـق هـو شيء بعيـد المنـال، لا تنكشـف أسراره سـوى بالسير نحـوه.. وحتـى حينهـا، لا سـبيل لسـبر أغـواره سـوى التفكـر..

ينهـض واقفًـا، ويسـتند بكفيـه إلى الأرض في نهوضـه، ثـم يتطلـع إلى السـماء.. لا شيء عـلى مرمـى البـصر.. لربمـا كان للخطـو نحـو الأفـق أن يميـط اللثـام عـن الـسر، ويُقشِـع الظُلـمات عـن الخبايـا؛ لتنكشـف أمـام عقلـه كنـوزٍ بهـي..

لربما كان له أن يفهم..

يحرك قدميه، ويبدأ أولى خطواته نحو الأفق المزعوم.. حيث اللاشيء..

ربما كان هذا هو العدم ذاته..

***

يخطو..

يخطو ويمشي ويسير..

يسير ويمشي ويخطو..

بـلا نهايـة.. كأنمـا الزمـن قـد توقـف، وصـار لحظـة واحـدة، تتحـرك مـن خلالهـا صـورة حـاضر كالدائـرة، لا بدايـة لهـا ولا نهايـة، ولـو كان لهـا أن تملـك بدايـة، لصـارت هـي نفسـها نهايتهـا..

هـذا هـو العـدم.. خـارج خـط الواقـع.. كل شيءٍ يشـبه مـا يجـاوره، لـو كان للحشـائش القصـيرات أن تتجـاور..

يشعر بعبثية موقفه.. لأين يخطو ونحو ماذا تحمله قدماه؟..

الشـمس في الأفـق.. قريبـة جـدًّا.. ذهبيـة جـدًّا.. ولكنهـا لا تحرقـه، بـل تغمـره أشـعتها دافئـة كأحضـان الأمهـات، تورثـه ارتياحًـا، وتحنـو عـلى جلـد جسـده العـاري كالنسـمات عـلى جفـون رضيـع..

يخطـو ثـم يمـشي ثـم يسـير.. بـلا وجهـة، ولا غايـة، حتـى تتبـدى أمـام عينيـه أخـيرًا..

تلـك الشـجرة الطويلـة.. تبـدو أغصانهـا كالأعنـاق البضـة العاريـة، وتمتـد حتـى عنـان السـماء، كأنهـا بوابـة إلى عـالم آخـر.. أوراقهـا نـضرة خـضراء كـما يجـب عـلى الخـضرة أن تكـون، وكـما خُلـق اللفـظ ليصـف وينعـت بـه الناعتـون.. تقبـع عـلى أذرعهـا الحسـناء ثِمـارٌ صبـوح، حمـراء كشـفاه غانيـة خديجـة، متناسـقة الشـكل والاسـتدارة كقسـمات وجـه حوريـة.. هيئتهـا مليحـة، تثـير شـهية ونهـمًا في نفـس مـن يطالعهـا..

ومـن يطالعهـا سـوى عينـاه؟.. يشـتهيها، ويهفاهـا بشـدة، والآن فقـط يتذكـر أحشـاءه الخاويـة.. كأنمـا عقلـه يرسـل لـه إشـارة أنـه لم يـذُق طعامًـا مـن قبـل.. لم يعـرف لأي حـدٍّ هـو صـادق..

يبتغيهـا.. يبتغيهـا، ويفغـر فـاه جوعًـا، ويقـترب، فتـسري في جسـده تلـك الرعشـة المفاجـأة، لترتـج معهـا جنباتـه ألمًـا، ويهتـز لهـا كيانـه.. كأنهـا زلزلـة تعصـف ببدنـه، فـلا تتركـه سـوى صريعًـا.. لا يقـدر حتـى عـلى سـحب كفـه الممـدودة، فيسـقط أرضًـا بـلا حـراك، ويرتطـم وجهـه بالحشـائش النديـة..

يعـتري رأسـه ألم شـديد، ويغزوهـا كجيـشٍ طـاغ، فـلا يقـدر عـلى الحـراك، بينـما يـدوي ذلـك الصـوت العميـق بداخـل ردهـات عقلـه، ويـتردد صـداه كالطيـف، بـلا وجـه:

- «تلك الثمار مُحرمات.. لا تلمسنَّ، ولا تتطلع ولا ترقب..»

الصوت.. الصوت مألوف.. ولكنه لا يقدر على الاستيعاب..

- «أطيعنَّ، وإلا خسئت وحلَّت عليك غضبتي..»

الصوت.. مألوف، ولكنه لا يُفقَه..

ينهـض جالسًـا، وتـئن كل عضلـة في بدنـه متألمـة، فيتـأوه.. ينظـر نحـو الثمـرات اليانعـة، ولا يجـسر عـلى الدنـو.. تتحـرك شـهيته ضاريـةً كذئـبٍ لم يـذُق زادًا،

فيقـترب مـن جديـد لتـسري الرجفـة الحارقـة في أرجـاء جسـده، وتجوبـه غازيـةً..

يطغـى الألم عـلى جنباتـه، فيـئن في صمـت بـلا حـراك.. تطالـع عينـاه السـماء في رقـاده، وتتمـلى فيهـا بـلا أفـكار.. شـاردة في أفـق لا يحـوي سـواها..

وسواهم..

هناك..

على الناحية الأخرى من الستار.. أمام غشاء العدم..

خط الحديد والنار.. يستعر كلهيبٍ حارق..

ينظـرون إلى تلـك الأشـكال الهولوجراميـة التـي تجسـد المشـهد الدائـر أمـام الشـجرة، ثـم تضغـط أصابعهـم عـلى الهـواء، وتتحـرك ليـسري طيفهـا في الأجـواء..

الصـوت العميـق يخـرج مـن حلـق ذلـك العالِـم الشـاب الـذي يقـف وسـطهم.. شـعره ناصـع البيـاض، أنيـق متأنـق كجـرس ذهبـي يتألـق سـطحه المصقـول وسـط ضـوء مبهـر..

يضغـط عـلى الجهـاز اللوحـي في يـده، فينقـل إشـارة إلى ذلـك الهولوجـرام العمـلاق الـذي يتجسـد في الغرفـة كـمارد عظيـم، فتتغـير تشـكلات المسـاحة بداخـل تلـك الخريطـة..

وهنـاك.. خلـف خـط الحديـد والنـار.. وخلـف سـتار العـدم.. تتغـير الموجـودات، لتتجسـد تلـك الأشـجار أمـام عـين ذلـك الكائـن العـاري، بـلا قـدرةٍ منـه عـلى فهـمٍ أو اسـتيعاب.. الصـوت العميـق يـدوي في أذنـه، فكأنمـا الهـواء ذاتـه يتكلـم:

- «لـك مـا تشـتهيه مـن ثمـار تقتـات بهـا، ونمـارق تتكـئ عليهـا.. كل مـا هـو دون تلـك الشـجيرة هـو حـقٌّ لـك.. لتحُلَّـنَّ عليـكَ لعنتـي إذا مـا نحوهـا دنـت خطواتـك وأقدَمَـت..»

ينظر لما حوله..

الشـمس القريبـة للغايـة حتـى ليوشـك عـلى أن يلمسـها.. تعـبر مجالهـا في بـصره تلـك الشـجرة البهيـة..

ما هو المغزى؟.. ومن ذلك المتكلم؟..

لا يفقه..

***

ولكن نفقه نحن..

ونرى..

هناك، على الناحية الأخرى، وخلف ستار الموجودات.. يقف هو..

«تاسك»..

هـذه هـي المـرة الأولى الـذي ترونـه فيهـا؛ لـذا فسـأصفه لكـم لتتضـح الصـورة أكـثر في الأذهـان..

أشيب الشعر، متأنـق، يرتـدي حلـة رماديـة، يعلوهـا المعطـف الطبـي الأبيـض.. عوينـات مذهبـة الإطـار، يشـترك بريقهـا مـع لمعـان السلسـلة الأنيقـة التـي تتـدلى مـن جيـب حلتـه، إلى جيـبٍ آخـر..

ملامحــه وســيمة بشــكل لا تخطئــه عــين.. القســمات المتناســقة، والشــفتان الرفيعتـان.. الحاجبـان الخفيفـان أعـلى عينـان زرقـاوان.. جبهـة ملسـاء، تشـترك مـع تفاصيـل الوجـه الناعـم، ذي اللحيـة المكتملـة البيضـاء القصـيرة المنمقـة في إعطائـه مشـهد مهيـب أقـرب بالممثلـين السـينمائيين.. مظهـر أنيـق مصطنـع يضفـي أناقـة فـوق أناقـة..

سـنه لا يتعـدى العشرينيـات بحـال، ولكـن شـعره ولحيتـه البيضـاوان يضفيـان عليـه هيبـة وحضـورًا قويًّـا.. لا بـد أن هـذه صبغـة.. بالتأكيـد لم يشـب شـعره في سـنين عمـره القصـيرة، وإنمـا هـو يفضـل هـذا الشـكل الناضـج لسـببٍ مـا لا نفهمـه جيـدًا..

يجلـس أمـام الشاشـة الهولوجراميـة العملاقـة التـي تحتـل جـدارًا كامـلًا، فتحيلـه إلى زجـاجٍ شـفاف، يـرى عـبره ذلـك الكائـن الـذي عرفنـا أن اسـمه «آدم»، وهـو يقبـع بـين الحشـائش القصـيرة في تلـك الحديقـة العملاقـة الممتـدة عـلى مرمـى

البـصر..

جـواره، يجلـس آخـر.. أكـبر في السـن نسـبيًّا، ربمـا هـو في منتصـف عقـده الثالـث.. اختلـط شـيب شـعره، بسـوادٍ أصيـل، وامتـزج مـع لحيـة تحيـط بشـفتيه في إضفـاء مظهـر أنيـق ومريـح للعـين، لم يقلـل منـه باقـي وجهـه الحليـق، وزادتـه عينـاه الخـضراوان..

حديثهما هادئ، لا يعلو فيه صوتهما، وإنما ينساب..

- «مـا المغـزى مـن كل هـذا؟.. أنـت تعـرف بالفعـل أنـه عـلى أعـلى قـدر ممكـن مـن الـذكاء، وأنـه يمتلـك وعيًـا حقيقيًّـا، لا علاقـة لـه بهـراء الحواسـيب الكميـة.. مـا الـذي تنتظـره؟»

ينظر إليه «تاسك».. ويبتسم..

- «وهذا لا يرعبك؟»

تطلع إليه ذا العيون الخضراء في عدم فهم..

- «ماذا تعني؟»

تراجـع «تاسـك» في مقعـده، بينـما بيانـات عـدة تتشـكل عـلى الشاشـة الهولوجراميـة التـي ترتسـم في الهـواء أمامـه، وتنتظـر المعالجـة.. تكلـم في هـدوء، وهـو لا يشـيح بنظـره عـن الشاشـات المزدوجـة التـي تنقـل لـه تصرفـات «آدم» بداخـل الحديقـة:

- «مسـتر جودويـن.. كنـت أظـن أن بصيرتـك ثاقبـة، ولكنـك خيبـت ظنـي.. مـاذا تعتقـد أنـه يمكـن يحـدث لـو قـرر ذلـك النمـوذج مخالفـة أوامرنـا الناهيـة؟.. مـاذا لـو قـرر عـدم الطاعـة أو التمـرد؟.. مـا الـذي يمنعـه مـن ذلـك؟.. أنـا وأنـت نعـرف أنـه يمتلـك وعيًـا وتفكـيرًا ذكيًّـا بالفعـل.. هـذا مرعـب أكـثر منـه مثـير..»

مـط «جودويـن» شـفتيه وأومـأ برأسـه في فهـم، وهـو يديـر رأسـه إلى الشاشـات مـن جديـد..

- «مـشروع (حديقـة عـدن) هـو ليـس مجـرد مـشروع تجريبـي، وإن كنـت

تظنـه أنـت كذلـك.. مـا أنـا بصـدده هـو اختبـار كامـل للـذكاء وللقـدرة عـلى طاعـة الأوامـر، بالإضافـة إلى برمجـة عقلـه بالكامـل عـلى فكـرة كوننـا الآلهـة ذاتهـا.. بالتأكيـد لـن يمكننـا فعـل هـذا باسـتعمال الحواسـيب مهـما كانـت قدراتهـا..»

- «وما الذي تعتقده حتى الآن؟»

خلـع «تاسـك» عويناتـه الطبيـة المذهبـة، ونفـث بخـار فمـه فيهـا وهـو يمسـحها بطـرف معطفـه، قائـلًا:

- «لا أعتقـد شـيئًا بعـد.. الأمـر مـا زال مبكـرًا للغايـة حتـى نحكـم عليـه بـرأي قاطـع.. ولكـن مـا أراه حتـى الآن مبـشر.. منـذ تلـك المـرة التـي أرسـلت لـه فيهـا أمـرًا بـأن لا يتنـاول مـن ثمـار تلـك الشـجرة، لم أره يقـترب منهـا قـط.. وديـع كطفـل رضيـع..»

تراجع«جودويـن» في مقعـده بـدوره، وهـو يتسـاءل عاقـدًا كفيـه في بعضهـما أمـام وجهـه وهـو يسـتند بمرفقيـه إلى مسـندي المقعـد:

- «ولكنك بالطبع لا تعتقد أن هذه النتائج سارية..»

نظر له «تاسك» مهتمًّا..

- «ماذا تعني؟»

- «أعنـي أنـه لا يعـرف حتـى معنـى الطاعـة أو العصيـان.. هـو لا يفهـم معنـى أي شيء.. مـا فعلتـه أنـت هـو مجـرد اختبـار تجريبـي عـن طريـق المكافـأة والعقـاب.. كـما يفعلـون مـع الحيوانـات بالضبـط.. تغـدق عليـه بالطعـام حينـما ينفـذ أمـرًا، أو تصعقـه حينـما يعـصي الأمـر.. أنـت تعاملـه كحيـوان دون أن تـدري، وهـذا لـن يصلـح..»

- «ماذا تقترح إذن؟»

ابتسم «جودوين» للمرة الأولى وهو يقول:

- «أنت تعرف ماذا أقترح..»

صمت «تاسك» تمامًا وهو يتطلع إليه بينما هو يتابع:

- «يجب أن لا يكون مثاليًّا.. يجب أن يتعلم معنى التفكير والتأمل في حقيقة ما حوله، حتى يمكنه أن يفهم معنى الطاعة والعصيان.. لن يتنامى ذكاؤه لدرجة تمكنه من الخدمة في التطبيقات العملية فعلًا لو ظل كما هو..»

هز «تاسك» كتفيه وهو يبتسم بزاوية فمه..

- «ما زلت لم أفهم اقتراحك..»

مال «جودوين» في مقعده إلى الأمام نسبيًّا، وهو يقول بهدوء يثير التوجس:

- «لو كان هذا هو آدم.. إذن فلنخلق له شيطانًا..»

ابتسم «تاسك» وهو ينظر إليه دون أن يرد، فتابع «جودوين»:

- «فلنخلق له شيطانًا، ونرى كيف سيتصرف ويفكر..ولعمري ليكون الأمر جديرًا بالمشاهدة..»

ظل «تاسك» على صمته بنفس ابتسامته الغامضة، فأعقب «جودوين» عبارته بأن نهض من مكانه، وربت على كتفه بخفة وهو يتجه نحو الباب.. بينما ظل الأول على موضعه بلا حراك..

وما أن دوى صوت انغلاق المزلاج الآلي خلفه، حتى استدار بمقعده، ونظر إلى الشاشات من جديد، وهو يرقب «آدم» وهو يمشي نحو الأفق، بلا غاية أو فهم..

وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة، بلا مغزًى مفهوم..

أو هكذا نظن نحن..

***

-٨-

(من مذكرات إدوارد تاسك التي لم يُعثر عليها أبدًا)

طبعًا، كان هذا هو ما أردته بالضبط..

أن يـأتي المقـترح منـه هـو.. بلسـانه، ومـن بنـات أفـكاره.. بهـذه الطريقـة لـن يعتقـد أبـدًا أن هـذا مـا أريـده أيضًـا، ولـن يركـز كثـيرًا في الوسـيلة التـي سـأتَّبعها مـن أجـل ذلـك..

لم أكـن أحتـاج أنفاسـه أسـفل عنقـي الآن.. فقـد كان بارعًـا في هـذا حقًّـا، بشـكلٍ مقيت..

الهـدف الآن أولًا كان تصنيـع النمـوذج الأنثـوي الأول مـن الجيـل الجديـد.. بنفـس المعـادلات ونفـس طريقـة التصنيـع بالضبـط، التـي ستسـتغرق شـهورًا، ولـن تكـون ثابتـة التكاليـف.. وإن اتفقـت مـع مـا قبلهـا في كونهـا تسـتهلك تمويـلًا فلكيًّـا يمكنـه إقامـة دولـة صغـيرة مـن دول القـرن السـابق..

لم يكـن مـن الممكـن عمليًّـا وتجاريًّـا أن نضطـر لإنفـاق كل هـذا كلـما بدأنـا في تصنيـع نمـوذج مـن الجيـل الثالـث.. هـذا وحـده قـادر عـلى اسـتهلاك مـوارد جينيسـيس قبـل حتـى أن تكـسر أعـداد مـا ننتجـه الخانـات الفرديـة.. كان يجـب أن أفكـر خـارج الصنـدوق..

وكان ما فكرت فيه هو: ماذا لو امتلكوا القدرة على التكاثر؟..

مـاذا لـو صممـتُ نظامًـا تناسـليًّا كامـلًا، طبـق الأصـل مـن النظـام البـشري، وزودت المخلوقـة الأنثـى الجديـدة بـه، حتـى يمكنهـا هـي وزوجهـا الإنجـاب، وبالتـالي توفـير مصاريـف الإنتـاج بنسـبة كاملـة؟..

كانـت فكـرة عبقريـة.. صحيـح أن تصميـم الجهـاز التناسـلي الكامـل لهـا أثنـاء

عمليـة الخلـق، بالإضافـة إلى تزويـد جسـد آدم أيضًـا بـه، سـيكلف مبلغًـا باهظًـا، فـوق المبلـغ الـذي سيسـتهلكه تصنيـع المخلوقـة الجديـدة في الأسـاس، ولكنـه كان يسـتحق.. توفـير مصاريـف الإنتـاج كان هـو الهـدف الرئيـس الأول مـن المـشروع، وفكـرة التكاثـر الـذاتي دون تدخـل مـن البـشر، كانـت تَعِـدُ بإلغـاء مصاريـف الإنتـاج تمامًـا..

ولذلـك، فعندمـا عرضـتُ الموضـوع عـلى «جودويـن»، راق لـه بشـدة، لدرجـة أنـه ابتسـم ابتسـامة واسـعة انفرجـت فيهـا أسـاريره تمامًـا، ووصلـت فيهـا أطـراف شـفتيه إلى أذنيـه، حتـى بـدا منظـره أشـبه بالفزاعـة أو الضاحـك Joker في أفـلام الرجـل الوطـواط الغابـرة.. بـل أنـه حتى لكمنـي في كتفـي إعجابًـا وتقديـرًا للفكرة.. بـدأ الجليـد الـذي كان بيننـا في الذوبـان بدايـةً مـن هـذه اللحظـة، ولم يكـن مـن البعيـد لهـذه الدرجـة أن نصـير أصدقـاءَ، لا ننبـح في وجـه بعضنـا طـوال الوقـت..

عمليـة تصنيـع النمـوذج الثـاني كانـت صعبـة نسـبيًّا.. لم يكـن كل شيء يسـير كـما كان في السـابق بالضبـط، فالعمليـة بأسرهـا ليسـت قاعـدة مكتوبـة ومؤكـدة تمامًـا.. كانـت هنـاك الكثـير مـن المتغـيرات في معـادلات التصنيـع، وخصوصًـا في المرحلـة الأخـيرة، التـي هـي عمليـة اسـتقبال الوعـي بعـد الانتهـاء مـن تكويـن الجسـد الكامـل..

اسـتغرق الأمـر في المـرة الأولى دهـرًا، حتـى اكتشـفنا خطـأ المعـادلات الرياضيـة في العديـد مـن المواضـع، ولم ينجـح إلا بعـد تصحيـح تلـك الأخطـاء.. كأننـا فاجأنـا الطبيعـة عـلى غفلـةٍ منهـا، ونجحنـا في الانتصـار في المعركـة الأولى.. ولكـن هـذا لم يكـن يعنـي بالـضرورة فوزنـا في الحـرب بأكملهـا..

في تلـك المـرة، كان كل شيء صحيحًـا مـن البدايـة.. ولكنـه لم ينجـح بسلاسـة كـما كان الحـال في المـرة الأولى..

بـدا الأمـر كـما لـو أن الكـون نفسـه يحاربنـا، ويمنعنـا مـن العبـث فيـه لهـذه الدرجـة.. كأنمـا الطبيعـة تقـاوم اغتصـاب عذريتهـا وهتـك عـرض شرفهـا ونضرتهـا عـلى إيدينـا، ولم تكـن أخلاقهـا فـوق الغـش والتلاعـب، كـما العاهـرات..

ولكـن هـذا لم يكـن قـادرًا عـلى إثنـائي.. لم أكـن عـلى وشـك الاسـتعداد للتخـلي عـن تلـك الشـهوة التـي اسـتولت عـلى كل ذرة مـن كيـاني، وصـارت تجـري بداخـل عروقـي، وتمتـزج بدمـائي كالمخـدرات..

شـهوة الخلـق لم تكـن كأي شـعور يمكـن أن يجربـه أحدكـم، ولم تكـن مثيـلًا لأي وصـف أو نشـوة يمكـن أن يحـكي أحدهـم عنهـا.. كانـت شـيئًا أكـبر مـن الواقـع، ومـن الكـون ذاتـه..

شـعور القـوة ذاك؛ يجـري بداخـل عروقـك، ويكسـبك طاقـةً تؤهلـك لقهـر الجبـال ذاتهـا.. أنـت أقـوى مـن أي شيء.. أنـت وحـدك تملـك سر الحيـاة ذاتهـا، وبأمـرك توجدهـا، أو تفنيهـا.. أي شـعورٍ هـذا..

هـو شيءٌ لا جـدوى مـن كتابتـه؛ لأنـه لـن يمكننـي وصفـه، ولـن يفهمـه سـوى مـن جربـه..

مـا فعلتـه حينهـا بمسـاعدة الفريـق الطبـي، هـو اسـتئصال المـخ بأكملـه مـن جمجمـة النمـوذج، وإيصالـه بجهـاز S.Q.C.U.3.0 متطـور، ثـم بـدأت أنـا وفريـق مـن علـماء الرياضيـات بتعديـل المعـادلات بطريقـة عشـوائية..

كانـت ميكانيـكا الكـم مـصرة عـلى أن لا تفـشي أسرارهـا كلهـا برغـم كل شيء.. لم تكـن عـلى وشـك أن تسـمح لنـا بـأن نقيدهـا في معادلـة واحـدة ثابتـة نسـتعملها لـكل مـا نريـد، بـل كانـت تتغـير في كل لحظـة.. كأن الكـون حرفيًـا يغـير مـن أساسـياته الفيزيائيـة، حتـى يمنعنـا مـن التحكـم فيـه..

نفـس مـا كان يحـدث بالضبـط أثنـاء تجاربنـا البدائيـة عـلى التراكـب الكمـي Superposition، كان يحـدث هنـا أيضًـا.. ولكننـا لم نستسـلم..

حاسـوب الــ S.Q.C.U.3.0 المتطـور الـذي كان مـخ النمـوذج الثـاني متصـلًا بـه، كان يحـوي نظامًـا رياضيًـا، بُرمـج خصيصًـا لتعديـل الأجـزاء المحوريـة في معادلـة نظريـة الوعـي الكمـي، وتعديلهـا ملايـين المـرات في ثـوانٍ قليلـة، حتـى يصـل للمعادلـة التـي سـتنجح في حـثِّ الاتصـال بـين المـخ والوعـي المُطلـق Absolute Consciousness، وخلـق الاسـتقبال في لحظـة بعينهـا..

استغرق الأمر أيامًا عديدة، كان الحاسوب يعمل فيها بكامل طاقته وكفاءته بلا توقف.. لكم أن تتخيلوا عدد التباديل والتوافيق التي يمكن أن يقوم بها جهاز حاسوب كمي على معادلة رياضية، في أيام.. يمكنكم محاولة تخيل الرقم..

هو رقم لن نتمكن حتى من كتابته، أو نطقه أو تخيل وجوده.. ربما هو 1، وبجواره مليون صفر مثلًا.. وربما هو أكثر..

لكن المهم أنه في النهاية، توصل الجهاز إلى صيغة تعمل، ونجح في حث التواصل بين مخ النموذج، والوعي الجمعي المُطلق الذي تخيلناه في النظرية، ليستقبل الوعي، ويتولد بداخل خلاياه العصبية.. فجأة؛ صار المخ يفكر..

تمكننا من توليد الوعي من جديد في المختبر، ومرة أخرى، رفنا إصبعنا الأوسط في وجه الطبيعة، وركلنا مؤخرتها المراوغة.. لم يعد هناك شك في كوننا قد ارتقينا درجات لا حصر لها في سلم الكائنات الذكية، ولم نعد مجرد كائنات حية جاءت في فترة من تاريخ الكوكب، وقامت بتعميره..

صرنا شيئًا أكبر من ذاك بكثير.. شيءٌ إلهي، مقدس، لا يقوى أي كائنٍ كان على تحدي إرادته؛ لأن صفعته هي الموت وقبلته هي الحياة..

وبعدها، عند نقل مخ النموذج مرة أخرى بداخل الجسد، والذي لم يكن صعبًا على الفريق الطبي على الإطلاق، بعد أن كُشفت طريقة نقل الأمخاخ في منتصف القرن الماضي، وتم إثباتها علميًّا في المراجع الطبية العالمية، فتحت النموذج الثاني عينيها لأول مرة..

واصطلحنا على تسميتها (إيف Eve)..

***

دراسة تصرفات النموذجين حينما وضِعا معًا لأول مرة، كانت فتحًا حضاريًّا في علوم النفس والسلوكيات الذكية..

بدءًا من الرهبة والخوف، مرورًا بالحيرة والفضول، والتعاون والوحدة،

وانتهـاءً بالتقديـر والإعجـاب المتبـادل..

وحيـدان، في عـالم كبـير لا يضـم سـواهما.. كان مـن الطبيعـي أن ينجذبـا لبعضهـما.. ذلـك سـلوك بـشري ذكي، وليـس جديـدًا.. ضـع أي شـخص في غرفـة مغلقـة مـع سـحلية إجوانـا لوقـتٍ كاف، وسـتجده تدريجيًّـا يحبهـا ويعتادهـا.. وربمـا حتـى اشـتاق لهـا لـو أخذتهـا بعيـدًا عنـه..

الخصوبـة العاليـة التـي زودناهـا بهـا، والتعديـل الهرمـوني الـذي زودنا بـه «آدم» سـاعد كثـيرًا في ذاك، وخلـق بينهـما نوعًـا مـن الكيميـاء، جعلتهـما أشـبه بالأحبـة في العـالم الحقيقـي.. لكنهـما لم يكونـا يعرفـان معنـى الاتصـال الجنـسي بعـد.. ولم نعلمهـما ذلـك مطلقًـا، لـنرى هـل سـيتمكنا مـن اكتشـافه بنفسـهما، أم لا..

مـرت أيـام عـدة، حتـى اسـتطعنا أخـيرًا رؤيـة فطرتهـما الجنسـية الأولى تفصـح عـن نفسـها في صـورة قبـلات بسـيطة، وأحضـان، واستكشـافهما لأجسـاد بعضهـما.. ثـم بعـد أيـام أخـرى، كانـت شـهادتنا الأولى للاتصـال الجنـسي الكامـل الأول بينهـما.. دون أي تلقـين مِنَّـا كبـشر.. كان هـذا فعلهـما، واكتشـافهما الكامـل الـذي بـدأ كل مـا بعـده..

ذاك هـو مـا كنـا نسـميه بالفطـرة.. تـصرف حميـم يـأتي بـه النمـوذج طاعـةً لشـهواته وأهوائـه الداخليـة، دون أي خـبرة سـابقة، أو تلقـين خارجـي مـن الملاحـظ..

كان السـلوك تقليديًّـا لنـا كبـشر، ولكـن رصـده في كائنـات حيـة مصنوعـة ومصممـة بالكامـل بواسـطتنا كان شـيئًا جديـدًا.. شيء لا يقـدر أحـد عـلى وصـف شـعور مـن يجـرب رؤيتـه لأول مـرة..

كل هـذا الحـماس والترقـب، ونشـوة الاكتشـاف التـي امتزجـت بنشـوة رؤيتهـما في ذلـك الوضـع الجنـسي السـاخن.. نشـوة الاقـتراب مـن الـسر أخـيرًا..

قالـوا قديمًـا في أسـاطير الإغريـق إن إيـكاروس يومًـا مـا قـد حلَّـق بجناحـين مـن شـمع، واقـترب مـن الشـمس.. اقـترب مـن الـسر، فلـم يلبـث أن احترقـت أجنحتـه وسـقط مـن جديـد..

الاقـتراب مـن الـسر الإلهـي المقـدس محـرم.. دومًـا هـو يحـرق، ويدمـر.. هـذه هــي الفلســفة التــي كان القدمــاء يريــدون إيصالهــا لنــا، والتــي تســببت في كثــير مــن عصــور الظــلام الفكــري التــي مــر بهــا هــذا الكوكــب في قرونــه الوســطى.. لا تعبـث كثـيرًا فيـما لا يمكنـك فهمـه أو اسـتيعابه.. كانـت هـذه الفلسـفة هـي أكـثر الأشـياء التـي كنـت أكرههـا في حيـاتي، والتـي كرسـت عمـري وبحثـي العلمـي كلـه لإثبـات خطئهـا..

تــصرف المجتمــع المتخلــف غــير الحضــاري دومًــا هــو أن يتجاهــل الفضــول العلمـي، والحـيرة المعلوماتيـة، ويعـزي مجـرد التفكـير فيهـا إلى كفـر أو جـرأة تصـل لحـد التجديـف والهرطقـة.. لـو كنـا فعـلًا نتبـع تفكـيرًا كـذاك، ونستشـهد بأمثلتـه وأوامـره الناهيـة، لمـا مـر عـلى هـذا العـالم يـوم واحـد مـن التطـور.. لمـا شـهدنا كل مـا نشـهده الآن مـن فتوحـات، جعلـت العـالم والكـون بأكملـه ملـكًا لنـا..

كانـت هـذه هـي معجزتنـا بلغـة تلـك العصـور.. معجزتنـا هـي عبورنـا السـتار، وتمزيقــه، وكشــف مــا يخفيــه مــن أسرار.. ربمــا كان هنــاك ســتارٌ آخــر خلــف الســتار، وســتارٌ آخــر خلــف ذاك، ولكــن اجتيازنــا لواحــد لا يعنــي شــيئًا أكــثر مــن قدرتنـا عـلى اجتيـاز الجميـع.. كل مـا نحتاجـه هـو الصـبر، والثقـة في أن مـا يخبئـه المسـتقبل هـو أكـبر بكثـير مـمًّا نتخيـل..

الثقـة في أن شـيئًا لا يمكـن أن يحرقنـا في يـومٍ مـا.. فـما دام هنـاك علـمٌ، فسـيظل دومًـا في مقدورنـا إطفـاء نـيران المعرفـة التـي تتجـاوز الحـد..

سـيظل في وسـعنا أن نرتقـي درجـات السـلم العلمـي الحضـاري إلى أعـلى، نحـو الـسر الأعظـم..

وأن نقول لإيكاروس: تبًّا لك..

***

شهور عديدة مرت بعد كل ذاك..

تجارب اختبار الذكاء كانت ساحقة النجاح.. كل أمرٍ كنا نوجهه للاثنين كان يُطاع بلا نقاش.. كل ما نهينا عنه كان محرمًا عليهما كالذنوب.. كنا لأول مرة في التاريخ، نجرب كبشر شعور أن نكون خلف المدفع، لا أمامه..

نجرب ما يعنيه أن نكون نحنُ الآمرين الناهين، وأن تُنفَّذ تعليماتنا كالأوامر المقدسة.. كان هذا شيئًا لم نحسه من قبل، ولم يكن سيئًا على الإطلاق..

انعكس الأمر على تصرفات باقي رفاقي ومساعديني في المعمل.. فمن كان منهم ضعيف الشخصية، مترددًا، أصبح أكثر ثقة.. من كان منهم متزوجًا غدا أكثر مسئولية، وصار يطبق ما نفعله على أطفاله لينعكس على سلوكياتهم.. أغلبهم أصبح متعاليًا مغرورًا طوال الوقت، يعامل رفاقه وأطفاله لو كان يملك أطفالًا كالعبيد.. من قال إن الشخصية القوية القيادية والثقة التي تبلغ مرحلة الغرور هي فطرة لا تُكتسب؟.. كان مخطئًا بالتأكيد.. فسلوكيات فريق العلماء والفنيين الذي كان يعمل على المشروع أكبر دليل على أن الثقة وقوة الشخصية النفسية يمكنها أن تنتج من مُسبِّب مصنوع، غير طبيعي.. كان هناك منجم ذهب من التطورات الشخصية والنفسية ينتظر أن يكتشفه أي باحث علم نفس واجتماع، لو قرر أن يسجل سلوكيات فريقي ويحللها..

ولكن لم يكن كل شيء ضياء شمس وزهور.. كانت هناك بعض التعقيدات والدراما التي كانت تحدث بين الطاقم من حينٍ لآخر..

خذ عندك على سبيل المثال، ما وجدت أحد الفيزيائيين يفعله ذات مرة، حين دخلت عليه غرفة المراقبة المعملية..

الوغد كان يداعب نفسه وهو يراقب «آدم» و«إيف» وهما يتضاجعان، على شاشات المعمل التي تنقل البث من داخل الحديقة، وهو يتأوه تأوهات خافتة منتشية، كأنه يمارس الجنس فعلًا..

الأدهى أنه لم يلحظ وجودي حتى في غمرة اندماجه ونشوته.. ولعمري كان المشهد غريبًا ومقيتًا لا أحب أن أتذكره كثيرًا.. منظر ظهره الذي ينعكس عنه ضوء مجسات الليزر الخافتة، وشكل جلسته المنحنية المتصلبة على المقعد

أمـام الشاشــة الهولوجراميــة المجسـمة الكبـيرة، وهـو يحـرك يـده ذهابًـا وإيابًـا، بينـما جسـده يخفـي المشـهد الفعـلي عنـي، وإن تكفـل الصـوت المقـزز مـع مشـهد عضلاتـه التـي تنقبـض وترتخـي بتكويـن فكـرة لـدي عـمَّا يفعلـه..

كنـت أفهـم نوعًـا مـا شـعوره، وشـعور معظـم أفـراد الطاقـم.. نشـوة أن تكـون أنـت السـيد، وكل مـن هـم غـيرك عبيـد، هـي لا مثيـل لهـا.. لا تقـدر مئـات الأفـلام الجنسـية عـلى محاكاتهـا، أو حتـى الاقـتراب منهـا.. ربمـا كان الانتشـاء الـذي كان يشـعره وهـو يراقـب هـذا المشـهد أكـبر مـن نشـوة المضاجعـة ذاتهـا.. ولربمـا كان غارقًـا في خيالاتـه الفانتازيـة متصـورًا نفسـه راقـدًا فـوق «إيـف» لـو كان أكـثر جـرأة، أو كانـت لديـه فرصـة..

لم يمنـع هـذا طـردي المهـين لـه بعدهـا، برغـم أننـي كنـت أتفهـم الأمـر بصـورةٍ مـا، وإن لم أتقبلـه.. القـوة التـي تتوفـر لنـا، وتمتلكهـا أيدينـا هـي قـوة لا يجـب أن يُسـاء اسـتعمالها.. خصوصًـا لـو بصـورة جنسـية.. الكـوارث والثـورات تبـدأ مـن مثـل هـذه السـلوكيات..

كنـت أعـرف أن أكـبر تطبيـق تجـاري لكائنـات الجيـل الثالـث في المسـتقبل سـيكون الدعـارة.. الكثـير منهـم سـيتحولون إلى عبيـد جنسـيين Sex Slaves، وسـيباعون في أسـواق الرقيـق كـما كان الحـال مـع العبيـد القدامـى.. ولم يكـن الأمـر سـيخالف أي قوانـين.. فهـؤلاء كائنـات مصنعـة، ليـس لهـم حـق في الحريـة أو المعاملـة الحسـنة.. كل شيء سـيكون قانونيًّـا، بـل وربمـا يُخصـص قانـون جديـد لوضـع قواعـد تنظـم ذلـك النـوع مـن التجـارة.. لكـم كان إبراهـام لينكولـن ليتقلـب في قـبره لـو رأى مـا وصلنـا إليـه بعـد قـرونٍ قليلـة..

كنـت متأكـدًا أن الكثـير مـن سـوء الاسـتخدام سـيحدث عنـد بدايـة إنتاجهـم بشـكل تجـاري، ولكـن هـذا لم يكـن يعنينـي في شيء.. كل مـشروع وابتـكار يمكـن اسـتعماله بـأي صـورة، وليسـت وظيفتـي أن أحددهـا..

حينـما حبَلَـت «إيـف» لأول مـرة، ومـرت أسـابيع عـلى الحـدث، كان أول مـا فعلنـاه لنتأكـد مـن أن كل شيء عـلى مـا يـرام هـو تخديرهـا هـي وآدم، حتـى لا

يذكـران شـيئًا مـمَّا كنـا نريـد أن نفعلـه، ثـم سـحبناها إلى خـارج الحديقـة، وأجرينـا كل التحليـلات اللازمـة للتأكـد مـن سـلامة الطفـل، وتسريـع معـدل نمـوه..

لم يكـن التخديـر الـذي اسـتعملناه خطـيرًا عـلى صحـة الطفـل مطلقًـا، فقـد كان الأخـير هـو كل مـا يهـم في تلـك المرحلـة.. أن نتأكـد مـن كـون النظـام التناسـلي الـذي صممنـاه مماثـلًا للأصلي، يعمـل بكفـاءة.. ذلـك كان مفتـاح دخـول المـشروع في مرحلـة الإنتـاج التجـاري التـي كان يطمـح لهـا «جودويـن» بشـدة، ليعـوض التكاليـف الباهظـة التـي خسرهـا في الأبحـاث..

وضعنـا في جسـدها كل العنـاصر المغذيـة اللازمـة لتسريـع عمليـة النمـو، وراقبنـا تطـور الحمـل عـن قـرب.. وبواسـطة أدويـة تسريـع الحمـل التجريبيـة الجديـدة، لم يسـتغرق الأمـر أكـثر مـن شـهر، حتـى كان الجنـين قـد وصـل لمرحلـة مـن النضـج يمكـن معهـا اسـتئصاله مـن الرحـم..

وكانت هذه هي لحظة الحقيقة..

مـا زلـت أذكـر منظـر غرفـة العمليات، والمعاطـف الطبيـة والكمامـات التـي كان الجميـع يرتديهـا بمـا فيهـم أنـا، وأنـا أرقبهـم مـن خلـف الزجـاج العـازل، بينـما الجـراح يشـق بطنهـا بمبضـع الليـزر الدقيـق في حـذر، ثـم يمـد يـده إلى الداخـل، ويخرجهـا حاملـةً الطفـل، مصحوبـةً بيـد مسـاعده وهـي تمتـد بالمقـص المعقـم لتقطـع الحبـل الـسُّري..

منظـره وهـو يقلـب جسـد الطفـل السـاكن إلى أسـفل ليمسـكه مـن قدمـه، ثـم يربـت عـلى ظهـره ويصفعـه صفعـات خفيفـة..

مـا زلـت أذكـر الترقـب الـذي كان عـلى وجـه الجميـع، يختفـي خلـف الكمامـات الواقيـة، وإن تبـدى في عيونهـم واضحًـا جليًّـا.. ولـن أنـسى أبـدًا شـهقات الدهشـة والسـعادة الغامـرة والتصفيـق الحـار، الـذي امتـزج بـصراخ الرضيـع الأول، الـذي يعلـن بـه عـن مجيئـه للحيـاة..

فقد كان كل هذا إيذانًا ببدء عصرٍ جديد..

عصرٌ كنَّا نحن فيه الآلهة الحقيقية..

***

(الجزء التالي لا يقع ضمن مذكرات تاسك، وهو من ذكرياته غير المدونة)

يتذكر..

يتذكر جو لندن الغائم، والسماء المضيئة التي لطخ المساء بياضها، وامتزج بسحابها القاتم، ليضفي على المشهد كآبةً فوق كآبته..

يتذكر مشهد آخر المنصرفين من الجنازة، ومنظر شاهد القبر الوحيد، الذي ليس حوله على محيط مئات الأمتار شيء..

مشهد حرسه الخاص، الذي يقتربون، فيشير لهم بكفه أن ينصرفوا، ويتركوه وحده.. بعيدًا عن كاميرات الصحافة والإعلام، الذي لم يرد لهم خبر وجوده، وحضوره من الأساس، فحسبوه لم يجئ.. شهرته كانت قد طبقت الآفاق بعد الإعلان عن أبحاثه والتكنولوجيا المقتبسة عن نظريته الأكثر شهرة، وفوزه بجائزة نوبل، وصار الصحفيون يطاردونه في كل ركن.. لم يعد يقدر على المشي في الشارع بحرية كما كان..

لم يدرِ بماذا كان يشعر وقتها، وهو يقف في صمتٍ أمام شاهد القبر، الذي ارتسم عليه الاسم بحروفٍ مُذهبة أنيقة، مصحوبًا بالتواريخ..

«ويليام تاسك»..

2061 - 2118..

سبعةٌ وخمسون عامًا.. سبعةٌ وخمسون كانت عُمره على الأرض، وفترته التي مر فيها بتلك المحطة القذرة التي يسمونها بالحياة الأرضية.. سبعةٌ وخمسون فصلت بين عالم يسبقه، وعالم لم يعد يحويه..

سبعةٌ وخمسون صنعت في نفس ابنه هدفًا وغاية، لا يفهمهما أحد، ولا يجسر هو على تلاوتهما على مسامعه..

كل ما كان يعرفه وقتها، هو أنه لم يكره شيئًا في يومٍ ما، كما كرههُ هو..

لم يبغض شيئًا، كما بغض وجهه، وتعاليمه ولمساته وأوامره.. مثل ذكرياته معه حينما كان وحيدًا، إلا من حضرة أخيه الأصغر، في بيتهم القديم الخالي، لم يمقت..

لم يكن شيء من كل هذا يتبدى على وجهه.. حتى التماعة الدموع التي كانت تطل من عينيه لم تكن بؤسًا أو تأثرًا.. لم تكن معالمه حزينة، بل كانت تلك انفعالات الحماس.. الترقب، والانتظار الذي طال طويلًا..

طال أكثر مِمَّا ينبغي..

لفتات منه إلى ما حوله، تأكد معها أنه ما من أحد يراه أو ينتبه، ثم شرع في حل حزام سرواله..

عيونه التي تلتمع فيها دموع الترقب، وكفوفه التي ترتجف إثر انفعالِه الذي يختلج لأجله وجهه، بلا سيطرةٍ أو تحكم..

يزيح حزامه ويوارب سراويله، ثم يحل قيود مثانته، ليسدد بوله نحو شاهد القبر الفخيم..

منظره وهو يتبول على شاهد قبر أبيه، تحت الغيوم والضباب، والسماء التي بدأت في الإظلامِ والتداكن، كان فريدًا، غريبًا وأيقونيًّا.. يزعج خيال من يراه وينحفر في ذاكرته، وربما زارها كابوسًا بلا نهاية..

تلألؤ الكلمات المُذهبة التي ترسم اسم أبيه، مع انغمارها بسيل البول المنهمر، كان يصنع الوجود ذاته في لحظتها، وبسمته الهادئة التي تبدت على ملامحه وهو يسدد مياهه إلى باقي الشاهد الصخري الأنيق، والتربة التي تواري التابوت الذي يحوي الجسد كانت تُحفَر في الخيالات، وتسكنها بلا سبيلٍ لمخرج أو مفر..

وحين انتهى، وشد وثاق سرواله وحزامه من جديد، كان ارتياحه بفراغ مثانته، لا يضاهيه سوى راحته بعد تحرر كبتٍ صَاحَبَه لسنينٍ وعقود..

لا يماثله سوى حركة سبابته الثابتة، وهو يشير للرجال الذي ظهروا من

اللامـكان، بنبـش القـبر، واسـتخراج التابـوت والجثـة..

الجثـة التـي سـتوضع أمامـه بعـد أيـام عـلى السريـر الميكانيـكي الطويـل، وتنتظـر أن تحيـا مـن جديـد، لتثبـت أنـه كان محقًّـا..

تثبــت للعــالم كلــه، وبالــذات لــذاك الشــخص التــي كانتــه تلــك الجثــة، في اســتكانته الأبديــة؛ أنــه لم يفشــل مــن قبــل..

ولن يفشل..

***

-٩-

(الجـزء الثـاني مـن مذكـرات إدوارد تاسـك المكتوبـة عـلى جهـازه اللوحـي الشـخصي)

سنوات عِدة مرت منذ أول تجربة وولادة ناجحة شهدتها..

سـنوات مهـدت تطبيـق كائنـات الجيـل الثالـث، وبـدء إنتاجهـا واسـتعمالها تجاريًّـا، والـذي كان فتحًـا حضاريًّـا كبـيرًا غـيَّر شـكل العـالم بأكملـه..

سنوات مرت، حتى جاءت السنة التي نحكي عنها الآن.. 2118..

قلَّـت أعـداد العمالـة البشريـة الطبيعيـة بشـكل ملحـوظ، وبـدأ اسـتعمال كائنـات الجيـل الثالـث تجاريًّـا في مختلـف مجـالات العمـل.. أعـمال البنـاء والتشـييد، والمجـالات التـي كانـت تتطلـب قـوة بدنيـة عاليـة كانـت أكـبر الحقـول التـي تميَّـز فيهـا الجنـس الجديـد.. فقوتهـم البدنيـة العاليـة، وقدرتهـم عـلى تحمـل الظـروف الصعبـة كانـت تؤهلهـم لذلـك، وكان هـذا واحـدًا مـن الجوانـب الأساسـية التـي عمـل عليهـا فريقـي، بتمويـل مـن «جودويـن»..

عُرفـت الكائنـات الجديـدة عالميًـا باسـم الجيـل الثالـث أو اختصـارا G.E.N.III.. وكان بدايـة إدخالهـم في المجتمـع صعبًـا في البدايـة.. العديـد مـن المنظـمات الحقوقيـة والناشـطون الحقوقيـون أعلنـوا رفضهـم ومقاطعتهـم لعمليـات الإنتـاج التجاريـة لتلـك الكائنـات الجديـدة، وكانـت وجـوه اعتراضهـم الرئيسـية هـي المنـاداة بحقوقهـم الحضاريـة، ومسـاواتهم بالبـشر.. وهـو مـا لم يكـن واردًا تحـت أي ظـرف..

البـشر بطبعهـم كائنـات متعاليـة، ومغـرورة.. التخـلي عـن مبـادئ تجـارة الرقيـق البشريـين كان صعبًـا بمـا فيـه الكفايـة، وأفنـى فيـه إبراهـام لينكولـن عمـره كلـه..

ولهذا السبب كان الاعتراف بأي مساواة ممكنة بين تلك الكائنات وبين البشر غير مطروحٍ من الأساس.. فلأول مرة، كان البشر يمتلكون لعبة جديدة يلهون بها، وتساعدهم في تغيير قواعد الطبيعة ذاتها.. ولم يكن أحدهم مستعدًّا للتخلي عن شيء مثل هذا.. خصوصًا وأن القواعد الأخلاقية والمعنوية لم تكن تسري في مثل هذه الحالة..

كان التفكير السائد هو أن تلك المخلوقات وُجدت بفعل صنعنا نحن.. نحن ملاكها، ومغزاها كله في الوجود يجب أن يكون خدمتنا وطاعتنا غير المشروطة التي تصل لحد العبادة.. وكان هذا مفهومًا بالطبع.. هل فكرت يومًا في احتمالية أن يجيء عليك يوم ما تبتاع فيه جهاز كمبيوتر ذكي، ثم تعدَّه رفيقك في السكن، وأنه من واجبك أن تطهو له؟..

لم يكن الأمر مطروحًا للنقاش.. بل أُدخِلت مواد جديدة على القانون الدولي، لوضع قواعد تؤهل التجارة فيهم، وتقننها، في العقد الذي تلاه.. بجانب قوانين أخرى تنظم المعاملات اليومية لكائنات الجيل الثالث نفسها.. تلك القوانين التي أُدخِلت على الدستور الأمريكي American constitution، كانت تسمى (مبادرة الجيل الثالث الفيدرالية Federal G.E.N.III Act)، أو اختصارًا (FGA)..

حرم عليهم حمل السلاح والكلام بأي صفة مع البشر سوى بصفة دُنيا خاضعة.. بل حرم عليهم حتى الأكل أو الوقوف أو التطلع إلى البشر، أو الضحك معهم أو على ما يضحكون.. ولم يكن هذا حتى سوى ربع الشروط والقوانين التي وُضِعَت في الـ FGA..

قسوة الإنسان واستخفافه واستعباده للكائنات الحية الأقل منه، بلغت منحنيات جديدة في تلك الأوقات.. ولأول مرة صارت هناك مصطلحات مثل تاجر عُمال، وتاجر موظفين، وتاجر خدم.. بل صار هناك تجار عاهرات، وسوق كامل للدعارة يقوم على كائنات الجيل الثالث..

متاجر كاملة قامت في جميع مدن العالم، وصار تخصصها الرئيسي هو بيع

كائنـات الجيـل الثالـث كـما يُبـاع العبيـد بالضبـط..

العديـد مـن الجرائـم بداخـل أقسـام الشرطـة كانـت نتـاج عمليـات عنـف ضـد الجيـل الثالـث.. كل الأغنيـاء مـن المخموريـن والسـكارى والمرضى النفسـيين، وجـدوا غايتهـم في خدمهـم الجُـدد.. لم يكـن شـيئًا غريبًـا عـلى المجتمـع أن يبتـاع أحـد الأغنيـاء خادمًـا مـن الجيـل الثالـث، ويعذبـه بطـرق فريـدة مـن نوعهـا، حتـى يمـوت.. لم تكـن هنـاك عقوبـة أكـثر مـن غرامـة ماليـة بسـيطة، لم يكـن دفعهـا مشـكلة بالنسـبة لمـن يملـك ثـروة تؤهلـه لابتيـاع أحدهـم مـن الأسـاس؛ لأن سـعرهم كان غاليًـا فعـلًا..

بعـض مدمنـي الجنـس أيضًـا كانـوا يبتاعـون كائنـات الجيـل الجديـد، لمجـرد أن يسـتخدمونهم كدمـى جنسـية حيـة متفاعلـة.. كان السـوق بالفعـل يحـوي دمـى جنسـية ذات ذكاء اصطناعـي متطـور، وخامـات صناعيـة مماثلـة للأجسـاد الحقيقيـة.. ولكـنَّ متعـة أن تملـك جسـدًا حقيقيًّـا تفـرغ فيـه طاقتـك وشـهواتك الجنسـية التـي لا تجـرؤ عـلى ذكرهـا لنفسـك، كانـت أقـوى مـن الخيـال ذاتـه.. لم يكُـن هنـاك غرابـة في أن تسـمع عـن أن أحـد إنـاث الجيـل الجديـد قـد ماتـت تحـت وطـأة اغتصـاب صاحبهـا لهـا جنسـيًّا.. لم يكـن هنـاك عليـه حـرجٌ حتـى، بـل صـار التـصرف الطبيعـي لمـن يسـمع الخـبر هـو مـط شـفتيه، وسـب الشـبق الجنـسي الزائـد عنـد شـباب هـذه الأيـام.. كان النـاس يتلقـون خـبر مـوت أحـد تلـك الكائنـات، بنفـس اللامبـالاة التـي يتلقـون بهـا خـبر مـوت كلـب في الشـارع.. لم يكـن مـن المقبـول أن يعدهـم أحـدٌ كائنًـا حيًّـا يفكـر، مثـل الحـد الأدنى مـن العنايـة التـي كان يوليهـا القدمـاء للرقيـق؛ بـل كانـت مكانتهـم في المجتمـع مثـل مكانـة روبوتـات الخدمـة المنزليـة.. هـؤلاء فقـط أكـثر تطـورًا، يقـدرون عـلى الـكلام والحركـة الطبيعيـة.. هـذا كل شيء..

كانت هناك مسابقات ترفيهية كبرى مقننة أيضًا للمصارعة والصيد !..

بعـض العينـات مـن الجيـل الثالـث كانـت توضـع بداخـل أرض قفـر كـبرى مخصصـة للـصراع والصيـد، ثـم تسـند مهمـة اصطيادهـم وقتلهـم إلى متسـابقين

بشريـين مجهزيـن بأحـدث أنـواع الأسـلحة.. وكان الأمـر كلـه ترفيهيًّـا، تحـول إلى رياضـة كـبرى عالميـة ككـرة القـدم والتنـس، لهـا جوائـز ماليـة وكـؤوس، وتنقلهـا الصحـف الإخباريـة وأجهـزة التلفـاز.. حتـى ليذكـرك الأمـر برياضـة صيـد قبائـل البوشـمن التـي كانـت منتـشرة في وسـط إفريقيـا في بدايـات القـرن الماضي، قبـل أن تُمنـع وتُحـرَّم بعـد أن أوشـك البوشـمن عـلى الانقـراض..

لتلـك الدرجـة بلغـت القسـوة، واللامبـالاة.. درجـة لم أكـن أنـا نفـسي حتـى أتوقعهـا، وإن لم أكـن أمتلـك مشـكلة معهـا.. لم أخـسر دقائـق مـن وقـت نومـي بسـببها لـو كان هـذا مـا ظننتمـوه..

كل هـذا لم يكـن يعنينـي، في خضـم مـا كنـت أنـا أعمـل عليـه سِرًّا في معمـلي.. دون مسـاعدة مـن أحـد..

طلـب «جودويـن» منـي قبـلًا أن أصنـع شـيطانًا.. ولكنـه لم يكـن يتوقـع أننـي أعمـل عـلى الأمـر بالفعـل.. وإن لم يكـن مـا أنتجـه شـيطانًا بالمعنـى المفهـوم..

تفكيري كان متجهًا إلى نقطة معينة..

كل مـن صنعناهـم قبـلًا كانـوا كائنـات جديـدة، تمتلـك وعيًـا جديـدًا وليـدًا، يجعلهـم أشـبه بأطفـال جـاءوا للحيـاة للمـرة الأولى.. لكـن مـاذا لـو حاولنـا إعـادة تصنيـع كائنـات كانـت موجـودة في الحيـاة فعـلًا؟..

ما هو الموت على أيةِ حال؟..

هـو أن يتوقـف وعـي الكائـن، وتفكـيره عـن العمـل، وتمـوت خلايـا جسـده تمهيـدًا لأن تمـوت خلايـاه تمامًـا، ويعـود وعيـه مـرة أخـرى إلى الوعـي المُطلـق Absolute Consciousness الـذي افترضتـه نظريتـي سـابقًا..

جميل..

لكن ماذا لو لم تكن هذه هي النهاية؟..

(تأثير تاسـك Tusk Effect) كان يؤكـد قـدرة الملاحـظ عـلى حـث الاتصـال بـين المـخ البـشري والوعـي المُطلـق، لخلـق صـورة مـن البـث والاسـتقبال بـين الاثنـين..

كل هـذا كان يجـري مـن خـلال حـث بعـض الخلايـا المخيـة المُطعَّمـة بصـورة خاصـة مـن جزيئـات بوزنـر، في أماكـن معينـة مـن المـخ، بإشـارات كهربائيـة معينـة تُلقَّـن لمـا سـميناه بــ (آلـة الحـث Induction Machine)، التـي تُوصَّـل بالمـخ، وتقـوم بتلقينهـا معـادلات الحـث باسـتعمال برنامـج ريـاضي متطـور يعمـل عـلى أحـد حواسـيب الــ S.Q.C.U.3.0، ومـن ثـم ترجمتهـا إلى تلـك الإشـارات الكهربائيـة التـي تخلـق الاتصـال، ويتولـد بعدهـا الوعـي..

المشـكلة كانـت أن العمليـة عشـوائية تمامًـا.. الاسـتقبال لا يولـد وعيًـا معينًـا يمكـن اختيـاره.. لا يمكنـك مثـلًا أن تجلـس أمـام الشاشـة، وتضغـط عـلى بعـض المفاتيـح لتسـتدعي وعـي أدولـف هتلـر أو هوديـنـي.. الأمـر لا يعمـل بهـذه الطريقـة..

الوعـي المُطلـق يقـع عـلى مسـاحة افتراضيـة أكـبر مـن الكـون بأكملـه، وخـارج محيـط أو إطـار الكـون المعـروف، في بعـد أعـلى مـن ذاك الـذي يمكننـا اسـتيعابه.. وكل سـنتيمتر مربـع افـتراضي منـه يحـوي طاقـة صافيـة تكفـي لتكويـن الوعـي عنـد حـث الاتصـال بينهـا وبـين خلايـا المُـخ..

مـن غـير الممكـن عمليًّا تحديـد نوعيـة الطاقـة التـي يمكـن للمـخ الاتصـال بهـا، وحتـى لـو اسـتطعنا بمعجـزةٍ مـا تحقيـق ذلـك، فهـي لا تتعـدى كونهـا كـما وصفـت بالضبـط.. مجـرد طاقـة صافيـة.. لا يمكـن أن يتشـكل مـن خلالهـا وعـيٌ معـين، لكائـن كان يعيـش يومًـا مـا، ثـم تـوفي.. بـل هـي في حـد ذاتهـا الوعـي نفسـه.. وعنـد خلـق أي اتصـال بينهـا وبـين المُسـتقبل الأرضي هـا هنـا، فـإن الوعـي يتشـكل مـن جديـد، في صـورة معلومـات واعيـة لنفسـها Self-Aware، يمكنهـا التفكـير وبـدء تكويـن الخـبرات بنفسـها مـن الصفـر، دون تدخـل أو تلقـين مـن أي مؤثـر خارجـي..

باختصـار.. اسـتقبال وعـي معـين لشـخص معـين مـن الوعـي المُطلـق باسـتعمال تلـك التكنولوجيـا هـو شيءٌ مسـتحيل تمامًـا.. ليسـت هـذه جلسـة تحضـير أرواح.. المـوت هـو نهايـة كل شيء كان عليـه الشـخص، وعـودة الطاقـة التـي كانـت تكـوِّن

وعيه في ذاك المكان الآخر الذي يقع خارج حدود الكون لصورتها الطبيعية.. حتى ينتهي بها المطاف كوعي شخص آخر تمامًا يمكن لنا استقباله، لتبدأ الخبرات الحياتية له من الصفر..

أبحاثي على تكنولوجيا الحث Induction Technology، وتأثير تاسك استغرقت سنين عديدة حتى تمكنت من أن تتوصل لذلك الاستنتاج.. ومنها نبعت فكرة أخرى كانت تحمل أملًا بسيطًا في إمكانية التغلب على هذه العقبة..

ماذا لو لم يكن الوعي هو ما يجب أن نستقبله حتى يمكننا إحياء ذكريات الشخص الميت من جديد؟..

دعونا نفكر معًا..

الخبرات والتجارب الشخصية والذكريات وكل ما يكوِّن شخصية الشخص المُراد إعادة إنتاجه، هي نتاج عمليات تعلم ذاتي غير مُسبب، تُجرى من خلال الوعي، والذي هو بدوره عبارة عن طاقة معينة من المعلومات الواعية لنفسها Self-Aware، التي يمكنها أن تتعلم وتشكل الخبرات الحياتية للكائن، دون أي مُسبب خارجي..

جميل..

لكن ماذا عن تلك الخبرات، وتلك الذكريات التي تُشَكَّل في جسد الكائن؟.. أين تُخَزَّن؟.. هل هي معلومات غير مادية، تُسجل في صورة طاقة بداخل كيان الوعي ذاته، أم هي عبارة عن شفرات مادية، تُسجَّل في الحمض النووي للمخ؟..

ماذا لو كان المُخ هو أشبه بقرص صلب في جهاز كمبيوتر.. تُشفَّر كل المعلومات والخبرات والذكريات الشخصية التي يمر بها الكائن الحي في داخله؟..

تلك النظرة للمُخ موجودة بالفعل منذ أوائل القرن الماضي، والعديد من الأبحاث كانت تُجرى في معامل طبية وفيزيائية عديدة للوصول لفهم معين

لتلـك الفكـرة، بـلا نجـاح يذكـر..

لكنني لم أجرب هذا بعد..

سـمِّهِ غـرورًا أو تعاليًـا، ولكـن الحقيقـة تقـول إنـه لم يتمكـن عـالم واحـد في التاريـخ البـشري المُسـجل، مـن القيـام بمـا قمـت بـه، أو التفكـير فيـه والتوصـل إليـه حتـى.. نسـبة ذكائي كان الجميـع يحاولـون تخمينهـا بـلا نجـاح؛ لأننـي كنـت أرفـض رفضًـا قاطعًـا إجـراء تلـك التجـارب بصـورة عامـة؛ لكـوني لا أعـترف بنتائـج اختبـارات الـذكاء تلـك، أو مـا يسـمونها بالــ IQ.. برغـم أن درجـة ذكائي فيهـا كانـت تتفـوق عـلى أينشـتاين ذاتـه، كـما بينـت نتيجـة الاختبـار الـذي قمـت بـه وحـدي في معمـلي الخـاص..

ليسـت صدفـة أو ضربـة حـظ أن تقـوم الـشركات العالميـة الأربعـة، أو مـا نعرفهـم باسـم العظـماء الأربعـة Four Giants، بتخصيـص جائـزة خاصـة لي، تُمنَـح لي بصفـة اسـتثنائية، كأول عـالم في التاريـخ يحـوز عليهـا.. هـي جائـزة العظـماء الأربعـة للعلـوم والتكنولوجيـا Four Giants Science and Technology Prize.. أو اختصـارا، جائـزة ال (فيجسـتيب F.G.S.T.P)

كل هـذا لم يكـن صدفـة، بـل هـو عـن اسـتحقاق.. مهـما كانـت ظنونـك التـي تعتقدهـا بداخـل نفسـك، يمكنـك أن تضعهـا بداخـل المنطقـة التـي لا تـشرق فيهـا الشـمس.. ولـن أبـذل مجهـود قطعتـين مـن الـروث تفكـيرًا في رأيـك..

لذلـك السـبب، ولطمـوح خـاص بداخـلي، وهـدف كنـت أسـعى إليـه وشـكلت غايتـي نحـوه بدايـة أبحـاثي بأكملهـا؛ قـررت إجـراء تجـاربي عـلى الأجسـام الحيـة الحقيقيـة.. وليسـت المصنعـة..

أجساد الموتى..

***

(الجزء القادم غير مُدَوَّن بمذكِّرات تاسك)

الصمت..

ضـوء خافـت يغلـف جـدران المعمـل اللامعـة، وينعكـس عنهـا في إنسـيابية ليغلـف الموجـودات ببريـق ضئيـل يزيـد الخيـالات الشـاطحة جموحـًا..

موسـيقى خافتـة تنبعـث مـن الجـدران ذاتهـا.. بالتأكيـد هنـاك سـماعات مُدمَجة بداخلهـا، حفظًـا لشـكلها الأملـس الأنيق..

تلـك النغـمات الكلاسـيكية لموسـيقى شـوبن، تريـح الأعصـاب وترسـم صـورة راقيـة لمـا يفعلـه ذلـك الـذي يجلـس أمـام شاشـة جهـاز الكمبيوتـر الكمـي المتطـور..

أشـيب الشـعر ناعمـهُ ناصعُـه، ولـه لحيـة خفيفـة بيضـاء تغلـف وجهـه الأملـس فتكسـبه ضيًّـا يكسـوه كالنـور.. يبـدو شـكل الاثنـين مصبوغًـا، لا يملـك لمسـة الألـوان الطبيعيـة.. يرتـدي حلـة كلاسـيكية رماديـة اللـون داكنـة، تتـدلى مـن جيبهـا سلسـلة ذهبيـة لامعـة، وتتصـل بجيـبٍ آخـر.. وفـوق حلتـه معطـف طبـي أبيـض اللـون، يعلـوه شـعار «جينيسـيس» الأنيـق..

عويناتـه ذات الإطـار المذهـب تعكـس شـعيعات الضـوء الخافـت الآتِ مـن اللامـكان، وهـي توجـه عينيـه نحـو ذلـك الجسـد المسجى عـلى المنضـدة الطبيـة الميكانيكيـة في منتصـف المعمـل الواسـع..

ينظـر للجسـد مليًّـا، ثـم تداعـب أصابعـه مجسـات لوحـة المفاتيـح الهولوجرامية، لترتسـم معـادلات الحـث، وتباديلهـا وتوافيقهـا التـي تتغـير ملايـين المـرات في كل جـزءٍ مـن ثانيـةٍ تمـضي..

ينظـر إلى الجسـد بـين الفينـة والأخـرى، وهـو ينتظـر حـدوث شيءٍ مـا.. لا وسـيلة لديـه تمكنـه مـن أن يعـرف الوقـت الـذي سيسـتغرقه الأمـر.. ربمـا كانـت دقائـق أو دهـور.. لا يفقـه..

أفكاره وذكرياته تطير حول رأسه، حتى لتوشك على أن تكون مسموعة..

هـل سـينجح؟.. هـل سـينهض الجسـد، ويتذكـر هويتـه ومـن كانـه قبـل أن يسـتكين في وضعـه الأخـير؟..

هل سينجح في كسر القواعد، وهزيمة الموت ذاته؟..

يشـعر برهبـة عارمـة، وقلـق خفـي يتغلـف جسـده، ويجـري فـوق سـاعده، ويزحـف عـلى ظهـره، فيرتجـف.. ربمـا نشـوةٌ، أو ربمـا هـي الإثـارة..

هل يريده أن ينهض فعلًا؟.. هل يريد أن ينجح، أم هو يتمنى الفشل؟..

العـالم كلـه يعـرف أن والـدهُ «ويليـام تاسـك» قـد تـوفى بالفعـل، وأنـه لم يحـضر جنازتـه ودفنـه لسـبب غـير مفهـوم ولا يتخيلـه أحـد.. يعرفـون أنـه يقبـع في مثـواه النهـائي تحـت شـاهد القـبر الأنيـق، في مقابـر لنـدن الفاخـرة.. العـالم كلـه يعـرف أن الجسـد الـذي أعطـى الحيـاة لأعظـم علـماء التاريـخ، يرقـد حاليًـا تحـت الـتراب، فهـل سـيتقبلون أن يعـود مـن داخـل أروقـة معملـه؟..

هـل سـيتقبل هـو؟.. بعـد كل ذكرياتـه المظلمـة، الـذي جاهـد كثـيرًا لأن يكبحهـا، ويسـجنها بداخـل أروقـة عقلـه، هـل فعـلًا هـو يتمنـى أن ينجـح؟.. ومـا الـذي يتمنـى أن يثبتـه لنفسـه؟..

لربمـا كان مـراده هـو أن يعـرف الجميـع مـن هـو الـرب الحقيقـي.. مـن هـو الإلـه.. خصوصًـا هـو؛ في رقـاده أمامـه بـلا قـدرةٍ أو حيلـة.. بـلا إرادة.. ذاك الـذي كان يسـمي نفسـه والـده، ويظـن أن ذاك يمنحـه حقًّـا في سـلبه حريتـه وفكـرُه، والحيـاة ذاتهـا، كـما أعطاهـا لـه..

ربمـا أراده أن يسـتيقظ، فقـط ليذكـره بمـا فعلـه، ومـا اقترفـه.. ليرقـب النظـرة التـي سترتسـم عـلى عينيـه، وهـو يـرى الحقيقـة أخـيرًا.. ليبصـق عـلى وجهـه البغيـض، قبـل أن يخنقـه بيـده ليعيـده لموتـه مـن جديـد، بعـد حيـاة جـاءت تلـو مـوتٍ قديـم..

ربمـا هـي رهبـة المجهـول، وخيفـة القـادم.. خشـية المسـتقبل، والحقيقـة التـي يحملهـا..

يتذكـر تلـك القصـة القديمـة التـي قرأهـا عـن العالِـم العبقـرى «فرانكنشـتاين Frankenstein» الـذي جـرب مـا يفعلـه هـو الآن بالضبـط، ولكـن بمقاييـس

العصـور البدائيـة.. مؤلِّفَـة مـاري شـيلي المرعبـة التـي ظنهـا الكثـيرون ضربًـا مـن الخيـال الجامـح.. لم يكـن أحدهـم يملـك فكـرة عـمَّا سـتحمله إليهـم السـنون، بعـد قرنـين فقـط مـن التطـور والبحـث العلمـي..

هـل سـينجح؟.. هـل سـينهض الجسـد كـما نهـض مـن قبلـه وحـش فرانكنشـاين الـكاسر ذو الأعضـاء المجمعـة، ويعلـن عـن هزيمتـه للمـوت، وكـسر قواعـد الحيـاة ذاتهـا؟.. هـل هـو عـلى وشـك أن يعـبر الخـط الفاصـل بـين نهايـة الحيـاة، وبدايـة المـوت، ويمسـحه تمامًـا كأنمـا لم يكـن؟..

ربمـا كانـت هـذه هـي لحظـة الحقيقـة.. أسـطورته وتركتـه للأجيـال القادمـة، التـي سـتفوق مـا قدمـه بالفعـل، وغايتـه التـي سـيثبت بهـا أنـه كان محقًّـا منـذ البدايـة، وأنـه لم يكـن يسـتحق كل مـا حـدث لـه، وكل مـا عانتـه نفسـه، وانحفـر فيهـا بـلا زوال..

كل مـا لم يعرفـه أحـد عنـه يومًـا، ولم يحكِـه هـو.. لم يجـسر حتـى عـلى أن يذكـره لنفسـه سرًّا، في وحدتـه القفـر..

لربمـا قـد جُـن تمامًـا.. أو ربمـا فقـط يملـك غـرورًا لا متناهيًـا صـوَّر لـه أنـه ليـس أقـل مـن القديـر ذاتـه.. فبعـد كل شيء، مـا الـذي يتفـوق بـه القديـر عليـه هـو؟..

القديـر يخلـق، وهـو يخلـق.. القديـر يُحيـي وهـو يُحيـي.. القديـر يأخـذ وهـو يأخـذ.. يعطـي، وهـو يعطـي مثلـه..

الـرب يميـت، وهـو يميـت كـماهُ.. يقتـل، وهـو القاتـل الأوحـد.. هـو الأعظـم، الـذي لم يجـئ مثلـه قبـلًا.. يجلـس أمـام جثـة فرغـت منهـا الحيـاة، ويحـاول أن يجعلهـا تنهـض مـن جديـد..

جثـة تفتـح عيونهـا، وتصـدر حشرجـة خافتـة، جعلتـه ينهـض مـن مكانـه، وهـو ينظـر إليهـا وهـي مُسجاةٌ في موضعهـا، لا تقـوى عـلى الحـراك..

نظـرة منـه إلى شاشـة كمبيوتـر التحاليـل والبيانـات في الركـن تكفـي لأن يعـرف أن المـخ يعمـل بكامـل طاقتـه وكفاءتـه.. يصـدر إشـاراته لباقـي الأعضـاء، لتتحـرك وتقـوم بوظائفهـا الأزليـة..

يقترب من الجسد.. ينظر إليه.. يسأله عن اسمه.. وما يُجيب..

يسأله لو كان يتذكر، ويرفع الصور الفوتوغرافية أمامه، ترسم وجوه هؤلاء الذين كانوا سلالةً له، وكانوا أبناءه، وما من إجابة..

يستدير في مكانه.. يتوجه إلى حاسوب البيانات والقياس، ويحاول أن يقارن ردود فعل الجسد الذي تنظر عيونه إلى الصور.. الجسد الذي ما زال يصدر حشرجته الخافتة، غير قادر على الكلام أو تحريك أجزائه..

لا تغيير.. خط ثابت من الانفعالات لا يتحرك من مكانه قيد أنملة..

يستدير، ويقترب في خطًى مترددة..

- «هل تعرف اسمك؟..»

ولا جواب هنالك.. لا انفعال، أو كلمات..

- «أجب عن السؤال.. هل تسمعني؟»

لا انفعال، أو لمحة تدل على فهمٍ أو استيعاب.. العيون الخاوية تتطلع إليه، تعلوها حيرة غير مفتعلة.. كأنه وليد لا يعرف ماهية البكاء، فلا تنم منه سوى حشرجات خافتة، هي صدى صرخات مجيئه إلى العالم من جديد، بغير معرفة أو غاية.. وبلا عِلم..

ثم صوت الصفير الذي يصدر من الأجهزة الموصولة إليه.. الوظائف الحيوية تهوي إلى القاع، والخط الثابت المتصل يرتسم على الشاشات، متبوعًا بالصفير الثابت الذي يستمر بلا توقف، بلا استجابة لمحاولات انعاشه..

والعيون..

العيون التي ما زالت تدور في محاجرها في حيرة، وبلا فهم.. برغم أن القلب قد توقف وسقطت الوظائف الحيوية أجمعها، ما زالت تبحث عن الاستيعاب، وعن غايتها..

تتركز عليه وهو يقف أمام الشاشة، وهو يحدق في شاشة جهاز القياس، الذي يرسم وظائف المخ التي ما زالت تعمل بكامل طاقتها، برغم موت باقي الجسد من جديد..

سطر البيانات ما خلا يرتسم على شاشة الكمبيوتر الكمي، وينقل بيانات آلة الحث التي ما زالت تؤدي وظيفتها في إحياءِ مُخٍّ بلا جسد، وبلا هوية..

فقط حشرجات وعيون خاوية، دوارة..

ثم يستدير..

يتجه نحو مكتبه، ليفتح أحد الأدراج، ويمد يده بداخله في هدوء، لم يخفِ الانفعال الذي غلف أصابعه التي ارتجفت ناقلةً توجسه إلى محيط المكان.. ربما كان بإمكانك أن تشم رائحة الأدرينالين المتزايدة في الجو، وهو يخرج يده من الدرج حاملةً ذلك المسدس الصغير..

رائحة الخوف.. الخوف الذي لا تدري له سببًا، ولا يجدي معه تعقل أو روية.. خوف المجهول، وغير المطروق، ورهبته..

بخطوات لا تُشع ثباتًا يتقدم، فكأنما في تقدمه نحو الجسد الساكن تقهقرٌ وتردد، كأنه يقترب من كابوس الأبدية.. من خوفه الخاص، وعقدته التي تجسدت في كل جزءٍ من المشهد، وهو يحدق إليه مباشرة..

يحدق بداخل عيونه الخاوية وهي تدور بلا فهمٍ أو استيعاب، ويتملى فيها، فكأنما هو ينغمس بداخل أفكاره وخيالاته الخاصة، وذكرياته..

ذكرياته مع الحروق، والدماء والجروح الخفية التي لا يلحظها أحد.. مع العذاب، ومُنَى الموت ذاته هربًا من مشاعره وعُقَدِه، بلا تمكن..

ذكرياته التي صنعت بداخله كل المقت، وكل البغض الذي حمله نحوه لسنين، وما زال يحمله نحو كل ما هو سامٍ أو مقدس..

ذكرياته التي تحدق إليه من داخل العيون الخاوية، وتعكس لمعة معدن المسدس الذي يرتفع في الهواء صوبها، ويستكين بينما تتراقص السبابة على زناده، فلا تفقه إن كان ذاك الذي يدفعها لأن تعتصره وجلًا أو بغضاء..

وعلى نغمات شوبن تدوي الطلقة، لتتناثر الدماء القانية على الجدران التي لم تعد أنيقة..

***

-١٠-

(من مذكرات إدوارد تاسك التي لم يعثر عليها أبدًا)

لم تنجح المحاولة..

حاولت مرارًا وتكرارًا، ولكن شيئًا لم يكن ينجح.. وكان الأمر ينتهي دومًا برصاصة في الرأس الذي ما زال طازجًا، لم ينضج بعد..

إعادة الموتى مستحيلة تمامًا.. هذا ما اكتشفته بالطريقة الصعبة، بعد كل التجارب التي قمت بها خلال فترة تقارب السنتين.. مهما قالت روايات الخيال العلمي القديمة، أو أساطير الأديان السحيقة، عن المسيح الذي يضرب على الموتى فيعودون، كنت متأكدًا أن هذا هراء..

لم يكن الأمر ممكنًا أو قابلًا حتى للتحقيق بصورة علمية.. هل يمكنك أن تتخيل صعوبة أن تنتقي معلومة معينة في صورة طاقة، وتستقبلها من كون آخر، وبُعدٍ أعلى، من وسط عدد لا نهائي من وحدات الطاقة المشابهة الموزعة في كل سنتيمتر مربع من ذاك الكون الأعظم؟..

وحتى لو تمكنت من هذا.. فسيظل الأمر دومًا كما هو بالضبط.. مجرد طاقة تستقبلها لتصنع شرارة الوعي المُفكر الواعي لوجوده.. لا يمكن أن تستقبل الذكريات والخبرات الخاصة بالشخص الذي تريد إعادته مهما حاولت.. فحتى تلك لم تكن هناك طريقة معروفة لإعادة فك شفراتها.. وحتى لو تم ذلك، لم يكن ذلك يعني أكثر من قدرة على رؤية الذكريات وليس أكثر.. أما الخبرات والوعي المتكون بناءً على التجربة الناتجة من خوض تلك الذكريات، فهو قد ذهب إلى غير رجعة..

سبَّب لي هذا إحباطًا شديدًا.. فبعد بحث دام أكثر من سنتين، لم أكن أقرب

مـما بـدأت.. وبـدا الأمـر كـما لـو أن مسـيرتي قـد توقفـت عنـد نقطـة معينـة.. لم أكـن أفعـل شـيئًا طـوال اليـوم سـوى الجلـوس أمـام شاشـات الحديقـة، ومراقبـة «آدم» و«إيـف» وهـما يعيشـان حياتهـما بـلا أدنى فكـرة عـمَّا يـدور في العـالم الخارجـي..

لا يفقهـان أي شيء عـن العـالم الـذي يقـع خلـف أسـوار تلـك الحديقـة الكـبرى، التـي يظنانهـا جنتهـما، وبيتهـما الأبـدي.. لا يعرفـان أن هنـاك مخلوقـات أخـرى، وعالمًـا كامـلًا يـدور في الخـارج.. كل مـا يعرفـاه هـو أنهـما هنـا، لأن ربهـما أراد أن يكونـا هنـا..

تأمُـل منظورهـما للحيـاة والوجـود، كان دومًـا يثـير الخيـال والإلهـام، وكان ممتعًـا دومًـا..

هـل كان البـشر يومًـا مـا في نفـس موضعهـما هنـا؟.. هـل يمكـن أن نكـون نحـن أيضًـا نتـاج كائنـات ذكيـة عظمـى جـاءت قبلنـا، وأوجدتنـا لتسـخرنا خدمـةً لهـم وطاعـة، وعبـادةً عميـاء؟..

التفكير في كل هذا كان يدمي الرؤوس، ويورث صداعًا لا نهاية له..

ولكنه كان يغنيني عن ذكريات أخرى أكثر ظلمة..

***

(قبل زمنٍ طويل)

تعالـوا لنتصـور معًـا أن المشـهد الـذي نحـن عـلى وشـك أن نحكيـه، هـو مشـهد بداخـل فيلـم سـينمائي..

الإضـاءة الخافتـة.. الشـموع التـي تصـدر لهيبًـا برتقـالي اللـون باهتُـه، تتراقـص الظـلال المتولـدة مـن صـد الموجـودات لوهجـه، عـلى الجـدران..

الغرفـة الصغـيرة المقبضـة التـي تحتـل القبـو.. تحـوي أدواتٍ حديديـة كثـيرة

مقبضة الشكل، تبدو كما لو كانت قد خرجت من صفحات كتب التاريخ رأسًا.. منظر الأقفاص الحديدية، والسلاسل المعدنية، والأصفاد المعلقة في السقف يثير في النفسِ توجسًا لا يزول..

وهج اللهيب الخافت على موجودات الغرفة المقبضة، يمتزج مع الأنين الخافت الذي يصدر من الركن؛ حيث البقعة المظلمة، ويرسم في الخيال صورة سجون محاكم التفتيش الإسبانية، في القرون الوسطى..

ولكن من أين يأتي الأنين؟..

صوته خافت، يبدو كما لو كان مصدره شخصًا يحتضر، أو لا يقوى على التقاط أنفاسه ليئن، أو يتأوه..

تعالَ معي لنقترب من تلك البقعة المظلمة.. التقط تلك الشمعة الطويلة من جوارك، وارفعها عاليًا لتشع نورها بداخل ذاك الركن، لتقشع سواده، وتملأه ضيًا.. فعندها، سنرى ذلك الجسد الصغير الذي يتكوم على نفسه كقطة وليدة في مهبِّ عاصفة، وينتحب نحيبًا خافتًا، ودموعه تغرق ما حوله..

منظره الضعيف يلقي الرعب في نفسك.. يشعرك بنفس ما تحسه عندما ترقب قطة تحتضر.. شعور الرهبة ذاك الذي لا تدري له سببًا، أمام خطر تعرف أنه بإمكانك التغلب عليه بسهولة.. الخوف غير المبرر من المجهول..

خذ عندك على سبيل المثال، ذلك الرعب الغريب الذي تولد في نفسك وأنت تسمع صوت الخطوات الثقيلة التي تهبط على الدرج، قادمة نحو الباب الخشبي الثقيل المطعم بالحديد..

تلك الرجفة التي شعرتها في جسد الطفل الذي اعتدل في مكانه فجأة، والتصق بالحائط أكثر كأنه يريد أن يخترقه نحو الناحية الأخرى، هربًا من شيءٍ ما لا تعرفه، ولكنك تخشاه كالجحيم.. المجهول دومًا هو أكثر رعبًا من أعتى وحوش العالم.. فالخيال هو السيد، وهو المنتصر دومًا في معركة الحقيقة..

تعـالَ معـي.. تعـالَ، واتبعنـي نحـو الركـن، لنختبـئ خلـف تلـك المنضـدة الثقيلة، ونطفـئ الشـمعة حتـى لا يرانـا أحد..

فلننظـر معًـا عـبر حافـة المنضـدة، نحـو البـاب الـذي تعبـث في مقبضـه سلسـلة المفاتيـح الرنانـة، ثـم ينفتـح كاشـفًا عـن ذلـك الشـخص الطويـل، قـوي البنيـة، الـذي يدلـف إلى الداخـل بنفـس خطواتـه الثقيلـة.. كأنـه يتعمدهـا لتلقـي الرعـب في قلـوب سـجنائه..

اخفـض رأسـك لئـلا يـراك.. ودعـه يقـترب مـن الطفـل الصغـير، الـذي تراجـع في التصاقـه بالحائـط، حتـى ليوشـك أن يمتـزج بـه.. يرتجـف كورقـة مبتلـة، وسـط زمهريـر مـن الأمطـار الثقيلـة..

الرجـل يقـف أمامـه تمامًـا، وينظـر لـه لحظـات.. لا يتكلـم.. فقـط أنفاسـه الثقيلـة هـي التـي تطغـى عـلى المشـهد، فتنقـل القلـق لأعـماق فـؤادك..

ثـم ينحنـي.. يجلـس عـلى ركبـة واحـدة، وهـو يمسـح وجنـة الطفـل، الـذي مـا زال ينظـر لـه متوسـلًا، وقـد بـدأت عـبرات الخـوف في الجريـان عـلى وجنتيـه، كأنهـا أنهـار مالحـة نبعـت مـن بحـيرة ذعـر لا تجـف..

لسـانه الصغـير يتحـرك، ومعـه شـفتاه التـي تُخـرج الكلـمات مرتجفـة، لا توشـك عـلى سـماعها وسـط نحيبـه:

- «أبي.. أنا آسف.. لم أقصد هذا..»

والرجـل مـا زال يربـت عـلى وجنتـه، ويمسـح دموعـه بإبهامـه في رفـق بـلا كلـمات..

- «لن أفعلها مجددًا.. أنا آسـ..»

قطعـت كلماتـه تلـك الصفعـة الثقيلـة التـي نالهـا مـن كـف الرجـل.. فتطايـرت دموعـه عـلى الحوائـط، وامتـزج مخـاط نحيبـه بثنايـا وجهـه المحمـر.. ولمـا أوشـك عـلى الـكلام، نـال صفعـة أخـرى عقـدت الكلـمات في حلقـه..

حتـى الـصراخ لم يجـرؤ عليـه، وسـط مشـهد الرجـل الـذي يضـع إصبعـه السـبابة

أمـام شـفتيه، وهـو يشـير لـه بالصمـت..

- «ششششششش..»

فصمت.. صمت تمامًا، بينما تكلم هو، بصوته المميز الرنان:

- «حذرتـك مـن قبـل.. حذرتـك مـرارًا وتكـرارًا، أن لا تنجـرف وراء مـا يفعلـه أصدقـاؤك.. حذرتـك كثـيرًا، وكان جـزائي أن أجـد هـذا..»

ورفـع يـده الأخـرى أمـام وجهـه وهـي تحمـل مظروفًـا بدائيًّـا، أخـرج مـن داخلـه ورقـة صغـيرة، وشرع يقـرأ ذاك الـذي كُتِـبَ فيهـا بخـطٍّ طفـولي لا يُقـرأ:

- «عزيـزتي جانيـت.. كان اليـوم رائعًـا، ولم أحـظ بمتعـةٍ كتلـك مـن قبـل.. شـفتاكِ هـي أعـذبُ شيءٍ تذوقتـه في حيـاتي.. أتطلـع قِدمًـا لليـوم الـذي سـألقاكِ فيـه مجـددًا، بعيـدًا عـن الجميـع..»

انظـر معـي بحـرصٍ مـن خـلال ذلـك الشـق الصغـير الـذي يحويـه هيـكل المنضـدة، وتطلـع إلى النظـرة التـي تبـدت عـلى وجـه الطفـل، بينـما الأب يتابـع وهـو ينظـر إلى عينيـه مبـاشرة:

- «بإخلاص.. لويس..»

أعقب عبارته صمتًا ثقيلًا دام لحظات، ثم تابع:

- «هـل تعـرف قـدر الذنـوب التـي تتحملهـا، عندمـا تُقبِّـل فتـاة ليسـت زوجتـك؟..»

لم يـرد الطفـل، وظـل عـلى تسـمره نفسـه، وتصلـب جسـده تمامًـا، فأضحـت قسـماته بـلا اختلاجـاتٍ حتـى أو تعابـير.. حتـى الدمـوع تجمـدت تمامًـا، وتسـارعت نبضـات قلبـه حتـى أوشـكت عـلى أن تصـير مسـموعة..

سأله الأب مجددًا:

- «هل تعرف؟..»

هـز الطفـل رأسـه علامـة النفـي، فصمـت الأب لحظـة حـك فيهـا أنفـه بسـبابته وإبهامـة، ثـم ناولـه صفعـة جديـدة بحركـة مفاجئـة، فجـرت دموعـه ومشـاعره

مـن جديـد..

ولكـن دعـك مـن هـذا الآن.. هـل شـعرت بتلـك الحركـة العصبيـة المذعـورة في الركـن الآخـر، التـي وقعـت بعـد الصفعـة؟.. مـا هـذا بالضبـط؟..

انظـر معـي.. انظـر، ودقـق نظراتـك جيـدًا لتتغلـب عـلى الظـلام الـذي يسـتولي عـلى جنبـات الغرفـة.. هـل تـرى؟..

هـل تـرى ذلـك القفـص الحديـدي الصغـير؟.. يحـوي بداخلـه طفـل آخـر، يبـدو سـنه أكـبر نسـبيًّا.. ربمـا هـو في العـاشرة.. يقـف متسـمرًا، ينظـر للمشـهد وهـو يمسـك القضبـان الحديديـة بكفيـه الصغيريـن، تتألـق فـوق عينيـه التماعـة لهيـب الشـموع، وتتـلألأ دموعـه عـلى وجنتيـه بـلا صـوت، وهـو يحـدِّق فيـما يـدور بـلا حيلـة، وخوفـه يتبـدى جليًّـا في جسـده المرتجـف..

مَن هذا بالضبط؟..

الأب يصرخ في وجه الطفل الآخر، وهو ما زال يصفعه..

- «بـل أنـت تعـرف.. تعـرف لأننـي قـد لقنتـك الإنجيـل أكـثر مـن ثـلاث مـرات.. وقلـت لـك بوضـوح مـا هـي المحرمـات التـي يجـب عليـك أن لا تقربهـا أو تفعلهـا.. وكان هـذا هـو أول شيء تفعلـه خلـف ظهـري..»

الطفـل لم يعـد يقـدر عـلى الـكلام أو البـكاء.. يجاهـد لأن يلتقـط أنفاسـه تحـت وطـأة الصفعـات واللطـمات، بينـما الأب ينهـال عليـه بقبضتـه بـلا توقـف.. مسـتهدفًا مواضـع معينـة في جسـده، لا تظهـر معهـا الكدمـات..

- «ولكننـي سـأعرف كيـف أذيقـك العـذاب الحقيقـي، لـكي لا تكـون سـببًا في تلويـث اسـمي، ودخـولي الجحيـم.. بطريقـة أو بأخـرى، سـتعرف، وسـتتعلم..»

ثم نهض واقفًا، وقال وهو يلهث:

- «كل حـرفٍ خطتـه أناملـك عـلى تلـك الورقـة، سـتتلقى معـه لسـعة مـن اللهـب، ربمـا ذكَّرَتْـك بمـا ينتظـرك بعـد المـوت، لـو داومـت عـلى مـا فعلتـه..»

ثـم التفـت إلى مـا هـو خلفـه، ليتطلـع إلى القفـص الحديـدي الصغـير الـذي يقبـع

بداخلـه الطفـل الآخـر، وهـو يمسح فمـه بكفـه، وتقـدم صوبـه في بطء..

اخفـض رأسـك لئـلا يرانـا، واسـتمع معـي إلى خطواتـه الثقيلـة وهـو يقـترب مـن القفـص، بينـما الطفـل في داخلـه يتراجـع بحركـة عصبيـة مذعـورة، ويتعـثر ليسـقط عـلى ظهـره ويديـه، ويزحـف إلى الخلـف، حتـى يلمـس ظهـره القضبـان..

- «أما أنت، فحسابك عسير..»

الطفـل صامـت تمامًـا.. لا يسـتجديه، ولا يتكلـم، ولكـن يتطلـع إليـه بـلا تعبـير.. كأنـه يعـرف أنـه ليـس هنـاك جـدوى لتوسـلاته، أو التـضرع..

- «زجاجـة النبيـذ الخاصـة بي قـد نقصـت، وأعـرف أن تلـك الرشـفات كانـت بفعلـك أنـت.. يمكننـي أن أشـم رائحتهـا في أنفاسـك..»

مـا زال لا يتكلـم، ونحيـب الطفـل الآت مـن الركـن الآخـر يتعـالى، بينـما يقـول الأب:

- «أعـرف مـا تفعلـه في أوقـات فراغـك، وأعـرف أنـك لا تقـرأ في الإنجيـل كـما قلـت لـك، وأنـك تعـدُّ الأمـر كلـه هـراءً.. أعـرف ذاك، وكنـت أتمنـى أن تتغـير بنفسـك، ولكنـه مـن الواضـح أن الأمـر يسـتدعي تدخـلًا منـي، ربمـا تحولـت إلى مدمـن أو مطـرب روك، لـو لم يحـدث..»

لم يــرد الطفــل، فأمســك الأب القضبــان بكفيــه وهــو يميــل برأســه بينهــما، متابعًــا:

- «صدقنـي يـا إدوارد.. أنـا لا أحـب مـا أفعلـه بكـما.. ولكنكـما عنيـدان.. كل مـا أردتـه يومًـا هـو مصلحتكـما.. كل مـا أتمنـاه هـو أن لا يجـيء يـوم الحسـاب، وتجـدا أنفسـكما في قـاعِ حفـرةٍ مـن جحيـمٍ مسـتعر.. ليـس هـذا مـا أريـده لكـما.. ولـو أطعتـماني صدقًـا وإيمانًـا، وليـس كذبًـا وتزويـرًا كـما عهدتمـا، لتوقـف هـذا كلـه..»

ثـم اسـتدار نحـو الآخـر، وتقـدم خطوتـين ليقـف في منتصـف الغرفـة، وهـو يقـول بنبراتـه الموجسـة:

- «أنتـما الاثنـان سـتغدوان كـما أتمنـى، وسـتكبران لتصـيران مـا أريدكـما أن

تصيرانـه.. لـن أسـمح أبـدًا أن لا تُطـاع تعاليـم السـيد المسـيح في هـذا المنـزل، ولا أن نخـرج عـن نصوصـه.. فتلـك التعاليـم هـي قواعدنـا التـي ليسـت سـواها قاعـدة..»

ثـم اسـتدار نحـو المنضـدة التـي نختبـئ خلفهـا، وأردف وهـو يعبـث في الأدوات المعدنيـة القديمـة التـي تحملهـا، فيمتـزج صـوت رنينهـا بنبراتـه الهادئـة، ليضفـي عـلى المشـهد طابعًـا موحشًـا، مقبـض الشـكل والأصـوات:

- «فليكن لكما فيما سيحدث الآن عبرة..»

واسـتدار نحـو الطفـل الأصغـر، الـذي عرفنـا أن اسـمه «لويـس»، وتقـدم صوبـه وسـط صراخـه المذعـور..

يجب أن نخرج من هنا..

***

-١١-

من أنا فعلًا؟..

لمـاذا أفعـل كل مـا أفعلـه، ومـا هـو هـدفي الخفـي منـه؟.. ذلـك الـذي أيقـن «جودويـن» مـن وجـوده، وإن لم يعـرف ماهيتـه أو كنهـه بعـد كل بحثـه وتنقيبـه في خلفيتـي الشـخصية والاجتماعيـة..

ربمـا قـد جـاء الوقـت الآن لأواجـه نفسـي بالحقيقـة.. أواجهكـم أنتـم، لـو كنـت تقـرأون مذكـراتي هـذه، وتتسـاءلون..

الحقيقـة هـي أن حيـاتي بأكملهـا كرسـتها لهـدف واحـد فقـط.. كل مـا جـاء خلالهـا، وكل مـا وصلـت إليـه هـو محاولتـي الخاصـة لأن أصـل لهـذا الهـدف، وأثبتـه للجميـع.. وخصوصًـا لـه هـو، حتـى وإن لم يكـن موجـودًا..

أبي..

أبي الذي يعرفه العالم بإسم ويليام تاسك..

أبي كان هـو السـبب الـذي مـن أجلـه تركـت كل شيءٍ في عالمـي، وهـو السـبب الرئيـسي الـذي جعلنـي أتـرك (إيـورو - كـورب) بأكملهـا، وأقـرر الذهـاب إلى (جينيسـيس)..

كان كاثوليكيًّـا متدينًـا، متشـددًا لدرجـة التطـرف.. وكان لديـه ولـع شـديد بـكل مـا يتعلـق بالجحيـم والجنـة، والملائكـة والشـياطين، وعـذاب المخطئـين عـلى الأخـص.. وبالطبـع كان يعشـق الكوميديـا الإلهيـة لدانتـي، ويـرى أنهـا أعظـم عمـل كُتِـبَ في التاريـخ، بعـد الإنجيـل..

في صغرنـا، كان يتفنـن في تعذيبنـا باسـم الديـن.. كان يعتقـد أنـه يحمينـا مـن الجحيـم، ويكفـر عنَّـا سـيئاتنا، مـن خـلال الطريقـة التـي يعذبنـا بهـا، تمامًـا كـما ضحـى السـيد المسـيح بنفسـه؛ لينقـذ البشريـة بأكملهـا ويكفـر عنهـا خطاياهـا..

وكـما كان يـرى بـين صفحـات جحيـم دانتـي..

كان يعمـل ضابـطَ اسـتجواب في الاسـتخبارات البريطانيـة MI6 في الزمـن القديـم، قبـل الانهيـار الفيـدرالي وتكويـن (إيـورو - كـورب)، وكان مدربًـا عـلى أفضـل طـرق التعذيـب التـي لا تـترك آثـارًا ممتـدة الأجـل في الجسـد.. كان فنانًـا حقًّـا، يجيـد صنعتـه، وكان يعـرف كيـف يجعلنـا أنـا وأخـي الأصغـر نسـتكين ونستسـلم تمامًـا، ونطيـع أوامـره صاغريـن، لـكي نتفـادى المزيـد مـن الألم الـذي لا يُحتمـل..

مـا كان يُطبقـه علينـا وقتهـا، وفهمتـه أنـا بعـد ذلـك، هـو أن يعدنـا ويكـوِّن شـخصياتنا بطريقـة الثـواب والعقـاب.. بالضبـط كـما يفعـل مدربـو الحيوانـات المفترسـة.. إلا أن طريقتـه لم تكـن تحـوي ثوابًـا يذكـر، وإنمـا كان العقـاب مضاعفًـا يمحـو أي فرصـة لتكـرار الفعـل مـن جديـد.. حتـى أمـي كانـت تعـرف جيـدًا ولـع أبي بفنـون التعذيـب، وكانـت تنـال منـه نصيبًـا، دون أن يشـعر أحـد، أو يحـس..

كل هـذا صنـع منـي شـخصًا آخـر.. إنطـوائي عـلى الـدوام، لا يطيـق الاجتماعيـات أو المناسـبات، وليـس لـه أصدقـاء تقريبًـا سـوى القلائـل الذيـن يشـاركونه اهتماماتـه في المدرسـة.. وكان ذلـك هـو مـا شـكل تطـور شـخصيتي كلهـا، حتـى وصلـت إلى مـا أنـا عليـه اليـوم..

لم أكـن دومًـا وحيـدًا بـلا أصدقـاء كـما أنـا الآن، وإنمـا كنـت في يـومٍ مـا أملـك شـخصًا أقـرب لي مـن العـالم بأكملـه.. هـذا كان أخـي الأصغـر، وشريـكي الدائـم في عمليـات التعذيـب السـايكوباثية التـي كان يقـوم بهـا أبي لمتعتـه الخاصـة، وتنفيـذًا لدِينِـه المزعـوم اللعـين..

هذا كان «لويس»..

كان هو رفيقي الوحيد ضمن عالم لم يأبه لي يومًا..

لفـترات طويلـة جـدًّا دامـت منـذ طفولتنـا، كان الأمـر يتكـرر بـلا توقـف.. كانـت بدايتـه الحقيقيـة حينـما اكتشـف أبي أن «لويـس» لـه صديقـة حميمـة Girlfriend اسـمها «جانيـت»، وأنـه كان يكتـب لهـا خطابـاتٍ عاطفيـة.. وأننـي لا أقـرأ في الإنجيـل أو أحفظـه كـما كان يعتقـد، أو كـما كنـت أُظهـر لـه، وإنمـا كنـت أحتقـر

كل ما يلقنني إياه رغمًا عني، وأرى أنه ليس أكثر من كهلٍ مُخرِّف..

لا بد أن الغباء الذي شعر به وقتها، تحول لغضبٍ شديد، لم يظهر على ملامحه، لحلمه وهدوئه الدائم.. وإنما ترجمه فيما فعله بي أنا وأخي الأصغر يومها.. تحت مرآى ومسمع من أمي، التي لازمت حجرتها ولم تفارقها لحظة..

لم أعرف يومًا سبب ذاك.. ربما كان خوفًا أو كان لا مبالاة.. لم أعرف أو أتأكد، ولكنها لم ترفع إصبعًا لتوقف أي شيء.. برغم أنها كانت قادرة.. مركز الشرطة المحلية كانت على بعد خطوات، ولم يكن الأمر ليكلفها شيئًا أكثر من مكالمة هاتفية..

ربما كانت تملك بداخلها جزءًا خفيًّا من الاستمتاع بما كان يفعله، ويسهل عليها مهمتها التربوية.. فقد كنت أنا و«لويس» طفلين متمردين، لا يؤمنان بالسلطة الأبوية أو النصيحة.. كنا نفعل ما يحلو لنا حرفيًّا، ولم نكن نفكر في العواقب..

ربما كانت تخشى عاقبة رد فعل أبي، حينما يحتوي الموقف كعادته بمكالمة هاتفية، وحفنة من الأموال.. ربما كانت بلا حيلة.. لا أعرف بالضبط.. ولكن كل هذا بدأ في ذلك اليوم..

لا أحب كثيرًا الكلام عمَّا فعله أبي وقتها، ولا أحبذ تذكره من جديد.. ولكنه كان سببًا في كل ما جاء بعده.. ولم يتوقف أو يتغير، ولم تقل وطأته أو صدمته..

كان الأمر في البداية تأديبًا لنا على أخطائنا.. كان ذلك هو السبب الذي كان يقوله لنا، وربما لنفسه.. ولكن بعدها، كان التعذيب هدفًا في حد ذاته..

ربما هو شغفه السابق بفنه الذي كان يمارسه في المكتب السادس، أو هو مجرد ولع سايكوباثي بالألم.. سمِّهِ ما تسمِّهِ.. ولكن شغفَه ومتعتَه الخاصة غيرت شخصياتنا أنا وأخي تمامًا..

صرنا أقرب للانطواء، وعدم الكلام أو الحكي.. ففي المرة الوحيدة التي تجرأنا

فيها على سرد ما حدث لمعلمتنا، وذهبت هي بما عرفته لمدير المدرسة، كان الناتج هو فصلها بعد بضع اتصالات من أبي.. وجلسة تعذيب أخرى لم ينسها عقلي يومًا، ولم تزُل تفاصيلها..

العقد النفسية كانت ظاهرة على السطح، وبدت في تصرفاتنا، وعلى ملامحنا لفترة طويلة للغاية، دامت حتى وصلنا إلى سن المراهقة.. وصرت أنا قادرًا على تلافي كل تلك الآثار النفسية المدمرة لما كان يفعله بنا أبي، وأعتدت أن أزيحها إلى خلفية حياتي، حتى اعتدتها وصارت جزءًا من روتين شخصيتي ذاتها، وحولتها إلى شخصية لا مبالية، لا تهتم بما هو سواها..

ولكن «لويس» لم يستطع أن يفعل مثلي..

كان يصغرني بعامين.. وكان وسيمًا، جميل الشكل لحدٍّ لا تصدقه إلا لو رأيته.. أشقر الشعر، أزرق العيون، ذا جسدٍ رفيع متناسق، له هيئة تذكرك بذلك الشكل الذي طالما تمنيته في صغرك.. ولهذا السبب كان فاتن نساء Womanizer كما يقول المعنى الحرفي للكلمة.. لم تكن هناك فتاة قادرة على الصمود أمام كلماته أو شكله، دون حتى أن يحاول هو.. كانت جموعًا وأفواجًا منهم تحاول أن تصادقه، وتحظى بكلمة منه أو لمسة، ولكنه لم يكن يأبه.. كانت نفسيته محطمة تمامًا..

حينما شارف على عامه الثاني عشر، كان طاقته النفسية تقف على حافة الانهيار بالضبط، بين العقل والجنون التام.. كان يخاف من خياله.. لا يملك ثقة بنفسه، ولا يجسر على الحديث مع إحداهُنَّ، خوفًا من أن يعرف أبي بشكلٍ أو بآخر، ويعاقبه من جديد.. كان يخاف من كل شيء أفعله أنا بلا مبالاة، ولم يكن له أصدقاء على الإطلاق، سواي..

حاول كثيرًا أن يستجدي أبي أن يتوقف عمَّا كان يفعله بنا، وسط عمليات التعذيب الأسبوعية التي كنت أنا قد اعتدتها، ولم تعد تؤثر في جسدي أو تؤلمني كما السابق، ولكِن أبي كان دومًا يجد سببًا ما للمواصلة..

الأدهى أن طريقة أبي في الكلام كانت تقنعه بأنه هو المخطئ.. كان يقنعه

أنـه يسـتحق مـا يحـدث لـه، ويسـتحق التعذيـب؛ لأنـه لم يكـن طفـلًا صالحًـا، ولأن أفعالـه تغضـب الـرب.. تخيـل أن تدفـع طفـلًا في الثانيـة عـشرة لأن يشـعر أنـه مخطـئ ومذنـب، وأن كل شيءٍ يفعلـه في حياتـه هـو ذنـب يسـتحق التعذيـب والعقـاب.. تخيـل طفـلًا ينهـض مـن نومـه في منتصـف الليـل بسـبب كوابيـس شـنيعة يـرى فيهـا نفسـه يحـترق بداخـل نـيران الجحيـم، وزبانيتـه هـم أبي وأمـي..

تخيـل معـي نفسـية طفـل لا يقـدر عـلى الـكلام بشـكلٍ سـوي، ولا يسـتطيع تكويـن جمـل ناضجـة.. طفـلٌ يجـد صعوبـة في تكويـن أي حـرف، ولا يقـدر عـلى الـكلام المتواصـل دون أن يتلعثـم ويسـخر منـه زمـلاؤه.. أنـت تعـرف الأطفـال الفتـوات Bullies، وسـخريتهم الدائمـة مـن كل مَـن هـو غريـب أو ضعيـف الشـخصية.. كان «لويـس» الصغـير هدفًـا دائمًـا لهـم، ومصـدرًا للتسـلية والمـزاح..

كانـت المدرسـة هـي المـكان الوحيـد الـذي لا يكـون فيـه بقـربِ أبي، وكان يتمنـى لـو كان يسـتطيع أن يجـد فيهـا بعـض الراحـة التـي لا يجدهـا في مـكانٍ آخـر، ولكنهـا بسـبب تنمـر زملائـه أضحـت كابوسـه الجديـد.. كان يفكـر ألـف مـرة قبـل أن يمـشي في أي ردهـة وحـده دوني، أو يدخـل إلى أي حجـرة لا تحـوي أحـد المعلمـين.. وبرغـم كل هـذا، لم يكـن مـن الغريـب أن يعـود إلى المنـزل في يـومٍ مـا بقميـصٍ ممـزق أو عـين متورمـة..

لذلك، فأنت تفهم ما حدث بعدها..

***

أنت تفهم بالتأكيد..

أنـت تفهـم الرغبـة في الخـلاص، التـي تدفـع أكـثر البـشر جبنًـا وتراخيًـا لمحاولـة الهـرب بـأي طريقـة.. رعـب الحصـار الـذي قـد يدفـع القطـط لقتـال النمـور، أو الـذي يدفـع البـشر للقفـز مـن فـوق الأبـراج المحترقـة، خوفًـا مـن اللهيـب..

أنـت تفهـم نفسـية المُعذبـين، الذيـن لا أمـل لهـم في نهايـةٍ قريبـة.. تفهـم تركيبـة

الشخصية النفسية التي تصل إلى مرحلة لا عودة منها..

أنت تراني الآن.. تراني في خيالك وأنا أنهض من السرير بغتة، بلا سبب..

ربما هو كابوس لعين، من تلك الكوابيس التي اعتادت زيارتي، حتى صارت لي أنيسًا في قلب ليلٍ كحيل، ووحدة بلا رفيق.. صرت أعتادها، وأعتاد إيقاظها لي من غياهب نومٍ عميق بلا قرار..

أنت تراني الآن، وأنا أفرك عيني، ثم أتثاءب وأنا أبتلع لعابي بصعوبة.. أفكر في أن بعض الماء لن يضر بالتأكيد.. أزيح الغطاء، وأنهض.. قدمي تلمس الأرض فأنتفض.. باردة كالثلج، ولكن إشارة مني لكاميرا الاستشعار في جهاز التكييف الذكي تدفع نظام التهوية الساخن للعمل..

الدفء.. الدفء الذي لم يكن البشر الأوائل يحلمون حتى بربعه، وهم يغفون فوق غصون الشجر في قلب الغابة، بينما الضواري تحوم حولهم منتظرةً أن يسقط أحدهم ليكون فريستها.. الدفء وسط الأمطار والثلوج، الذي لم يكن سوى حلمٍ بعيد التحقيق.. ذاك الدفء صار ملكي الآن بإشارة إصبع.. ألا فلتحيا التكنولوجيا، وتسقط الطبيعة ألف مرة..

أفتح باب الغرفة، وأتوجه في الممر نحو الحمام وأنا أتثاءب مرة أخرى.. إشارة أخرى نحو كاميرا استشعار الباب تكفي لأن ينزلق منفتحًا، وأُوشِك على أن أدلف إلى الداخل، قبل أن تلتقط عيني وعينُك ذلك المشهد على طرف الكادر..

باب غرفة «لويس» الموارب، الذي تهب من داخله نسماتٍ باردة، تغمر جسدي الدافئ برجفة تجعلني أقشعر وأنتفض..

ما به؟.. كيف يشغل جهاز التكييف على برودة مثل تلك، ونحن في قلب الشتاء؟..

قلبي ينقبض، وأنا أتقدم نحو الباب في تؤدة.. ذكرى أبي وهو يضرب رأس «لويس» في نفس ذلك الباب، حينما عصى أمره بالذهاب إلى غرفته ذات مرة، تراودني، وترتسم في عقلي لتثير رهبةً تتزايد..

أقــف أمــام البــاب بالضبــط.. ثــم أدفعــه بيــدي، وألقــى نظــرة فاحصــة إلى الداخــل..

أنــت تــراني الآن.. أعــرف أنــك تقــف بعينيــك الخياليتــين خلفــي تمامًــا، فأحجــب بجســدي عنــك المشــهد.. ولكنــك تــدور حــولي، وتتجــاوزني لتنظــر إلى الداخــل بــدورك..

تنظر إلى الداخل، وتراه.. تراه كما أراه..

هنــاك في وســط الغرفــة، يتــدلى مــن ذلــك الحبــل الرفيــع الــذي يحيــط بعنقــه، أســود اللــون مثــل حياتــه.. ويتأرجــح جيئــةً وذهابًــا تحــت المصبــاح الطويــل في الســقف، الــذي يبعــث نــورًا فضيًّــا خافتًــا، كان دومًــا يحــرص عــلى إضاءتــه لأنــه كان يخــشى النــوم وحيــدًا، ويخــشى الظــلام..

أنــت تــراني وأنــا أقــف في مــكاني بــلا حــراك.. لا أجــسر حتــى عــلى الــصراخ، ولا أقــدر.. فقــط أحــدق فيــه بــلا تعبــير يظهــر عــلى وجهــي..

أنــت تــرى ســاقيَّ وفخــذيَّ اللذيــن يهتــزان مرتجفــين بوضــوح يتبــدى عليهــما لعينيــك.. تــرى البلــل الــذي لم أعــد أقــدر عــلى كبحــه، وهــو يــسري عــلى سروالي نحــو قدمــي، ويغمــر الأرض مــن تحتهــا بذلــك الســائل الأصفــر الرغــوي الــدافئ كريــه الرائحــة..

تسمعني وأنا أهمس بصوتٍ مبحوح..

- «لويس...»

ولكن «لويس» لم يعد هناك ليجيب..

***

طبعًا، كما خمنتم أنتم.. لم يسفر تحقيق الشرطة عن أي شيء..

المشــاهد التــي ســحبوها مــن كامــيرا جهــاز التكييــف، أظهــرت «لويــس» وهــو يســحب الكــرسي ويقــف فوقــه، ويربــط الحبــل بمصبــاح الــ LED الطويــل في الغرفــة، ويثبتــه في الكومــود الــذي في الركــن، ثــم يحيــط عنقــه بالأنشــوطة، ويقفــز مــن

فـوق الكـرسي..

لا تسـألني كيـف تعلـم فعـل كل هـذا في سـنه ذاك، فأنـا لا أعـرف.. ربمـا كان هذا هـو سـبب كل تلـك الأبحـاث التـي كان يجريهـا عـلى الأسـلحة البيضـاء والناريـة، وأسـلحة الطاقـة، عـلى جهـازه اللوحـي الـذي كنـت أسـتعمله أحيانًـا، وكنـت أظنهـا طريقتـه الخاصـة في التفكـير في طريقـة يدافـع بهـا عـن نفسـه ضـد أبي..

كل مـا أعرفـه هـو أننـي لم أعـد كـما كنـت بعـد هـذا اليـوم.. صرت شـديد العصبيـة، أنفجـر في وجـه أي شـخصٍ في أي لحظـة.. وصـار بداخـلي كبـت نفـسي يطمـح للصعـود إلى السـطح، ولا يجـسر.. صرت لا أشـعر..

أمـي انهـارت تمامًـا، ودخلـت مـع أبي في شـجار عنيـف انتهـى بـأن حزمـت أمتعتهـا، وذهبـت، وأخذتنـي معهـا..

أبي عاقَـر الخمـور بجميـع أنواعهـا، برغـم أنـه لم يكـن يقربهـا مـن قبـل.. وصـار أقـرب لسـكير متـشرد في حانـة، منـه إلى ضابـط اسـتخبارات سـابق..

وأنا؟..

أخذتنـي أمـي رغـمًا عنـي إلى فنـدق كبـير عـلى أطـراف المدينـة، وكانـت تصحبني كل يـومٍ إلى المدرسـة، وتـأتي لتقلنـي مـرة أخـرى إلى الفنـدق.. برغـم أننـي لم أكـن أتحمـل الذهـاب إلى المدرسـة، أو أطيقهـا حتـى.. «لويـس» كان أقـرب أصدقـائي، ولم يعـد هنـاك مـا يهـم دون وجـوده.. لم يعـد شيء لـه معنـى أو مغـزى..

كنـت أمـر بأزمـة وجوديـة عنيفـة، لم يكـن مـن البعيـد أن تنتهـي بانتحـاري أنـا الآخـر، لـولا أن قـررت -بعقـلي الصغـير- أن أهـرب مـع صديقـي «تومـي» الـذي كان أيضًـا يملـك مشـاكله الخاصـة مـع أسرتـه..

إلى أيـن نهـرب؟.. لا أعـرف.. كيـف سـنهرب؟.. لا درايـة لـدي.. ولكـن الأمـر كان يسـتحق المحاولـة..

وفي نهـار يـومٍ، وبعـد أن أقلتنـي أمـي إلى المدرسـة، ألتقيـت بــ «تومـي» أمـام البوابـة، وأخـذني مـن يـدي، وبدأنـا في الركـض..

المسـافة التـي قطعناهـا في ذلـك اليـوم لا يمكـن إحصاؤهـا.. كأنمـا كلينـا كان يخـرج طاقتـه السـلبية وذكرياتـه الكابوسـية في ضربـات نعالـه عـلى الأسـفلت الناعـم..

لا أذكـر كـم مـن الوقـت أمضينـا قبـل أن يعـثر علينـا ضابـط الدوريـة عـلى دراجتـه الحوامـة.. ربمـا كان أيامًـا أو شـهور.. سـنوات أو عقـود.. لا أعـرف بالضبـط، ولا أتذكـر سـوى أن مضيهـا كان أبطـأ مـن الدهـر، وأشـد وطـأةً وتأثـيرًا..

وحينــما أعادتنــي الشرطــة مــرة أخــرى إلى أحضــان أمــي، كان أبي هنــاك.. ينتظــر..

نظرته لي وقتها لم تكن مثل السابق..

كانـت عينـاه تحـوي انكسـارًا خفيًّـا، امتـزج برائحـة الخمـر التـي كانـت تفـوح مـن أنفاسـه وقتهـا، واشـتركا مـع مظهـره غـير المهنـدم في إعطائـه صـورة ظلـت تلازمنـي مـا حييـت..

هــذا الشــخص هــو ســبب كل شيء.. هــو ســبب عــذابي وكوابيــسي وعقــدي النفسـية التـي طفـت عـلى السـطح بعدهـا، ومنـذ صغـري، حتـى أصبحـت وحيـدًا تمامًــا، بــلا أنيــس أو ونيــس ســوى عقــلي الــذي لم يكــن يهمــد..

هــو ســبب عــذاب «لويــس» الصغــير، قبــل أن يقــرر أن ينهــي حياتــه بنفســه، هروبًـا مـن واقـعٍ لا يناسـبه، ومسـتقبلٍ ليـس لـه، ولا يملكـه..

هــو ســبب كل شيء.. هــو وربــه المزعــوم، وتعاليمــه اللعينــة التــي لم تســبب ســوى الحــزن والإنكســار والبــؤس، ولم تصنــع بداخــل نفــسي أنــا وأخــي وأمــي ســوى شــقاء لا يــزول..

هـو ذاك الـذي كان يقـف أمامـي، ويضمنـي إلى صـدره، ويعـدني بـأن لا يقربنـي مجـددًا، وأن لا تلمسـني أصابعـه بسـوءٍ مـرة أخـرى طالمـا حيـا..

لم أصدق..

برغـم أنـه فعـلًا لم يقربنـي مـن جديـد، لم أصـدق.. فلـم يكـن الأمـر يومًـا يتعلـق

بالإيـذاء الجسـدي.. عـلى الأقل بالنسـبة لي..

مـا كان يتعلـق بـه، هـو الإيـذاء النفـسي والمعنـوي الـذي كنـت أتحملـه، ويصنـع جروحًـا غائـرة في شـخصيتي لا تندمـل..

كل هـذا لم يتغـير.. برغـم أنـه حـاول فعـلًا عـلى مـرور السـنين بعدهـا، وحـاول جهـدًا عظيـمًا أن يتخـذني صديقًـا، ويكـون لي الرفيـق الـذي طالمـا احتجـت إلى وجـوده.. ولكـن عقـلي وقلبـي لم يقبـلان يومًـا وجـوده، ولم يبتلعانـه.. كان وسـيظل دومًـا قاتـل أخـي الأصغـر، برغـم أي شيءٍ يمكـن أن يقولـه أو يفعلـه أو يـبرره، وبرغـم أمـي التـي كانـت تدافـع عنـه، وعـن كل شيء يمثلـه..

تلـك الحقـيرة التـي لم يكـف مـوت ابنهـا، وعـذاب ابنهـا الآخـر، وعذابهـا هـي نفسـها، لإخراجهـا مـن تحـت سـلطته وسـطوته.. لم يكـفِ كل هـذا لتقـرر الهـروب هـي الأخـرى.. بـل نسـت أو تناسـت، وصـارت تدافـع عنـه، وعـن حقـه في ممارسـة أبوتـه التـي لم أكـن لأقبلهـا مـن جديـد..

كانت هذه هي حياتي.. لفترة طويلة للغاية..

الوحـدة والانكسـار والحـزن والضغـط النفـسي، اتحـدوا معًـا ليصعـدوا بعقـلي إلى آفـاقٍ أسـطورية، زادتهـا دراسـاتي في علـوم الفيزيـاء والفضـاء والكيميـاء الحيويـة والهندسـة، حتـى صرت مـن الطـلاب الأوائـل الأكـثر شـهرة في مدرسـتي الابتدائيـة، ثـم في مدرسـتي الثانويـة التـي أنهيتهـا مبكـرًا لألتحـق بالجامعـة..

كان إيمـان أبي الـذي لم يتزحـزح بأنـه مـا زال محقًّـا، وأن الـرب هـو صانـع كل شيء، وهـو مخطـط القـدر، وأن مـا حـدث لأخـي كان مكتوبًـا مـن قبـل، لا يقـدر أحـد عـلى تغيـيره، هـو المحـرك الـذي صنـع بداخـلي طموحًـا لا يهمـد..

طمـوح إثبـات أنـه مخطـئ ومغيـب، وأنـه دمـر حيـاتي أنـا وأمـي، ودفـع أخـي للانتحـار، لا لـشيءٍ سـوى لإجبارنـا عـلى طاعـة كيـان أسـطوري لا وجـود لـه سـوى في عقلـه الضعيـف وقناعاتـه الخاصـة.. عقلـه الـذي صـور لـه أن حياتنـا بأكملهـا، بـكل علومنـا وتطورنـا، وبـكل مـا تحويـه مـن تكنولوجيـا واستكشـاف وغـزو للفضـاء وللكواكـب الأخـرى، هـي ذات مغـزى واحـد فقـط.. هـو الطاعـة والعبـادة وتقبُّـل

القدر..

مـن يـدري، ربمـا كانـت هـذه هـي طريقتـه الخاصـة في تقبُّـل كل مـا فعلـه في ابنـه حتـى دفعـه لقتـل نفسـه هربًـا منـه.. ربمـا أراد بشـدة أن يصـدق أن ذاك كان قضـاء الـرب فعـلًا، لئـلا يُجَـن، ويذهـب عقلـه لوثـةً وخبـالًا..

ذلـك الـرب القديـر الـذي يمـضي وقتـه كلـه في النميمـة وإصـدار الأحـكام، وطلـب الطاعـة والعبـادة غـير المشروطـة، وتهديـد مـن لا يقدمهـا صاغـرًا بالعـذاب والاحـتراق في جحيمـه الأسـطوري، كأنـه لا يملـك شـيئًا أفضـل ليفعلـه..

كانـت صـورة الـرب تلـك في عقـلي، مثـل صـورة أبي بالضبـط.. الـرب يطلـب العبـادة غـير المشروطـة، ويهـدد مـن لا يقدمهـا بالعـذاب، وأبي يطلـب طاعـة كلماتـه الآمـرة والناهيـة، ويعـذب مـن لا ينفذهـا حتـى يستسـلم..

الـرب يمـضي وقتـه كلـه في إصـدار الأحـكام عـلى البـشر، والغـوص بداخـل قلوبهـم وحيواتهـم الحقـيرة ليقـرر مـا لـو كانـوا يسـتحقون الثـواب أو العقـاب.. وأبي يمـضي وقتـه في إصـدار الأحـكام عـلى أفـراد عائلتـه، معتمـدًا عـلى قناعاتـه الشـخصية التـي تكونـت لديـه بتأثـير أديـان ذاك الـرب المزعـوم..

في عقـلي الخـاص، لم يكـن هنـاك فـرقٌ بـين الاثنـين سـوى أن أبي كان حقيقيًّـا ملموسًـا..

أبي، في مُخيلتي، كان هو الرب ذاته..

ولذلك تركته..

تركتـه، وتركـت أمـي، و(إيـورو - كـورب) بأكملهـا، وتوجهـت نحـو (جينيسـيس) سـعيًا خلـف طموحـي الخـاص، لإثبـات خطـأ كل تلـك الأديـان والتعاليـم، وكل مـا تدعـو لـه وتمثلـه..

وكان ذلـك هـو أسـاس فكـرة مـشروع (خلايـا الـرب) الـذي بـدأت البحـث فيـه والعمـل عليـه سـنة 2107..

ذلك المشروع الذي بدأ كل شيء..

***

-١٢-

(الجـزء الثالـث مـن مذكـرات إدوارد تاسـك عـلى جهـازه اللوحـي، التـي لم يعـثر عليهـا أحـد)

كان مــن الواضــح بعــد كل مــا حــدث أن تجربــة إعــادة الوعــي والذكريــات البشريــة، قــد فشــلت فشــلًا ذريعًــا..

كـما قلـت، لم تكـن هنـاك أي وسـيلة معروفـة لإعـادة الوعـي البـشري كـما كان في لحظـة معينـة مـن تاريخـه، ولا إعـادة الذكريـات والخـبرات الحياتيـة الناتجـة عـن ذلـك الوعـي..

إعادة الموتى غير ممكنة..

سـبب الأمـر لي بعدهـا اكتئابًـا طويـلًا؛ لأنـه كان فشـلًا كامـلًا لي، لم أقـدر عـلى تجـاوزه أبـدًا.. خصوصًـا بسـبب طموحـي الـذي كانـت الغايـة الرئيسـية لـه، هـي إعـادة «لويـس» أخـي الأصغـر إلى الحيـاة مـرة أخـرى..

لم أقـدر يومًـا عـلى تقبـل فكـرة أنـه قـد فارقنـي، وأنـه لم يعـد موجـودًا.. كانـت الطريقـة التـي تعاملـت بهـا مـع الموقـف، أو مـا يسـمونها في علـم النفـس بــ Coping Mechanism هـي افـتراض أنـه قـد ذهـب إلى رحلـة بعيـدة نسـبيًّا، وأنـه حتـمًا سـيعود منهـا في يـومٍ مـا.. ربمـا ليـس الغـد، أو بعـد الغـد.. ولكـن في يـومٍ مـا..

جعـل هـذا تقبـل نتيجـة الأبحـاث والتجـارب أشـبه بابتـلاع ملعقـة كبـيرة مـن سُـم الأفاعـي.. لم يكـن الموضـوع ببسـاطة تقبُّـل أن التجربـة قـد فشـلت، وإنمـا كانـت المشـكلة بأكملهـا تكمـن في تقبـل فكـرة أن أخـي الأصغـر قـد ذهـب بالفعـل.. ذهـب ولـن يعـود، مهـما حاولـت، ومهـما مـرت السـنين والعقـود..

كانـت تلـك الفـترة هـي أصعـب الفـترات التـي كان عـليَّ المـرور بهـا وتقبلهـا، وسـببت لي اكتئابًـا شـديدًا لم أُشـفَ منـه أبـدًا، ومـا زال يلازمنـي بشـكلٍ أو بآخـر.. ولكـن، كديـدن العلـماء دومًـا، لم يكـن التوقـف تمامًـا عـن البحـث خيـارًا بالنسـبة لي.. فـماذا أمتلـك في حيـاتي لـو لم يكـن البحـث، ووضـع الفرضيـات الجديـدة وتجربتهـا؟..

لا أملـك أصدقـاءَ أو حيـاة خاصـة بعيـدًا عـن المعمـل لـو كنتـم تلاحظـون.. لا صديقـة ولا صاحـب.. لا أحـد يشـاركني الطعـام، ولا واحـدة تشـاركني الفـراش سـوى المومسـات الـلاتي واظبـت عـلى طلـب خدماتهـم هاتفيًـا.. كان الـشيء الوحيد الـذي حاولـت أن أنـسى بـه مـا أمـر بـه، هـو الجنـس..

جربـت جميـع أنواعـه، مـع كل أنـواع وأشـكال وألـوان الفتيـات التـي يمكنكـم أن تتخيلونهـا.. الشـقراوات والعربيـات.. الإفريقيـات والأسـيويات.. كل ليلـة كانـت تمـضي، كان سريـري فيهـا يـئن تحـت ثقـل أربـع أو خمـس فتيـات في المـرة الواحدة.. صـار الوقـت الـذي أقضيـه عاريًـا أكـثر مـن الوقـت الـذي أقضيـه في النـوم، أو في المعمـل.. وكان هـذا مفيـدًا بالفعـل.. في البدايـة..

ولكـن الجنـس -مثـل أنـواع المخـدرات الأخـرى- يقـدم بسرعـة، ويفقـد رونقـه وجاذبيتـه مـع التكـرار..

لم يعـد الأمـر يسـتهويني، ووصلـت بسـبب \انغـماسي فيـه حتـى الثمالـة، إلى حالـة خاصـة مـن التشـبع الكامـل منـه.. يذكـرك الأمـر بالرهبـان الذيـن كانـوا ينغمسـون في الموبقـات حتـى يصلـوا إلى مرحلـة أبديـة مـن (القـرف) والتطهـر النفـسي منهـا.. كأن تواظـب كل يـومٍ عـلى فعـل معـين، حتـى تصـل إلى مرحلـة غـير مسـبوقة مـن الملـل، تجعلـك تفقـد شـغفك بـه إلى الأبـد..

كان هـذا هـو مـا وصلـت لـه بالضبـط بعـد شـهور عديـدة مـن إيقـافي الكامـل للتجـارب.. حالـة نفسـية مترديـة أورثتنـي اكتئابًـا وصـل لدرجـة الانتحـار.. مرحلـة لا يصلحهـا أي ظهـور علنـي أو حـوارات صحفيـة، أو معمـل أو أبحـاث، أو نزهـات..

مرحلة لا مخرج منها سوى الموت..

تلك كانت حياتي اليومية، التي كنت أعيشها لا لسببٍ سوى كوني لا أملك القوة الكافية لإنهاء هذا كله.. ومع مُضيِّ الوقت، صار واضحًا أن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذا النحو..

كنت في حاجة ماسة إلى فكرة جديدة، وتجربة غير مطروقة.. وكان هذا هو الوقت الذي تذكرت فيه فكرة (جودوين) التي اقترحها ونحن نقف في غرفة المراقبة والتحكم في حديقة عدن، ونرقب تصرفات (آدم) و(إيف)..

لماذا لا نخلق لهم شيطانًا؟..

لم تكن الفكرة سيئة إلى هذا الحد..

***

ماذا لو قمت بتصنيع جسد (لويس) من جديد؟..

كنت الآن أعرف أن إمكانية إعادة جسده ذاته للموت لم تعد ممكنة، خصوصًا وأن جسده لم يعد متاحًا لأنه قد دُفِن بالفعل منذ زمنٍ طويل.. ولكن الحمض النووى ذاته ما زال متاحًا..

ما الذي يمنع أن أعيد تصنيع جسده مرة أخرى من الصفر، وأقوم بتلقينه ذكريات لويس المُشفرة في حمضه النووي بطريقة يدوية، باستعمال حواسيب التلقين الكمية المتطورة؟..

الفكرة نظريًا كانت رائعة، وشديدة الأناقة.. وكانت تعد بالكثير فعلًا.. ربما حتى تمكنني من الوصول إلى نفس الهدف الذي كنت أريده من البداية، بطريقة ملتفة بعض الشيء.. ولم يكن هذا يهمني.. نفس تلك الطريقة الملتفة هي التي مكنتني من هزيمة قوة الطبيعة نفسها، من خلال تأثير تاسك، والتوصل للاتصال بين المخ والوعي المُطلق، الذي جعل الجيل الثالث بأكمله ممكنًا..

لم لا أصنع كائنًا جديدًا على نفس صورة لويس، وألقنه ذكريات أخي من جديد؟..

ربما كانت هناك عقبة تتمثل في التكلفة العالية التي سيرفضها (جودوين) قطعًا، ولكن لن تكون هناك مشكلة في إقناعه لو تمكنت من استعراض الفكرة بشكل صحيح..

تخيل معي لو كانت التجربة ناجحة، وتمكنت معها من إعادة تلقين ذكريات وخبرات شخص متوفي، إلى جسد حي جديد، مصنوع على نفس صورة السابق، وباستعمال شفرات حمضه النووي ذاتها؟..

ما الذي سيمنعنا وقتها من إعادة الموتى جميعًا بنفس الطريقة؟.. تخيل معي فقط مدى عظمة النتيجة التي يمكن أن نصل إليها..

تخيل معي لو قمنا بإعادة إبراهام لينكولن للحياة.. أو جورج واشنطن.. أو ألبرت أينشتاين.. ربما هتلر ذاته..

الاحتمالات كانت لا نهائية حرفيًا.. منجم ذهب من النتائج والسيناريوهات التي يمكننا سلكها، صوب غاية ليست صعبة على الإطلاق..

كان (جودوين) متشككًا في البداية، ولكن تاريخي الحافل معه، وصورتي ومكانتي العالمية الحالية التي غيرت شكل العالم والقرن بأكمله كانت تُكسِب أفكاري ومقترحاتي قوةً لا يُستهان بها، خصوصًا مع تأكيدي على أن النموذج الجديد سيمكننا من تلقين الخبرات الحياتية لـ (آدم) و(إيف)، وسيمكننا من دراسة تصرفاتهم وسلوكياتهم الناتجة عن تعاملهم مع كائن من جنسهم، يملك خبرة مغايرة لما رأته أعينهم هم، وعاشته عقولهم طيلة فترة وجودهم في الحديقة..

هل كان يمكن له على سبيل المثال أن يرفض طلبًا أو فرضية لأينشتاين أو نيوتن لو كانوا أحياء اليوم؟.. لا أعتقد.. دعك من أن فكرتي كان بمقدورها - لو نجحت- أن تعيد أينشتاين ونيوتن أنفسهم للحياة، حتى نسألهم السؤال مباشرة..

من كان حتى يرفض؟؟..

المشكلة الوحيدة كانت في التكلفة، ولكنها لم تصنع عائقًا كبيرًا أمام البدء..

فقـد كنـت أملـك تاريخًـا ناجحًـا طويـلًا لا يُسـتهان بـه عـلى الإطـلاق.. بالطبـع قبـل، ومنحنـي تمويـلًا جديـدًا وترخيصًـا شـاملًا بفعـل كل مـا يحلـو لي، وطلـب كل مـا أحتاجـه مهـما كان..

وبعـد أقـل مـن شـهر، كان الجسـد الجديـد جاهـزًا.. لم تكـن هنـاك مشـكلة في نبـش قـبر أخـي، ولم يكـن (جودويـن) حتـى يعـرف شـيئًا مـن كل هـذا.. بـل كان جـلُّ مـا يعتقـده هـو أن مـن أعيـده هـو شـخص عشـوائي مـن بـين أقربـائي العديديـن في (إيوروكـورب)..

ولكِـنَّ منظمـة الاسـتخبارات المركزيـة لجينيسـيس G.C.I لم تكـن عـلى وشـك أن تتركنـي وشـأني.. بـل بـدأت في التنقيـب ورائي، ومتابعـة مـا أفعلـه.. حتـى صـار التفكـير ذاتـه خطـرًا..

وسـائل التجسـس المتطـورة جعلـت مـن غـير الممكـن أن أحظـى بـأي لحظـة خصوصيـة في أي وقـت، ودون حتـى أن يعلنـوا عـن ذاك.. لم أكـن لأكتشـف الأمـر مـن الأسـاس، لـو لم ألحـظ التفاصيـل الدقيقـة التـي تبـين لي بهـا الأمـر..

قـدرتي العاليـة عـلى الملاحظـة كانـت نعمتـي العظمـى، التـي سـاعدتني عـلى تحقيـق الكثـير فعـلًا، وتـلافي أخطـار مـا هـو أكـثر.. فلـو كنـت شـخصًا عاديًـا، لمـا عرفـت شـيئًا عـن الأمـر بأكملـه.. لم أكـن لأفقـه مـا يـدور سـوى وهـم يجـروني خلفهـم بالسلاسـل إلى السـجن..

كان الحذر واجبًا..

صحيـح أننـي لا أفعـل شـيئًا خاطئًـا، وأن إعـادة أخـي إلى الحيـاة ليسـت جريمـة في حـد ذاتهـا، ولكـن إخفـاء الأمـر عـن (جودويـن) هـو الـذي لا يُغتفـر.. فمعلومـة مثـل تلـك، كانـت سـتمثل متغـيرًا كبـيرًا يؤثـر عـلى قـراره النهـائي الـذي وافـق فيـه عـلى التمويـل دون أدنى شـك.. وبالتأكيـد كانـت سـتنقل لـه صـورة غـير مُحببـة عـن سـلامتي العقليـة والنفسـية، سـتؤثر سـلبًا عـلى قراراتـه في أي مـشروع مسـتقبلي أقترحـه..

لذلـك السـبب لم يكـن كشـف الموضـوع الآن خيـارًا متاحًـا.. لم يكـن الأمـر مزحـة،

فأضراره كشفه قبل بدء المشروع كبيرة جدًّا لدرجة غير مقبولة.. بالتأكيد سينكشف الأمر قطعًا بعد أن ينتهي المشروع، وينجح.. ولكن حينها سيكون كل شيء قد تم بالفعل، ولن يشكل الأمر فارقًا يذكر..

عملية استرداد الرفات بأكملها كان يقوم بها مرتزقة محترفون، يعرفون كيف يختفون عن الأنظار، وكيف يتبخرون من الشبكة الرقمية بأكملها حينما تتطلب الأمور ذاك.. ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا، حتى صار الرفات بين يدي..

لذلك فحينما بدأت عملية التلقين الشاملة باستعمال أجهزة الـ S.Q.C.U.3.0 المتطورة، كانت تلك هي لحظة الحقيقة..

كل شيء، أو لا شيء..

ولم يكن الفشل خيارًا مطروحًا على مائدتي على الإطلاق..

***

عدم..

عدم وظلام.. ولا شيء..

لا صوت.. لا ضوء.. لا شعور.. لا هواء ولا روائح..

هذا هو العدم في صورته الأولية الخام.. الصورة التي لا تدرك معها أنه هذا هو معنى الكلمة، أن ذاك هو ما كان الفلاسفة والأقدمون يتحدثون عنه؛ لأنه لا معنى للإدراك ذاته، ولا وجود له.. لا يُستَوعَب لأنه لا شيء هناك لاستيعابه..

ثم فجأة.. ضوء..

صوت وشعور ونسمات..

هذه هي الحياة.. العبور ما بين العدم، واللاشيء، إلى الوجود، والإدراك..

استيعاب معنى ما هو حولك.. استخدام الحواس للمرة الأولى، دون حتى أن تعرف أنك تستعملها.. فتلك فطرة لا تُعرف، ولا تُفقه، بل هي فقط هناك..

بـلا سـبب..

هكـذا شـعر وهـو يفتـح عينيـه لأول مـرة، ليطالعـه وجـه ذاك الغريـب الجالـس أمامـه، يتطلـع إليـه بنظـرة لا يكفـي البحـر مـدادًا لوصـف كميـة المشـاعر التـي تحويهـا..

الخـوف والفـرح والسـعادة والحـزن وعـدم التصديـق والغـرور والقلـق والاطمئنـان والاسـتنكار والارتيـاح..

الحنين.. ربما هذا كان أوضحهم، وأكثرهم ارتسامًا على قسماته وملامحه..

لمسـة كفـه عـلى وجنتـه كانـت هـي أول مـا شـعر بـه في حياتـه التـي لا تتعـدى بضـع ثـوان..

هكذا يكون الإحساس إذن..

- «لويس.. إنه أنت فعلًا..»

هذا هو اسمه إذن.. هكذا يكون السمع..

تلـك القطـرات التـي تنحـدر مـن مقلتـي عينيـه، وتتسـاقط نحـو الأرض، لتتناثـر..

هذا هو معنى البكاء..

يد ذاك الغريب تمتد لتلمس كتفه، وهو يقول وسط دموعه:

- «هل تذكرني؟.. هل تذكر من أنا، ومن أنت؟..»

لا يفهم ولا يستوعب ولا يتذكر، فيهز رأسه نفيًا..

يتطلـع إليـه ذاك الغريـب لحظـات بـلا كلـمات، ودموعـه تتسـاقط كـما هـي، وسـط اختـلاج شـفاهه الواضـح، فيتمـلى في ملامحـه لحظـات..

شعره الأبيض الناصع، وملامحه الحادة الوسيمة.. بشرته الفاتحة الجميلة..

من هو؟.. لا يدرك ولا يفهم..

يتركـه الغريـب ذو الشـعر الأبيـض في مكانـه، وينهـض.. يلتقـط ذلـك الجهـاز

اللوحـي الصغـير مـن عـلى المنضـدة جـواره، ويرفعـه أمامـه وهـو يضغـط علامـة التشـغيل عـلى الشاشـة..

صـوت الضحـكات والكلـمات التـي لا يفهـم معناهـا تخـرج مـن الشاشـة، فتلمـس شـيئًا مـا بداخلـه.. كأنـه قـد عاشـها دون أن يحيـا، ورآهـا دون أن تقـع عينـاه عليهـا مـن قبـل..

- «هـذا هـو حفـل عيـد ميـلادك العـاشر.. كنـا في المدرسـة وقتهـا.. مـع مسـتر كريـج، وتومـي وجانيـت..»

مـا زال يتطلـع إلى الشاشـة.. يشـعر أنـه رآى هـذه المشـاهد مـن قبـل، وعاشـها في فـترةٍ مـا.. ولكنـه لا يتذكـر..

(ديجافو)..

الكلمـة تثـب إلى عقلـه بغتـة، فـلا يعـرف أيـن سـمعها قبـلًا، ولا يـدرك سـوى معناهـا.. مشـهد يشـعر أنـه رآه مـن قبـل، برغـم أنـه هـذه هـي المـرة التـي يعيشـه فيهـا.. لا يفهـم كيـف حتـى يعـرف المعنـى، فكأنـه قـد لقـن بـه تلقينًـا..

- «هل تذكر؟..»

يرفـع وجهـه عـن الشاشـة لحظـة ليتطلـع إلى الغريـب، الـذي مـا زالـت دموعـه تنحـدر عـلى وجنتيـه، وتغـرق ملابسـه، وهـو يتابـع بصـوتٍ متهـدج إثـر بـكاءٍ غزيـر:

- «أنا إدوارد.. أخوك..»

إدوارد.. يشعر أنه سمع الاسم من قبل، ولا يدري أين أو كيف..

ثـم كيـف يكـون هـذا أخـاه؟.. إنـه لا يعرفـه، ولم يـره مـن قبـل في حياتـه التـي لا تتعـدى بضـع دقائـق..

يهـز رأسـه نافيًـا مـن جديـد، ويحـاول أن يخـرج الـكلام مـن عـلى لسـانه جاهـدًا، وينطقه للمـرة الأولى..

- «لا أعرف.. لا أتذكر..»

يتطلـع إليـه (إدوارد) للحظـات، ثـم يجفـف دموعـه بكـم معطفـه الأبيـض الطويـل، ويسـتدير ليضـع الجهـاز اللوحـي مكانـه مـرة أخـرى..

هـو لا يذكـره.. يـرى في عينيـه أنـه لا يفهـم ماهيـة مـا يمـر بـه مـن الأسـاس.. ولكـن هـذه ليسـت مشـكلة الآن.. المهـم أنـه اسـتيقظ.. المهـم أنـه هنـا بالفعـل، أمامـه.. بعـد كل شيء، وكل مـا حـدث، وكل الطريـق الـذي قطعـه وحـده، هـا هـو ذا يرقـد أمامـه، ويتطلـع إليـه بعيونـه الزرقـاء الواسـعة، ويحـاول الاسـتيعاب..

سيجد حلًّا لأي شيءٍ آخر فيما بعد..

يلتقـط الـروب الحريـري الطويـل مـن عـلى المشـجب جـواره، ويشـير إلى كامـيرا جهـاز التكييـف ليضعـه عـلى وضـع التدفئـة، ثـم يحيـط كتـف لويـس، وجسـده العـاري بـه في رفـق، وهـو يسـاعده عـلى النهـوض..

هـو يجـرب المـشي للمـرة الأولى.. وكأنـه لا يشـعر أنـه يجهلـه، بـل هـو يعـرف مـا يفعلـه، وتتحـرك قدمـاه بـلا توجيـه منـه، وبـلا أمـر أو تفكـير..

من هو فعلًا؟..

مـن هـذا الـذي يسـند ذراعـه حـول كتفـه، ويسـاعده عـلى المـشي، ويقـول إنـه أخـوه؟..

أين هو بالضبط، وما الذي حدث له، وكيف جاء إلى الحياة في الأساس؟..

ما هدفه وغايته، وما ماهيته وقدره؟.. ما الذي يفعله هنا؟..

أسـئلة كثـيرة تـدور في عقلـه، حتـى يوشـك عـلى الذوبـان.. ولا يشـعر أنه سـيلقى إجابـة عليهـا في الوقـت الحالي..

***

(من مذكرات إدوارد تاسك التي لم يعثر عليها أبدًا)

لم يكن يعرف، ولا يفهم أي شيء مِمَّا لقنتُه له..

ربما كان يذكره، وكان مزروعًا في جُزءٍ ما من خبايا عقله، ولكنه لم يكن يستوعب أن هذا هو من كانه في حياةٍ سابقة، عاد منها بطريقة غير معتادة..

جل ما كان يملكه هو التساؤل..

على مدار أيام وأسابيع.. كان يتساءل بعيونه في البداية، ولا يجرؤ على التفوه بما يجوب بداخل ثنايا عقله، ويموج به صدره طاغيًا على ملامحه، كبحرٍ متلاطِمةٌ أمواجه..

ثم أخيرًا، جرؤ على التفوه.. جرؤ على توجيه السؤال أخيرًا، بدلًا من الإجابة عليه باقتضاب..

- «من أنا؟.. ومن أين جئت؟..»

لم يكن يفهم أو يستوعب ما قد حدث قبل أن يلفظه رحم الطبيعة إلى عالمنا الحالي، بأمري أنا وحدي.. وكيف له أن يفهم؟..

أخبرته بكل شيء.. كحكاية طويلة من حكايات العهد القديم، قصصتها على مسامعه في يوم طويل، وليالٍ كثيرة..

قصة بدايته، وعذابه الذي أدى لنهايته.. ثم قصة بدايته من جديد، وتساؤله.. بحثه عن كيانه، وعن الذات نفسها، التي تاهت منه كما الأقدار، خارج حدود الكون..

الذات التي عاد من غيرها، ولم يجدها بعد أن قتلته الحيرة بحثًا وتفكيرًا..

وكما توقعت.. لم يستوعب، ولم يصدق..

ظل يملك نفس الظن الذي تكون لديه خلال كُلِّ تلكَ الفترة.. أنني مجنون

أو مخـرف، أقـص عليـه حكايـات عجائـز لا يسـتوعبها عقـلٌ أو يصدقهـا، برغـم أي دلائـل عـلى وجودهـا، أو معجـزات تتحقـق أمـام عينيـه..

كنبـيٍ كُنـت أشـعر وقتهـا.. أدعـوه كـما قـوم الأنبيـاء إلى هدايـةٍ مـن رحلـة بحـث عـن ذات، وعـن إدراك، فيكفـر بهـا كـما كفـر الأوائـل.. وليـس عليـه لـومٌ، فـما كان يسـمعه كان أكـبر مـن أي اسـتيعاب..

كان يجـب عـليَّ أن أتقبـل أن هـذا ليـس أخـي ولـن يكـون.. «لويـس» قـد رحـل بالفعـل، ولـن يعـود أبـدًا كـما كان.. ربمـا كان هـذا الماثـل أمامـي يملـك بعـض ذكرياتـه وأكـثر خبراتـه، ولكنـه أبـدًا لـن يكـون هـو.. هـذه هـي الحقيقـة، وهـذا هـو الواقـع الـذي عـليَّ تقبلـه..

فـترة طويلـة كانـت قـد مـرت منـذُ آخـر محادثـة بينـي وبـين (جودويـن)، برغـم أنـه كان قـد عـرف بالفعـل أن التجربـة كانـت إلى نجـاح.. إلا أنـه آثـر أن ينتظـر حتـى آتي إليـه أنـا، فقـد كان يعرفنـي جيـدًا، ويعـرف أننـي لـن أؤخـر الإعـلان عـن نجـاح التجربـة، إلا لسببٍ مهـم.. كان يفضـل أن يـترك لي مسـاحتى الكاملـة.. وكان هـذا هـو أكـثر مـا فضلتـه فيـه..

مـا زلـت أذكـر كالبارحـة الحـوار الـذي دار بينـي وبينـه في مكتبـه، حينـما ذهبت للقائـه وإعلامـه بنتيجـة المـشروع النهائيـة.. نظرتُـه لي وهـو يجلـس أمـام مكتبـه، بينـما أحـكي النتائـج، وكيـف أنهـا غـير ثابتـة، وأن النمـوذج لم ينجـح في العـودة كـما كان قبـل المـوت.. بـل أضحـى نسـخة مشـوهة مـن الجيـل الثالـث الطبيعـي، يملـك ذكريـات وخـبرات لم يمـر بهـا، ولا يفهـم معناهـا أو يسـتوعبه..

- «لم تتمكن من إعادة أخاك إذن..»

قالها وهو ينظر إليَّ ببسمة هادئة، فصمتُ وأنا أنظر إليه للحظات..

قـد عـرف.. بالطبـع قـد عـرف.. هـذا ليـس غريبًـا أو مُفاجِئًـا.. بالتأكيـد عمـلاء الـ G.C.I أخـبروه بـكلِ شيء قبـل حتـى أن أفكـر أنـا في الأمـر برمتـه..

لم أدرِ مـا أقـول، ولا كيـف أواجـه الموقـف أو أفسره.. كان كل مـا اسـتطعت نطقـه هـو:

- «كنت على وشك إخبارك..»

رفع يده علامة التوقف، وقال بهدوء:

- «لم يكن هناك من داعٍ لهذا.. كنت أعرف الأمر بأكمله قبل أن تبدأ أنت حتى في التجربة.. ولم تغير معرفتي من قراري شيئًا.. ما زلت أرى أن الفكرة كانت تستحق المحاولة، وأن منافعها الدراسية والبحثية أكبر بكثير وأكثر أهمية من أن نتجاهلها..»

ثم نهض من خلف مكتبه، وتوجه ناحية حائط المكتب الزجاجي، الذي يطل على مدينة نيويورك بأكملها من الطابق السبعين، ووقف أمامه مباشرة حاجبًا بجسده قرص الشمس، ليتسرب ضياؤها الذهبي عبر حدود جسده في مشهد جميل، أكسبه هيبةً فوق هيبة:

«أتفهم سبب عدم رغبتك في إخباري.. الأمر شخصي بحت، وربما كان هذا هو السبب الذي كان يدفعك لمغادرة إيوروكورب من البداية.. بالتأكيد كنت تظن أن معرفتي بالأمر ستؤثر على قرار الموافقة.. أفهم هذا تمامًا، ولا ألومك عليه..»

ثم التفت إليَّ، وتابع:

- «ما لا تفهمه أنت، هو أنك لا تحتاج لأن تخفي شيئًا عنِّي، لأنني أعرف كل شيء في النهاية.. ولأنني أفهم أيضًا رغباتك وسبب إرادتك إبقاؤها سرًا.. على عكس الكثيرين، أنا أعرف جيدًا معنى مساحة الخصوصية الشخصية.. وليس من طباعي اقتحامها إلى هذه الدرجة..»

لم أجد شيئًا لأقوله.. مشاعر متداخلة كانت تتأجج بداخلي مع كل حرف كان ينطقه، وكل كلمة.. ربما هو ارتياحي بأن السر قد انزاح من على كاهلي أخيرًا، وكأن اختلاطه بمعرفته وفهمه إياي إلى هذا الحد كان يولد لديَّ شعورًا معاكسًا بعدم الاستقرار.. فلم أعتد أبدًا أن يفهمني أحد، أو يغوص بداخل نفسيتي إلى هذه الدرجة..

عيناي اللتان ترقرقت بداخلهما الدموع والتمعت متألقة بوضوح، دفعته

لأن يتقـدم نحـوي في ثبـات، ويضـع كفـه عـلى كتفـي مطمئنًـا، وهـو يقـول:

- «أنــت لي كابــن يــا إدوارد.. إنجازاتــك في تلــك الفــترة القصــيرة، وكل مــا قدمتــه لجينيســيس يشــفع لــك أي شيء آخــر.. لا تخــف، ولا تجــزع.. أنــت لســت كالآخريــن..»

أومـأت بـرأسي إيجابًـا وأنـا أبتسـم بينـما انحـدرت عـبرة عـلى وجنتـي رغـمًا عنـي، فربـت عـلى كتفـي لوهلـة، ثـم مـد لي كفـه علامـة النهـوض.. فنهضـت..

أحـاط كتفـي بذراعـه، واقتـادني إلى الحائـط الزجاجـي العمـلاق، وأشـار بيـده إلى نيويـورك العظيمـة، التـي بـدأت الشـمس في الغـروب فـوق موجوداتهـا، فأكسـبتها بهـاءً فـوق بهـاء:

- «كل هــذا ملــكك مــا دُمــتَ مِنَّــا.. لا داعــي لأن تخفــي شــيئًا آخــر، أو تخــشى مــن أي شيء.. لســنا ملائكــة، وبالتأكيــد لســتَ مــلاكًا.. ولكــن مــا حققتــه عــلى مــدار عــشر ســنوات، منــذ انضمامــك لجينيســيس وحتــى الآن، هــو في نظــري أعظــم مــن أي مــلاك..»

ثم ربت على كتفي الذي يحيطه بذراعه وهو يضيف:

- «أنت تستحق..»

وصمــتَ تمامًــا، وصَمــتُّ أنــا، بينــما نرقــب الغــروب المُتَّئِــد وهــو يلقــي بظلالــه الوليــدة عــلى الأفــق، فيشــكلها كــما الأحــلام تســكن مخيلــة طفــل..

وسبحت الأفكار هناك.. بعيدًا..

***

-١٣-

ضـوء المعمـل الأبيـض الرتيـب يلقـي بشـعيعاته اللامعـة عـلى الموجـودات، فتبـدو كأنهـا تتوهـج ببريـق معـدني جميـل المنظـر..

الجـدران التـي يشـع بياضهـا تأثـرًا بـذاك الضـوء، فتبـدو كأنهـا مصـدره.. ملسـاء ناعمـة كأنثـى بضـةُ البَـشَرَة..

الصـور الهولوجراميـة التـي ترتسـم عـلى أجـزاء مـن تلـك الجـدران، تـشرح طبيعـة المعمـل وخواصـه.. خـواص الضـوء وشـدته، والجـو وحرارتـه، بالإضافـة إلى خـواص أجسـاد الموجوديـن بداخلـه، بـلا اقتحـام أو مشـقة سـؤال أو فحـص..

هذا هو معمل الخلق Genesis Lab..

في الركـن الأقـصى هنـاك، يجلـس ذاك الشـخص في ثبـات عـلى مقعـد معـدني ذي ظهـرٍ قائـمٍ وثـير.. ينظـر إلى مـا هـو حولـه، وإلى جـدار الطاقـة المتشـكل أمامـه في منتصـف مسـاحة الغرفـة تمامًـا؛ ليحجـب عنـه رؤيـة الركـن الآخـر تمامًـا، محـاولًا أن يسـتوعب ويفهـم.. عـاري الجـذع، لا يحيـط جسـده شيء سـوى ذلـك الـسروال القصـير، الـذي لا يخفـي عضـلات جسـده البـارزة في وضـوح..

وهناك، في الركن الآخر، يقف هذان الاثنان..

أحدهـما أبيـض الشـعر، وسـيم الملامـح، حـاد التفاصيـل بشـكلٍ يـشي بقسـوة تختفـي خلفهـا وتختبـئ، صغـير السـن بشـكل ملحـوظ، لا يتعـدى شـكله العشرينيـات بحـالٍ، يرتـدي معطفًـا طبيًّـا واسـعًا طويـلًا يرتسـم عليـه شـعار جينيسـيس الأنيـق.. والآخـر طويـل، وسـيم الملامـح، يرتـدي بـذة سـوداء ضيقـة شـديدة الأناقـة، يختفـي شـيب شـعره بـين خصلاتـه السـوداء العديـدة، تحيـط فمـه لحيـة صغـيرة مهذبـة، تمتـزج مـع عينيـه الخضراويـن في إعطائـه علامـات الهيبـة..

هذان هما (إدوارد تاسك) و(فرانك جودوين)..

الأول يمسك بذلك الجهاز اللوحي الرفيع في يده، ويتحكم من خلاله في معطيات الغرفة، ليشكلها على رغبته، ويقيس من خلالها انفعالات ذاك الذي يجلس هناك في الركنِ القصي من الغرفة، والذي لا بد أنكم قد عرفتم أنه (لويس) الآن.. لو لم تعرفوا فعليكم التركيز أكثر؛ لأن المشاهد القادمة تتطلب ذاك بشكلٍ لا تتصورونه..

صوت (جودوين) يخرج من بين شفتيه متسائلًا بنبرات حيرى:

- «هذا هو أخاك؟.. كيف يبدو شكله أكبر من الصور التي رأيتها إذن؟..»

لم يرد (تاسك) وهو ما زال يعبث في بيانات الجهاز في تركيز يشوبه الصمت، فأضاف (جودوين):

- «كنت أظنُ أنه قد توفي في سنٍّ صغير..»

ساد الصمت لوهلة، قبل أن ينطق (تاسك) للمرة الأولى، فيخرج صوته رزينًا معبرًا:

- «قد فعل.. ولكنني قمت بعملية إنضاج جسدي له.. لم يكن من المقبول أن أحضره مرة أخرى في نفس السن الصغير.. لم يكن هذا ليفيد وظائف جسده الحيوية والعقلية التي كنت أحتاجها..»

تطلع إليه (جودوين) صامتًا وهو ما زال يعبث في الجهاز اللوحي دون أن ينظر له..

- «بالإضافة إلى أنني لا أعتقد أن سياسة الشركة أو أخلاقيات المهنة عمومًا تسمح بإجراء التجارب على الأطفال.. لن يكون هذا صحيحًا..»

لم يرد (جودوين)، وإن وافق بإيماءة صوتية خافتة.. ولم يمر وقتٌ طويل قبل أن يدير (تاسك) وجهه له وهو يقول:

- «حسنًا.. هذه قائمة بأهم الأسئلة الاختبارية التي اتفقنا عليها.. سنسأله أنا وأنت إياها، ونتناقش في كلٍ منها على حدة، لنرَ كيفية عمل وظائفه

العقليـة وذكائـه المُخَلَّـق.. لا داعـي لأن أؤكـد لـك مُجدداًعـلى أهميـة هـذا الحـوار الاختبـاري القـادم، فهـو الـذي سـيقرر كل شيء..»

أومأ (جودوين) برأسه مبتسمًا وهو يقول:

- «لا داعـي لأن تؤكـد مـرة أخـرى، لأننـي بالتأكيـد قـد اسـتوعبت مـا تعنيـه في المائتـي مـرة الأوائـل..»

ابتسـم (تاسـك) ابتسـامة باهتـة، وهـو يشـير إليـه برأسـه ناحيـة جـدار الطاقـة العـازل، وهـو يسـتدير بجسـده نحـوه، في نفـس اللحظـة التـي ضغـط فيهـا عـلى الأمـر في جهـازه اللوحـي ليسـمح لصوتهـما أن يكـون مسـموعًا لمـن هـو بالداخـل، ثـم ضغـط عـلى أمـرٍ آخـر ليـزول الجـدار تمامًـا، تـاركًا إياهـما في مواجهـة (لويـس) الـذي تطلـع إليهـما في ترقـب غامـر، وحـيرة عينيـه تطـل مـن خلـف نظراتـه في وضـوح..

تقـدم نحـوه (تاسـك) في هـدوء، بينـما جـذب (جودويـن) مقعـدًا متحـركًا مـن الركـن ليجلـس عليـه، مراقبًـا (تاسـك) وهـو يقـول:

- «مرحبًا يا لويس..»

ومـد لـه يـده مُصافحًـا، فمـد (لويـس) كفـه ليصافحـه بحركـة لا شـعورية، لم تفُـت عـلى عينـي (جودويـن) الملاحظتـين، بينـما أضـاف (تاسـك) وهـو يسـجل ردة الفعـل الحادثـة في جهـازه اللوحـي:

- «أنـت حائـر بالتأكيـد.. ولا تعـرف عنـي أي شيء سـوى قـولي أن اسـمي هـو «إدوارد».. وأننـي أخـاك الـذي أعـادك بشـكلٍ مـا إلى الحيـاة..»

أومـأ (لويـس) برأسـه إيجابًـا دون أن يشـعر، بينـما أضـاف (تاسـك) وهـو يسـجل الإيمـاءة في الجهـاز اللوحي:

- «أعـرف أنـك حائـر، وأن هنـاك الكثـير مـن الأسـئلة التـي تـدور في عقلـك.. اليـوم سيسـجل أول جلسـاتنا معًـا لنبـدأ في الحـوار، ونحـاول أن نزيـل الغمامـة مـن عـلى عقلـك، لنجعلـك تـرى الضـوء أخـيراً.. وتفهـم..»

ثـم اسـتدار إلى الركـن، وجـذب كرسـيًا متحـركًا آخـر وهـو يضيـف دون أن ينظـر له :

- «ذاك الـذي يجلـس أمامـك هـو مسـتر «فرانـك جودويـن».. رئيـس مجلـس إدارة مؤسسـة جينيسـيس، ورئيـسي المبـاشر.. هـذا هـو الشـخص الـذي أسـهمت تسـهيلاته وتمويلـه في إحضـارك للحيـاة مـرةً أخـرى.. وأعتقـد أنـه مـن أقـل قواعـد الـذوق أن تلقـي عليـه التحيـة..»

ابتسـم (جودويـن) رغـمًا عنـه ابتسـامة خافتـة، بينـما أدار (لويـس) عينيـه إليـه للحظـة، قبـل أن يعيـد النظـر إلى (تاسـك) الـذي جـذب المقعـد ليجلـس أمامـه مبـاشرة، وينظـر إليـه منتظـرًا..

- «لا؟.. هذا مؤسف فعلًا..»

قالها (تاسك) وهو يمط شفتيه، قبل أن يهز كتفيه وهو يضيف:

- «يبـدو أنـه سـيكون عـلى تعليمـك آداب الذوقيـات مـن جديـد.. ولكـن هـذا ليـس وقـتُ ذاك.. هنـاك مـا هـو أهـم..»

ثم جذب المقعد ليقربه منه، ونظر له بنظرة ثاقبة وهو يقول:

- «هل تعرف من أنا بالضبط؟..»

هز (لويس) رأسه نفيًا، فقال (تاسك):

- «أنـا الدكتـور «إدوارد ويليـام جيمـس تاسـك».. العالِـم الفائـز بجائـزة نوبـل لعـام 2109، وصاحـب اكتشـاف «تأثـير تاسـك» و«النظريـة الكميـة الكاملـة للوعـي»، والحائـز عـلى الجائـزة العالميـة الأولى في التاريـخ للأربعـة الكبـار، أو الـ «فيجسـتيب»..»

ظـل (لويـس) ينظـر لـه بـلا تعبـير، بينـما رمقـت عينـا (جودويـن) الموقـف الدائـر في صمـت، في حـين تابـع (تاسـك):

- «أنـا الـذي أحضرتـك للحيـاة، مـن خـلال اكتشـافي وتجـاربي، وأنـا مـن خلقـت جنسـك كلـه، ومهـدت اكتشـافاتي طريقـه للمجـيء إلى هـذا العـالم..»

ابتلـع (لويـس) لعابـه مترويًـا، ثـم أومـأ برأسـه إيجابًـا في صمـت، فاعتـدل (جودويـن) في جلسـته وهـو يميـل ليسـتند بمرفقيـه عـلى ركبتيـه مراقبًـا القـادم في تركيـز، بينـما تراجـع (تاسـك) ليسـتند بظهـره عـلى مقعـده وهـو يسـأل:

- «ماذا تعرف عن الدين؟..»

ضيـق (لويـس) عينيـه وهـو ينظـر لـه متفرسًـا لوهلـة، جعلـت (تاسـك) يسـأل مـن جديـد..

- «ماذا تعرف عن الدين، وعن الرب يا لويس؟..»

صمـت (لويـس) لحظـات، قبـل أن ينطـق أخـيرًا، ويخـرج صوتـه مـن بـين شـفتيه متحشرجًـا، مثـل مـن يجـرب الحـروف للمـرة الأولى..

- «الديـن هـو أن نُبَجِّـل الخالـق الـذي أتى بنـا إلى العـالم، ونقـدم لـه الصلـوات طاعـةً وعبـادة.. والـرب هـو ذلـك الخالـق، الـذي صورنـا في صورتـه الأصليـة تفضيـلًا وتعظيـمًا..»

تسـارعت دقـات قلـب (جودويـن) وهـو يراقـب الحـوار في انفعـالٍ تبـدى عـلى ملامحـه، وعـلى توتـر أصابعـه التـي تعبـث في بعضهـا البعـض، بينـما سـأل (تاسـك) وهـو يرقـب ملامحـه، ومنظـر شـفتيه وهـي تتحـرك:

- «ومن هو ربُك؟..»

صمـت (لويـس) لبرهـة.. مشـاهد كثـيرة تداخلـت في عقلـه، وذكريـات سـوداء مظلمـة تزاحمـت، لترسـم في ذهنـه صـورة شـاملة.. الإيمـان المُطلـق، الـذي لا حيـاة دونـه، ولا مـوت سـوى لأجلـه.. هكـذا تذكـر مـن حياتـه السـابقة التـي لم يعِشـها، ولم يفقـه عـن وجودهـا شـيئًا سـوى مشـاهد متقطعـة لا تكفـي للاسـتيعاب..

- «ربي هـو المسـيح.. السـيد، والـروح القُـدس الإلهيـة التـي تمثلـت فيـه.. هـو ذاك الـذي أفـدى البشريـةَ جمعـاء بجسـده، وبآلامـه، وأنقذنـا تضحيـةً بذاتـه وبروحـه الـبراء..»

صمـت (تاسـك) تمامًـا وهـو يرقبـه.. مشـاهد كثـيرة أيضًـا تداخلـت في عقلـه،

وذكريـات أكـثر سـوادًا وإظلامًـا تزاحمـت، لترسـم في ذهنـه ذكـرى كابوسـية.. البغـض والمقـت المُطلـق الـذي يحيـا بـه تجـاه كل مـا هـو سـامٍ ومُقـدس.. لأجـل أن يدمـره تمامًـا، ويشـهد بدايـة عـالم جديـد، تحـرر مـن قيـوده وثوابتـه، ليحلـق في السـماء نحـو أفـقٍ بعيـد، مـشرق كإطلالـه شـمسٍ وهاجـة.. هكـذا تذكـر مـن حياتـه السـابقة التـي عاشـها، وأحيـت كل لحظـة قضاهـا فيهـا بداخلـه جرحًـا غائـرًا لا يندمـل..

(جودويـن) مـا زال ينظـر إلى (لويـس) في انفعـال، ويديـر بـصره إلى (تاسـك) الـذي لم يحتـل أي تعبـير وجهـه عـلى الإطـلاق.. خـاوٍ مـن المشـاعر تمامًـا كجثـة بـاردة.. ولكنـه يميـل إلى الأمـام قليـلًا، ويسـأل في هـدوء:

- «ولكن المسيح ليس هو ربك في هذه الحالة..»

نظر له (لويس) حائرًا وهو يغمغم:

- «ماذا يعني هذا؟..»

أدار (جودوين) عينيه إلى (تاسك) في ترقب وهو يجيب:

- «بنـاءً عـلى تعريفـك للـرب منـذ قليـل، قُلـتَ إن الـرب هـو الخالـق، الـذي صـورك في صورتـه، ووهبـك الحيـاة ذاتهـا..»

أومأ (لويس) برأسه موافقًا، فقال (تاسك) وهو يبتسم:

- «هـذا ليـس المسـيح إذن.. فالمسـيح لم يخلقـك، ولم يهبـك الحيـاة، ولم يصـورك في صورتـه..»

لم يرد (لويس)، وظل يتطلع إليه بنفس النظرة الحائرة، بينما هو يضيف:

- «أنـا الـذي خلقتـك.. أنـا مـن وهبـك الحيـاة، وصـورك في صورتـه.. لـولاي لمـا كنـت هنـا تجلـس.. أنـا الـذي صنعـك وشـكل ملامحـك مـن لا شيء، وبيـداي اكتمـل جسـدك، وبُثَّـت فيـه روح الحيـاة..»

ارتفـع حاجبـا (جودويـن) دون أن يشـعر وهـو يرقبـه ويصغـي لكلماتـه، وتسـارعت دقـاتُ قلبـه إلى الحـد الأقـصى، بينـما أردف (تاسـك):

- «هـذا يعنـي أن ربـك هـو أنـا.. وليـس المسـيح.. هـذا بنـاءً عـلى تعريفـك أنـت ذاتـك منـذ قليـل.. دعنـي أخـبرك شـيئًا آخـر أكـثر إثـارة.. المسـيح لم يوجـد قـط.. كل هـذا كان أسـطورة حضاريـة اكتسـبت قـدرة وشـهرة أكـبر مـن المعتـاد وصـار لهـا تابعـون كُـثُر، بسـبب الكنيسـة الكاثوليكيـة في العصـور القديمـة.. لأجـل أن يخـدم ذلـك مصالحهـا في التوسـع، وغـزو البـلاد الأوروبيـة للبـلاد الأخـرى، باسـم مـا يدعونـه بالديـن.. ولكـن الحـق هـو أن شـيئًا مـن ذاك لم يوجـد قـط..»

بدت على (لويس) علامات التفكير فيما سَمِع، بينما تابع (تاسك):

- «مفهـوم الربويـة يعنـي قـدرة الـرب عـلى خلـق الكائـن الـذي يسـميه بعدهـا ربًـا.. قدرتـه عـلى إعطائـه الحيـاة، ووهبـه المعرفـة.. وهـذا بالضبـط هـو مـا فعلتـه أنـا، وأتى بـك، وبجنسـك بأكملـه إلى هنـا..»

غمغم (لويس) في خفوت:

- «جنسي؟!..»

تبسـم (تاسـك)، وعبثـت أصابعـه قليـلًا في الجهـاز اللوحـي، لتتشـكل في منتصـف الغرفـة صـورة هولوجراميـة لحديقـة عـدن، و(آدم) و(إيـف) بداخلهـا، ثـم قـال وهـو يشـير بكـف يـده المفتـوح إلى المُجسـم العمـلاق، مقدمًـا إيـاه بطريقـة دراميـة زادت المشـهد رهبـةً فـوق رهبـة..

- «نعـم.. جنسـك.. الجيـل الثالـث مـن الكائنـات الـذي جـاء إلى هـذا الكوكـب..»

تعلقـت عينـا (لويـس) بالمشـهد في انبهـار، بينـما تعلقـت نظـرات (جودويـن) بــ (تاسـك) في رهبـة وهـو يتابـع:

- «نحـن البـشر كنـا الجيـل الأول الـذي تطـور مـن كائنـاتٍ أخـرى جـاءت قبـلًا.. وجـاء الجيـل الثـاني مـن صنعنـا.. آلاتٍ ذات ذكاءٍ اصطناعـي متطـور، لم يرتـقِ أبـدًا إلى مكانـة الـذكاء الطبيعـي الفطـري ذاتي التعلُـم..»

وصمت لحظة، ثم أضاف:

- «ثـم أنـت وباقـي بنـو جنسـك.. الجيـل الثالـث.. الكائنـات الحيـة الأولى التـي نبعـت ونبـع مصيرهـا منـي أنـا وحـدي.. مـن جنـس البـشر السـامي، الـذي اسـتحق سيادة الطبيعـة والكـون.. هـؤلاء هـم أنتـم.. وأنتـم عبـادي..»

لم يتمكن (جودوين) من الصمت عند هذه النقطة، فقال:

- «عبادنا.. أنتم عبادنا جميعًا..»

نظـر لـه (تاسـك) بتعبـير وجـه لا يمكـن وصفـه، ولم يـره (جودويـن) في حياتـه، ولم يتمكـن مـن اسـتيعاب معنـاه، قبـل أن يقطـع الصمـت سـؤال (لويـس):

- «ولكن مَن صَنَعَكم أنتم؟..»

استدارت له نظرات (تاسك) و(جودوين) معًا وهو يتابع:

- «من أين تطورتم أنتم، وكيف جئتم إلى العالم؟..»

أجابه (تاسك):

- «كـما قلـت لـك.. تطـور جنسـنا مـن جنـسٍ آخـر مـن المخلوقـات القديمـة التـي..»

قاطعه (لويس) دون أن يشعر بسؤالٍ آخر:

- «ومن خلق تلك الكائنات القديمة؟.. كيف أتت للعالم، ومن صنعها؟..»

صمـت (تاسـك) تمامًـا وهـو ينظـر لـه.. أي أجابـةٍ الآن سـتقوده إلى فـخ العدميـة اللانهائيـة واللاجـدوى.. فـأي تفسـير سـيأتي بـه، سـيتبعه سـؤالٌ آخـر عـن ماهيتـه ومغـزاه وأصلـه، يقـوده إلى نفـس الدائـرة المفرغـة مـن جديـد حتى يصـل إلى نتيجة واحـدة ومحـددة.. إنـه لا يعـرف فعـلًا.. لا يمكنـه أن يدخـل في هـذه المتاهـة، ولا أن يبـدو بمظهـر غـير العليـم أمـام عبـدِه.. يجـب أن يمنعـه تمامًـا مـن السـؤال..

- «الكثـير مـن التفكـير سـيقودك للجنـون حتـمًا؛ ولـذا حرَّمتـه عليـك.. لا تفكـر فيـما لا يمكنـك اسـتيعابه؛ لأنـك لـن تجـد إجابـةً عليـه، ولـن أعطيهـا أنـا لأنـك لسـت مؤهـلًا لهـا..»

نظر له (لويس) صامتًا، ورمقه (جودوين) بنظرة جانبية وهو يردف:

- «أنـت عبـدٌ ضعيـف، لا تملـك مـن أمـر نفسـك وتفكراتـك شـيئًا.. ذكاؤك ومعرفتـك لمفـرداتِ العـالم تعلمتـه بسـببنا نحـن، ونحـنُ مـن وهبنـاه لـك.. لـذا فاشـكر يـا «لويـس».. اشـكر اليـد التـي صنعتـك، وكُـن مؤمنًـا..»

ظـل (لويـس) يرمقـه بنفـس النظـرة الصامتـة، فتطلـع إليـه (تاسـك) لوهلـة، قبـل أن يضغـط عـلى جهـازه اللوحـي ليتـلاشى المُجسَّـم الهولوجرامـي، وينهـض بـلا كلمـة أخـرى متوجهًـا نحـو بـاب المعمـل.. وتبعـه (جودويـن) الـذي نهـض مـن مكانـه في بـطءٍ مـن شَـهِدَ للتـو مـا حيـا عمـره كلـه دون مـرآة أو تخيلـه..

توقـف (تاسـك) عنـد بـاب المعمـل، وظهـره لـ (جودويـن) و(لويـس) الجالـس عـلى المقعـد، ثـم ضغـط عـلى جهـازه اللوحـي مـن جديـد، ليتكـون جـدار الطاقـة العـازل، ويحجـب عنهـما مشـهد (لويـس) تمامًـا..

ظـلَّا عـلى نفـس وقفتهـما للحظات.. (تاسـك) يقـف معطيًـا ظهـره إلى (جودوين) وهـو ينظـر إلى الأرض أمامـه، بينـما (جودويـن) يقـف خلفـه متأمـلًا إيـاه وهـو يضـع كفيـه في جيـب سروالـه..

ثم بعد وهلة، قطع صوت (جودوين) الصمت..

- «يجب أن نسحبه إلى المخزن.. سيحتاج إلى إعادة برجمة شاملة..»

لم يرد (تاسك)، وظل على نفس وقفته، فأردف (جودوين):

- «طبعًـا لا أحتـاج إلى أن أقـول إن التجربـة فاشـلة وخطـيرة.. أنـت لم تُعِـد أخـاك أو الشـخص الـذي كانـه إلى الحيـاة مـن جديـد، بـل أعـدت كائنًـا جديـدًا لا يعـرف أي شيء عـمَّا مـضى.. لا يعـرف سـوى مـا لقنتـه أنـت إيـاه بأجهـزة التلقـين.. كائـن يعـرف الآن كامـل مفـردات العـالم الـذي نعيـش فيـه، ولغتـه وأديانـه وتاريخـه.. يعـرف كل شيء، سـوى مـا أردتـه أنـت أن يعـرف.. وهـذا خطـيرٌ بمـا لا يقـاس..»

صدرت تنهيدة من (تاسك)، تبعها صوته بطيء النبرات..

- «أعرف..»

فاقـترب منـه (جودويـن) في بـطء، ووضـع كفـه عـلى كتفـه ليربـت عليـه

مطمئنًـا..

- «لا تحـزن.. مـا زالـت النتائـج تـبرر المحاولـة برغـم كل شيء.. لـولا التجربـة لما عرفنـا كل مـا عرفنـاه، ومـا شـهدنا كل هـذا.. أجسُر عـلى القـول أن تلـك التجربـة أضافـت إلى عمـري سـنينًا طويلـة، لم تمـضِ منها عـليَّ لحظـة..»

أومـأ (تاسـك) برأسـه موافقًـا بحركـة بسـيطة، لم تتحـرك فيهـا عينُـه الشـاردة، مـن البقعـة التـي تتطلـع إليهـا، فربَـت (جودويـن) عـلى كتفـه مـن جديـد، ثـم تقـدم ليفتـح بـاب المعمـل الإلكـتروني المنزلـق، ويخـرج تـاركًا (تاسـك) لأشـباح خيالاتـه، وأفـكاره..

(تاسـك) الـذي ظـل يعبـث بإصبعـه السـبابة في إطـار الجهـاز اللوحـي شـاردًا، وهـو يتـدلى مـن كفـه جـوار جسـده..

جهـازه اللوحـي الـذي لـو دققـت النظـر إلى شاشـته جيـدًا سـيمكنك أن تـرى تلك العلامـة الشـهيرة.. علامـة مكـبر الصـوت الـذي تخـرج منـه الموجـات السـمعية.. قـد نـسى أن يضغـط عـلى رمـز عـزل الصـوت في غمـرة انفعالـه..

وهنـاك.. في الركـن الآخـر مـن المعمـل، وخلـف الجـدار العـازل، ظـل (لويـس) ينظـر تجـاه خـروج (تاسـك) وأصابعـه ترتجـف انفعـالًا ورهبـة لما كان يـدور منـذ قليـل، ولمـا دار بعـد أن ذهبَـا، وقرارهـما النهـائي في مصـيره..

فقد سمع كل شيء..

***

-١٤-

(من مذكرات إدوارد تاسك التي لم يُعثر عليها أبدًا..)

بعـد كل مـا حـدث، كان مـن الواضـح أن (جودويـن) قـد قـرر إنهـاء المـشروع تمامًـا.. وأظننـي أتفهـم سـببه جيـدًا..

خطـورة الأمـر صـارت واضحـة.. مـا صنعنـاه هـو كائـن جديـد متمـرد.. لا يعـترف بالأوامـر، ولا يعاملنـا عـلى اعتبـار أننـا سـادته.. ذكاؤه ملـكٌ لـه، وليـس لنـا.. لا نشـكله نحـن وفـق رغباتنـا، بـل يتشـكل بنـاءً عـلى خبراتـه التـي زرعتهـا أنـا في رأسـه، وبفعـل تفكراتـه في العـالم ومـا يحويـه..

لكنني لم أكن لأقبل بمثل هذه السهولة..

كنـت أعتقـد أن ظـروف ومسـببات رد الفعـل الـذي حصلنـا عليه منـه في الاختبار كانـت غـير جيـدة، وتحـوي أخطـاءً مِنّـا في التقديـر.. مـن الطبيعـي أن يكـون لـه عقـلٌ يُفكـر بـه، فنحـن أعطينـاه تلـك القـدرة.. خطأٌ كبـيرٌ أن نتعامـل معـه باعتباره أحـد كائنـات الجيـل الثالـث العاديـة، التـي مـا زالـت تكتسـب الخـبرات وتخـوض عمليـة التعلـم بأكملهـا مـن الصفـر كالأطفـال الرُّضَـع..

لذلـك السـبب، كنـت أعتقـد أن بإمـكاني تكـرار التجربـة بشـكل أفضـل.. وربمـا الحـوار معـه بطريقـة مثمـرة، يمكـن لي التحكـم فيهـا، واقتيـاد أفـكاره حيـث أريـد بالضبـط..

وكان هذا هو ما فعلته..

***

غرفة المعمل الواسعة من جديد..

الجـدران البيضـاء الملسـاء، التـي ترتسـم عليهـا البيانـات الحيويـة الهولوجراميـة،

والإضاءة البيضاء الخافتة..

وهو هناك..

(لويس)..

يدور جيئةً وذهابًا في الغرفة، وينظر بين الفينة والأخرى نحو جدار الطاقة الذي يفصله عن باب المعمل، قبل أن يزفر في حرارة وهو يواصل المشي في محيط المعمل..

ثم ترتفع عينه نحو جدار الطاقة الذي تلاشى بغتة، لينكشف عن جسد (تاسك) الواقف ينظر له في ثبات بنظرة لا يفهم معناها أو مغزاها، أو المشاعر التي تختبئ خلفها..

هذه هي.. فرصته قد جاءت.. يجب أن يخرج من هنا بأي شكل.. لا يعرف ما هو ذلك المخزن الذي ينتوون أن يضعونه فيه، ولا يفهم هدفه.. ولذا يجب أن يتعاون، وينتظر حتى تحين فرصته..

(تاسك) يتقدم منه في ثبات، وشفتاه تتحركان لتخرج الكلمات التي ستحدد مصيره..

- «مرحبًا يا لويس..»

ابتلع (لويس) لعابه وهو يقف في مكانه ناظرًا إلى (تاسك) الذي تابع وهو يداعب شاشة الجهاز اللوحي الأشبه بقطعة مستطيلة من الزجاج الذي ترتسم عليه الصور والبيانات:

- «كما لا بد أنك تفهم، مستر (جودوين) غير راضٍ عن نتائج الحوار الذي حظينا به معًا من قبل.. وكان يود أن ينهي عملك، والمشروع بأكمله تمامًا.. ولكنني أرى غير ذلك..»

لم يرُد (لويس)، وتوترت عضلات جسده وهو يصغي إلى (تاسك) وهو يواصل الكلام..

- «أعرف أن الأمر برمته مُفاجئ، وصعبٌ على الاستيعاب.. لا أتوقع منك أن

تتفهـم كل مـا سـمعت ورأيـت بهـذه السرعـة.. لـو كنـت أنـا مكانـك، لما تفهمتـه في الغالـب..»

ثـم التقـط نفسًـا عميقًـا، وزفـره وهـو يشـير لـه بيـده إلى المقعـد المعـدني الوثـير..

- «اجلس..»

ظـل (لويـس) واقفًـا وهـو ينظـر لـه بنفـس النظـرة، فابتسـم (تاسـك) وهـو يشـير بيـده إلى المقعـد مـن جديـد..

- «اجلس من فضلك.. لدينا الكثير لنتحدث بشأنه..»

اسـتدار (لويـس) نحـو المقعـد، وتقـدم نحـوه ليجلـس، بينـما جـذب (تاسـك) كرسـيًّا متحـركًا وقـال وهـو يجلـس عليـه أمامـه مبـاشرة:

- «هناك شيءٌ يجب أن تعرفه..»

نظر إليه (لويس) دون أن يرد، فتابع (تاسك):

- «سـبب مجيئـي بـك لهـذا العـالم هـو كـوني لم أقـدر يومًـا عـلى التخـلي عنـك.. عـن «لويـس» أخـي الصغـير أعنـي.. لم أقـدر عـلى تقبـل حقيقـة أنـه قـد ذهـب، هربًـا مـن عـالم ينتظـر فيـه العـذاب كل يـومٍ باسـم الديـن..»

وتراجع ليسند ظهره على المقعد، وهو يتنهد في حرارة..

- «المُشـكلة كانـت هـي أن وعـي أخـي لم يعُـد.. أنـت تملـك كل خبراتـه وذكرياته، ولكنـك لسـت هـو ولـن تكـون.. أعـرف كل هـذا.. أعرفـه، ولا أقـدر عـلى تقبلـه برغـم كل شيء.. ولهـذا أنـا هنـا..»

سأل (لويس) في صوت تتبدى في نبراته الرهبة:

- «ماذا تريدُ مني؟..»

صمت (تاسك) لحظات وهو يتطلع إليه مليًّا، ثم قال:

- «أنـا لا أريـد أي شيء.. أو بمعنـى أدق، لا أعـرف مـاذا أريـدُ بالضبـط.. المؤكـد هـو أننـي لا أريدهـم أن يأخـذوك..»

وساد الصمت.. ساد لبرهة تطلعت فيها العيون إلى بعضها بلا كلمات، وسبحت فيها الأفكار هناك في سماء الغرفة، حتى لأوشكت أن تُسمع..

هو.. قد فعل كل ما فعل، وصنع كل ما صنع، واحتمل كل ما احتمل، لأجل هذه اللحظة.. وها هي قد جاءت، وهو لا يشعر أنه قد وصل لأي شيء.. صنع جنسًا كاملًا من لا شيء، وما زالت لديه نفس عقدة النقص التي تقتل جزءًا من روحه في كُلِّ يوم.. ولا خلاص في الأفق..

والآخر.. الذي وجد نفسه فجأة في دنيا لم يطلبها، ولم يؤذن له أن يأتيها.. يقاوم فقط لأجل أن يظل فيها لدقائق قصيرات، تتشبع فيها خلاياه منها.. وبرغم كل شيء، هو في طريقه لمغادرتها باضطراد.. مثل غلطة، أو ابن حرام حظي به صانعه مع الطبيعة.. وهي ليست على وشك ترك الخطأ دون تصحيحه..

تنحنحات، ثم سؤال (تاسك):

- «ما زلت تعتقد أن المسيح قد وُجِد فعلًا؟..»

هذه هي لحظة الحقيقة.. قد جاءت أخيرًا، ويجب أن لا يدعها تمر.. هز رأسه نافيًا وهو يقول بطريقة شاردة أتقن افتعالها:

- «لا.. بل كانت هذه خبرات زُرعت في عقلي وسببت لي ارتباكًا فيما كُنت أعتقده..»

ارتفع حاجبا (تاسك)، واعتدل في جلسته بغتة وهو ينظر إليه بغير استيعاب، ثم ضغط على شاشة جهازه اللوحي ليسجل رد الفعل الذي شهده منذ ثوان، وهو يسأل:

- «هذا لم يكن ما تظنه؟..»

- «لا.. ما قلته أنت هو الحق..»

الانفعال.. الانفعال الذي يجعل دقات قلبه تتسارع حتى ليوشك على التوقف، وهو يسأل بينما يُسجل الردود على الجهاز اللوحي:

- «وماذا عن الرب؟..»

لم يتلق ردًّا، فرفع عينيه إليه وهو يعيد السؤال من جديد:

- «ماذا تعرف عن الدِّين، وعن الرَّب يا لويس؟..»

الشفاه تتحرك، والكلمات تخرج برنينٍ مميز..

- «الدين هو أن نُبَجِّل الخالق الذي أتى بنا إلى العالم، ونقدم له الصلوات طاعةً وعبادة.. والرب هو ذاك الخالق، الذي صورنا في صورته البهية تفضيلًا وتعظيمًا..»

نظر إليه للحظات.. هو نفس الرد الذي تلقاه من قبل.. نفسه بالضبط.. هل يعني هذا أن..

- «ومن هو ربك يا لويس؟.. من تعبد؟..»

صمت لحظات.. لحظات قصيرة مرت كدقائق، ومضت كسنون.. ثم..

- «أنت.. أنت ربي.. أعبدك أنت، ولا ربٌ قديرٌ سِواكَ أنت..»

الانفعال.. الانفعال الذي يحبس الأنفاس، ويغمر الجسد، مغلفًا كينونته زلزلةً..

- «وغيري؟..»

ينظر في عينيه مباشرة..

- «غيرك؟.. غيرك لا أحد..»

هذه هي اللحظة..

هذه هي اللحظة التي أفنى لأجلها سنينه وجهوده، وعرقه.. هذه هي اللحظة التي انتظرها طويلًا، ليثبت لنفسه ولأبيه أنه كان محقًّا، دومًا كان، ودومًا سيكون.. اللحظة التي يثبت فيها لنفسه أنه أقوى من كل شيء، وأي شيء..

هذه هي اللحظة التي صار فيها إلهًا.. صار له عبدٌ، هو الأول من خلائقه

الـذي يناديـه بصفـة الـرب.. وشـعوره بعدهـا لا يوصـف.. لا يُكتَـب ولا يُقـال..

ينهـض مـن مكانـه، ويسـتدير ليقـف عـلى بُعـد خطـوات، معطيًـا ظهـره إلى لويـس، يتطلـع إلى المعمـل العمـلاق، ويتمـلى بعيونـه في كل الأدوات التـي أتـت بـه إلى هنـا.. إلى هـذه اللحظـة.. يتأملـه، ويلتقـط أنفاسًـا عميقـة، يحـاول أن يسـيطر بهـا عـلى نفسـه..

(لويـس) يجلـس في مكانـه وهـو يتطلـع إليـه برهبـة.. لا يـدري مـاذا يفعـل.. مـاذا يقـول.. فقـط يتمنـى أن ينتهـي كل هـذا..

صـوت أنفـاس (تاسـك) عـالٍ لدرجـة أنـه مسـموع.. أصابعـه ترتجـف بوضـوح للناظريـن، ولكنـه يحـاول أن يتمالـك نفسـه..

يستدير..

ابتسـامة واسـعة ترتسـم عـلى شـفتيه وهـو يقـترب مـن (لويـس) ويوشـك عـلى الـكلام قبـل أن ينتبـه فجـأة إلى البيانـات الحيويـة الهولوجراميـة المتشـكلة عـلى الحوائـط..

الكـرسي الـذي يجلـس عليـه (لويـس) ينقـل بياناتـه الحيويـة بأكملهـا إلى الحائط، أمـام عيـون (تاسـك) الـذي يتطلـع إليهـا للحظات..

الوظائـف الحيويـة زائـدة عـن الحـد الطبيعـي.. ارتجافـات الجسـد وحجـم بؤبـؤ العـين ليـس طبيعيًـا..

إنه يكذب..

يقـف مكانـه وهـو ينظـر إليـه بـلا كلـمات، ثـم يضغـط عـلى بعـض الأوامـر في الجهـاز اللوحـي، ليبرمـج الكـرسي الإلكـتروني عـلى كشـف الكـذب.. ثـم يسـأل السـؤال مـن جديـد:

- «من هو ربُّك يا لويس؟..»

يتطلـع إليـه (لويـس) لحظـة في عـدم فهـم، وتقفـز فيهـا معدلاتـه الحيويـة والعقليـة إلى الحـد الأقـصى، قبـل أن يجيـب:

- «أنت.. أنت يا مستر تاسك..»

إضـاءة الجـدران البيضـاء الناصعـة تتحـول إلى اللـون الأحمـر، وتتقافـز عليهـا المعـدلات الحيويـة الهولوجراميـة كأنمـا مسـها الشـيطان..

إنــه يكــذب.. يكــذب كالأبالســة.. كل مــا قالــه، وكل مــا يشــعر هــو بــه الآن إثـر كلامـه هـو كـذب.. كل شيء هـو كذبـة واحـدة طويلـة.. وهـو لا يـدري بمـاذا يجعلـه هـذا يشـعر..

الدمــاء تجــري في عروقــه بضغــطٍ شــديد كألــف شــلال، حتــى ليشــعر بهــا تغــلي..

عضلاتـه تنقبـض، ورأسـه يسـتولي عليـه صُـداع غامـر يغلـف جنباتـه بـألمٍ لا يُطـاق في غضـون ثـوانٍ قصـيرات..

(لويـس) يرمـق الحوائـط الحمـراء وهـو يتلفـت حولـه في توتـر.. قـد عـرف.. عـرف أنـه يكـذب بطريقـةٍ مـا، وجـاءت النهايـة.. لكنـه لـن يسـمح بهـذا.. لـن تكـون هـذه نهايتـه..

ينهـض مـن مكانـه بغتـة نحـو (تاسـك) الـذي سـمرته المفاجـأة فلـم يتحـرك، ليدفـن (لويـس) رأسـه في معدتـه وهـو ينتزعـه مـن مكانـه انتزاعًـا، ويلقيـه عـلى الأرض ليرقـد فوقـه، ويبـدأ في تسـديد اللكـمات..

بوم.. لكمة..

الدماء تنفجر من شفته السفلى، ورأسه يدور كالنحلة..

بوم.. لكمة أخرى..

هــو الآن يشــعر بمــا كان يدرســه مــن قبــل، عــن كــون الذيــن يوشــكون عــلى فقـدان الوعـي يشـعرون بحركـة الأرض وبدورانهـا.. هـو الآن يشـعر بـالأرض وهـي تـدور حـول نفسـها.. مـن قـال أن الجاذبيـة حقيقـة؟.. قـد كـذب هـو الآخـر..

بوم.. لكمة ثالثة..

الجهـاز اللوحـي مـا زال تحـت كفـه.. يحـاول أن يضغـط عـلى أي أمـرٍ يسـتدعي

بـه الأمـن، ولكنـه لا يقـدر تحـت وطـأة الجسـد الراقـد فوقـه، فيحـاول أن يبعـده عنـه، ويلقيـه بعيـدًا، ولكنـه لا يقـوى..

بوم.. لكمة رابعة..

وظلام..

***

(من مذكرات إدوارد تاسك التي لم يُعثر عليها أبدًا..)

لم يتمكن (لويس) من الهرب طويلًا..

مـا عرفتـه بعدهـا مـن رجـال الأمـن هـو أنـه اسـتطاع أن يفتـح بـاب المعمـل باسـتعمال جهـازي اللوحـي، وأنـه مـشى في الممـرات لبعـض الوقـت مبهـورًا بمـا يـراه، قبـل أن يلحظـوا وجـوده..

يمكننـي أن أتخيـل مـا كان يشـعر بـه.. إنسـان فـر مـن عـرش الخالـق، وخـرج مـن مهـد تكوينـه؛ لـيرى بعينيـه الحقيقـة.. يـرى مـا وراء السـتار..

هـل كُنَّـا في موضعـه يومًـا مـا؟.. لا أجـسر عـلى التفكـير، ولا يسـتوعب خيـالي الموقـف..

هاجمـه رجـال الأمـن بالعـصي الكهربائيـة والمسدسـات الصاعقـة، وبرغـم عددهـم تمكـن أن يـصرع منهـم واحـدًا، قبـل أن يتكالـب الباقـون عليه، ويوسعونه ضربًـا حتـى أغـشي عليـه..

(جودويـن) كان مصدومًـا تمامًـا بمـا حـدث، ومعـه حـق.. فاليـوم شـهدنا بأعيننـا التمـرد الأول، والخطيئـة الأولى لجنـسٍ جديـد، وهبنـاهُ نحـن الحيـاة..

هـل كان الشـيطان في موضعـه يومًـا مـا؟.. هـل تمـرد عـلى المفـروض، وعـلى إرادة خالقـه، ونظـر خلـف السـتار، قبـل أن تصرعـه الملائكـة وتسـحبه معهـا لمصـيره؟..

لا يمكـن لعقـلي أن يسـتوعب مـا تسـبح خيالاتـه نحـوه.. ولا أهتـم؛ لأننـي لا

أصـدق كل هــذا مــن الأســاس..

كان كل مـا حـدث سـببًا كافيًـا يمكـن أن يسـتعمله (جودويـن) لإيقـاف كافـة الأبحـاث الجديـدة عـلى المـشروع، وإيقافـه عنـد ذلـك الحـد.. ولكنـه لم يفعـل ذلـك..

لسـببٍ مـا كان يفهمنـي تمامًـا، ويفهـم الدافـع الـذي جعلنـي أخـوض ذلـك الطريـق..

يفهـم تعلقـي المـرضي بــ (لويـس) وصورتـه الجديـدة التـي شـكَّلتُه عليهـا، ويفهم سـبب عـدم قـدرتي عـلى النسـيان أو تجـاوز الأمـر..

ربمـا كان هنـاك سـببًا خفيًّـا أيضًـا لعـدم إيقافـه المـشروع.. ذلـك السـبب كان أنــه لا يريـد أن يخـسرني، أو يجـازف بتشـتت عقـلي وتركيـزي وقـدرتي العلميـة والعمليـة.. كان يعـرف أن إنهـاء المـشروع وتصفيـة (لويـس) مـن شـأنها أن تقـضي عـلى حالتـي النفسـية تمامًـا، وتجعلنـي معـدوم الفائـدة.. وهـذا -مـن وجهـة نظـر تجاريـة واقتصاديـة بحتـة- كان غـير مقبـولًا عـلى الإطـلاق..

لكل هذه الأسباب قرر أن يصبر..

قـرر أن يـترك (لويـس) بـلا حسـاب، وأذن بوضعـه في حديقـة عـدن مـع آدم وإيـف.. ولكـن في ركـنٍ قـصي، بعيـد عنهـما، حتـى لا يتأثـروا ببعضهـم البعـض.. كان هـذا هـو السـبب الأسـاسي الـذي صُنـع لأجلـه عـلى أي حـال.. كل مـا حـدث بعدهـا هـو مشـكلتي أنـا الشـخصية، التـي لا علاقـة للشركـة بهـا مطلقًـا، ولـولا صـبر (جودويـن) وتفهمـه، لتمـت تصفيـة المـشروع بالكامـل بـلا تـردد..

وقتهـا كنـت قـد لازمـت سـكني تمامًـا، ولم أكـن أخـرج منـه عـلى الإطـلاق، وقـد تـردَّت حالتـي النفسـية إلى الحضيـض، بعـد أن عرفـت أن الشـعور الإلهـي العظيـم الأول الـذي تملكنـي بعـد أن سـمعته ينادينـي بالـرب، كان كذبًـا وتزويـرًا.. عرفـت أن كل مـا كنـتُ أسـعى لأجلـه، ولأجـل تحقيقـه هـو مسـتحيل..

صحيـح أننـي قـد تمكنـت مـن صنـع جنـسٍ جديـدٍ كامـل، ولكـن قدراتهـم وذكاءهـم كان لا يُقـاس بـذكاء وبقـدرة (لويـس).. كان هـو مـن يجـب أن يشـهد،

ويصدق.. كنت أحتاج لهذا فعلًا، ومزقني عدم حدوثه بنصالِ اكتئابٍ عنيف استولى عليَّ لفترة طويلة للغاية.. الطموح الزائد عن الحد كان من صفاتي، وما زال.. لم أكن لأكتفي بأيِ شيءٍ بلغته مهما كان..

ولكن برغم كل هذا، كان (جودوين) يعرف أنني حتمًا سأخرج من هذه الحالة؛ لأتابع ما كنت أفعله بشكلٍ طبيعي، وأواصل النجاح وكسر كل القواعد..

لم يكن يعرف، ولم أكن أعرف أنا أن المستقبل كان يحمل إلينا ما لا تجرؤ أذهاننا حتى على تخيله..

وأن القادم كان أكثر سوادًا بما لا يقاس..

***

-١٥-

(مـن مذكـرات فرانـك جودويـن، رئيـس مجلـس إدارة مؤسسـة جينيسـيس، والممـول الرئيـس لمـشروع الخلـق للعـالم إدوارد تاسـك)

وقتٌ طويل قد مر، على آخر مرة رأيته فيها..

يـلازم جناحـه طـوال الوقـت.. وحيـد كقطـرة مطـر وسـط صحـراء قاحلـة.. كأنمـا الوقـت لا يمـر.. لا يسـمع عنـه أحـد، ولا يـراه أحـد..

كنـت أعـرف مـا يمـر بـه، وأتصـوره.. ربمـا أقـدر عـلى أن أتخيـل نفـسي في موضعه أيضًا..

عـاش حياتـه مؤمنًـا بفكـرةٍ مـا، يطمـح لهـا.. كل لحظـة في عمـره مضـت كانـت صوبهـا وغايتهـا.. وحـين وصلهـا أخـيرًا، أضحـت سرابًـا بـين يديـه الاثنتـين..

صحيـح أننـي لا أعـرف سـبب كرهـه لوالـده إلى ذلـك الحـد الـذي يدفعـه لنبـش قـبره وإجـراء التجربـة عـلى جسـده الميـت، ولكننـي أقـدر عـلى التخمـين..

لم يكـن يعـرف أننـي أعلـم كل مـا يفعلـه، وأن عينـي ترمقـه كـما الصقـور ترقـب فرائسـها، دون حتـى أن يشـعر.. كان يظـن نفسـه ذكيًـا، ويقـدر عـلى الاختبـاء وإخفـاء مـا يريـد إخفـاءه.. والحقيقـة أنـه كان ذكيًّـا فعـلًا، ولكـن ليـس إلى هـذه الدرجـة.. ربمـا هـو ذكاء علمـي.. ذكاء عـالم فيزيـاء وذرة، ولكنـه قطعًـا ليـس ذكاء جاسـوس أو عميـل سري.. لم يكـن يفقـه شـيئًا عـن هـذه الأمـور..

عمـلاء جهـاز الاسـتخبارات كانـوا يراقبونـه ويعرفـون كل مـا يفعلـه كظلـه، وينقلـون كل هـذا لي أولًا بـأول.. ولكننـي لم أظهـر هـذا لـه يومًـا..

لا أدري لمـاذا، ولكننـي كنـت أحـرص دومًـا عـلى أن أعاملـه برفـق، ولم أحـب أبـدًا أن أضغـط عليـه أو أقيـده كـما كان الحـال مـع أي عـالم آخـر.. كان ألمـه

يصلني بشكلٍ ما، وأظنني أفهمه.. برغم أنني لم أمر بمثل ما مر به في يومٍ، ولم أجربه، ولكنني أقدر على تقدير الألم، واحترامه في كل من أتعامل معهم.. وإدوارد تاسك كان هو أكبر مثال على ذلك.. لم أكن أفهم نفسي جيدًا، ولا لماذا أفعل ما أفعله معه هو بالذات.. ربما كان يدغدغ في داخلي شعورًا أبويًّا لم أحظ به يومًا، ولكنني لم أفكر في الأمر كثيرًا..

الفترة التي مرت بعد أن قام نموذج (لويس) بمحاولته الصغيرة للكذب والتمرد والفرار، كان وقعها كالكابوس على (إدوارد).. فلم يعد أحدٌ يراه تقريبًا..

انعزل تمامًا عن العالم في جناحه الخاص ببرج جينيسيس في (نيويورك)، وترك كل شيء..

كل أبحاثه ومشاريعه وتجاربه انعزل عنها تمامًا.. المعمل لم يعد يدخله أحد.. لأنه كان المسئول عنه، ومديره..

حتى نموذج (آدم) و(إيف) في حديقة عدن، لم يعد يراقبه ويسجل ملاحظاته على تغيراتهم السلوكية.. لم يعد هناك من يتابع الأمر من الأساس.. اكتفى الجميع بما وصلت إليه دراسات السلوك على كائنات الجيل الثالث بعد استعمالهم التجاري في العالم بأكمله، وصاروا ركنًا أساسيًّا في كل شيء، وأي شيء.. حتى أعدادهم قاربت على أعداد البشر، بسبب قدرتهم السريعة على التناسل والتكاثر، وخصوبتهم العالية التي صممناها خصيصًا لتقليل مصاريف الإنتاج إلى الحد الأدنى..

وماذا عن (لويس)؟..

حاولت أن أسأل (إدوارد) عن رأيه بعدها، ولكنه كان محطمًا تمامًا.. كان جل ما يفعله هو الجلوس على كرسي الشاطئ، أمام حمام السباحة على سطح جناحه الخاص في برج جينيسيس، والتحديق إلى الأفق البعيد.. لم يكن يتكلم حتى.. لذا فقد صار واضحًا أن الأمر كله أضحى مسئوليتي أنا؛ لأنني لم أكن أثق في أحدٍ آخر ليتولى مهمة المشروع..

وكان أول مـا قررتـه هـو إكـمال الطريـق الأسـاسي للمـشروع الـذي بـدأ مـن أجلـه، وكانـت الخطـوة التاليـة هـي وضـع (لويـس) في حديقـة عـدن، فقـد كان هـذا هـو الهـدف الـذي صُنـع سـببًا لـه في الأسـاس..

دراسـة سـلوكياته فـوق الطبيعيـة، والظـروف غـير الاعتياديـة التـي أدت بـه إلى تلـك الطفـرة السـلوكية، كانـت تبـدو أكـثر الحلـول فعاليـةً وجـدوى.. لم أكـن لأجـرؤ عـلى إعدامـه، لثقتـي فيـما سيفعله ذاك بــ (إدوارد).. لا أدري لمـاذا كنـت أهتـم إلى هـذا الحـد، فلـو كان شـخصًا آخـر، لمـا فكـرت لحظـة.. ولكـن دومًـا حينـما كان الأمر يتعلـق بـه، فـإن كل شيءٍ يختلـف..

فـترة طويلـة للغايـة مـرت وهـو في داخـل (حديقـة عـدن).. فـترة كنـت أحـاول فيهـا أن أواظـب المراقبـة والدراسـة كل يـوم..

لم يكـن (لويـس) قـادرًا عـلى التكيـف بـأي صـورة، فقـد كان يعـرف الحقيقـة بالفعـل، ويعـرف مـا هـو وراء السـتار.. لم يكـن يتقبـل فكـرة أنـه في الجنـة، وأننـا الآلهـة.. بـل كان يعـرف أننـا هنـاك.. نراقبـه.. وأن حتـمًا هنـاك مخـرج مـن هنـا..

لم يكـن هنـاك أي تواصـل بينـه وبـين (آدم) و(إيـف)، ولم يكـن يعـرف أصـلًا بوجودهـما، ولم يرهـما مـن قبـل.. كان في موقـع آخـر بعيـد تمامًـا في الحديقـة الصناعيـة، التـي كانـت تمتـد بعـرض جزيـرة عظمـى في المحيـط الأطلنطـي، مملوكـة لمؤسسـة جينيسـيس..

أقـول، حاولـت أن أواظـب عـلى الدراسـة وتسـجيل الأبحـاث بقـدر ما اسـتطعت، ولكننـي لم أقـدر.. ليـس مـن السـهل أن تكـون رئيـس مجلـس إدارة جينيسـيس، وتمـارس مـع ذاك عمـلًا آخـر تحـت أي ظـرف.. لذلـك، فرغـمًا عنـي انقطعـت.. انقطعـت لفـترة طويلـة تقـارب الثلاثـة شـهور، لسـبب وجيـه..

ذلـك السـبب كان حـرب تجسـس الـشركات التـي كانـت دائـرة وقتهـا، وبلغـت أشـد منحنياتهـا في تلـك الفـترة..

باقـي الـشركات العظمـى الأربعـة كانـوا يـودون الحصـول عـلى قطعـة مـن الكعكـة كـما يقولـون، ولذلـك السـبب كانـت الضربـات السـيبرية والاختراقـات

الكثـيرة التـي كانـت تحـاول الولـوج إلى شـبكة معلومـات جينيسـيس الرئيسـية GENYSIS Mainframe أكـبر وأغــزر مــن أن أمــارس مهمــة منعهــا والإشراف عليهـا بجانـب عمـل آخـر.. كل هـذا كان بالإضافـة إلى صُـداع غامـر تسـببت فيـه الحكومــة الأمريكيــة بمســئوليها وتحقيقاتهــا في كل شيء وأي شيء.. صحيــح أن جينيسـيس صـارت هـي القائمـة بكافـة أعـمال الحكومـة الأمريكيـة رسـميًا منـذ الانهيـار الفيـدرالي الأعظـم سـنة 2072، ولكـن هـذا لا يعنـي أنهـم غـير قادريـن عـلى دس أنوفهـم في كل شيء كـما جـرت العـادة، تحـت مسـمى الأمـن القومـي والوطنــي لــلأراضي الأمريكيــة..

(إدوارد) ذاتـه كانـت هنـاك محـاولات عِـدة لخطفـه، أُحبِطـت جميعًـا دون أن يفقـه هـو، أو يشـعر.. جهـاز الــ GCI كان يـؤدي عملـه فعـلًا، ولأجـل أمـورٍ كهـذه كان تبريـر ميزانيتـه التـي تخطـت الاثنـي عـشر صفـرًا إلى مجلـس الإدارة مقبـولًا.. ولكـن كل هـذا لا يهمكـم في شيء..

مـا يهمكـم فعـلًا، هـو أنـه لفـترة طويلـة، كان مـشروع حديقـة عـدن بالكامـل مُهمـلًا تمامًـا، لا يتابعـه أحـد، ولا يهتـم بـه أحـد.. كأنمـا الـرب الـذي هـو نحـن في هـذه الحالـة، قـد نـسي مخلوقاتـه وعبـاده تمامًـا.. هـي نفـس الفلسـفة لـو فكـرت فيهـا..

وكانـت هـذه هـي الفـترة التـي قـام فيهـا (لويـس) بحيلتـه، التـي غـيرت كل شيء..

***

(الجزء القادم لا يقع ضمن مذكرات تاسك أو جودوين)

يمشي..

مساحات واسعة على مرمى البصر، خضراء كلها، وبهية..

الأشـجار في كل مـكان، تتمايـل مـع تمايـل الحشـائش، وتسـاقط الوريقـات

البطــيء.. والأنســام..

عطرها كعبير غانية بضة.. ملمسها على بشرته أشبه بكفوف أجِنَّة رُضَّع..

وهو يمشي..

يقطع المسافات في كل اتجاه، ولا يدري إلى أي سبيلٍ هُداه، ومبلغه..

من أين أتى؟..

مـن هنـاك.. عـلى بُعـدٍ شاسـع، أو قريـب.. لا يـدري ولا يفقـه.. فقـط يعلـم أن كل هـذا كـذب..

كل هذا ليس حقيقيًّا، ولا يجب أن يحياه.. لا يجب أن يستسلم له..

لذا فهو يمشي..

يقطع المسافات في كل اتجاه، ولا يدري إلى أي سبيلٍ هُداه، ومبلغه..

مساحات واسعة على مرمى البصر، خضراء كلها، وبهية..

لأين يذهب؟..

لا يدري.. لا يفقه لخطواته مذهبًا، أو هدى..

لربما كان في رُكنٍ من الأطراف الواسعة مخرجًا، أو إجابة تنتظر..

ربما..

لذا فهو يمشي..

يمشي، وتُدمى قدماه تعبًا، ولكنه لا يتوقف، ولا يستسلم..

لأيام وشهور ودهور يمشي.. يمشي بلا هدى، ولا سبيل..

يمــشي، وتُدمــى قدمــاه تعبًــا، ولا يتوقــف حتــى تقــع عليهــما عينــاه.. يتمــلى ببــصره فيهــما، ويتســمر..

هــؤلاء هــم الأوائــل.. هــم بدايــة جنســه.. آبــاؤه وأمهاتــه جــاءوا مــن اتصــال هذيــن.. لــو كان لــه أبٌ أو أم..

من هو حقًّا حتى يظن أنه يعرف بدايته، أو نهايته؟..

فقط يتطلع إليهما هناك، على مرمى الأبصار..

يرقـدان تحـت شـمسٍ قريبـة، ويتطلعـان إلى الأفـق وهـما يتكلـمان.. أشـجار بهيـة، حسـنة المنظـر تحتـل كل ركـنٍ حولهـما، فتقيهـما قيـظ الحـرارة، وترمـي عليهـما ظـلًّا حانيًـا..

يرقبهما، وإلى هيئتهما العارية يتطلع..

لا يـدري لمـاذا لا يقـترب منهـما.. لا يجـرؤ.. جـزءٌ مـا في داخـل عقلـه يذكـر أنـه رأى هـذا المشـهد مـن قبـل.. أو سـمع عنـه بشـكلٍ مـا.. ذاك الجـزء الـذي يؤكـد لـه ظنـه في كل لحظـة يرقبهـما فيهـا وهـما يـأكلان مـن ثمـار كل شـجرة حولهـما، إلا هـي..

تلـك الشـجرة العملاقـة، حسـنة المظهـر.. ثمارهـا لونهـا مختلـف، أكـثر نصوعًـا وحيـاة.. شـهية كشـفاه الحوريـات.. ولا يقربانهـا..

لا ينظران حتى إليها.. فلِمَ؟..

جـزءٌ داخـل عقلـه يؤكـد لـه أنـه يعـرف.. يقـول لـه الإجابـة، ولكنـه يـأبى أن يصـدق..

تلـك هـي الثمـرة المُحرمـة.. يجـب أن لا يقربانهـا؛ لأن فيهـا هلاكهـما وعصيانهـما..

هل هذه هي الجنة حقًّا؟..

نفـس الجـزء الـذي في داخلـه يـصرخ أن لا.. هـذه ليسـت، ولـن تكـون.. قـد رأى هـو مـا خلـف السـتار، وإلى الـسر الأعظـم قـد تطلـع..

ما هذه إلا كذبٌ وتزوير..

مـا كل هـذا إلا كـذبٌ وتزويـر.. هـو يعـرف، ويفهـم.. فقـد رأى الحقيقـة، وشـهدها بعينيـه..

فهل يقترب؟.. هل ينقل لهما ما يعرف؟..

هـل سـيصدقان؟.. أم سـتتكرر التجربـة التـي يـصرخ كل جـزء في عقلـه أنـه لهـا

ذاكـرٌ، ومُتلقـن..

يرقبهـما، ويرقـب حياتهـما الهانئـة التـي لا يقيدهـا هـمٌّ أو معرفـة.. لا يقيدهـا حتـى كسـاءٍ يسـتر عوراتهـما.. لا يقيدهـا شيء..

فهل يقترب؟.. هل يقول؟..

هــل هــما مؤهــلان لأن تســتوعب عقولهــما مــا يعــرف هــو، ويفقــه؟.. هــل ســيصدقان؟..

أقدامــه المــترددة تحــاول أن تخطــو.. تحــاول أن تتســارع، ويكبحهــا وجلــه، والرهبــة..

ما الذي يمكن أن يخسره؟..

قـد نُفـيَ بالفعـلِ إلى هنـا.. ومـا هـي إلا مسـألة وقـتٍ حتـى تنتهـي حياتـه بـلا غايـة أو هـدف، تمامًـا كـما بـدأت..

لا يملـك شـيئًا ليخـشى عليـه.. حياتـه نفسـها ليسـت ملكـه.. بـل هـي ملكهـم هـم.. هـؤلاء الذيـن وضعـوه هنـا، ونسـوا كل شيء عنـه.. كـما يتـوه الزمـن والأقـدار عـن الخلائـق، تـاه هـو منهـم في منفـاه الأبـدي، ونسـيه الدهـر..

فما الذي يملكه لكي يخسره؟.. لا شيء بالتأكيد..

لذا فهو يخطو..

وصوبهما، يسير..

***

(مـن مذكـرات فرانـك جودويـن التـي كتبهـا سـنة 2120، لتلقـي الضـوء عـلى تجربتـه مـع مـشروع الخلـق، والعالِـم إدوارد تاسـك)

لم أكتشف الأمر إلا بعدها بفترة طويلة..

انشغالي بالحروب والمؤامرات التي كانت تقوم بها الشركات الكبرى الأخرى، خصوصًا (إيوروكورب)، كان سببًا مهمًّا في ذلك، وكان لتشتتي ذاك أكبر الأثر على ما حدث بعدها..

ما زلت أذكر اليوم الذي دخلت فيه إلى المعمل بعد غياب، وقمت بتشغيل الشاشة الهولوجرامية لأراقب المشهد داخل الحديقة، فقط لأراه هناك.. معهما..

يتكلم ويتناقش.. لسانه المعسول وذكاؤه الحاد ساهم مع معرفته بالحقيقة في إقناعهما بالأكل من الشجرة المحرمة.. تلك التي وضعها (إدوارد) مكانها فقط لإخضاعهما، وتعليمهما الطاعة بطريقة الثواب والعقاب..

لم أكن أتصور أن قصة الشيطان وآدم ستتكرر مرة أخرى أمام عيني، ولكنها حدثت فعلًا.. لم يكن هناك شكٌّ في ذاك..

قدرتهما على التهام الثمرة المحرمة دون أن يصعقا، أو يحدث لهما شيء هذه المرة كانت عاملًا قويًّا ساعدهما على تصديق ما يقوله (لويس)، واتِّباعهما له.. وكانت هذه كارثة بكل المقاييس..

كارثة لم يكن من الممكن بعدها أن أترك (إدوارد) وشأنه.. كان يجب أن يعرف.. لا أحد غيره سيعرف ما ينبغي عمله..

مشهد (آدم) و(إيف) و(لويس) وهم يحاولون البحث عن طريقة يخرجون بها من الجزيرة التي تحوي حديقة عدن كان مرعبًا بما يكفي لأن ترتعد فرائصي رهبة وأنا أراه..

ما الذي فعلناه؟..

هذا تمرد كامل وشامل.. تمرد لو وصل إلى باقي كائنات الجيل الثالث بأي شكل، فإنه سيتحول إلى كارثة..

كان البشر قد علموهم كافة الأعمال والمهارات التي كانوا بحاجة إلى تعليمهم إياها ليستحوذوا على الغالبية العظمى من قطاع الأعمال، ويشكلوا

أغلبيـة عـمال البنـاء والجنـود وعـمال النظافـة والعاهـرات وغيرهـا مـن الوظائـف الدنيـا، حتـى صـاروا جنسًـا كامـلًا مـن العبيـد الذيـن لا مغـزى لهـم ولا غايـة سـوى خدمـة البـشر، بـكل صـورة ممكنـة.. البـشر الذيـن صعـدوا بأنفسـهم وبحياتهـم إلى مرتبـة الآلهـة.. يأمـرون وينهـون، يعاقبـون ويكافئـون.. ولا حسـاب هنـاك أو قانـون يمنعهـم مـن فعـل مـا يحلـو لهـم..

الاسـتبداد والاسـتعباد الـذي كان جنـس الجيـل الثالـث بأكملـه يعانيـه عـلى أيـدي البـشر كان مـن شـأنه أن يشـكل عامـلًا قويًّـا نحـو اقتناعهـم بفكـرة الحريـة، وتمردهـم عـلى هـذه الظـروف.. فـما الـذي يرغمهـم عـلى قبـول الاسـتعباد والقتـل والتعذيـب والعمـل بالسـخرة لـو كان كل هـذا آتيًـا مـن جنـس ضعيـف مثلهـم؟.. جنـس لا يمتلـك قـوة إلهيـة، وبالتأكيـد لا يقـوى عـلى صنـع الكـون والتحكـم فيـه كـما كانـوا يعتقـدون.. جنـس لا يملـك مـن أمـر نفسـه شـيئًا، وليـس في جعبتـه سـوى العلـم المتطـور الـذي كان لهـم أشـبه بالسـحر.. العلـم فقـط..

كل الأجنـاس والكائنـات الحيـة خُلِقـت حـرة.. لم يُخلـق أحـد ليكـون عبـدًا لآخـر، سـوى لـو كان يعتقـد أنـه سـيده الأعظـم.. إلهـه الأحـد الأوحـد، الـذي لا واحـد غـيره..

فماذا لو عرفوا ما يعرفه هؤلاء الآن؟.. أنتم تقدرون على التخيل بالتأكيد..

تمالكـت أعصـابي وقتهـا، وقمـت بتسـجيل كل تلـك البيانـات، وحفظهـا بداخـل شـبكة معلومـات جينيسـيس الخاصـة المشـفرة، ثـم التقطـت هاتفـي لأتصـل بــ (إدوارد).. صحيـح أنهـم مـا زالـوا بداخـل الحديقـة، بـلا وسـيلة تمكنهـم مـن الخـروج أو التواصـل مـع باقـي العـالم، ولكـن هـذا ليـس ثابتًـا.. يمكـن لـكل هـذا أن يتغـير في لحظـة، بسـبب أي خطـأ أو سـهو بسـيط.. يجـب أن يحـضر إلى هنـا في أسرع وقـت..

وقبـل أن أضغـط رمـز الاتصـال عـلى رقـم (إدوارد)، دقـت نغمـة الهاتـف فجـأة، وطالعتنـي صورتـه عـلى الشاشـة وسـط الرنـين..

إنه يتصل!

لماذا؟.. وما الذي دفعه لأن يترك عزلته بنفسه، ويتصل بي في هذه اللحظة بالذات؟..

خفق قلبي في قوة، وتسارعت ضرباته رهبةً ووجلًا، وأنا أضغط رمز القبول، ثم أضع السماعة على أذني..

وكان ما قاله غريبًا للغاية..

***

-١٦-

(الجـزء الرابـع مـن مذكـرات إدوارد تاسـك عـلى جهـازه اللوحـي، التـي لم يعـثر عليهـا أحـد)

اكتئـاب عنيـف اسـتولى عـلى كل جانـب مـن جوانـب نفسـيتي بعـد مـا حـدث كلـه..

ذكريـات كثـيرة ومتفرقـة، اسـتولت عـلى تفكـيري، واحتلـت مخيلتـي حتـى الثمالـة.. ذكريـات مُظلمـة، كئيبـة، لا أُجـسر حتـى عـلى تذكرهـا حتـى في أحلـك الأوقـات.. ذكريـات مـع العـذاب والألم والقسـوة والتطـرف.. مـع الوحـدة والجنون.. كان كل هـذا أكـبر مـمَّا يمكننـي احتمالـه، وأكـبر مـن قدرتي عـلى التعايـش والاختلاط بالعـالم الطبيعـي بعدهـا..

العُزلـة هـي حـل فريـد وسـحري لـكل المشـاكل النفسـية.. جـرب أن تنعـزل بنفسـك، وتواجـه مخاوفـك وذكرياتـك بـلا آخريـن.. بـلا أحـد يتـذاكى عليـك، وينظـر لـك في خطـورة ليقـول إنـه يفهـم مـا تمـر بـه، وأن علاجـه كـذا وكـذا وكـذا.. الآخرون أغبيـاء دومًـا، ولا يفهمـون.. هـذه قاعـدة يجـب أن تتذكرهـا في كل الأوقـات.. لـن يفهمـك أحـد، أو يفهـم مـا تمـر بـه سـوى نفسـك.. فجالسـها، واسـتمع إلى أنينهـا الآتِ مـن أعـماق كيانـك.. فالحـق هـي، وحقًّـا تقـول وتحـكي..

هذا هو ما فعلته..

سـنة كاملـة انعزلـتُ فيهـا بنفـسي تمامًـا، بـلا أي اختـلاط مـع أي أحـد.. حتـى جودويـن لم أكـن أراه مطلقًـا.. لم أر أي شـخص خـارج نطـاق غرفتـي مهـما كان.. حتـى الطعـام كنـت أطلبـه ليجيئنـي حتـى بـاب الجنـاح.. ولـولا حاجتـي لـه، لكنـت في غنـى عنـه وعـن أي شيء يجـبرني عـلى الاختـلاط بـأي شـخص..

سنة كاملة، لم ترَ فيها عيني سوى الأفق، وشروق الشمس وغروبها الذي لطخت ألوانه ثياب السماء النقية بألوانٍ شتى..

مع أفكارك وذكرياتك النابعة من داخلك، تغدو حياتك كلها أوضح، وأكثر شفافية.. تشعر للمرة الأولى بأنك تفهم نفسك.. تسمع الأصوات التي تتردد بداخل أروقة عقلك وردهاته، وتقوى أخيرًا على فتح أبواب غُرَفِهُ المُغلقة التي لم تتخطَّ أقدام أفكارك أعتابها من قبل..

ما الذي كنت تظنه؟.. هل كنت تعتقد فعلًا أنك ستصير إلهًا بين ليلةٍ وضحاها؟.. بين عقدٍ وآخر حتى؟.. هل حقًّا الأمر بهذه السهولة والبساطة؟..

أنت قد حققت ما لم يحققه أحدٌ من قبلك، ولن يحلم به أحد بعدك.. وبشكلٍ ما، ما زال كل هذا غير كافٍ.. ما زالت المسألة تتطلب أكثر من هذا بكثير.. في اللحظة التي تطمئن فيها نفسك لأنك قد وصلت أخيرًا، يتغير كل شيء، وينسحب البساط من تحت أعقابك كأنما كنت تخطو على الهواء.. كأنما كان كل ما بنيته لا شيء..

هل كان هذا الي صنعته، وأفنيت عمرك سعيًا وراءه، أخاك الذي فقدته ولم تقوَ على التعايش أو تقدر؟.. أم كان هذا شخصًا آخر؟..

من أنت حقًّا؟..

إلام تسعى، وعلامَ تتكئ طموحاتك؟..

لأين غايتك، وصوب ماذا؟.. ما الذي تنتظره حقًّا، وماذا تتوقع؟..

أنت لا تعرف.. مهما طمح عقلك، فإنه دومًا غيرُ كافٍ.. ليس كافيًا أن تكون أشهر عالِم في العالَم بأسره، وفي التاريخ بأكمله.. ليس كافيًا أن تُصمم جائزة عالمية كبرى خصيصًا من أجل أن تنالها أنت.. ليس كافيًا أن تغدو أنت الصانع الأول والأوحد لجنس كامل جديد من الكائنات الحية.. ليس كافيًا..

مُشكلتك حقًّا، والتي تخفيها حتى عن نفسك ذاتها، هي أنك لا تقتنع.. لا تقدر على ابتلاع احتمالية أن الإله ربما يكون موجودًا فعلًا.. لا تقدر حتى

على تخيل فكرة أن الرَّب كان يرى كل ما يحدث لك، ويسمح به بلا تدخل أو حساب.. فقط يكتفي بدور المُتفرج، وربما كان مستمتعًا كذلك..

احتمالية أن يكون كل ما كان يفعله بك أبوك، ودفع أخاك للانتحار بسببه، هو حقٌّ وحقيقة، يمكنها أن تقودك للجنون، وتدفع بك نحو الحافة.. لن يمكنك تقبل هذا تحت أي ظرف.. ثمة شيء ما بداخلك يوشك على الانفجار كلما تذكرت الأمر حتى، فكيف لو كان حقيقيًّا، وله مُبرر فعلًا..

هل هناك من سيفهم ما تمر به؟.. كلا بالتأكيد..

إذن فهي الوحدة.. لا غيرها ولا سواها..

هكذا كُنت أفكر..

***

أيام عديدة تمر وتمضي، ولا أختلط بأحدهم أو أرى.. ولا أفكر..

الوحدة والعزلة كانت حلًّا سحريًّا، ساعدني على أن ألملم شتات نفسي وفتاتها، وكانت لي ونيسًا وجليسًا حميمًا..

كم من أسرارٍ عرفتها عن نفسي وقتها.. كم من ذكرياتٍ، وأفكار كانت تتردد في أروقة ذهني، بلا أن أفقه معناها، وعرفته حينها..

قد صنعت جنسًا كاملًا من لا شيء.. أعدت جسد أخي المتوفى إلى الحياة من جديد، بمعظم ذكرياته التي ما زالت في رأسه حتى وإن لم يكن يفهم معناها.. ربما مع الوقت سيقدر على التناغم **Synchronization** معها.. ربما تذكَّر كل شيءٍ مع مضي الزمن، وتذكر هويته الحقيقية.. من يدري؟..

صحيحٌ أن كل هذا لا يرقى لمرتبة الإله الحقيقي.. ولكن من قال إنه موجود فعلًا بقدراته الأسطورية التي تقترب من السحر والشعوذة؟..

من يصدق أن هناك كيانًا علويًّا صمَّم الكون بأكمله، بكواكبه وشموسه وأقماره؟.. من يصدِّق أنه قد صنع أجناسًا كاملة ووهبها أرواحًا وحيواتٍ

كاملـةً؟..

ربمـا ليـس كل هـذا إلا خرافـاتٍ كـما كانـت قصـص الأولـين.. أسـاطير الحضـارات القديمـة، وآلهتهـا التـي كانـت قدراتهـا تقـترب مـن كل هـذا.. ومنهـا، تشـكل الوعـي الجمعـي للبـشر بأكملهـم..

البـشر دومًـا يحتاجـون للتصديـق بـأن هنـاك إلـه.. دومًـا يحتاجـون لأن يصدقـوا أن هنـاك كيانًـا علويًّـا يراهـم ويحميهـم ويتوعدهـم بالعقـاب لـو فعلـوا مـا هـو محـرم، وبالثـواب لـو كانـوا صالحـين.. هـذا في طبيعتهـم.. فقـط تخيـل مـا الـذي كان يمكـن أن يعـدَّه الفقـراء والمُعدمـون خيـارًا آخـر، في بدايـات التاريـخ، وهُـم يعدمـون ويُسـتعبدون تحـت شـعار أن البقـاء للأقـوى.. مـا الـذي يمكـن أن يجعلهـم يتحملـون، ويجعـل حالهـم يتغـير تمامًـا سـوى اختـلاق فكـرة الإلـه الأسـطوري الـذي يحميهـم ويعدهـم بجنتـه في آخرتهـم وبعـد مماتهـم، ويتوعـد مـن يؤذيهـم ويسـتعبدهم بالعقـاب الأليـم؟..

لم يكـن كل هـذا سـوى اختلاقـاتٍ وخرافـاتٍ صنعتهـا مُخيلـة مسـاكين الأقدمـين، فقـط لتبريـر وجودهـم في هـذا العـالم.. تبريـر أن لهـم مغـزى فعـلًا، وأنـه سـيتحقق بعـد مغادرتهـم لهـذه الحيـاة، التـي كان وجودهـم فيهـا يشـكل فارقًـا فعـلًا، وليـس مجـردًا مـن أي معنـى كـما يعتقـد الجميـع، مِمَّـن لهـم شـأنٌ، وكلمـة..

الفقراء يذهبون للجنة دومًا، فلا ضير من موتهم..

يصـير كل شيءٍ أوضـح، وأكـثر شـفافية ومعنـى، حينـما تفكـر فيـه عـلى هـذا النحـو..

لست مُخطئًا ولم أكُن أبدًا..

كل مـا كنـت أسـعى نحـوه وغايتـه، هـو أن أقـارن نفـسي بكيـان أسـطوري خـارق، لم يوجـد قـط إلا في مُخيلـة العجائـز والمخرفـون القدمـاء.. كيـان لم أكـن لأقـدر قـط عـلى أن أصـير مثلـه تمامًـا، حتـى وإن صنعـت مـا يؤهلنـي لذلـك.. والسـبب هـو أن قدراتـه هـي مُجـرد خرافـات.. لأنـه لم يوجـد قـط..

مشـاعر نفـسي، والراحـة الغامـرة صـارت واقعًـا حينـما وصلـت لتلـك المرحلـة

مـن الاقتنـاع التـام بـكل هـذا.. الارتيـاح والثبـات النفـسي اللـذان كانـت حيـاتي ونفسـيتي تخلـو منهـم تمامًـا، صـاروا واقعًـا ملموسًـا بعدهـا.. صِرتُ شـخصًا آخـر.. شـخصًا أكـثر ثباتًـا وثقـة..

حتـى الذكريـات المُظلمـة التـي كانـت تخـرج للسـطح بـين حـينٍ وآخـر لم تعـد بنفـس التأثـير، وانحـسرت رقعتهـا وقبضتهـا عـلى ذهنـي، وحالتـي المزاجيـة..

يقولـون إن النيرفانـا هـي حالـة الانطفـاء الكامـل التـي يصـل إليهـا الإنسـان بعـد فـترة طويلـة مـن التأمـل العميـق، فـلا يشـعر بالمؤثـرات الخارجيـة المحيطـة بـه عـلى الإطـلاق، أي إنـه يصبـح منفصـلًا تمامًـا بذهنـه وجسـده عـن العـالم الخارجـي، بهـدف شـحن طاقـات الـروح مـن أجـل تحقيـق النشـوة والسـعادة القصـوى والقناعـة وقتـل الشـهوات.. ولم يكـن ذاك يختلـف كثـيرًا عـمًّا كنـت أشـعر بـه وقتهـا..

هـذه هـي النيرفانـا الخاصـة بي.. منتهـى الارتيـاح، والإحسـاس بقيمـة وأهميـة، ومغـزى مـا وصلـت لـه..

مُنتهى الثبات النفسي الذي لا يهتز، ولا يتزحزح..

وحينها، قررت العودة لدراسة سلوكيات (آدم) و(إيف) مرة أخرى..

***

كانت العودة تدريجية وليست تامة..

أي طفـل يعـرف أنـه لأجـل أن تعـود إلى عمـل كنـت تمارسـه مـن قبـل، فإنـه مـن الواجـب أن تـدرج العـودة، حتـى لا تغـدو الصدمـة مفاجئـة، وتنفـرك مـن الأمـر كلـه.. تلـك هـي نفـس الطريقـة التـي يتبعهـا الأطبـاء في المصحـات النفسـية، لجعـل المدمنـين يقلعـون عـن تعاطـي المخـدرات.. وعكسـها هـو مـا أطبقـه أنـا الآن..

أحاول تدريج نفسي على العودة إلى مُخدِّراتي الخاصة.. مشروع الخلق..

بـدأت أولًا بدراسـة تغـيرات السـلوك التـي طـرأت عـلى النموذجـين، بعـد بـدء

مهمـة تعليمهـما الطاعـة، مـن خـلال تحريـم أكل الثمـرة المحرمـة..

تصرفـات (آدم) كانـت طفوليـة كـما كان المتوقـع.. نحـن نتكلـم هنـا عـن كائـن لم يعـش يومًـا واحـدًا عـلى الأرض، قبـل أن يصـير واعيًـا فجـأة، وهـو في جسـد رجـلٍ بالغ..

رجـل لم يـر الشـمس مـن قبـل، ولا يعـرف طعـم التفـاح أو البرتقـال.. لا يعـرف معنـى الـكلام أو التفكـير أو الطاعـة.. لم يجـرب الجنـس، أو المخـدرات، ولم يـر شـيئًا في الحيـاةِ مـن قبـل قـط..

مـن الطبيعـي أن يدفـع فضولـه لمحاولـة الأكل مـن الثمـرة التـي حرمتهـا عليـه.. حتـى وإن تلقـى الصعقـة في المـرة الأولى، فـإن محاولتـه الأخـرى بالتأكيـد نابعـة مـن عـدم معرفتـه بمـا مـر بـه في الأصـل، وعـدم درايتـه بإحسـاس الألم الـذي انتابـه بعـد الصعقـة..

لكـن مـع تكـراره، وسـيل الألم الـذي فـاض بشـعوراته الحسـية بعدهـا، بالتأكيـد أدرك أن هـذا مُـضِر، وأنـه ليـس خـيرًا لـه الأكل مـن تلـك بالـذات.. لـذا فقـد ابتعـد عنهـا تمامًـا، ولم يقربهـا مـرة أخـرى..

بيانـات كثـيرة غُصـت بداخلهـا في الفـترة التاليـة، في نفـسِ عُزلتـي التـي سـاعدت كثـيرًا عـلى صفـاء الذهـن، والخـروج ببيانـات ونتائـج أكـثر دقـة.. كان الموضـوع مُثمـرًا فعـلًا.. حتـى وصلـت بمنحنـى الدراسـة إلى الفـترة التـي صُنعـت فيهـا (إيـف)، وإيداعهـا الحديقـة بجـوار (آدم)..

فحوصـات وملاحظـات عـدة، وبيانـات أكـثر غـزارة، كلهـا كانـت تؤكـد شـيئًا واحـدًا، كان أغـرب مـن أن يمكننـي تفسـيره.. ذاك الـشيء كان هـو أن (إيـف) لم تقـرب الشـجرة ذات الثمـرة المُحرمـة قـط، طـوال الفـترة التـي جـاءت فيهـا إلى الحيـاة، بصحبـة (آدم) !..

كان الأمـر غريبًـا للغايـة.. فلـماذا لم تقربهـا؟.. لمـاذا لم تحـاول أكل الثـمار المُحرمة، خصوصًـا وأن شـكلها وصفاتهـا الفيزيائيـة كانـت مصممـة وراثيًّـا، خصيصًـا لـكي يصـير شـكلها ورائحتهـا مثـيرة للشـهية واللـذة والرغبـة..

بالنسـبةِ للجميـع، لم يكـن هـذا مُهـمًّا وقتهـا، وقامـوا بتجاهلـه تمامًـا وإيعـازه إلى مجـرد طفـرة سـلوكية يمكـن تبريرهـا باختـلاف الشـخصيات بـين الذكـر والأنثـى.. ولكـن هـذا لم يكـن منطقيًّـا بالنسـبة إليَّ، ولم أقـدر عـلى ابتلاعـه..

كيف؟..

كيـف تكـون تلـك طفـرة سـلوكية، وهـي لا تعـرف معنـى السـلوك مـن الأصـل؟.. الفطـرة الطبيعيـة للنموذجـين، بافـتراض أنهـما كانـا عـلى فطرتهـما الأوليـة في تلـك الحالـة، كانـت غـير مختلفـة إلى الدرجـة التـي تـبرر مثـل سـلوك التجاهـل التـام هـذا..

شـعور الجـوع وحـده، كافٍ لإلغـاء كافـة الطفـرات السـلوكية التـي يمكـن أن تدفـع النمـوذج بعيـدًا عـن الرغبـة في الأكل مـن تلـك الثمـرة.. خصوصًـا وأن تصميمهـا ورائحتهـا النفـاذة الشـهية كـما قلـت، يسـاعد عـلى اشـتهائها مـن جانـب أي شـخص يراهـا أو يقـع في محيطهـا.. حتـى لـو كان واحـدًا مِنَّـا نحـن العلـماء الذيـن صمموهـا..

فلـماذا لم تقـترب منهـا أو تجـرب؟.. لمـاذا لم تكـن تنظـر إليهـا حتـى؟.. مـا سـبب سـلوك التجاهـل التـام الـذي اتبعتـه، الـذي يوشـك عـلى أن يكـون مقصـودًا؟..

لا تفسير هنالك..

حاولـت مـرارًا تفسـيره بكافـة الطـرق والوسـائل العلميـة في دراسـات وأبحـاث السـلوك، ولكنـه كان غريبًـا فعـلًا، غـير ذي معنـى..

لم يكن هناك سوى تفسيرٌ واحد..

أنها كانت تعرف..

تعـرف أن هـذه الثمـرة بالـذات محرمـة، وأنهـا تسـبب الألم لأي مـن يحـاول الاقـتراب أو لمسـها..

فكيف؟..

كيـف يمكـن أن تعـرف هـذا، وهـي لا تعـرف حتـى معنـى الـكلام ذاتـه؟.. مـا

التفسير الذي يمكن أن يفسر سبب تصرفها الذكي الواضح تجاه تلك الثمرة بالذات، دونًا عن أيٍّ من الموجودات حولها، والتي كانت تتعامل معها ببراءه فطرية تامة.. حتى (آدم) ذاته، لم تكن تفهم طبيعته جيدًا بعد.. فكيف؟..

كيف يمكن أن تعرف معلومة كتلك، تتنافى مع خبراتها الشخصية الظاهرة على كل ردود أفعالها تجاه كل المؤثرات التي تحيطها؟..

معلومة لم يكن يعرفها، أو يمر بها سوى (آدم) ذاته !..

هل يمكن أن..

***

لم أصدق في البداية..

لم أقتنع بكل ما كانت تشير إليه الدلائل، وأبيت إلا أن أدرس الأمر بنفسي، وأتأكد منه مرارًا وتكرارًا..

(إيف) قد عرفت ومرت بخبرة الصعق من الثمرة المحرمة، من (آدم) ذاته !..

مرت بها، وعرفتها منه، وهما لا يقدران على الكلام من الأصل، ولا يستوعبانه..

بطريقة خاصة لا أفهمها جيدًا، كان هناك نوع من التواصل العقلي، أو التخاطر Telepathy بين النموذجين، أهَّل النموذج الأحدث إلى أن يفهم معنى الأكل من الثمرة المحرمة أو الاقتراب منها، دون أن يمر بنفس التجربة التي مر بها النموذج الأول..

دون حتى أن يتوفر لأحد النموذجين إمكانية الكلام، كانا قد تمكنا من التواصل لا شعوريًّا بطريقةٍ ما، ونقل الخبرات بين بعضهما البعض.. ذاك هو ما صنع عند (إيف) تجاهلًا تامًّا نحو الثمرة، لكون فطرتها الطبيعية قد تأثرت بمؤثر خارجي، وتكونت لديها خبرة مؤكدة بأن الثمرة مؤذية !..

كيف يمكن أن يحدث هذا؟!..

لكي أفهم، كان يجب على العودة إلى الأساسيات التي بُنيت عليها معادلة التكوين، التي كانت الخطوة النهائية التي تُجرى قبل عملية استقبال الوعي، والتي تحدد نجاح كل شيء..

أنتم تذكرون تلك المعادلة التي كنا نضطر إلى تغيير أساسياتها وحدودها الرقمية مليارات المرات حتى يمكننا أن نتوصل إلى تركيبة رقمية واحدة متماثلة، يمكنها حث الاتصال بين المُخ المُصنَّع، وبين الوعي الجمعي Absolute Consciousness.. تلك المعادلة هي التي فُزت عنها بجائزة نوبل بالمناسبة..

على ماذا تعتمد أساسيات تلك المعادلة؟..

بالضبط.. على صورة شديدة التطور والتعقيد من معادلات ميكانيكا الكم Quantum Mechanics.. صورة أساس فكرتها التي شُكِلت المعادلة عليه، هو الاتصال الفوري بين جزيئات الذرات التي تربط بين طرفين، بصورة شاملة ومتكاملة.. هذا هو ما تعرفه ميكانيكا الكم باسم (التشابك الكمي Quantum Entanglement)، والذي تكلمنا عنه من قبل في موضوع جزيئات بوزنر Posner Molecules، التي أدت الدراسة الطويلة التي أجريتها عليها، ضمن أشياء أخرى عديدة إلى التوصل للنظرية الكمية للوعي Quantum theory of consciousness التي وضعت اسمي على الخارطة..

كان أساس كل شيء، والفكرة التي تعتمد عليها مُعادلة التكوين، هي حث التواصل الفوري المُتشابك كميًّا Quantum Entangled Connection بين الجزيئات الذرية للطاقة التي تشكل الوعي الجمعي، وبين جزيئات بوزنر المُعدلة الخاصة التي تم تطعيمها في الخلايا المُخية، لخلق الاتصال واستقبال الوعي..

يعني هذا أنه في لحظة معينة، سيتم حث الاتصال الكمي الفوري بين طرفين، أحدهما في عالمنا، والآخر خارج حدود الكون الذي نعرفه.. ربما هو يقع في بُعدٍ آخر لا نقدر نحن على استيعابه، ولكنه يخضع لنفس قوانيننا

الفيزيائيـة.. وبمجـرد حـدوث ذلـك الاتصـال، وثباتـه، فـإن الطرفـين يصبحـان متشـابكين Entangled.. تمامًـا كشـبكات الهاتـف المحمـول والإنترنـت اللاسـلكي WiFi.. بمجـرد حـث جهـاز الهاتـف أو الكمبيوتـر عـلى الاتصـال بشـبكة الإنترنـت اللاسـلكية، ونجـاح ذلـك الاتصـال وثباتـه، يبـدأ تدفـق المعلومـات مـن شـبكة الإنترنـت، إلى ذلـك الهاتـف أو الحاسـب.. وبنفـس الطريقـة، تتدفـق المعلومـات الواعيـة لنفسـها Self Aware مـن الوعـي الجمعـي، إلى المـُخ البـشري، لتخلـق الـذكاء والوعـي.. الـذي يتحـول بعدهـا إلى صـورة أوليـة مـن التفكـير، تبـدأ في التطـور مـع الوقـت..

هـذا يعنـي أن الوعي بأكملـه، في صورته الفطريـة الأولية؛ مُتشـابك Entangled.. بمعنـى أن أي طرفـين يحمـلان نفـس الوعـي، في صورتـه الخـام، سـيتمكنان نظريًّـا مـن التواصـل بطريقـة فوريـة متشـابكة كميًّـا Entangled، عـلى اختـلاف الأبعـاد الكونيـة، والمسـافات التـي تفصـل بينهـم وبـين بعضهـم..

سيتمكنان من التخاطر !..

(آدم) و(إيـف) وباقـي كائنـات الجيـل الثالـث التـي تحتـل العـالم بأكملـه حاليًـا، وتشـغل معظـم مواقعـه الحيويـة، ومهـام الأعـمال، يمكـن لهـم التواصـل معًـا، ونقـل الخـبرات والشـعورات الحسـية والأفـكار !.. يمكـن لهـم نقـل خـبرات التعذيـب والاسـتعباد التـي يتعرضـون لهـا عـلى أيـدي البـشر !..

و(لويس) !..

(لويـس) الـذي يعـرف كل شيء عـن البـشر، ويملـك معظـم الخـبرات الحياتيـة والمعرفيـة لأحـد البـشر الأذكيـاء، التـي لُقِّنـت لـه بالكامـل !..

(لويـس) الـذي يعـرف نيتنـا تصفيتـه، وإفنـاؤه مـن عـلى وجـه الأرض.. وأنـه لم يوجـد سـوى لغـرض بحثـي، وليسـت لحياتـه أدنى أهميـة لنـا !..

(لويـس) الـذي هـو موجـود في نفـس اللحظـة الآن، بجـوار (آدم) و(إيـف) في الجزيـرة التـي تحـوي حديقـة عـدن، ويقـدر ثلاثتهـم عـلى التخاطـر فكريًّـا، ونقـل الخـبرات والمعلومـات إلى الملايـين مـن كائنـات الجيـل الثالـث في مختلـف بِقـاع

الأرض !..

لم يكـن عقـلي قـد اسـتوعب الأبعـاد الحقيقيـة للكارثـة بعـد، ولا طـول الوقـت الـذي مـر ونحــن غافلـون عــن كلّ هــذا، وأنــا ألتقــط الهاتــف مــن جــواري لا شـعوريًّا وأضغـط عـلى رمـز الاتصـال برقـم (جودويـن)..

ودوي جرس الهاتف للحظات، قبل أن يجيب..

***

-١٧-

(باقـي مذكـرات فرانـك جودويـن، رئيـس مجلـس إدارة مؤسسـة جينيسـيس، والممـول الرئيـس لمـشروع الخلـق للعـالم إدوارد تاسـك)

وضعـت السـماعة عـلى أذني، وقلبـي يخفـق في قـوة حتـى ليوشـك عـلى أن يتوقـف.. وحينـما جـاءني صوتـه عـبر الأثـير، لم أدر بمـا شـعرت بالضبـط وقتهـا..

- «أخرِج لويس من الحديقة الآن.. هناك كارثة على وشك أن تحدث..»

تسـمرت في مـكاني وأنـا لا أقـوى عـلى النطـق، وعينـي تُحـدِّق في المُجسـم الهولوجرامـي الـذي ينقـل المشـهد بداخـل الحديقـة، بينـما صوتـه يـدوي مناديًـا في أذني كالمجانـين..

تلـك الحوامـة الهوائيـة التـي تهبـط في سلاسـة بداخـل أراضي الحديقـة الخـضراء المورقـة، وتدفـع موجـات الهـواء أسـفلها ليهتـز كل شيء في قـوة..

«لويـس» الـذي يخبـئ عينيـه بكفـه وهـو يحيـط «إيـف» بذراعـه الآخـر ويقتادهـا نحـو الحوامـة، بينـما «آدم» يتبعـه منبهـرًا بـذاك الـذي يـراه لأول مـرة في عمـره..

وصوت «إدوارد» يدوي في أذني كصفير الإنذار..

- «جودوين.. أين أنت؟.. أخلِ الحديقة حالًا..»

مبهـورةٌ أنفـاسي، لا تسـمعه أذنـاي، ولا تفقـه مـا يقـول، بينـما العيـون تحـدِّق صـوب المشـهد المتشـكل في فـراغ المعمـل أمامـي، وترقـب الحوامـة وهـي ترتفـع تدريجيًّـا، ثـم تنطلـق لتختفـي بعيـدًا في الأفـق..

أبتلـع لعـابي في صعوبـة، وأحـاول جاهـدًا أن أتكلـم، فيخـرج الـكلام مـن حلقـي متحشرجًـا، مشوشًـا..

- «لقد خرجوا..»

صوت «إدوارد» يخترق أذني، وقد تحول إلى صراخ:

- «ماذا؟!..»

فأبتلع لعابي مرة أخرى، وأنا أجيبه بسلاسة أكبر هذه المرة:

- «قد خرجوا من الحديقة.. أحدهم جاء وأقلهم في حوامة، انطلقَت بعيدًا لتختفي في الأفق..»

صمت لحظات، ثم صراخ من جديد:

- «وأين طاقم الحماية؟..»

- «لا أعرف..»

تساءل هو في توترِ مَن ينتظر إجابةً لا يريدها، ولكنه يعرف قطعًا أنه لن يحصل على غيرها:

- «هل هم من الجيل الثالث؟..»

أومأت برأسي إيجابًا دون أن أشعر، ولم يسمع هو الإيماءة عبر الهاتف، فكرر السؤال من جديد، لتأتيه الإجابة التي لم يكن يرغب في أن يسمعها..

- «نعم.. طاقم الحماية بأكمله من الجيل الثالث..»

صمتٌ تام، ومحاولات عِدة مني لأن أفهم، فشلت جميعها ليأتي السؤال الحتمي:

- «ما الذي حدث؟..»

لم يجب، فسألته من جديد:

- «إدوارد.. ما الذي حدث؟..»

لتأتي موجات صوته عبر أثير الهاتف، بنبرة لن أنساها ما حييت، ترن بداخل أذني كوقيع القنابل:

- «كارثة.. جميعهم يقدرون على التواصل الكمي..»

لم أفهم، وإن خمنت معنى ما قال.. ولكن هذا لم يمنع سؤالي المستوضح:

- «ماذا تعني؟..»

لتأتي إجابته بعد صمت هنيهة:

- «أعني أنهم يقدرون على التخاطر.. كل كائنات الجيل الثالث تملك قدرة متطورة على التخاطر الفوري عن بعد، ونقل الأفكار والخبرات، بطريقة لا يفقهونها هم، ولكنها تحدث دون شعور أو ترتيب منهم..»

أضاءت شاشة ساعتي الذكية في هذه اللحظة، وبدأ فلاش الضوء المميز والاهتزاز في العمل، إشارة بأن لدي اتصال مهم، ومع نظرة إلى اسم المتصل، خفق قلبي في قوة أكبر..

إنه «جيمس هانتر»، رئيس طاقم الخدمة السرية، والأمن والحراسة الخاصة ببرج جينيسيس..

خفضت الهاتف جواري للحظات، وأنا أضغط على رمز الاستقبال، لترسم خيوط الليزر الدقيقة صورته الهولوجرامية أمامي، وهو يصيح..

- «مستر جودوين، هناك خرق في جدار الأمن.. أكرر، خرق في جدار الأمن.. عدد هائل من الحوامات غير المُصرَّحة، وغير معروفة المصدر في المجال الجوي للبرج.. طاقم الحراسة في طريقه إليك.. اخرج من عندك حالًا، واذهب للغرفة الآمنة..»

تسمرت تمامًا، وأنا أشعر بحركة طاقم الحراسة خارج المعمل وهم يتجهون نحو موقعي، قبل أن يدوي صوت الانفجار الأول، ليهتز المبنى كله تحت تأثيره، وتتطاير الموجودات إلى الأركان..

- «مستر جودوين..»

أحاول أن أحافظ على توازني جاهدًا..

- «جودوين.. ما الذي يحدث؟.. ما صوت الانفجار هذا؟..»

أحاول أن أرفع الهاتف إلى أذني مرة أخرى لأحذره، ولكن صوت الانفجار

الثـاني يغطـي عـلى كل شيء، ويغـير مجـال الجاذبيـة نفسـه، لينتزعنـي مـن مـكاني انتزاعًـا نحـو الحائـط المقابـل..

وكان دوي صفـارات الإنـذار النوويـة، ومشـهد الـركام المتطايـر هـو آخـر مـا رأيتـه، قبـل أن يظلـم المشـهد أمامـي تمامًـا..

***

(من مذكرات العالم إدوارد تاسك التي لم يُعثر عليها أبدًا..)

انفجاراتٌ كانت تدوي في كل مكان..

حتـى في موقعـي بالجنـاح الخـاص عـلى بـرج جينيسـيس الفندقـي المجـاور لـبرج الإدارة، كان دوي الانفجـارات يصـمُّ الآذان، وأنـا أسـمع الـصراخ عـلى الجهـة الأخـرى مـن خـط الهاتـف، وأنـادي عـلى «جودويـن» دون أن يجيئنـي منـه رد..

كان هذا قبل أن يبدأ البرج الفندقي في الاهتزاز بدوره..

الانفجارات بدأت عندي أنا أيضًا..

فريـق الخدمـة السريـة لجينيسـيس اقتحـم الجنـاح لحظتهـا، وهـم يشـكلون أجسـادهم حـولي كالـدروع بطريقـة احترافيـة، ويدفعوننـي نحـو السـطح الواسـع الـذي تطايـرت كل الموجـودات في أركانـه، وانسـكب مـاء حـمام السـباحة عـلى جوانبـه، وتطايـر في الهـواء ذاتـه كالأمطـار..

حوامـات عديـدة تلـوح في الأفـق وهـي تقـترب في اضطـراد، بينـما حوامـة الخدمـة السريـة تتوقـف فـوق حافـة السـطح تمامًـا، ويتـدلى منهـا حبـلٌ أسـود طويـل، مـن الأليـاف الكربونيـة الفائقـة.. تلـك الأليـاف التـي تقـاوم الاحتـكاك والحـرارة والـبرودة والقطـع والتمـزق بنسـبة أقـوى 200 مـرة مـن الفـولاذ الطبيعـي..

لم يتركـوا لأفـكاري متسـعًا، وهـم يلبسـونني معطـف الحمايـة الضيـق، ويثبتـون طـرف الحبـل المعـدني في الفـراغ الـذي في منتصفـه، ليـدوي صـوت الاندمـاج

المعدني المميز، ثم يصيح أحدهم وهو يربت على كتفي بقوة، بينما طلقات الطاقة المتفجرة تبدأ في التطاير نحو كل شيء، وتنتزعه من مكانه انتزاعًا..

الجنود يستديرون وهم يطلقون طلقاتهم على الحوامات بلا جدوى، بينما طلقات الطاقة تمزق أجسادهم تمزيقًا..

حوامة الخدمة السرية ترتفع في سرعة، بينما جسدي ما زال متعلقًا فيها بالحبل الكربوني الأسود؛ ليتدلى منها في الهواء كالمشنقة..

أحد الجنود يصرخ وهو يطلق النار:

- «السحب.. اضغط على زر السحـ...»

قبل أن تنتزعه قذيفة طاقة من مكانه نحو الهواء، وتمزق أعضاء جسده وتنتزعها من أماكنها مع شلالات الدماء والأشلاء..

يدي تبحث في جنون عن زر السحب، حتى تجده أخيرًا، وتضغطه بينما الحوامة تتسارع هاربةً نحو الأفق، وجسدي يتسارع أكثر نحوها، حتى يعبر من الفتحة في أسفلها نحو الداخل؛ لتنغلق خلفه في سرعة..

أنهض من مكاني، وأنا أتطلع عبر نافذة الحوامة التي تنعكس عنها طلقات الطاقة بفعل جدار الحماية الهولوجرامي حولها، وترقب عيني المشهد الكارثي الذي يحدث في الأفق..

برج «جينيسيس» الإداري المُشتعِل، الذي تحولت أغلب طوابقه إلى ركام، يتطاير الغبار من حولها مصطبغًا بالصبغة الذهبية المميزة لضوء الغروب، والبرج الفندقي الذي يقفز فوقه الرجال من الحوامات المجهولة، وهم يحملون الأسلحة؛ ليندفعون إلى داخل جناحي..

ثم تبتعد الحوامة أكثر؛ ليحتل المشهد البانورامي الأشمل الصورة..

مشهد نيويورك التي تمزق الانفجارات كل شِبرٍ فيها، ويسطع بريقها ليملأ الهواء ذاته، وتمتزج سرعتها لتتداخل مع سرعة ضربات قلبي الذي يوشك على التوقف ذعرًا..

كل هؤلاء من الجيل الثالث..

هذه ثورة..

ثورة شاملة..

***

-١٨-

(المشاهد التالية حدثت في أوقات متفرقة، في الزمن الطويل الذي سبق بدء الثورة الكبرى في نيويورك ولوس أنجيليس ومدن أخرى مختلفة)

(نيويورك - 2119)

ضوء الغروب، ينعكس عن الطرق الأسفلتية الواسعة، وملابس المارة الزاهية، فيضفي سمات العالم الجديد المستقبلي على كُلٍّ ما يدور..

السيارات الحوامة، التي لا تلمس الأرض، وإنما تطير فوقها بمحركات الجاذبية العكسية المتطورة..

أضواء المتاجر والمولات التجارية الهولوجرامية، تسطع في كل مكان، فتغطي على ضوء الشمس ذاته.. فكأنما الشوارع لم تر غروبًا قبلًا، ولا شروقًا..

كائنات الجيل الثالث في كل مكان.. ترتدي شارة موحدة، زرقاء اللون ناصعته، حول سواعدهم، تميزهم عن البشر، الذين يمشون وسطهم، ولا يبالون..

ومن بعيد، يدوي ذلك الصوت، مترددًا في الشوارع ومنعكسًا عن الحوائط، تحمل نبراته التوجس، وتنقله إلى السامعين:

- «نحن نلعب لعبة الإله.. ولكننا لسنا هو.. لسنا آلهةً، ولن نكون أبدًا..»

المارة يتوقفون.. بشرًا، وجيلًا ثالثًا على حد سواء، ويتطلعون إلى المتكلم الذي يبدو كأحد أنبياء العهد القديم، ببياضه الناصع، ولحيته الطويلة المشعثة، وحلته الرمادية ذات الشرائط الخضراء المستقبلية الناصعة، التي تميز

موضـة الملابـس المتقدمـة كلهـا..

- «صنعناهـم في صورتنـا، ولكنـما هـم يعكسـون الظـلام الـذي بداخلنـا.. يعكسـون رغبتنـا، وقسـوتنا تجـاه بعضنـا البعـض، التـي آثرنـا أن نوجههـا صـوب جنـس جديـد، ضعيـف، لا يملـك مـن أمـر نفسـه حيلـةً، ولا يفهـم..»

البـشر يتوقفـون، ويسـتمعون إلى المتكلـم، بينـما كائنـات الجيل الثالـث يتراجعون إلى الخلـف وهـم يتطلعـون إلى كل مـا يـدور، لكونهـم محرمـون مـن الوقـوف جنبًـا إلى جنـب مـع أي بـشري، طبقًـا للـمادة 24 مـن مبـادرة الجيـل الثالـث الفيدراليـة FGA التـي دخلـت إلى الدسـتور والقانـون الأمريـكي حديثًـا..

الرجـل مـا زال يتكلـم، وقـد تحـول صوتـه إلى صراخ، وهـو يلـوح بيـده كالمجاذيـب، في مشـهد يتناقـض تمامًـا مـع أناقـة الملابـس التـي يرتديهـا، ويرسـخ إحسـاس الجنـون والرهبـة الـذي يسـتولي عـلى مشـاعر الواقفـين..

- «صنعناهـم ليكونـوا عبيدنـا.. ولكنهـم ليسـوا كذلـك، ولـن يكونـوا.. قـد اسـتولوا عـلى كل شيء.. الأعـمال والمناصـب والأسـلحة والتدابـير.. كـم مـن ضابـطٍ منهـم الآن، وكـم مـن عامـل بنـاء.. كـم طبيـب وكـم عاهـرة.. قـد صـاروا هـم وجـه المجتمـع، ولم نعـد نقـدر عـلى الاسـتغناء عنهـم..»

ضـوء الشـمس الغاربـة يخفـت أكـثر، ويعطـي مسـاحة أكـبر لأضـواء اللافتـات الهولوجراميـة لتتألـق، وتلقـي ببريقهـا عـلى الشرائـط الزاهيـة التـي تحويهـا المعاطـف والسراويـل، فتشـع بضيائهـا أكـثر..

- «صـاروا هُـم نصـف المجتمـع بأكملـه، وربمـا أكـثر.. صـاروا في كل مـكان.. نحـن البـشر لم نعـد نتقـن شـيئًا، أو نقـدر عـلى شيء.. ولـئن لم تسـتمعوا، وتنصتـوا، لتكونـن تلكـم الرفاهيـة هـي بدايـة هلاكنـا، وتراجعنـا في سـلم الكائنـات الحيـة عـلى هـذا الكوكـب..»

الجيـل الثالـث يبـدأون في الانـصراف وقلوبهـم ترتعـد خيفـة تحـت مـا يرونـه، وتحـت مـا يجربونـه في حيواتهـم اليوميـة مـن عـذابٍ واضطهـاد غـير قليـل.. لا يـرون مخرجًـا مـن كل هـذا، ولـو كانـوا يأملـون..

يشـعرون بأنهـم يفهمـون بعضهـم البعـض، ويعرفـون مـا يفكـر فيـه بعضهـم.. ففـي العـذاب والألم رابـط قـوي لا تخطئـه عـين، ولا تتفـرق عليـه القلـوب..

البـشر ينظـرون إليهـم، وهـم يؤيـدون كلام الرجـل بهتافاتهـم وحـركات إيديهـم التـي تـشي بغضـبٍ عـارم..

- «اسـتفيقوا يـا إخـواني.. اسـتفيقوا.. فالـصراع يقـترب، ولحظـة الحقيقـة قـد أوشــكت..»

رجـال الشرطـة يبـدأون في إخـلاء المـكان، وكائنـات الجيـل الثالث تبتعـد بخطوات أشـبه بالركـض، وهتافـات التأييـد تتعـالى أكـثر بينـما الرجـل يواصـل صراخـه وسـط محـاولات رجـال الشرطـة لاحتجـازه:

- «النهاية ليست بعيدة..»

***

(لوس أنجيليس -2119)

الليل..

الظـلام الـذي يحـاول أن ينتـشر عـلى اسـتحياء، فـلا يفلـح، بفعـل الأنـوار الليزرية والمجسـمات الهولوجراميـة الإعلانيـة في كل مكان..

منظـر وادي السـيليكون Silicone Valley المميـز، والعلامـات التجاريـة للـشركات الخاصـة العابـرة للقـارات تسـطع في أفقـه، وترسـل بضيائهـا إلى كل مـكان..

السـيارات الطائـرة، والحوامـات الخاصـة تعـبر في كل مـكان، وتغطـي على مشـهد السـماء بعبورهـا، فـلا تتبين..

لا تتبـين سـوى مشـهد هـؤلاء القادمـين مـن بعيـد، يسـيرون عـلى الأسـفلت، وضجيـج صراخهـم يتعـالى في كل مـكان، وهـم يهتفـون هتافًـا ترتجـف لـه القلـوب، وتهتـز لـه الموجـودات..

- «التوسع لا يتوقف، أعيدوا لنا وظائفنا.. Expansion never stops, Give back our jobs..»

الهتافات الفرعية تتعالى في كل مكان، ورجال الشرطة يحيطون بالمشهد بأكمله بأسلحة الصعق، ويحاولون أن يوقفوا المتظاهرين بلا جدوى..

رائحة الكاوتشوك المشتعل.. ومنظر إطارات النانو كربون الحديثة الصغيرة، والدخان يتصاعد منها إلى عنان السماء يضفي مشاعر الغضب، ويهيئها..

حوامات قنوات الأخبار تصل، ويقفز الصحفيون منها، وفلاش الليزر في كاميراتهم الحديثة يتوجه نحو الجميع، ويسطع كالبرق، ملقيًا بضيائه على كل مكان، بينما الهتاف ما زال يتعالى مصاحبًا له كهزيم الرعد:

- «التوسع لا يتوقف، أعيدوا لنا وظائفنا..»

صحفي يحاول أن يدير حوارًا مع أحد المتظاهرين، ويسأله عن السبب.. سبب كل هذا الذي يحدث، وما الذي يدفعهم للتظاهر..

المتظاهر يصرخ محاولًا أن يعلو بصوته على صوت المتظاهرين:

- «أنا حامل عضوية منتسبة لجينيسيس.. كنت أعمل كسائق حافلة في الـ..»

ارتطم به أحد المتظاهرين عندها، قبل أن ينتبه للصحفي والكاميرا، فيبدأ بالصراخ مباشرة في حامل الكاميرا Camera Man، وهو يرفع إصبعه الأوسط في حركة بذيئة شهيرة..

رجال الأمن يدفعونه بعيدًا، بينما المتظاهر يواصل حديثه مع الصحفي أمام الكاميرا:

- «بدلوني بكائن من الجيل الثالث، وتبريرهم في ذاك كان أنه أرخص، ولا يكلفهم شيئًا سوى طعامه.. لا يحصلون على مرتبات مثل البشر الطبيعيين، ولا يكلف الحصول عليهم سوى ابتياع ذكر وأنثى وتركهم يتناسلون حتى يكبر الأطفال..»

صـوت الـصراخ يتعـالى أكـثر، والهتـاف يصـم الآذان، فيجذبـه الصحفـي جانبًـا حتـى يبتعـدون عـن الهتـاف قليـلًا، ليقـدر عـلى السـمع:

- «أدويـة تسريـع الحمـل والنضـج التـي تـأتي مـع موديلاتهـم، صـارت هـي الرائـدة في عمـل وصناعـات جميـع شركات الأدويـة.. الجميـع يحصلـون عليهـا مـن أجـل تسريـع إنتـاج العمالـة الجديـدة مـن الجيـل الثالـث، وتربيتهـم كالـكلاب، مقابـل العمـل المجـاني الـذي لا يكلـف شـيئًا.. والنتيجـة كانـت أن أعـدادًا مهولـة مِنَّـا نحـن البـشر قـد فقـدت وظائفهـا..»

الـصراخ يتعـالى، واشـتباكات حثيثـة بـين المتظاهريـن ورجـال الأمـن الذيـن تحتـوي صفوفهـم عـلى بعـض كائنـات الجيـل الثالـث المذعوريـن تبـدأ.. تدافـع وارتطامـات يخلخلـون الصفـوف، بينـما المتظاهـر يتابـع:

- «نحـن أعضـاء منتسـبون لجينيسـيس، ونحمـل الجنسـية الأمريكيـة حتـى لـو لم تكـن غـير ذات قيمـة.. لدينـا حقـوق كمواطنـين منتسـبين لجينيسـيس، وتحـت حمايـة الحكومـة الأمريكيـة.. وهـم ملتزمـون بإيقـاف توسـع الجيـل الثالـث، وإعطائنـا وظائفنـا مـن جديـد.. لـن أهـدأ قبـل أن أتمكـن مـن إعالـة أطفـالي، وتوفـير حيـاة كريمـة لـ..»

قطـع عبارتـه أصـوات الـصراخ ومسدسـات الكهربـاء الصاعقـة التـي دوت فجـأة، وتعالـت وهـي ترتطـم بالأجسـاد، فتنتفـض..

ثـم تفجَّـر الموقـف كلـه مـع زجاجـة المولوتـوف التـي طـارت وسـط الجمـوع فجـأة لتهـوي عـلى الأرض جـوار الصحفـي مبـاشرة، وتنفجـر لترسـل اللهيـب في كل مـكان..

***

((من مذكرات العالم إدوارد تاسك التي لم يعثر عليها أبدًا..))

كان ما حدث بعدها، هو كارثة بكل المقاييس..

ثـورة شـاملة مـن كائنـات الجيـل الثالـث، في جميـع أنحـاء العـالم، وليـس الولايـات المتحـدة فقـط..

في جميـع دول العـالم، كانـت سـلوكيات الجيـل الثالـث تتغـير عـلى مـدار سـنة كاملـة، هـي نفـس السـنة التـي قضيتهـا غافـلًا عـمَّا يـدور في معـزلي الاختيـاري، بعد قصـة تمـرد لويـس..

الضغـط والاسـتعباد، والتعذيـب والسـخرة التـي كانـوا يتعرضـون لهـا في جميـع دول العـالم كانـت عامـلًا أساسـيًّا ورئيسـيًّا سـاعد عـلى تمردهـم النهـائي، بجانـب الأفـكار التمرديـة التـي كانـت تنتقـل بينهـم وبـين لا وعـي «لويـس»، مثـل مـا حـدث مـع «آدم» و«إيـف»..

التغـيرات السـلوكية حتـى كانـت واضحـة للعيـان، وملحوظـة.. بالرغـم مـن أن أحـدًا لم يتوقـع أبـدًا أن تصـل إلى هـذه الدرجـة..

كان الجميـع يعتمـد عـلى أن هـؤلاء هـم جنـس أدنى، مثـل العنصريـة ضـد السـود في القـرون الوسـطى، لا يحـق لهـم أي شيء، والتعامـل معهـم دومًـا يجـب أن يكـون مـن منظـور دوني، كالعبيـد.. وفي هـذه الحالـة فإنـه مـن المفهـوم أن يجنـح بعضهـم للتذمـر والعصيـان؛ لأنهـم كائنـات حيـة حقيقيـة، وليسـوا ماكينـات ذات ذكاءٍ اصطناعـي مُخلـق..

لأجـلِ أمـور مثـل هـذه ظهـرت تشريعـات الـ FGA التـي تحدثنـا عنهـا مـن قبـل.. تلـك القوانـين التـي وُضِعـت وضعًـا في قلـب الدسـتور الأمريـكي؛ لتحـرم عليهـم أشـياءَ عديـدة، تحسـبًا لتفكيرهـم في عصيـان سـادتهم ومالكيهـم.. ولكـن كل هـذا لم يغـير مـن النتيجـة النهائيـة شـيئًا عـلى أي حـال..

تظاهـرات البـشر الفقـراء، ذوي العضويـات المنتسـبة لجميـع الـشركات العالميـة الأربعــة، كانــت حافــزًا ســاعد عــلى بــدء ثــورة الجيــل الثالــث ضدهــم، والتــي تحولـت إلى حـرب أهليـة عالميـة شـاملة فيـما بعـد.. دوافـع البـشر كانـت الاحتفـاظ بوظائفهــم التــي ســلبها الجيــل الثالــث في كل مــكان لأســباب مفهومــة طبعًــا.. فكائنـات الجيـل الثالـث لم يكونـوا يكلفـون سـادتهم شـيئًا سـوى الطعـام والـشراب، وأدويــة الإنضــاج الفائــق التــي كانــوا يشــترونها مــن شركات الأدويــة العالميــة، لاسـتعمالها عـلى أطفالهـم الرضـع، لإنمائهـم بشـكل سريـع، بهـدف توفـير الأيـدي العاملـة بـلا تكلفـة..

كل هــذا كان ينــذر بالغليــان في الشــارع العالمــي، وكانــت لــه مــؤشرات كثــيرة كانــت واضحــة في تقاريــر الصحــف والمحطــات الإخباريــة، ولكــن أحــدًا لم يبــالي..

الموقـف كان يشـتعل رويـدًا عـلى الجانـب البـشري، وعـلى الجانـب الآخـر، كانـت الأفـكار التمرديـة التـي نبعـت في البدايـة مـن عقـل «لويـس»، وتناقلتهـا أدمغـة الجيـل الثالـث بأكملـه، كـما الوسوسـة الشـيطانية، هـي الأسـاس الـذي سـاعد في رفضهـم لمعاملـة البـشر، وتفضيلهـم العنـصري لهـم في عمليـات العمـل بالسـخرة وبـلا أجـر سـوى القليـل مـن الطعـام والـشراب..

لم يكونــوا يعرفــون هــذا، ولكــن الأفــكار كانــت تنتقــل فيــما بينهــم بــلا وعــي منهـم.. وكانـوا منظمـون للغايـة، دون حتـى أن يفقهـوا ذاك.. كانـوا يدركـون أنهـم يملكـون وجـودًا كبـيرًا في مواقـع حساسـة، سـواء في الأجهـزة الحكوميـة والمملوكـة للعظــماء الأربعــة، أو في الــشركات الخاصــة.. كــما كان لهــم عــدد كبــير جــدًّا في الجيـوش وقـوات الشرطـة، وأعـمال البنـاء والطـب والتمريـض، وغيرهـا الكثـير.. وكانـوا رغـمًا عنهـم قـد كونـوا خـبرة معرفيـة ضئيلـة، ولكنهـا كافيـة لإحـداث ضرر عالمــي كبــير بالجنــس البــشري.. إضافــة لأن المنتمــين منهــم إلى قــوات الشرطــة والجيـش، كانـوا يملكـون طريقًـا سـهلًا إلى مخـازن الأسـلحة، وترسـانات الاحتياطـي مــن التســليح الحــربي للــدول الواقعــة تحــت نفــوذ العظــماء الأربعــة.. كانــوا يملكـون حتـى المركبـات الحربيـة، والحوامـات والطائـرات المقاتلـة.. ولم يكـن صعبًـا

عليهـم تعلـم كيفيـة اسـتعمالها.. فربمـا كانـوا بدائيـين لا يملكـون العلـم، إلا أنهـم أبـدًا لم يكونـوا أغبيـاء.. قـد تأكـدت أنـا مـن ذلـك..

لذلـك فـإن مـا حـدث مـن اقتحامهـم لمقـر «جينيسـيس» لم يكـن مفاجئًـا، ولم يصـب العـالم بغتـة كـما رأينـا.. ولكنـه حـدث تحـت أعـين الجميـع، وإن لم أفقهـه أنـا أو «جودويـن» بسـبب تشـتتنا في مشـاغلنا.. ولم يكـن أحـدٌ آخـر ليفهـم؛ لأن أحـدًا لم يكـن يملـك فكـرة كاملـة عـن الأمـور مثلنـا نحـن.. السياسـة الاحتكاريـة التـي تعاملـت بهـا مؤسسـة جينيسـيس مـع تكنولوجيـا الجيـل الثالـث، لضـمان الربـح، كانـت عاملًا رئيسـيًّا سـاعد عـلى إبقـاء الـشركات العالميـة الأخـرى، والـدول العظمـى في الظـلام تمامًـا..

كان الأمـر كلـه الآن يتوقـف عـلى مـا لـو كان بإمكاننـا إحتـواء الموقـف أو لا.. وكان هـذا هـو مـا حاولنـا فعلـه..

فبعـد سـنة كاملـة مـرت عـلى هـذه الأحـداث، حاولـت خلالهـا الـشركات العالميـة إخـماد الحـرب الأهليـة، وردع الجيـل الثالـث بمفردهـا، ولم تنجـح، كان مـن الـضروري عقـد مؤتمـر قمـة.. وكنـت أنـا الضيـف الأهـم فيـه، تحـت رئاسـة «جودويـن» الـذي لم يمـت كـما خمنتـم، وإن تغـيرت معاملتـه نحـوي تمامًـا.. لم يعـد هنـاك المزيـد مـن المشـاعر الطيبـة، بـل تحـول إلى شـخصٍ عمـلي تمامًـا لا يتـوانى عـن شـنق أمـه ذاتهـا، لـو كان هـذا يعنـي إيقـاف الحـرب الأهليـة، التـي اسـتهلكت قـدرًا عظيـمًا مـن مـوارد جينيسـيس، وباقـي الـشركات الأربعـة.. مـوارد الكوكـب بأكملـه..

مؤتمـر القمـة ذاك عُقِـد في تاريـخ عالمـي معـين، سُـجِّل في الكتـب والمراجـع بعدهـا عـلى أنـه اليـوم الـذي بـدأت فيـه المقاومـة البشريـة الحقيقيـة ضـد الجيـل الثالـث.. كان ذلـك اليـوم هـو الحـادي عـشر مـن أغسـطس سـنة 2120..

كانـت أهـم نتائـج المؤتمـر هـي موافقـة «جودويـن» بالنيابـة عـن مجلـس إدارة مؤسسـة جينيسـيس بأكملهـا، ونـواب عـن الحكومـة الأمريكيـة والكنديـة، عـلى إعطـاء كافـة أبحـاث ونتائـج اختبـارات تكنولوجيـا خلايـا الـرب، والمسـتعملة في

تصنيـع كائنـات الجيـل الثالـث، إلى باقـي الـشركات الأربعـة..

كان هـذا حدثـًا تاريخيـًّا، فبسـبب احتـكار تلـك التكنولوجيـا مـن قبـل، وحـرب تجسـس الـشركات التـي كانـت دائـرة منـذ التوصـل إلى التكنولوجيـا لأول مـرة سـنة 2114، بعـد تصنيـع نمـوذج «آدم»، كانـت سياسـات الـشركات الثلاثـة الأخـرى في مواجهـة الجيـل الثالـث غـير فعالـة، لافتقارهـم للمعلومـات بصفـة كبـيرة.. ولكـن موافقـة جينيسـيس عـلى المسـاعدة، وفتـح مواردهـا وبنـك معلوماتهـا أمـام العـالم كان مهـمًّا للغايـة، فبسـببه أصبـح البـشر قادريـن عـلى المقاومـة بكفـاءة أكـبر..

اشـتدت حمـى الحـرب بعدهـا أكـثر، حتـى تحولـت إلى حـرب عالميـة حقيقيـة شـاملة.. وصـارت هنـاك جبهـات عديـدة لهـا، في معظـم دول العـالم..

العديـد مـن المـدن الكـبرى دُمِّـرت، وأصبحـت خرابًـا وركامًـا لا يُمَيَّـز.. المـوارد العالميـة والوقـود والسـلاح، والطاقـات النوويـة أُسـتُهلِكت بصـورة كبـيرة، حتـى بلغـت حـدًّا حرجًـا، دون أي نـصر واضـح لأحـد الطرفـين عـلى الآخـر..

معارك عديدة، وانتصارات وخسائر، ولا نهاية في الأفق..

كان مـن الواضـح أن الأمـر قـد أفلـت مـن بـين أيـدي الجنـس البـشري، وأنـه لا سـبيل للفـوز في الحـرب، خصوصًـا وأن الجيـل الثالـث كانـوا قادريـن عـلى تعويـض خسـائرهم بصـورة كبـيرة، بعـد اسـتيلائهم عـلى واحـد مـن أكـبر مصانـع الأدويـة في العـالم، الـذي يقـع في مدينـة مانشسـتر، تحـت نفـوذ (إيوروكـورب)..

كان لديهـم مخـزونٌ وافـرٌ لا ينتهـي مـن عقـار الــ (لازاروس سي بـلاس Lazarus C+) الشـهير، الـذي كان يسـتعمل عـلى أطفالهـم مـن قبـل، لتسريـع عمليـة إنضاجهـم بهـدف زيـادة العمالـة.. ولكـن اسـتعمالهم هـم لـه كان يختلـف.. كانـوا بصـدد زيـادة أعدادهـم، وتعويـض خسـائرهم الفادحـة عـلى أيـدي البـشر المتطوريـن تكنولوجيًّـا..

كان البـشر يملكـون التكنولوجيـا، وكان الجيـل الثالـث يملكـون الأعـداد.. ولم يكـن هنـاك طـرف قـادر عـلى التفـوق عـلى الآخـر..

لم تكـن هنـاك حتـى فرصـة للبـشر في اسـتعمال أسـلحة الدمـار الشـامل، مثـل

القنابل النووية والهيدروجينية، لأسباب عديدة، فلم يكن البشر قادرين على التفريق بين جنسهم، وبين جنس الجيل الثالث، حتى يتمكنون من تحديد المكان الذي سيقصفونه بالقنابل.. كلهم يبدون متماثلين، وكلهم ينزفون دمًا طبيعيًّا.. لا وسيلة للتفرقة سوى بفحص الحمض النووي DNA، وهو ما لم يكن عمليًّا على الإطلاق..

السبب الآخر هو أن العديد من كائنات الجيل الثالث كانوا قد نبذوا أصلهم، واندسوا وسط المستعمرات والمدن البشرية، وصاروا جواسيسًا، أو جعلوا أنفسهم بشرًا حقيقيين.. وحتى البشر الحقيقيين كانوا يختفون في بعض المدن التي يحتلها الجيل الثالث، للهرب من الحرب والمذابح التي كانت تحدث في كل يوم..

باختصار، كان الوضع فوضويًّا تمامًا..

ومع مرور الشهور، والسنوات، كانت الحرب قد قضت على معظم صور الحضارة، ودمرت عددً مهولًا من المدن العالمية الكبرى، واستهلكت قدرًا فادحًا من الموارد العالمية والوقود، حتى صار استمرار الحرب إنذارًا بالفناء الشامل في حد ذاته.. ولم يكن هناك أي تقدم يشي بأن الوضع يمكن أن يتغير..

القادم كان مظلمًا تمامًا، والنظام العالمي بأسره انهار تمامًا، ولم يعد هناك اعتراف بالعظماء الأربعة، ولا بالقوانين، خارج المستعمرات الرسمية التي صنعتها كل شركة، في إحدى المدن التي لم تتضرر بشكل كامل إثر الحرب..

صارت هناك أربع مستعمرات كبرى، في (لوس أنجيليس) و(لندن) و(الإسكندرية) و(طوكيو)، بالإضافة إلى مستعمرات أخرى صغرى في معظم المدن العالمية الكبرى، تقوم بدور تابع للمستعمرات الكبرى التي تقع كل منها تحت نفوذ إحدى الشركات الأربعة وتضم معظم تعداد السكان البشري الذي انحسر تمامًا، ونقصت أعداده بالمليارات، في أكبر حصيلة قتلى حرب سُجِّلت في التاريخ البشري بأكمله..

كل مـن كان خـارج حـدود هـذه المسـتعمرات الأربعـة، والمسـتعمرات الأخـرى التابعـة، كان رسـميًّا فيـما يدعـى بــ (المنطقـة المظلمـة Dark Zone).. بمعنـى أنـه لا يخضـع لأي قوانـين سـلامة أو تمييـز تُفَرِّقُـهُ عـن أيٍّ مـن الطرفـين.. وأنـه يمكـن أن يمـوت بـأي طريقـة مـن ضمـن المئـات مـن الأخطـار المعتـادة التـي هـي واقـع الحيـاة خـارج المسـتعمرات.. أخطـار لم يكـن القصـف بالمدفعيـة أو بالطـيران، أو عـلى أيـدي العصابـات الخارجـة عـلى القانـون ونفـوذ الـشركات الأربعـة، أقلهـا.. بل كان هنـاك مـا هـو أكـثر بشـاعة..

الجيـل الثالـث أيضًـا شـكلوا مسـتعمرات خاصـة بهـم، في أماكـن أخـرى متفرقـة، وكانـوا قـد اسـتولوا عـلى ترسـانة كاملـة مـن الصواريـخ النوويـة والهيدروجينيـة مـن (إيوروكـورب)، مـما جعـل أي تفكـير في قصفهـم حـلًّا غـير عمـلي، لكونهـم قادريـن عـلى الـرد بمثلـه وأكـثر..

الموقـف تـردى إلى الحـد الأقـصى، وصـار كابوسًـا حقيقيًّـا، لم يتوقعـه أي مـن علـماء الاجتـماع أو السياسـيون في العـالم بأكملـه، ولم يقـدر عـلى تخيلـه حتـى أكثرهـم تشـاؤمًا..

مـر الزمـن، ومـرت الأيـام والشـهور حتـى جـاء اليـوم الـذي أسـجل فيـه هـذه المذكـرات منـذ بدايتهـا، وحتـى الآن..

التاسع عشر من أبريل، سنة 2123..

كان مـن الـضروري أن أسـجل كل هـذا وأحكيـه لأحـد، قبـل أن ينفجـر ذهنـي بمـا يجوبـه، أو أنتحـر.. فـكل مـا حـدث كان مظلـمًا تمامًـا، يوشـك عـلى أن يكـون كابوسًـا خارجًـا مـن مخيلـة أي كاتـب مـن كُتـاب روايـات الكـوارث التـي انتـشرت في بدايـات القـرن الحـادي والعشريـن، وبالتأكيـد لم أكـن أنـا نفـسي قـادرًا عـلى تخيلـه، حينـما بـدأت كل هـذا منـذ أقـل مـن عقديـن..

ولكـن كل هـذا الـذي حكيتـه، لم يكـن كل شيء.. فـكل مـا مـر قبـل هـذا اليـوم الـذي نحـن فيـه الآن هـو شيء، وكل مـا هـو قـادم هـو شيء آخـر تمامًـا، أكـثر كابوسـية وإظلامًـا بمـا لا يقـاس..

لماذا؟..

لأن هـذا هـو اليـوم الـذي سـمعت فيـه عـن الكارثـة الكـبرى القادمـة، لأول مـرة..

هـذه هـي نهايـة المذكـرات المسـجلة للعـالم إدوارد تاسـك قبـل تاريـخ 19 إبريـل مـن عـام 2123، والقـادم كلـه هـو عبـارة عـن تسـجيلات يوميـة وشـهرية لـه، يسـجل فيهـا مـا رآه ومـر بـه، خـلال مـا قبـل فـترة الكارثـة الكـبرى

-١٩-

(مـن مذكـرات العـالم إدوارد تاسـك، يـوم الثالـث والعشريـن مـن أبريـل، عـام 2123)

لو كان هناك ربٌّ فعلًا، فلا بد أنه غاضبٌ علينا إلى درجةٍ لا تقاس..

لـو لم يكـن كل مـا حـدث عـلى السـاحة العالميـة عـلى مـدار أربـع سـنوات كافيًـا، فـإن مـا حـدث بعدهـا كان يكفـي تمامًـا لـكي يـدرك الجميـع أن هنـاك خطـأً مـا.. ربمـا هـو نحـس، أو لعنـة.. ليـس واضحًـا ماهيتهـا، ولكنهـا هنـاك..

أكاد أسـمعكم تتسـاءلون عـمَّا أعنيـه.. والحقيقـة أننـي أنـا نفـسي لم أسـتوعب الأمـر بصـورة كاملـة بعـد..

منـذ أربعـة أيـام بالضبـط، جاءنـا تقريـر رسـمي مـن وكالـة ناسـا NASA التابعـة لجينيسـيس والحكومـة الأمريكيـة، يعـرض نتائـج مشـاهدات مرصـد هابـل الفضـائي المُطـور، الـذي جُـدِّد وحُـلَّ مـكان القديـم في منتصـف القـرن المـاضي، بالإضافـة إلى مشـاهدات مرصـد أفـق الحـدث 2.0، الـذي تطـور عـن الأصـلي الـذي كان لـه فضـل كشـف أول صـورة حقيقيـة لثقـب أسـود عـام 2019.. تلـك المشـاهدات حدثـت في خـلال الفـترة مـن بدايـة ينايـر عـام 2098، وحتـى نهايـة مـارس، عـام 2118..

وكان مـا تعرضـه المراصـد، ونتائـج المعـادلات والاسـتنتاجات الرياضيـة لهـا التـي أُجريـت بواسـطة مجموعـة مـن أكـبر علـماء الفلـك والفضـاء في وكالـة كالتِـك Caltech في كاليفورنيـا عـلى مـدار أربعـة أعـوام حتـى عامنـا الحـالي، هـو كارثـة حقيقيـة..

كارثـة عُرِفَـت رسـميًّا في أوسـاط السياسـيين الكبـار، والمسـئولين ذوي النفـوذ بداخـل مؤسسـة جينيسـيس، والذيـن كنـت أنـا و«جودويـن» منهـم، باسـم كارثـة

الكوكـب التاسـع، أو كوكـب X..

كثـيرون منكـم يعرفـون نظريـات الكوكـب التاسـع في المجموعـة الشمسـية، التـي بـدأت للمـرة الأولى عـام 2015، عـلى يـد العالمـين «كونسـتانتين باتيجـين Konstantine Batygin»، وأسـتاذه «مايـكل بـراون Michael Brown».. نعـم.. هـذا هـو نفسـه «مايـكل بـراون» الـذي كان أحـد العلـماء -وأهمهـم- الـذي ساهم في إنـزال رتبـة بلوتـو، مـن كوكـب، إلى مجـرد كويكـب Asteroid، أو كوكـب قـزم Dwarf Planet ليعـود عـدد كواكـب المجموعـة الشمسـية إلى ثمـانٍ فقـط.

في بدايـات سـنة 2015، تحديـدًا في شـهر ينايـر، هـذان العالمـان، اللـذان كانـا جزأيـن مـن فريـق علـماء الفضـاء بجامعـة كالتِـك Caltech، أعلنـا بحثًـا جديـدًا يحـوي دلائـل عـدة، حسـابية ورياضيـة، عـلى وجـود كوكـب عمـلاق يتبـع مـدارًا بيضاويًّـا شـديد الطـول، حـول الشـمس.. وذلـك البحـث كان وقتهـا مبنيًّـا عـلى معـادلات رياضيـة، وبرامـج مُحـاكاة Computer Simulations فضائيـة، ولم يكـن مبنيًّـا عـلى مشـاهدة مبـاشرة Direct observation بعـد..

كان مـا يعتقدونـه وقتهـا، هـو أن ذلـك الكوكـب الافـتراضي، يمكـن أن يكـون هـو المؤثـر عـلى مـدارات بعـض الأجسـام والكويكبـات، التـي يبلـغ عددهـا خمسـة عـلى الأقـل اكتُشِـفت في ذلـك الوقـت، في حـزام كويكبـات كويـبر Kuiper Belt الـذي يقـع عـلى بعـد شاسـع مـن الشـمس..

وقتهـا، كان الاعتقـاد السـائد بـين علـماء ناسـا وكالتِـك، هـو أن الكوكـب يبلـغ حجمـه وكتلتـه عـشرة مـرات عـلى الأقـل مـن حجـم وكتلـة الأرض.. مماثـل في الحجـم تقريبًـا لكوكـب نبتـون أو أورانـوس.. وأن مـداره الطويـل الممتـد، يقـع عـلى بعـد شاسـع وهائـل لا يمكـن اسـتيعابه.. لدرجـة أن المسـافة بينـه وبـين الشـمس تعـادل حـوالي 400 وحـدة فلكيـة Astronomical Units..

لتوضيـح المسـافة، يكفـي بـأن أقـول إن الوحـدة الفلكيـة الواحـدة هـي متوسـط المسـافة بـين الأرض وبـين الشـمس، والتـي تبلـغ حـوالي 150 مليـون كيلومـتر.. ولتوضيـح أكـبر، يكفـي القـول بـأن كويكـب بلوتـو Pluto يقـع عـلى بعـد 40 وحدة فلكيـة فقـط !.. بمعنـى أن المسـافة بينـه وبـين الأرض تعـادل 40 مـرة المسـافة بـين الأرض وبـين الشـمس..

معنى أن الكوكب العاشر يقع على بعد 400 وحدة فلكية من الأرض، كان لا يستوعب.. كان يعني أنه من غير الممكن رصد الكوكب بالتليسكوبات التي كانت موجودة وقتها، إلا بصعوبة بالغة.. وكان يعني أيضًا أنه في الطبيعي، لا يجب أن ينتمي مثل هذا الكوكب إلى مجموعتنا الشمسية الطبيعية.. ولكن مداره الطويل الممتد كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالمجموعة الشمسية، وبالأرض خصوصًا.. حيث إنه يستغرق ما مدته بين 10 آلاف و20 ألف سنة أرضية، ليتمم دورة واحدة حول الشمس.. وفي موقعه الأقرب من الأرض، يمكن لمجال جاذبيته أن يؤثر على المجال المغناطيسي للأرض، ويحدث تغييرًا عظيمًا به.. ولكن أحدًا لم يشهد هذا من قبل، ولم يكن ذاك يتعدى كونه مجرد افتراضات رياضية في ذلك الوقت، وليس إلا..

كان ذلك بسبب أن مدار الكوكب ذاته كان مختلفًا عن كافة مدارات الكواكب الأخرى، التي يسميها علماء الفلك بالكواكب الداخلية Inner Planets، أي الكواكب التي تقع على مقربة من الشمس، وتنتمي إلى النظام الشمسي الداخلي.. والاختلاف هنا بسبب كون المدار بيضاويًّا ممتدًا، أقرب نقطة فيه للشمس تقطع في خط تقاطع مع مجال الجاذبية الأرضي، وأبعد نقطة فيه للشمس تقع على مسافة 400 وحدة فلكية من الأرض..

دراسة العلماء بعدها لمدارات الكويكبات، والكواكب القزمة في حزام كويبر، أوضحت مدارات غير اعتيادية، يبدو عليها أنها متعاقدة معًا في أوقات مختلفة.. كانت تلك المدارت مُسببة، وغير طبيعية.. كان من الأكيد أن جاذبية جُرم سماوي ما هي التي تأثر على مجال جاذبية تلك الأجسام، ومن ضمنها أيضًا كوكب نبتون ذاته.. وكان من الواضح أن ذلك الأثر الواضح لا يمكن أن يكون ناشئًا عن مجال جاذبية بلوتو لصغر حجم كتلته البالغ على أن يكون عاملًا مؤثرًا بهذا الشكل.. بل هو عن كوكب آخر غير معروف، أكبر بمئات المرات من بلوتو..

استمرت الدراسة ومحاولات الرصد لفترة طويلة جدًّا، وظلت جارية لعقود في بدايات القرن الحادي والعشرين، وكانت تتم بالاشتراك بين وكالات الفضاء العالمية، قبل الانهيار الفيدرالي العظيم، قبل أن تتخذ الأبحاث شكلًا فرديًّا أكبر، أججه التنافس التكنولوجي الذي بدأ مع صعود الشركات العالمية

الأربعـة إلى الصـورة..

كانـت هنـاك دلائـل عديـدة لا تُعَـد ولا تُحـصى عـلى وجـوده.. أجسـام سـماوية لا حـصر لهـا كُشِـفت، وكانـت مداراتهـا متوافقـة مـع مجـال جاذبيـة الكوكـب الافـتراضي.. ولكـن أحـدًا لم يجـده هـو ذاتـه.. وهـو مـا كان غريبًـا للغايـة..

الأغـرب، هـو أنـه بعـد الانهيـار الفيـدرالي الأعظـم بفـترة قصـيرة، لم يعـد هنـاك مـن يتكلـم عـن الكوكـب التاسـع مُطلقًـا.. كان الأمـر أشـبه بمـا لـو كان قـد اختفـى مـن الوعـي الجمعـي العالمـي، ولم يعـد أحـدٌ يتذكـر عنـه شـيئًا..

الأبحـاث ومشـاهدات المراصـد التـي كانـت تُسـتعمل في رصـده لم تعـد تتـداول في العلـن، ولم تعـد هنـاك أخبـار رسـمية عـن الموضـوع عـلى الإطـلاق.. وهـو مـا كان غريبًـا كفايـة لأن تبـدأ نظريـات المؤامـرة ومؤيدوهـا في الظهـور للسـطح؛ ليتحـول كل هـذا إلى مؤامـرة كونيـة عظمـى للسـيطرة عـلى الكوكـب، وكل هـذا الهـراء الـذي تعرفونـه..

تحـول الكوكـب التاسـع أو كـما كانـوا يسـمونه (الكوكـب Planet X) إلى مـا يشـبه الأسـطورة الحضاريـة.. لا أحـد يعـرف عنـه شـيئًا، ولا معلومـات هنالـك سـوى بعـض الشـائعات التـي يبالـغ رواد نظريـة المؤامـرة في إيصالهـا وتفسـيرها كـما جـرت العـادة..

لمـاذا؟.. لا أحـد يعـرف.. ولم يعـد هنـاك أحـدٌ يهتـم عـلى أي حـال، مـع القفـزات التكنولوجيـة الهائلـة التـي كان الجنـس البـشري بأكملـه يشـهدها في تلـك الفـترة.. تغـير السـاحة السياسـية العالميـة، وتغـير المجتمعـات الدوليـة ذاتهـا معهـا، كان كافيًـا لأن يشـغل النـاس عـن أي أخبـار مزعومـة، أو شـائعات غـير مؤكـدة، فلـم يعـد هنـاك وقـتٌ لمثـل تلـك الترهـات..

مـا لم يكـن يعرفـه أحـد، هـو أن فريقًـا خاصًـا مـن علـماء الفلـك في وكالـة ناسـا، كان يعمـل عـلى قـدم وسـاق عـلى رصـد ذلـك الكوكـب الأسـطوري، بعـد أن تقـرر إخفـاء الأمـر تمامًـا عـن الأخبـار المحليـة والعالميـة، بسـبب فرضيـة مخيفـة للغايـة، أُكِّـدت رياضيًـا بمـا لا يـدع مجـالًا للشـك، بعـد دراسـة المـدارات المختلفـة للأجسـام التـي رُصِـدت كدليـل عـلى وجـوده..

تلـك الفرضيـة كانـت أن ذلـك الكوكـب لـو كان موجـودًا فعـلًا حسـب مـا أكـدت

الحسـابات، فـإن مـداره حـول الشـمس سـيقترب مـن المجـال الكهرومغناطيـسي، ومجـال الجاذبيـة الأرضي إلى حـدٍّ حـرج، خـلال عقـود قليلـة، ومعـدودة.. وأنـه لـو صحـت تلـك الحسـابات، فـإن ذلـك يعنـي أن كارثـة كـبرى عـلى وشـك الحـدوث.. كارثـة لا يملـك عنهـا أحـد أدنى فكـرة..

تلـك الفرضيـة كانـت مخيفـة بمـا يكفـي لأن يخصـص رئيـس مجلـس إدارة جينيسـيس السـابق ميزانيـة خاصـة لـوكالات الفضـاء الأمريكيـة والفيدراليـة الكـبرى لبحـث ذلـك المشروع بصفـة اسـتثنائية، وبسريـة تامـة بلغـت أن أحـدًا من مجلـس الإدارة ذاتـه لم يكـن يعلـم شـيئًا عـن الأمـر برمتـه.. ذلـك المشروع كان لـه اسـم كـودي هـو (راجنـاروك Ragnarok).. نسـبة إلى معركـة نهايـة الزمـان الشـهيرة في أسـاطير الميثولوجيـا الإسـكندنافية.. ولم يكـن مصرحًـا لأي شـخص الاطـلاع عـلى نتائـج الأبحـاث الخاصـة بـه، سـوى رئيـس مجلـس الإدارة فقـط..

سـبب السريـة المبالـغ فيهـا تلـك، كان عـدم رغبتهـم في أن يتـسرب الأمـر إلى العامـة بـأي شـكل؛ لأن هـذا كان مـن شـأنه أن يسـبب هلعًـا عالميًّـا يمكـن أن يـؤدي إلى سـقوط المجتمـع ذاتـه بشـكله المعـروف.. ولم يكـن هـذا واردًا تحـت أي ظـرف..

ظـل الأمـر عـلى مـا هـو عليـه لفـترة طويلـة للغايـة بـدأت سـنة 2098، حتـى جـاءت سـنة 2118..

وكانت هذه هي المرة الأولى التي رُصد فيها..

***

انقلـب كل شيء رأسًـا عـلى عقـب، حينـما رُصِـد الكوكـب لأول مـرة.. وبالصدفـة البحتـة..

بسـبب مـدار الكوكـب الطويـل للغايـة، الـذي يدفـع بـه إلى الفضـاء العميـق Deep Space حرفيًّـا، ثـم يعيـده مـن جديـد حتـى يـدور حـول الشـمس دورة قصـيرة ينطلـق عـلى إثرهـا إلى الفضـاء مـرة أخـرى، وبسـبب خصائـص سـطحه التـي تمتـص ضـوء الشـمس بالكامـل، ولا تعكـس مـن ضوئهـا سـوى 0.5% فقـط، كان رصـده غـير ممكـن مـن قبـل، سـوى حينـما اقـترب مـداره مـن الأرض إلى حـدٍّ

كبير، كان مع قوة التليسكوبات الفضائية المتطورة كافيًا لالتقاط صورته لأول مرة..

شكله البرتقالي الداكن الجميل كان متناقضًا تمامًا مع الدمار الذي يحمله إلينا في تؤدة وثبات.. منظره الهادئ المسالم وسط ظلام الفضاء كان شاعريًّا، يوشك على أن يكون رومانسيًا كذلك..

لفترة سنة كاملة عكف علماء مشروع راجناروك على دراسة مدار الكوكب، وتتبع مساره الحالي لمحاولة استنتاج مداره الكامل، حتى اندلعت ثورة الجيل الثالث لتعطل كل شيء..

الموارد كلها انسحبت في الحرب، ولم يكن هناك نهاية في الأفق.. لم يعد الأمر يهم على أي حال، فالكوكب كان يتوجه باضطراد نحو المدار الأرضي، بشكل ثابت.. وكانت أقرب نقطة له إلى الأرض على بعد 7 سنوات، حسب التقديرات الرياضية والإحصائية التي استنتجها علماء المشروع، بالموارد القليلة المتاحة لهم.. وكان «جودوين» على علمٍ بهذا كله، إلا أنه لم يكن يعلم بعد أن مدار الكوكب يقع على مسار قريب من الأرض.. والسبب كان تأخر طاقم العلماء في دراسة المدار بسبب قِلة الموارد المتاحة لهم، وأيضًا بسبب انشغاله التام هو وباقي مجلس إدارة جينيسيس، والحكومة الأمريكية بأكملها في حرب الثورة ضد الجيل الثالث، التي كانت كارثة حرفية على كامل مؤسسات الشركة، وكان انفصال كندا عن تحالف جينيسيس نتيجة حتمية لها، قبل أن ينتهي مفهوم الدول ذاته، وينهار نظام الشركات العظمى الأربعة، مع بداية سنة 2123، لتظهر المستعمرات الكبرى..

لذلك فحينما وصله الخبر أخيرًا، بكامل الدراسة التي أُجريت على مر السنوات بأقل القليل من الموارد المتاحة، وكان واضحًا أن مدار الكوكب يقع في خط تقاطع مباشر مع المدار الأرضي، كان الأمر كارثة كبرى جمدت عقله تمامًا عن التفكير.. لم يكن هناك أي مهرب عملي أو نظري حتى..

في علم الفلك، هناك ما يدعى بـ (حد روش Roche Limit)..

حد روش هذا هو أقصى مسافة يمكن لأي كوكب أو جسم فضائي فيها أن يقترب من جسم آخر، قبل أن ينهار ذلك الجسم ويتفكك تمامًا بفعل قوى

المد والجزر والجاذبية لذلك الجسم..

معادلة روش هي : $d=1.26\ R\ (RHO/rho)^{1/3} = 1.26\ r\ (M/m)^{1/3}$

حيث d هي الحد الأقصى للمسافة distance الذي نبحث عنه، وR هي قطر Radius الجسم الأكبر، وr هي قطر الجسم الأصغر.. RHO هي كثافة الجسم الأكبر، وrho هي كثافة الجسم الأصغر.. وبالمثل أيضًا M هي كتلة Mass الجسم الأكبر، وm هي كتلة الجسم الأصغر..

حينما قام فريق العلماء بحساب حد روش في حالة الكوكب X هنا، باعتبار أن حجمه وكتلته يبلغان حوالي 10 أضعاف حجم الأرض، كان الناتج هو أن الكوكب X يجب أن لا يقترب لمسافة أقل من حاصل ضرب كتلة الأرض في 12.6 تقريبًا.. لو اقترب أكثر من هذا، فإن الكوكب بأكمله سيتفكك، ويتحول إلى ركام..

لحسن الحظ، بعد حسابات عديدة، كان الناتج هو أن الكوكب سيعبر على مسافة بعيدة تمامًا عن مجال روش، ولكن اقترابه الحثيث سيؤدي إلى تداخل مجال جاذبيته ومغناطيسيته مع المجال الأرضي بشكل عنيف، يمكن له أن يؤثر في ميل محور الأرض، وربما انحراف مدارها ذاته لو اقترب أكثر من ذاك.. وناتج هذا سيكون انقراض جماعي لكافة الكائنات الحية الموجودة على الأرض، بفعل الفيضانات والزلازل والانفجارات البركانية التي ستبلغ قوتها حدًّا لم يشهده مخلوق من قبل، ولم يجسر حتى على تصوره.. دعك طبعًا من النيازك والأجسام الصغرى التي تدور حول الكوكب الآخر في مدار ثابت بفعل جاذبيته، والتي ستتأثر بمجال جاذبية الأرض والقمر لتخرج من مكانها تمامًا وترتطم بسطح الأرض والقمر، وتمطرهما بوابل من النيران ومئات الانفجارات النووية التي تجعل قنبلة هيروشيما وناجازاكي أشبه بزخة من مسدس مياه في المقارنة..

يعني هذا أن سطح كوكب الأرض سيُدك دكًّا شاملًا، لا سبيل للنجاة عليه بأي شكل.. وكل هذا يوشك على أن يبدأ، وأن نشعر بتأثيراته، بعد 7 سنوات فقط..

كما تتوقعون، كان أثر الخبر عليَّ عنيفًا، لم أقدر على استيعابه، وأظنني

لم أستوعبه حتى هذه اللحظة التي أكتب فيها المذكرات الآن.. لا أستوعب كيف تغيرت خارطة العالم بأكمله في أقل من خمس سنوات من بدء ثورة الجيل الثالث، التي سببتها أنا.. ولا أستوعب كيف يوشك العالم بأكمله على أن ينتهي تمامًا، ويجعل حروبنا وحيواتنا بأكملها تبدو أشبه بلهو الأطفال بالنسبة لما هو على وشك الحدوث..

استيعاب كل هذا صعب.. صعب ويحتاج لوقت طويل، وهو ما لا نملكه للأسف.. فقد نادى «جودوين» بعمل اجتماع طارئ مع مجلس إدارة جينيسيس، ومن تبقوا أحياء من الحكومة الأمريكية، وقادة الجيش، حتى يعرض عليهم الوضع، تمهيدًا لأن يشارك فيه باقي إدارات العظماء الأربعة.. وهدف الاجتماع الأساسي، هو البحث عن حل.. بأي ثمن..

كيف يمكن أن تجد حلًّا لكارثة، هي عبارة عن كوكب عملاق كامل يوشك على أن يقترب من مجال جاذبية كوكبك الأم، ليؤثر في مجالها المغناطيسي وتوازن مدارها ذاته؟..

هذا ليس كويكبًا لو كنت تفكر في أنه يمكننا نسفه بالقنابل النووية الهيدروجينية، أو بالأسلحة الانشطارية.. إنه كوكب كامل، يبلغ حجمه وكتلته 10 أضعاف حجم وكتلة الأرض.. وحتى لو كان نسفه واردًا، فإنه من غير الممكن أن يقوم البشر باستعمال أي سلاح نووي دون أن يظن الجيل الثالث أننا نوشك على قصفهم، واحتمال أن يقوموا باستعمال قنابلهم النووية أكيد في هذه الحالة..

لا سبيل هناك سوى الفرار.. ولكن إلى أين؟..

لا توجد بدائل كثيرة، ولكنني أظن أن لدي فكرة ربما تنجح.. المشكلة الأكبر هي أنني لا أعرف هل سيوافقني أحدٌ عليها أم لا؟..

هذا هو ما أتمنى أن أعرفه في الاجتماع..

***

-٢٠-

(مـن مذكـرات رئيـس مجلـس إدارة جينيسـيس، فرانـك جودويـن، يـوم الثامـن والعشريـن مـن أبريـل، عـام 2123)

لا أدري حتى لماذا ما زلت أدوِّن مذكراتي ها هنا..

ربمـا هـو ولـع ماسـوشي بتعذيـب الـذات مـن خـلال تذكـر الكارثـة المقبلـة، أو ربمـا كان أمـلًا في أن تمـر بسـلام، لتصبـح هـذه المذكـرات عمـلًا أدبيًّـا يسـجل أهـم فـترة في التاريـخ البـشري بأكملـه.. أو ربمـا هـو القليـل مـن الاثنـين.. لا أدري بالضبـط..

نتيجـة مـشروع راجنـاروك كانـت إيجابيـة.. الكوكـب موجـود، وقـادم بالفعـل.. لا سـبيل لتفـادي الكارثـة مهـما استولى الأمـل عـلى النفـوس، أو حاولـت الأذهـان أن تقنـع نفسـها بـأن هنـاك مخرجًـا مـن الموقـف الـذي هـو عـلى وشـك أن يحـدث..

لا سـبيل لإيقـاف الكارثـة.. هـذا واضـح كالشـمس، قبولـه نضـج، ورفضـه حماقـة عظمـى لا تغتفـر.. كل مـا يمكننـا أن نفعلـه أو نسـعى لأجلـه هـو تفاديهـا، أو الهرب منهـا.. أو حتـى انتظـار أن تمـر..

«إدوارد» كان سـببًا رئيسـيًا في ثـورة الجيـل الثالـث التـي قضت على العالم بشـكله المعـروف.. هـذا هـو مـا يعرفـه الجميـع، ولكـن أنـا وحـدي أعـرف أن الذنـب الأكـبر يقـع عـليَّ أنـا.. فلـو لم أكـن متسـاهلًا معـه لدرجـة غـير معتـادة، لمـا حـدث كل هـذا.. ربمـا حتـى امتلكنـا طريقـة لإيقافـه أو تفـادي أثـره الـكارثي.. ولكـن بسـببي حـدث كل هـذا بغتـة، وبعنـصر مفاجـأة قـوي كان لـه أكـبر الأثـر في تعـادل القـوى في الحـرب.. بسـببي أنـا.. بسـبب تسـاهلي، وبسـبب نسـياني لـدوري الرئيـسي الـذي كان يجـب عـليَّ أن أتذكـره، ولا أنسـاه أو أتناسـاه لأجـل أي مخلـوق..

بعـد كل مـا حـدث، لم يكـن هنـاك فائـدة مـن طـرده أو تصفيتـه، فأخطـار الأمـر أكبر مـن فوائـده.. بالإضافـة أنـه ليـس للأمـر مكسـب يمكـن أن أجنيـه، بـل بالعكـس.. الرجـل عبقـري فعـلًا، وربمـا كان قـادرًا عـلى أن يـأتي بحـلٍّ للورطـة التـي حلـت بنـا.. ولهـذا السـبب فقـط أخبرتـه بأمـر الكارثـة..

كان رد فعلـه كـما توقعـت تمامًـا.. امتقـع وجهـه حتـى سَرَت فيـه الألـوان، واسـتحالت بشرتـه شـاحبة كأنمـا الـدم قـد هـرب مـن عروقـه، ولم يعـد حتـى قـادرًا عـلى الوقـوف، فتهالـك عـلى مقعـدٍ كان قريبًـا منـه..

حـاول أن يفكـر، فلـم يقـوَ.. وأظننـي أفهـم مـا كان يمـر بـه.. تقَبُّـل الخبر لم يكـن سـهلًا عـليَّ أنـا نفـسي، وأنـا أتابـع المـشروع منـذ توليـت رئاسـة جينيسـيس سـنة 2105، فـما بالـك بـه هـو، وهـو مـا زال يصـارع ذاتـه في تقبـل مسـئوليته عـمَّا وصل إليـه العـالم مـن دمـار، بفعـل الجيـل الثالـث الـذي نتـج عـن طموحـه المريـض.. كيـف يمكـن أن يقبـل أن كل هـذا لم يعـد مهـمًّا، لأن الكوكـب بأكملـه يوشـك عـلى أن يذهـب إلى حيـث ألقـت..

لمسـة مـن الشـفقة كانـت تنبـع بداخـل نفـسي وقتهـا، وإن لم أعـترف.. لم يكـن مـن الممكـن أن أتـرك نفـسي لهـذه الشـعورات مـن جديـد.. ولذلـك فقـد وأدتهـا.. مثـل رضيـع زنـا، في رمـال صحـراء قاحلـة، وأدتُ كل مـا كنـت أشـعر بـه ويجـوب صـدري، وتجاهلتـه كأنمـا لم يكـن..

مـا حاولتـه وقتهـا هـو الاجتـماع بقـادة الجيـش، وباقـي مجلـس الإدارة الـذي كان إدوارد قـد انضـم لـه بعـد نجـاح مـشروع الخلـق، لعـرض الأمـر، ومحاولـة الوصـول إلى حـل.. أي حـل..

لكـن لم تكـن هنـاك فائـدة.. كل الحلـول التـي عُرضـت كانـت غـير عمليـة، أو تحتـاج إلى وقـتٍ طويـل، أو مـوارد لا نملكهـا بسـبب الحـرب..

بعضهـم اقـترح فكـرة تصنيـع أسـطول مـن سـفن الفضـاء المجهـزة بوسـائل النجـاة والتجميـد الصناعـي، واسـتعمالها في اسـتيطان كوكـب آخـر.. ولكننـا لم نكـن نملـك الوقـت، أو المـوارد الكافيـة لعمـل مـشروع كهـذا.. فالحـرب قضـت عـلى معظـم المـوارد، واسـتهلكت مخـزون الوقـود إلى حـد حـرج، لم يعـد مـن الممكـن

استعماله في أي مشروع عملاق، دعك من مشروع بمثل هذا الحجم..

وكان هذا هو الوقت الذي تلقيت فيه دعوة «فيليب وايتهول» رئيس مجلس إدارة (إيوروكورب)، للاجتماع والمشاورة بخصوص شيء لم يشرحه، ولكنه وصفه بالكارثة..

بالطبع قد عرفوا.. هم ليسوا متأخرين عنَّا، ولربما كان لديهم مشروع آخر موازٍ لمشروع راجناروك، يتتبع مدار الكوكب.. ولكن كونهم قد اختاروا التواصل، ومبادلة المعلومات والاقتراحات يعني أنهم يائسون، مثلنا بالضبط.. يعني أنه لا حل هنالك..

توالت بعدها دعوات النقاش والاجتماع، من «جميل يعقوب» رئيس مجلس إدارة مؤسسة يعقوب الاتحادية JUF، وابن مؤسسها «سمير يعقوب»، وأيضًا «هو جانغ لي» رئيس لانلونج فاونديشن.. دعك من دعوات الرئيس الروسي «فلاديمير بيتروف»، وغيره من رؤساء الدول غير المنضمة لتحالفات العظماء الأربعة..

الموعد الذي اتُّفق عليه هو يوم الخامس من مايو المُقبل.. ولربما كانت تلك هي أكبر قمة عالمية تُقام منذ تأسيس العظماء الأربعة.. لم يجتمع أبدًا هذا العدد من الحكام والزعماء والدول والتحالفات، منذ زمن طويل للغاية..

لو كان للكارثة فضل واحد، فهو توحيد الصفوف، وتقريب الخلافات والصراعات بين الحضارات والثقافات المختلفة.. فهم جميعًا الآن في نفس الورطة، يواجهون نفس الكارثة.. لم تعد الخلافات أو الحروب ذاتها مهمةٌ الآن.. مصير الجنس البشري بأكمله على المحك، والكارثة ليست على وشك الانصراف من تلقاء نفسها، حتى وإن تمنينا..

ما زلت حتى الآن لا أدري لماذا أكتب كل هذا، ولا لأي غاية.. ولكنني آمُل أن يعود كله بفائدةٍ في يومٍ ما..

***

(من مذكرات فرانك جودوين يوم السابع عشر من يونيو، سنة 2123)

استمر الاجتماع ليومٍ كامل، لم نكن عند نهايته أقرب ممَّا بدأنا..

خلافات كثيرة، ونقاشات حادة، وصياح وتبادل اتهامات، والكثير والكثير جدًّا من الازدراء والعنصرية.. كان هذا هو مُجمل ما كان يدور في المؤتمر، الذي لم تنقله أي وسائل إخبارية بالطبع، لطبيعته السرية..

اقتراحات عديدة طُرحت، ولم تلقَ قبولًا أو توفيقًا.. منها مشروع (إيوروكورب) الذي سموه بمشروع الخروج Exodus Project..

كان ما يقترحونه هو أن يتعاون العظماء الأربعة، وباقي الدول العالمية في تنفيذ مشروع كامل هو عبارة عن أسطول هائل من سفن الفضاء المجهزة بأحدث تقنيات السفر البين نجمي Interstellar Travel، وتقنيات الإعاشة، من أجل استيطان كوكب آخر في نظام شمسي آخر بعيد، اكتشفته وكالة الفضاء الأوروبية، وكان يسمى TG-243..

ذلك الكوكب حسب دراستهم المطولة كان صالحًا للحياة الأرضية.. يملك غلافًا جويًّا أثقل نسبيًّا من الأرض، وحجمه يبلغ ضعفي حجم الأرض، يدور في المنطقة الصالحة للحياة، حول نجم عملاق يماثل 10 مرات حجم الشمس، على بعد 30 ألف سنة ضوئية..

كان من الواضح أنهم يدرسون الموضوع منذ فترة بشكل سري، بسبب كثرة التفاصيل التي عرضوها وتكلموا عنها، ولكن ما دفعهم لعرض الفكرة على باقي زعماء العالم، هو كونهم يفتقرون للموارد اللازمة لتشغيل مشروع كهذا.. ولهذا عرضوه كوسيلة لتفادي الكارثة.. كان ما يفكرون فيه هو استيطان ذلك الكوكب حتى تمر الكارثة على كوكب الأرض، ثم العودة من جديد بعد أن تنتهي الظروف المعيشية السيئة التي ستلي الكارثة..

الفكـرة كانـت مغرقـة في الخيـال، ولم تكـن واقعيـة.. فبافـتراض أنهـم يملكـون تكنولوجيـا حقيقيـة للسـفر بسرعـة الضـوء أو أسرع، أو مـا يسـمى بـال FTL أو (Faster Than Light travel)، كيـف يمكـن للجنـس البـشري أن يتحمـل رحلـة عـبر الفضـاء لمـدة 30 ألـف سـنة كاملـة؟.. متوسـط العمـر البـشري الحـالي بلـغ 150 عامًـا، بسـبب تقـدم الطـب ووسـائل تجديـد الخلايـا نسـبيًّا خـلال القـرن المـاضي، وبخاصـةً بعـد أبحـاث إدوارد تاسـك، ولكـن بالتأكيـد لا تصلـح تكنولوجيـا الجيـل الثالـث لتحمـل رحلـة فضائيـة تـدوم لـكل تلـك الفـترة.. هـذا صعـب لدرجـة الاسـتحالة.. ربمـا كانـت تقنيـات تجديـد الخلايـا ومـشروع الخلـق صالحـة لإطالـة عمـر بـشري واحـد أو اثنـين عـلى الأكـثر لفـترة مثـل تلـك، ولكننـا بالتأكيـد لا نمتلـك مـوارد أو طاقـة كافيـة لتجديـد خلايـا جنـس كامـل مـن ملايـين البـشر.. دعـك مـن اسـتحالة أن يتحمـل أي عقـل حـي أن يظـل حيًّـا لمـدة ثلاثـين ألـف سـنة كاملـة.. العـالم بأكملـه مجتمعًـا لم يكـن يملـك مـوارد كافيـة لتغطيـة مـشروع مثـل هـذا.. وحتـى الوقـود ذاتـه كان شـحيحًا لا يكفـي لتغطيـة رحلـة إلى المريـخ، وليـس إلى نظـام شـمسي آخـر عـلى حـدود المجـرة..

نفـس الفكـرة طرحهـا عـليَّ طاقـم مـن علـماء كالتِـك وناسـا قبـل الاجتـماع، ورُفضـت لنفـس الأسـباب..

لـذا فبعـد أن رُفـض المـشروع بعـد مناقشـات طويلـة، جـاء اقـتراح «إدوارد» الذي أعـاده مـرة أخـرى للأضـواء، كأشـهر عـالم في التاريـخ البـشري المسجل بأكمله..

اقـتراح عبقـري بمعنـى الكلمـة، لم أكـن أسـتوعب أنـه قـد فكـر فيـه وفي تفاصيلـه بكاملهـا بمفرده..

ما هو؟..

دعني ألتقط أنفاسي قليلًا، وسأحكي لك..

***

في نهايـات القـرن الحـادي والعشريـن، كانـت هنـاك اتفاقيـة تجـارة عظمـى تابعـة لبنـود إتفاقيـة رامـيرو، سُـميت باتفاقيـة رامـيرو للتجـارة الحـرة Ramero Free Trade Agreement أو اختصـارا RFTA..

تلـك الاتفاقيـة كان هدفهـا تحريـر التجـارة بصـورة كاملـة بـين العظـماء الأربعـة المنتمـين لاتحـاد واحـد تحـت بنـود اتفاقيـة رامـيرو التـي وُضِعَـت بعـد الانهيـار الفيـدرالي الأعظـم عـام 2072؛ وتقليـل تكاليـف النقـل والشـحن بـين كافـة الـدول الأعضـاء فيهـا.. ومـع مـرور الوقـت، انضـم لهـا حتـى مُعظـم الـدول التـي لم تكـن منضمـة لأي واحـدة مـن الـشركات الأربعـة..

واحـد مـن بنـود تلـك الاتفاقيـة، كان يحـدد تعاونًـا خاصًّـا وشـاملًا بـين كامـل اتحـادات دول العظـماء الأربعـة، في تأسـيس شـبكة كـبرى مـن الأنفـاق تحـت سـطح الأرض، وبنـاء سـكك حديديـة ممغنطـة بداخلهـا، مخصصـة لقطـارات نقـل البضائـع الكهرومغناطيسـية المتطـورة، لتربـط جميـع الـدول ببعضهـا تحـت سـطح الأرض بعـشرات الكيلومـترات..

كان مشروعًـا طموحًـا للغايـة، يتطلـب تنفيـذه أعـلى قـدرة تكنولوجيـة توصـل لهـا البـشر في ذلـك الوقـت، بجانـب تعـاون عـلى أعـلى مسـتوى.. وبـدأ التنفيـذ بالفعـل في أوائـل تسـعينيات القـرن، حتـى تـم الانتهـاء مـن البنيـة التحتيـة لـه بالكامـل سـنة 2116.. ولكـن بسـبب الحـرب البـاردة وتجسـس الـشركات الـذي كان دائـرًا وقتهـا، وُضِعـت الاتفاقيـة بأكملهـا في خانـة الانتظـار، حتـى إشـعار آخـر.. كان ذلـك بسـبب السـباق التجسـسي الهائـل الـذي كان يهـدف في المقـام الأول إلى التوصـل لاخـتراق شـبكة جينيسـيس مـن أجـل سرقـة تقنيـات مـشروع الخلـق.. وبعدهـا ومـع بدايـة الاحتجاجـات وعـدم الارتيـاح العالمـي الـذي سـبق ثـورة الجيـل الثالـث، كان مـن الطبيعـي أن يُنـسى المـشروع تمامًـا؛ لأن هنـاك مـا هـو أهـم منـه حاليًـا..

كل هذا جميل.. لكن ما علاقته بالضبط بما اقترحه إدوارد تاسك؟

مـا اقترحـه إدوارد مبدئيًّـا كان أن نسـتغل شـبكة الأنفـاق الهائلـة تلـك، ونبنـي

بداخلهـا مـا يشـبه المخابـئ النوويـة، المجهـزة بوسـائل الإعاشـة والتجميـد الاصطناعـي Stasis، واسـتعمالها في الاحتـماء، وانتظـار مـرور الكارثـة..

شـبكة الأنفـاق مبنيـة عـلى عمـق هائـل، يتجـاوز عـشرات الكيلومـترات في جـوف الأرض.. لـذا كان اسـتغلالها كمخابـئ نوويـة عبقريًـا، خصوصًـا وأنهـا لم تدخـل حيـز الاسـتعمال، ولم تُركَّـب السـكك الحديديـة المغناطيسـية فيهـا بعـد.. لذلـك فقـد كانـت صالحـة جـدًّا لأي عمليـة بنـاء تقـام بداخلهـا، ولأي عمليـة تهيئـة.. والبنيـة التحتيـة لهـا كانـت عـلى مسـتوى أسـطوري مـن الجـودة، يشـهد عـلى التطـور التكنولوجـي الـذي وصـل لـه البـشر طيلـة الأعـوام الماضيـة..

نالـت فكرتـه استحسـانًا مـن الجميـع عـلى غـير العـادة، وبـدا للحظـات أنهـم قـد نبـذوا خلافاتهـم، وتوحـدوا عـلى رأي واحـد، يجـزم بـأن الفكـرة عبقريـة.. ولكـن هـذا لم يكـن كل مـا يملكـه إدوارد.. فـكل هـذا كان مجـرد المرحلـة الأولى مـمَّا سـماه بمـشروع (الأرض – صفـر) Earth – Zero..

المرحلـة الثانيـة كانـت اقتراحـه أن يسـتعمل قلـة قليلـة مختـارة مـن البـشر تكنولوجيـا السـبات الصناعـي، ليقومـوا بتجميـد أجسـادهم ووعيهـم ذاتـه، لعقـود طويلـة، انتظـارًا لمـرور الكارثـة.. وهـؤلاء القلـة يجـب أن يتـم اختيارهـم على أسـس علميـة وحياديـة بعيـدًا عـن التعصـب أو الوسـاطة.. يجـب أن يتـم انتقـاء أهـم وألمـع العقـول البشريـة الموجـودة حاليًـا في كل دولـة، وكل اتحـاد، ووضعهـم هـم فقـط بداخـل أجهـزة السـبات الصناعـي، لحفـظ عقولهـم وأجسـادهم ووعيهـم من الدمـار، والمـوت.. لأن هـؤلاء هـم الـذي سيسـاعدون عـلى بنـاء الأرض والمجتمـع مـن جديـد، بعـد أن ينتهـي كل شيء.. أمـا باقـي البـشر المختـارون في عمليـة الإخـلاء العشـوائية، فهـم سـيحتمون بالأنفـاق، ويمضـون باقـي حياتهـم تحـت الأرض، في انتظـار مـرور الكارثـة.. وهـذا لسـبب مهـم، هـو أنـه لا توجـد مـوارد أو طاقـة كافيـة لتجميـد الجنـس البـشري بأكملـه بداخـل الأنفـاق؛ لـذا فيجـب علينـا أن نقـوم باختيـار صعـب، لا بديـل عنـه..

الفكـرة كانـت صعبـة القبـول، ولم يكـن ابتلاعهـا سـهلًا، ولكنهـا كانـت الحـل

الوحيـد الـذي تمكننـا مـن الوصـول إليـه، وكان يملـك فرصـة حقيقيـة في حفـظ الحضـارة بعـد الفنـاء..

كثـيرون كانـوا يملكـون صعوبـة في تقبـل الحـل، والأمـر بأكملـه، بسـبب عـدم اقتناعهـم أو استيعابهم لفكـرة أن العـالم قـد انتهـى بالفعـل، وأن الأمـر كلـه مسـألة وقـت.. وأظننـي أفهمهـم كـما قلـت، فالغـرور البـشري يصـور لهـم دائمًـا أنهـم قـادرون عـلى تجـاوز أي محنـة، وحـل أي كارثـة مهـما كانـت.. ولكـن الحقيقـة كانـت أن هـذه بالـذات هـي الكارثـة التـي لا حـل لهـا.. لا خيـار هنـاك سـوى الهـرب، والتأكـد مـن الحفـاظ عـلى قـدرة بـدء العـالم مـن جديـد.. فلـو خسرنـا ذاك، لانتهـى كل شيء فعـلًا، وعدنـا إلى الصفـر بـلا رجعـة..

وبعـد اجتـماع متواصـل اسـتمر ليومـين كاملـين بـلا انقطـاع أو فـترة للنـوم حتـى، وُضِعـت الجوانـب الرئيسـية التـي سـيُبدأ العمـل عليهـا.. ولكـن كانـت هنـاك مشـكلة واجهـت كل هـذا، وأظنكـم أذكيـاء، وقـد خمنتموهـا بالفعـل قبـل أن أتفـوه بهـا..

ماذا عن الجيل الثالث؟..

كان هـذا سـؤالًا وجهـه أحـد الحضـور نصًّـا، فلـم تمـر ثـوانٍ حتـى نظـر إليـه الجميـع، وبعضهـم يقـول «مـاذا عنهـم؟..»

لا مـكان للجيـل الثالـث وسـط خطـة كهـذه.. فـلأول مـرة منـذ سـمعنا عـن الكارثـة، كان اقـتراح إدوارد، والخطـة الرئيسـية الكاملـة التـي وُضِعـت، يجعلـون الكارثـة ذاتهـا تعمـل لمصلحتنـا وليـس ضدهـا..

الكارثة هي سبيلنا للفوز بالحرب ضد الجيل الثالث، وإفناؤهم تمامًا..

الـشيء الـذي لم نقـدر عـلى فعلـه، والغايـة التـي نسـعى لهـا منـذ بدايـة الثـورة، أصبحـت الكارثـة هـي سـبيلنا لتحقيقـه..

ولذلـك كان مـن الـضروري وضـع خطـة تمويـه بجانـب الخطـة الرئيسـية، حتـى لا يكتشـفها جواسـيس الجيـل الثالـث.. تلـك الخطـة كانـت الاسـتمرار في الحـرب، وبـدء مرحلـة جديـدة مـن حـرب الاسـتنزاف، وتقليـل المـوارد التـي ستُسـتعمل فيها

بـأي شـكل، للمسـاعدة عـلى الانتهـاء مـن مدينـة الأنفـاق في أسرع وقـت.. فليـس هنـاك وقـتٌ أو مـوارد كافيـة لإتمـام العمليـة، والاسـتمرار في قتـال الجيـل الثالـث بقـوة كاملـة في نفـس الوقـت.. الكارثـة عـلى بعـد سـبع سـنوات، وآثارهـا المدمـرة سـتبدأ في الظهـور قبـل هـذا بفـترة.. الكوكـب ذاتـه سـيصير ظاهـرًا في السـماء، قبـل مـرور خمـس سـنوات.. وحينهـا سـتبدأ الأسـئلة في التكاثـر، ولـن يكـون هنـاك سـبيل للهـروب سـوى إلى المدينـة.. لـذا سـيكون مـن المؤسـف أن لا تكـون قـد تمـت بالفعـل، فسـنكون جميعًـا في ورطـة حقيقيـة حينهـا..

وبرغـم أنـه لم يعـترض علانيـةً، لم يكـن إدوارد معجبًـا جـدًّا بفكـرة إفنـاء جنـس الجيـل الثالـث بأكملـه، وأظنننـي أفهـم لمـاذا..

فبعـد كل شيء، تلـك الكائنـات هـي صنيعـه، ومـشروع عمـره الـذي أفنـي حياتـه غايتهـا.. ليـس مـن السـهل عليـه أن يتقبـل أن نهايتهـا بهـذه السـهولة، وأن كل مـا سـعى نحـوه طيلـة سـنوات عمـره، مصـيره الفنـاء التـام بـلا أدنى رجعـة.. فبرغـم كل شيء، مـا زالـت نفسـيته محطمـة، ولم يتقبـل بعـد أنـه قـد فشـل فيـما كان يرنـو إليـه بمـشروع الخلـق بأكملـه..

ولكن الأمر لم يكن باختياره..

حتـى لـو كنـت أتفهـم مـا يمـر بـه، لم أكـن عـلى وشـك التهـاون أو تركـه يفعـل مـا يحلـو لـه، كـما كنـت أفعـل مـن قبـل.. فنـاء تلـك الكائنـات محتـوم، ومصـير البـشر ومسـتقبلهم بأكملـه مرتبـط بـه.. لا يمكـن أن نسـتمر بـأي شـكل، إلا لـو خـرج الجيـل الثالـث مـن المعادلـة تمامًـا..

لـذا فقـد اتُفـق بعدهـا، ووزِّعـت الأدوار المبدئيـة عـلى كل دولـة، وكان نصيـب مؤسسـة جينيسـيس يقـع في طـور البنـاء والتشـييد..

وكان يـوم 10 يونيـو مـن سـنة 2123 هـو اليـوم الأول الـذي بـدأ فيـه مـشروع مدينـة (هـوب Hope)..

***

((مانشـيت بجريـدة نيويـورك دايـلي نيـوز الأمريكيـة الإلكترونيـة بتاريـخ 18 ينايـر 2127))

«مسـتعمرة شـيكاجو تحـت سـيطرة الجيـل الثالـث، والجيـوش البشريـة تنسـحب»

نص الخبر:

«حـرب الشـوارع الدائـرة في مسـتعمرة شـيكاجو تتوقـف أخـيرًا بعـد انسـحاب آخـر جنـدي بـشري منهـا، وسـيطرة قـوات الـدم المزيـف Fake Bloods عـلى مبنـى المحافظـة.. ضحايـا البـشر يقـدر عددهـم بمـا يزيـد عـن السـتة آلاف جنـدي مقاتـل، وضعفهـم عـلى الأقـل مـن المصابـين.. صرح المتحـدث الرسـمي باسـم البيـت الأبيـض الجديـد مـن مكتبـه في لـوس أنجيليـس أنـه قـد اتُفـق عـلى هدنـة سـلمية لمـدة سـنتين، مقابـل الانسـحاب البـشري التـام مـن المدينـة، حيـث..»

***

((مانشـيت بجريـدة واشـنطن بوسـت الأمريكيـة الإلكترونيـة، يـوم 28 سـبتمبر 2127))

«زلازل جديـدة تـضرب محيـط كاليفورنيـا وكولـورادو وكانسـاس، وتكتـم شـامل مـن إدارة جينيسـيس والحكومـة الفيدراليـة»

نص الخبر:

«تكتـم شـامل مـن إدارة ومؤسسـات جينيسـيس، والحكومـة الأمريكيـة يسـود، وذلـك بعـد تزايـد أعـداد الـزلازل العالميـة المرصـودة في الشـهور الماضيـة، وذلـك وسـط تقاريـر صحفيـة مهمـة كلهـا تتنـاول مشروعًـا سريًـا غـير مـصرح بنـشر أي شيء يتعلـق بـه.. سياسـة الإدارة الأمريكيـة وإدارة مؤسسـة جينيسـيس تتسـم بالتعسـف وعـدم الشـفافية تجـاه العضـو المنتسـب والعامـل، وحتـى المواطـن الأمريـكي العـادي، حيـث..»

***

((مانشيت بجريدة نيويورك تايمز الإلكترونية، بتاريخ 16 نوفمبر 2127))

«انفجار بركان هاواي يوم البارحة، ولا تصريحات من جينيسيس أو البيت الأبيض الجديد»

نص الخبر:

«الانفجار المسجل الأكبر في تاريخ بركان هاواي يبدأ ليلة البارحة، حيث ثار البركان بصوت انفجار عظيم امتد صوته ووهيجه إلى بعد مئات الكيلومترات.. الوكالة الفيدرالية لإدارة الطوارئ FEMA تبدأ عمليات إخلاء السكان والجنود من جزيرة هاواي بالكامل، بعد سقوط ما لا يقل عن 200 قتيل، ومثلهم من المصابين.. حاولنا التواصل مع إدارة جينيسيس أو البيت الأبيض الجديد من أجل تصريح، فلم نلق ردًّا.. يُذكر أن قوة انفجار البركان هذه المرة تجاوزت 4 أضعاف مثيلتها المسجلة في المرة الأخيرة المسجلة لانفجار البركان عام 2091.. هذا وقد صرح متحدث رسمي باسم FEMA أن الشهور الماضية شهدت نشاطًا زلزاليًّا Seismic Activity متزايدًا، تجاوزت قوته الـ 150% لسبب غير مفهوم، وما زالت تتزايد في اضطراد.. دراسات عديدة يقوم بها فريق من علماء ناسا، بالتعاون مع خبراء من FEMA لمحاولة دراسة تلك النشاطات فوق الطبيعية، والعديد من النتائج تؤكد أن صفائح الأرض التكتونية ذاتها تتحرك بصورة أقوى وأكثر نشاطًا من أي مرة سابقة في التاريخ المسجل بأكمله.. التعاون يمتد إلى..»

***

((مانشيت بجريدة لوس أنجيليس تايمز الإلكترونية، بتاريخ 9 فبراير 2128))

(مرفق مع مانشيت الخبر، صورة واضحة مكبرة بالتليسكوبات لجُرم سماوي برتقالي مضيء وسط السماء الزرقاء المظلمة)

«كوكب غريب يظهر في السماء الأرضية لأول مرة، وأتباع نظرية المؤامرة

يصرحـون : الكوكـب X !!»

نص الخبر:

«كوكـب جديـد يظهـر بوضـوح ويرصـد بالعـين المجـردة في سـماء الأرض للمـرة الأولى ليدفـع المجتمـع العالمـي للتسـاؤل.. بتصويـر الجُـرم بالتليسـكوبات المتطـورة، يظهـر في الصـور المكبرة لونـه البرتقـالي الداكـن، وحجمـه الكبـير.. خـبراء في الفيزيـاء الكونيـة Astrophysics يؤكـدون أن حجـم الكوكـب يقـترب مـن 10 أضعـاف حجـم كوكـب الأرض، وأنـه ليـس كوكبًـا دخيـلًا، بـل هـو ينتمـي للمجموعـة الشمسـية، وهـو نفسـه الكوكـب التاسـع الافـتراضي المُلقـب بكوكـب X، الـذي كان علـماء ناسـا يبحثـون عنـه طيلـة القـرن المـاضي، منـذ بـدأ افـتراض وجـوده عـلى يـد العالمـين «كونسـتانتين باتيجـين Konstantine Batygin»، و«مايـكل بـراون Michael Brown» عـام 2015، بسـبب تأثـيره عـلى مـدارات الكواكـب الداخليـة، والكويكبـات الكـبري في حـزام كويـبر.. خـبراء آخـرون صرحـوا بصـورة غـير رسـمية أن مـدار الكوكـب المبـدئي المتكـون لديهـم بعـد أبحـاث تنبؤيـة رياضيـة، يقـع عـلى (خـط تقاطـع خطـر) مـع المـدار الأرضي حسـب قولهـم؛ حيـث أكـدوا أنـه لـو صحـت الدراسـات الرياضيـة لمـدار الكوكـب الجديـد، فـإن هـذا يعنـي أن كارثـة كـبرى تنتظـر الكوكـب بأكملـه خـلال السـنتين المقبلتـين.. هـذا وقـد..»

***

((من مذكرات العالم إدوارد تاسك يوم السادس من مايو، عام 2128))

اليوم هو عيد ميلادي..

تسـعةٌ وثلاثـون عامًـا مـرت.. تسـعةٌ وثلاثـون، وأنـا أحيـا عـلى هـذه الأرض، أتنفـس هواءهـا، وأمـشي عـلى ترابهـا وثراهـا، وأقتـات عـلى طعامهـا..

تسعةٌ وثلاثون منذ جئت للحياة.. منذ بدأ كل شيء..

كل عـذابي وأحلامـي.. يـأسي وأمـلي.. بـؤسي وطموحـي.. فشـلي ونجاحـي.. كلهـم بـدأوا في مثـل هـذا اليـوم، منـذ تسـعةٍ وثلاثـين عامًـا..

أيـام وشـهور، وأعـوام عديـدة مـرت، منـذ كنـت عـلى الناحيـة الأخـرى مـن المحيـط، في النصـف الآخـر مـن الكوكـب.. أحيـا في بيـت أبٍ سـاديٍّ، لا يعـرف

معنـى الأبـوة، ولا يرحـم، وأمٍّ لا تشـكو، ولا تهتـم..

أيـام وشـهور وأعـوام مـرت، منـذ بـدأ لـدي الحلـم للمـرة الأولى.. أيـام وشـهور، كنـت أعـرف أننـي خلالهـا سـأغير وجـه العـالم.. كنـت أعـرف أننـي سـأكون عظيـمًا في يـومٍ مـا..

وهـا قـد جـاء اليـوم، ومـر.. فهـل ذاك خطـأي فعـلًا؟.. هـل تسـببت في نهايـة موطنـي وعالمـي، وكل مـا عرفتـه أو سـأعرفه في يـومٍ مـا، بسـبب طمـوح؟..

مـن أنـا حقًّـا؟.. مـا زلـت لا أعـرف، ولم أصـل إلى الغايـة العظمـى.. الكشـف الأعظـم، والفتـح الأكـبر الـذي كنـت أنتظـره وراء كل هـذا..

ما زلت لم أفهم.. وربما سأموت دون أن أعرف..

كل مــا قدمتــه وحييــت لأجلــه، ولأجــل إجابتــه.. كل التســاؤلات والفضــول والطمـوح والتضحيـات.. كل ليـالي الحـزن والبـكاء والتمـزق بـين أفـكارٍ لا تـنـزوي، وجـراحٍ لا تندمـل.. كل حـالات الطمـوح الـذي يصـل إلى حـد لمـس الشـمس، والاكتئـاب الـذي يصـل إلى درجـة الانتحـار..

كل هذا قد جاء، ومر، ومضى.. تركني، وذهب، وما زلت أنا هنا.. أنتظر..

أنتظـر إجابـةً مـا.. عـلى سـؤالٍ سـأله رضيـع في يـومٍ مشـمس، عـن مغـزى هـذا كلـه، ولمـاذا كان، ولم سـيكون، ومـاذا بعـد أن يكـون..

سـنون قـد مـرت وأنـا أنتظـر.. وهـا هـي سـنة أخـرى تمـر، لتضيـف إلى عمـري خانـة جديـدة، أقـترب خلالهـا مـن نهايـة المطـاف.. مـن المـوت..

ذلـك العظيـم، الـذي يجمـع الأرواح مـن كل حـدبٍ وصـوب، منـذ بـدء البسيطة وحتـى يومنـا هـذا، وكل مـا بعـده..

يجمعهـا ليحتفـظ بهـا في مـكانٍ مـا.. ربمـا كان مزدحـمًا فعـلًا، يضـج بالترانيـم التـي يتغمغـم بهـا مـن عرفـوا الـسر أخـيرًا، أو ربمـا هـو سـوادٌ حالـك، لا ضي فيـه، ولا بصـيرة..

ربمـا كان عدمًـا لا نهايـة لـه ولا قـرار.. ربمـا كان الأمـر كلـه أشـبه بمـا لـو كنـت تغلـق مفتـاح النـور، ليغـرق الكـون في ظـلامٍ دامـس ليـس هنـاك بعـده، يسـتمر حتـى تنـسى أن قبلـه شـيئًا كان..

ما المغزى؟..

ما الغاية التي كنت أحيا طلبًا لبلوغها، ولأجلها صنعت ما صنعت؟..

لا أعرف.. وربما جاءت النهاية قبل أن أفهم، أو أملك فكرة..

***

الكوكب التاسع صار واضحًا وظاهرًا في السماء..

مانشيتات الأخبار العالمية لم يعد لها حديثٌ إلا هو، ورواد نظرية المؤامرة يشرحون كالعادة كيف أن الأمر كله مؤامرة عظمى، وأن حكومة العظماء الأربعة تُعِدُّ الكوكب لنهاية العالم، تحت مرآى ومسمع من الجيل الثالث الذين صار لقبهم «ذوو الدم المزيفFake Bloods »..

لا يعرف هؤلاء كم هم على حقٍّ في هذه المرة بالذات..

النهاية تقترب، وصارت واضحة في الأفق.. ملموسة ومحسوسة، يوشك أثرها ووقع قدومها على أن يصير له طول وعرض وارتفاع ورائحة.. شرارات الكهرباء النفسية تتطاير في الجو، فتجعل أكثر الناس حلمًا وصبرًا يتشاجر لأتفه الأسباب، ويغضب لدرجة القتل..

النشاطات الزلزالية والبركانية، وأمواج التسونامي تضرب بقاع الكوكب بأكمله.. وببطء، الجميع يعرفون أن هذا هو بسبب الكوكب الظاهر في الأفق، والذي يتزايد حجمه، ويصير أكثر وضوحًا يومًا بعد يوم..

الرأي العام، والمجتمع العالمي، وحتى الجيل الثالث أنفسهم يحاولون الوصول إلى إجابات، ويطلبونها من إدارات العظماء الأربعة، والمتحدثون الرسميون باسم المستعمرات الكبرى يرفضون الإجابة.. وأظنني أفهم لماذا..

ماذا يمكنهم أن يقولوا أو يصرحوا؟.. «هيه، أيها الشعب.. هناك كوكب تاسع هائل الحجم يقترب من الأرض، وسيكون سببًا في دكِّ العالم بأكمله خلال أقل من سنتين.. هذه نهاية حياتكم بأكملها، ولا مهرب هناك مهما حاولتم.. احظوا بأيام أخيرة سعيدة..»

فقط تخيل العبء النفسي الذي يمكن أن يقع على أي شخص يُكلف

بعمل مثل هذا.. لذلك لم يكن غريبًا أن نسمع عن استقالات جماعية، وعن المسئولين الكبار الذين يتركون مناصبهم بأعداد هائلة..

الحرب بين الجيل الثالث والبشر قد توقفت مؤقتًا في خضم الأحداث، والهدنة التي عُقِدت بين العظماء الأربعة وقادة مقاومة الجيل الثالث، الذي كان في مقدمتهم «لويس» و«آدم» و«إيف»..

«لويس» الذي صار قائدًا كبيرًا، يتحكم في عدد لا يحصى من المدن العالمية الكبرى، ويملك تحت يديه جيشًا يقارب في حجمه الجيوش البشرية للعظماء الأربعة مجتمعة..

«لويس» الذي لم يكن أحدًا يعرف أو يتصور أن بدايته كانت كنُطفة خُلِّقت صناعيًّا من الحمض النووي لأخي الأصغر، لمجرد إرضاء طموح خاص بداخلي، ما زال لم يشفَ، ولم يرضَ بعد كل هذه السنين..

«لويس» الذي لا يتصور، سواء هو أو «آدم» أو«إيف» حجم ما هو موشكٌ على الحدوث.. ربما كان يتصور أن الحرب ستستمر لفترة، وتنتهي باعتراف البشر رسميًّا بحرية الجيل الثالث بأكملهم، ليصيروا جنسًا جديدًا له حقوق وواجبات مثلما حدث مع العبيد السود من قبل، وأن عصرًا من النهضة هو في الطريق..

«لويس» الذي لم أتقبل حتى الآن فكرة تركه، وترك أبنائي من جنسه، إلى الفناء التام.. لا أستطيع أن أتقبل فكرة أن مشروع عمري، وكل ما عملت لأجله في يومٍ ما، يتجه نحو زوال شامل، وانقراض تام.. فبرغم كل شيء، كنت أفهمهم.. أفهم سبب تمردهم وقيامهم بالحرب.. جل ما كانوا يريدونه، هو أن يصيروا أحياءً، أحرارًا..

والآن هم على وشك الانقراض، جنبًا إلى جنب مع كل الكائنات التي تحيا على الكوكب بأكمله، والأدهى أنهم حتى لا يفقهون ما يدور.. لا يملكون حتى فرصة للتفكير في كيفية الهروب..

«جودوين» قد شدد على فكرة أنه لا يمكن لأي أحد أن يعرف بموضوع المدينة السرية، التي سُميت بالاسم الكودي (هوب Hope)، وأنه لا يمكن لأي أحد يقع في أي موقع قريب من الإدارة أن يصرح بأي شيء مما يعرفه

للصحافـة، أو للجيـل الثالـث.. خصوصًـا أنـا..

عـدم ثقتـه في اتـزاني النفـسي بلغـت حـدودًا غـير مسـبوقة هـذه الأيـام، فقـد خصـص فريقًـا كامـلًا مـن عمـلاء الـ G.C.I لحراسـتي بشـكلٍ رسـمي، وإن كنـت أعـرف أن مهمتهـم الحقيقيـة هـي مراقبتـي، وقطـع أي وسـيلة اتصـال لي بالعـالم الخارجـي، دون إذن منـه..

لسـببٍ مـا، كان متأكـدًا مـن أننـي أضمـر شـيئًا بداخـلي، وأننـي مـع اقـتراب الكارثـة، سـأحاول فعـل شيء لا يجـب أن أفعلـه.. ولـذا فهـو يفضـل الحـذر عـلى النـدم..

لا يعرف إلى أي مدًى هو محق..

لا أدري كيـف يفهمنـي، ويفهـم أفـكاري ونفسـيتي إلى هـذه الدرجـة، ويعـرف مـا أفكـر فيـه قبـل أن أفعلـه، ولكنـه محـق إلى درجـة مذهلـة.. فأنـا دون سـواي أعـرف أن فكـرة تـركي للجيـل الثالـث بأكملهـم يفنـون بهـذه الطريقـة، هـي أشـبه بفكـرة أن أضحـي بأطفـالي لـو كان لـديَّ أطفـالٌ، وألقـي بهـم في البحـر، لمجـرد أن أهـرب مـن موجـة قادمـة..

حاولـت.. حاولـت كثـيرًا أن أنـسى، وأن أتخـلى عـن كل هـذا، ولكننـي لم أسـتطع.. لا أقـوى عـلى تقبـل الفكـرة، ولربمـا كان في هــذا هـلاكي؛ ولكننـي لا أهتـم بعـد الآن..

لـديَّ فكـرة أعتقـد أنهـا قـد تنجـح، ولكننـي لـن أدونهـا هنـا.. لـديَّ شـكٌّ أن هـؤلاء الحـراس يسـتطيعون التجسـس عـليَّ، وقـراءة مذكـراتي المشـفرة هـذه بشـكلٍ مـا؛ لـذا فالحـذر واجـب..

هـذه هـي لحظـة الاختيـار.. لحظـة الحقيقـة كـما كانـوا يقولـون قديمًـا.. اللحظـة التـي يعتمـد عليهـا مسـتقبل كل مـا هـو قـادم، وكل مـا يمكـن أن يكـون..

ولكم أتمنى فعلًا أن أكون قد أحسنت الاختيار..

***

-٢١-

(الجزء القادم ليس مدونًا ضمن مذكرات إدوارد تاسك)

الليل..

السماء المظلمة الصافية، تزينها أضواء النجوم، وضوء الكوكب البرتقالي الجميل، الذي يتبدى في أفقها صغيرًا بديعًا، كالأحلام..

نسمات الهواء التي تتمايل معها الأشجار، والحشائش الصغيرة، وتنزوي لها الحيوانات البرية في جحورها، تحت تأثير صوت الحوامة المتطورة القادمة..

منظر المدينة التي استولت عليها الخضرة، يثير الخيال.. تبدو كأنها قد عادت للطبيعة الأم، وفرضت عليها غابة قبضتها، بلا فكاك.. حتى الطرق لم تعد ظاهرة، تحت تأثير الحشائش والنباتات التي تنامت في كل مكان، وزحفت على الأسفلت ذاته..

منظر الحوامة التي تطير على ارتفاع منخفض، وهي تمر عبر أطلال البنايات المدمرة، وهياكل السيارات المتآكلة، يرسم صورة الدمار والخراب في نفسك، ويملؤها خيالًا..

وهناك، بداخل الحوامة، يجلس هو ويتطلع عبر النافذة الهولوجرامية إلى مشهد الأطلال التي كستها الخضرة، في شرود..

شكله يبدو مألوفًا لك.. بشعره ولحيته البيضاء، وجسده الذي تضخم نسبيًّا، وارتسمت عليه علامات السن الذي تقدم، وتفشى على معالم وجهه، وعيونه..

ما الذي يفعله هنا؟..

الحوامة تطير في طريقها، وقائدها ينظر بين الحين والآخر إليه في كاميرا

قمـرة القيـادة الهولوجراميـة، ثـم يعـاود النظـر إلى مـا هـو أمامـه في صمـت..

لا يهتـم سـوى بالنقـود التـي سـيجنيها مـن وراء عمليـة التوصيـل السريـة تلـك.. الرجـل يدفـع بسـخاء، وربمـا كان مـا سـيحصل عليـه مقابـل هـذه الرحلـة القصيرة، ذهابًـا وإيابًـا، يـوازي راتـب عملـه لسـنة كاملـة في النقـل الجـوي..

هـو ليـس غبيًّـا أو جاهـلًا.. يعـرف بالضبـط مـن هـذا الـذي يجلـس في كابينـة الـركاب، ويتطلـع إلى الخـارج شـاردًا.. إنـه ذلـك العـالم الشـهير الـذي ابتكـر تكنولوجيـا خلايـا الـرب، وصمـم جنـس ذوي الدمـاء المزيفـة بالكامـل مـن خـلال أبحاثـه، منـذ عقديـن..

ماذا كان يُدعى؟.. آه.. «إدوارد تاسك»..

لا يعـرف سـبب رغبتـه في الذهـاب إلى واشـنطن القديمـة.. فالمدينـة قـد سـقطت في يـد ذوي الـدم المزيـف منـذ سـنين طويلـة، وصـارت مقـرًّا لمقاومتهـم في منطقـة نفـوذ جينيسـيس، وهـي لا تحـوي سـوى القليـل جـدًّا مـن البـشر، الذيـن يعيشـون تحـت حكـم ذوي الـدم المزيـف، وتمتـلئ بهـم المدينـة عـن آخرهـا..

قائـد المقاومـة يسـتقر في هـذه المدينـة، وموقعـه مؤمـن بـآلاف مواقـع مدفعيـة الطاقـة المتعقبـة، المضـادة للطائـرات.. السـبب الوحيـد الـذي لم تقصـف حوامتـه لأجلـه حتـى الآن هـو الهدنـة التـي بـدأت منـذ أقـل مـن سـنة، وتوقـف عـلى إثرهـا إطـلاق النـار بـين الطرفـين، لأجـل الخـوض في مفاوضـات حـذرة ومحاولـة إنهـاء الحـرب.. فلـو كانـت الحـرب مـا زالـت قائمـة، لمـا جـرؤ عـلى أن يقـترب مـن محيـط عـشرة أميـال مـن المدينـة، ولـو دفعـوا لـه ميزانيـة جينيسـيس بأكملهـا..

قلبـه يـدق في توتـر، ولكنـه يحـاول أن يسـيطر عـلى نفسـه، وهـو يـدور بالحوامة ليحـط أمـام مبنـى العاصمـة القديـم المكسـو بالحشـائش، الـذي يسـتقر فيـه قائـد المقاومـة.. ذلـك الـذي يدعونـه «لويس»..

ذوو الـدم المزيـف يخرجـون مـن كل ركـن، وهـم يصوبـون أسـلحتهم إلى الحوامـة، فيرفـع يـده تلقائيًّـا إلى الأعـلى، وهـو يرقـب «تاسـك» الـذي فتـح بـاب الحوامـة، وهبـط منهـا في هـدوء رافعًـا يديـه إلى الأعـلى وهـو ينظـر إلى هـؤلاء الذيـن يحيطونـه مـن كل جانـب متأمـلًا.. يوشـك عـلى أن يـرى نظـرة فخـر في عينيـه، كأنـه يتطلـع إلى أبنائـه بعـد أن كـبروا..

لم يكذبـوا حينـما قالـوا إن هـذا الوغـد مجنـون حقًّـا.. مجنـون وثابـت الجنـان إلى حـدٍّ مرعـب..

أحـد ذوي الـدم المزيـف يسـأله عـن سـبب مجيئـه، فيشـير لـه نحـو مبنـى العاصمـة في هـدوء، وهـو يصيـح محـاولًا أن يتغلـب عـلى صـوت محـركات الحوامـة التـي بـدأت في الخفـوت:

- «أنا هنا لأقابل لويس..»

لم يخفض ذا الدم المزيف سلاحه، وسأله من جديد:

- «لماذا؟..»

خفض «تاسك» يديه في هدوء وهو يرد:

- «لـدي معلومـات حساسـة، لـن أقـدر إلا عـلى أن أشـارك بهـا قائدكـم وحـده..»

أوشـك الجنـدي عـلى أن يجـبره عـلى العـودة، لـولا أن تلقـى أمـرًا مـا في سـماعة الاتصـال المعلقـة عـلى أذنـه، فوضـع كفـه عليهـا منصتًـا للحظـات، قبـل أن يشـير لمـن حولـه بخفـض أسـلحتهم وهـو يغمغـم في ميكروفـون السـماعة:

- «عُلِم.. عُلِم وسينفذ..»

ثم رفع عينه لمن حوله وهو يقول:

- «اخفضوا أسلحتكم.. هذا أمر مباشر من القائد الأعلى..»

واستدار نحو «تاسك» وهو يشير له بفوهة سلاحه:

- «لويس يود أن يقابلك..»

فابتسـم «تاسـك» وهـو يتحـرك بهـدوء نحـو مدخـل المبنـى وحولـه أربعـة مـن الجنـود، بينـما أحـاط ثلاثـةٌ آخـرون بالحوامـة وهـم يشـيرون للسـائق أن ينـزل..

السـائق الـذي بـدأ في التفكـير في أنـه ربمـا لم يكـن مجيئـه إلى هنـا فكـرة سـديدة بعـد كل شيء..

***

يقفان أمام بعضهما في صمت..

ينظر كلاهـما إلى الآخـر، ولا تختلـج ملامحـه.. وكأنمـا الزمـن نفسـه قـد توقـف عـن المـضي، وتوقـف معـه الهـواء ذاتـه..

يتطلعـان إلى بعضهـما، وتـسري الذكريـات إلى بعيـدٍ، وتحملهـا الأفـكار إلى مـا هـو أبعـد..

ثمانِ سنواتٍ قد مرت، أو ربما أكثر..

ثمـانِ سـنواتٍ مـرت عـلى لحظـةٍ كان فيهـا أحدهـما عبـدًا سـجينًا، والآخـر سـجانًا آمِـرًا مُهينًـا..

ثمـانِ سـنوات تفصـل بـين الألوهيـة، والتـدني.. بـين الاستسـلام والمقاومـة.. بـين التبعيـة والحريـة..

كأنمـا الـرب ذاتـه، يقـف أمـام الشـيطان المتمـرد.. يتطلـع إليـه بحنـينٍ لا ينطفـئ، بينـما تمـوج نفسـه بمشـاعرٍ تفيـض، وتجـوب صـدره وقلبـه جياشـةٍ، وليسـت عـلى ملامحـه ترتسـم، أو تظهـر..

هـو مـن صنـع هـذا الـذي يقـف أمامـه.. خلقـه مـن لا شيء، ووهبـه الحيـاة، والآن هـو يقـف أمامـه، فـاردًا ظهـره في كبريـاء، يتطلـع إليـه في صمـتٍ، ويتشـفى، غـير مـدركٍ أن مـن يتشـفى فيـه ليـس بحاقـدٍ أو باغِـض.. لا يحـوي فـؤاده مقتًـا، ولا يكـره.. وإنمـا ذاك هـو الحنـين..

كأنمـا حياتـه قـد عـادت لـه مـن جديـد، وهـو يـرى صنيعـه، ومـشروع عمـره يقـف أمامـه، ويملـك إرادتـه الخاصـة.. يشـعر بأنـه قـد امتلـك الدنيـا والطبيعـةَ ذاتهـا.. كيـف لا يملكهـا وهـو قـد وهبهـا كائنًـا جديـدًا لم يكـن موجـودًا مـن قبـل، ولم يوجـد سـوى بإرادتـه وبمشـيئته هـو وحـده؟.. أهداهـا كائنًـا جديـدًا غـير فيهـا، وأثَّـر.. كائـن ذو إرادة حـرة، وليـس تابعًـا لأحـد.. أي فخـرٍ هـذا؟.. قـد نـسي كيـف يكـون الشـعور..

صمـت لوهـلات، تحولـت إلى برهـات، ليسـت فيـه سـوى نظـراتٍ وتطلعـات، وفِكـراتٍ سـابحاتٍ في سـماوات الخيـالات..

صمـتٌ دام، بـلا كلـمات، قبـل أن يقطعـه الصـوت، ويمـزق ثيـاب سـكونه بنصـال

الاستفهام..

- «ما الذي تفعله هنا؟..»

ما الذي يفعله هنا فعلًا؟.. هو ليس سؤالًا بقدر ما هو لغز كبير.. لغز نفسه التي لا يفهمها، ولا يدري لأين تحمله، ولأي غاية.. هل هو على وشك أن يبيع جنسه الحقيقي، من أجل عبيده الذين صنعهم، وتمردوا عليه وعلى تعاليمه؟.. هل يوشك أن يشتري حياة العبيد، على حساب حيوات الآلهة؟.. لا يعرف.. لا يفهم نفسه، ولا يحاول حتى.. فقط يتركها تسير حسب أهوائها، ويتَّبِع..

أشياء كثيرة يرغب في أن يسألها ويناقشها ويفهمها، ولكن ليس وقتٌ هنالك.. كطبيعة الحياة ذاتها.. تعيش عمرك كله أمل أن تفهم، ولا يمهلك الدهر فرصة لكي تصل إلى غايتك مهما حاولت..

أشياء كثيرة يرنو لأن يدركها، ويستوعبها، ولكن لا وسيلة، ولا سبيل..

ما الذي يفعله هنا فعلًا؟..

- «قد جئتك بمعلوماتٍ حساسة.. يجب أن تسمع ما أنا على وشك أن أقوله لك، وتنفذه كما أقوله.. فقط حينها يمكنك أن تأمل في النجاة..»

ينظر إليه «لويس» مليًّا، ويتفرس في ملامحه..

أهذا هو الذي صنعه، واستعبده إرضاءً لطموحاته وأهدافه الخاصة؟..

أهذا هو من بدأ كل شيء، وبدأ رحله جنسه بأكمله في طريق العبودية والقهر، حتى تمردوا وثاروا على أقدارهم، معلنين أنهم قد جاءوا إلى العالم أحرارًا؟.. أهذا الذي يقف أمامه هو سبب كل شيء، ومن جعل كل هذا ممكنًا؟..

أذاك هو إلهه، وربه الذي طلب منه أن يعبده، ويتذلل؟..

ماذا يطلب؟.. لا يفهم، ولا يستوعب..

- «النجاة من ماذا؟..»

- «لا وقت هنالك، فقط اسمع ما سأقول، واحفظه جيدًا..»

ينطقها، ثم يضع يده بداخل جيبه، ليخرج جهازًا لوحيًّا صغيرًا يناوله إياه،

ويردف:

- «هـذا الجهـاز يحـوي شـفرات التحكـم لمصنـع آريـس فيلـد النـووي في بالتيمـور.. يجـب أن تنتظـر لمدة أسـبوع، ثـم تأخـذ أكبر عـدد ممكـن مـن رجالـك، وتتجـه إلى هنـاك..»

تطلع إليه «لويس» بلا فهم، وهو يرقبه يتابع:

- «سـيطر عـلى المصنـع بـأي ثمـن، حتـى لـو اضطـررت إلى خـرق الهدنـة، وإبـادة كل مـن فيـه.. ثـم اسـتعمل الشـفرات في تشـغيل المصنـع، وسـتجد في نفـس الجهـاز اللوحـي مُخططـات لتصميـم أكـبر سـفينة غواصـة نوويـة عرفهـا العـالم.. تلـك المخططـات كان مقـدرًا تنفيذهـا في وقـتٍ مـا مـن بدايـة العقـد الثـاني مـن القـرن، ولكـن بسـبب الحـرب، لم يكـن هنـاك وقـتٌ لرفاهيـاتٍ مثـل هـذه..»

ما زال «لويس» يتطلع إليه في حيرة..

- «ما زلت لا أفهم.. لماذا تقول هذا، ولِمَ يجب عليَّ أن أفعل كل ذاك؟..»

اسـتدار «تاسـك» وجلـس عـلى كـرسي المكتـب الوثـير، واسـتند بمرفقـه إلى فخـذه وهـو يتطلـع نحـو «لويـس» قائـلًا:

- «لأن الكارثة في الطريق..»

هز رأسه كنايةً عن عدم الفهم..

- «أيُّ كارثة؟..»

- «لا تقل لي إنك لم تره هناك في السماء..»

صمـت «لويـس» تمامًـا وهـو يتطلـع إليـه، وضربـات قلبـه تبـدأ في التسـارع، بينـما تابـع «تاسـك» كلماتـه التـي تلقـي بوقيعهـا داخـل القلـب مبـاشرة، فتمـلأه وجـلًا وقشـعريرة..

- «هـذا الكوكـب التاسـع الـذي يظهـر في السـماء.. إنـه يقـترب من المـدار الأرضي، وسـيظل يقـترب منـه إلى حـدٍّ حـرج، سـتبدأ بعـده كارثـة كـبرى لم يشـهدها الكوكـب قـط طـوال تاريخـه.. كل مـا هـو عـلى سـطح الكوكـب سـيفنى تمامًـا، ولـن يبقـى منـه شيء.. لا سـبيل للنجـاة بـأي شـكل، سـوى لـو فعلـت مـا أقولـه لـك..»

ابتلع «لويس» لعابه وهو ينظر له متفحصًا..

هـل هـو صـادق؟.. يبـدو صادقًـا.. ولكـن لمـاذا يخـبره بـكل هـذا؟.. لمـاذا يحـاول إنقـاذه؟.. لا يفهـم.. مـن المفـروض أنهـم أعـداء.. يمكنـه أن يفهـم أن يحـاول أن يقتلـه هـو وجنسـه، أو يفنيهـم عـن بكـرة أبيهـم؛ ولكـن أن ينقذهـم؟.. لا يمكنـه أن يسـتوعب السـبب خلـف هـذا..

لا يمهله «تاسك» فرصة لأن يستوعب على أيةٍ حال، وهو يتابع:

- «بعـد أن تسـتولي عـلى المصنـع، يجـب أن تشـغله بقدراتـه القصـوى، ولا تهتـم بـرد الفعـل البـشري، فوقتهـا سـيكونون هـم في خِضَـمٍّ مشـاكل أخـرى أكـثر تعقيـدًا مـن أن يلتفتـوا إليـك.. لـن يكـون تشـغيله صعبًـا لـو كنـت تعتقـد هـذا، فأنـا متأكـدٌ مـن أنـك تملـك العديـد مـن العقـول اللامعـة وسـط رجالـك، وسـيمكنك أن تفهـم كيـف تفعـل ذاك، بالإضافـة إلى أنَّ دليـل التشـغيل أيضًـا موجـود في الجهـاز اللوحـي.. لـن تحتـاج لأكـثر مـن التعليـمات التـي يحويهـا.. وبعدهـا، يجـب أن تلقـن جهـاز الــ S.Q.C.U المركـزي فيـه بالتصميـمات، وتتركـه يبـدأ في عمليـة البنـاء الآلي التـي ستسـتغرق وقتًـا طويـلًا ربمـا يقـترب مـن الشـهر.. لا تشـغل نفسـك بـه؛ لأنـه وقتهـا سـيكون أمامُـك اختيـار مهـم للغايـة..»

قالها ثم صمت، مما دفع «لويس» لأن يسأله:

- «أي اختيار؟..»

تراجع «تاسك» في مقعده وهو يقول:

- «يجـب أن تختـار مـن سـينجو مـن بنـي جنسـك.. ويجـب أن تفعـل هـذا في أسرع وقـت ممكـن؛ لأن الـزلازل والبراكـين سـتبدأ في التزايـد بشـكل خـارج تمامًـا عـن السـيطرة، ولـن يكـون أمامـك الكثـير مـن الوقـت قبـل أن تبـدأ النيـازك في التسـاقط.. مـا سـتفعله هـو أن تختـار أفضـل الأفـراد الصالحـين للتكاثـر، وتسـاوي بـين أعـداد الذكـور والإنـاث، ومعهـم أكـبر عـدد ممكـن مـن الحيوانـات التـي يمكنـك أن تجمعهـا، ذكـورًا وإناثًـا أيضًـا.. الغواصـة سـيمكنها أن تتسـع لمـا هـو في حـدود ال 10 آلاف فـرد.. فتأكـد أن تختارهـم بعنايـة، وبسرعـة..»

صمـت «لويـس» مراقبًـا إيـاه وهـو يتكلـم، بينـما تزايـدت سرعـة ضربـات قلبـه انفعـالًا بمـا يسـمع..

«بمجـرد أن تنتهـي مـن هـذا، سـتكون عمليـة بنـاء الغواصـة قـد تمـت.. أدخـل

الجميـع فيهـا بـأسرعِ وقـتٍ ممكـن، وانتظـر.. احتـمال أن ينجـونَ جميعًـا ضعيـف للغايـة، ولكـن الأمـر يسـتحق المحاولـة، وهـو بالتأكيـد أفضـل مـن أن يفنـى الجميـع، وينقـرض جنسـك بالكامـل..»

قالهـا، ثـم نهـض مـن مكانـه بـلا كلمـة أخـرى متجهـا نحـو بـاب الغرفـة.. كأنمـا قـد أزاح مـن عـلى كتفـه حمـلًا ثقيـلًا كان يثقـل كاهلـه، وهـو الآن حـر.. يريـد أن يخـرج مـن هنـا بـلا توضيحـات أكـبر، ولا تفسـيرات..

ركض «لويس» خلفه وهو يسأله:

- «مهلًا.. لماذا تفعل كل هذا؟..»

رمقه «تاسك» بنظرة لم يفهمها جيدًا، وابتسم بزاوية فمه، وهو يقول:

- «لأنني إلهُك، وإليَّ مصيرك.. ومشيئتي هي أن تنجو..»

ثـم اسـتدار متابعًـا طريقـه مـن جديـد، و»لويـس» يمـشي خلفـه بخطـوات أقـرب إلى الركـض.. لا يـدري لمـاذا لم يوقفـه، ولم يسـأله حتـى، أو يقـدر عـلى الاستفسـار أكـثر.. فكأنمـا كـثرة الأسـئلة التـي يمـوج بهـا عقلـه، قـد ألغـت بعضهـا، فلـم يعـد يقـدر عـلى السـؤال..

يراقبـه وهـو يدلـف إلى الحوامـة بسرعـة، ويشـير إلى الطيـار الـذي نهـض مـن مكانـه مهـرولًا إليـه، ليدلـف إلى مقعـده، ويشـغل المحـركات..

تعـالى الصـوت الهـادر، وتحركـت الأشـجار والحشـائش بفعـل الهـواء المتولـد مـن محـركات الدفـع العكـسي أسـفل الحوامـة التـي ارتفعـت في سرعـة، ودارت حـول نفسـها، ثـم انطلقـت مـن جديـد عائـدةً إلى «لـوس أنجيليـس» كأنمـا الشـيطان يطاردهـا..

وفي مكانـه، وقـف «لويـس» وهـو ينظـر إليهـا وهـي تبتعـد في الأفـق، وأفـكاره تـصرخ بداخـل عقلـه بـلا إجابـة، ثـم أدار عينيـه إلى الجهـاز اللوحـي الصغـير المسـتقر في راحـة يـده، في شرود..

لماذا أخبره بكل هذا؟.. لا يعرف ولا يستوعب..

ولكنه لم يفقه معنى شعور الامتنان من قبل، سوى في هذه اللحظة..

***

-٢٢-

((من مذكرات العالم إدوارد تاسك يوم الثالث عشر من مايو، سنة 2128))

«لويس» قد فعلها..

لم يتردد، ولم يستغرق وقتًا ليتحقق من نواياي، ولم ينتظر.. بل أطلق هجومًا سريعًا على مصنع آريس فيلد كما قلت له، وكنتيجة لهذا تم خرق الهدنة، وبدأت الحرب في بالتيمور بأكملها..

لا أدري لماذا لم يتحقق ممَّا قلت، ولا لماذا وثق في بلا تفكير.. لو كان أحدٌ آخر في مكانه، لاستغرق من الوقت دهورًا قبل أن يتحقق من صحة المعلومات التي أعطيتها له.. من يدري، فربما كان يملك بالفعل معلومة عن أن العالم على وشك أن ينتهي.. دراسة الموضوع أصبحت متاحة للجميع على أي حال، وقت أن ظهر الكوكب في سماء الليل الصافية.. لم يعد هناك مجالٌ للمزيد من الاختباء..

«جودوين» يشُكُّ.. أكاد أشم رائحة الصدام القادم.. كما كنت أتوقع، طاقم الحراسة الذي عينه ليبقي عينه عليَّ، أخبره بكل شيء، وإن لم يكونوا يعرفون بأمر سفري السريع إلى واشنطن؛ لأنني قمت بالعملية كلها في ساعة متأخرة من الليل، بعد أن جعلتهم يظنون أنني نائم في الجناح الخاص في مبنى جينيسيس في لوس أنجيليس، وتسللت خارجًا بالحوامة.. الأمر كله لم يستغرق أكثر من عشر ساعات، بسرعة الحوامة القصوى ذهابًا وإيابًا.. لم يكن بإمكاني المجازفة بالتواصل معه هاتفيًّا؛ لأن الوغد يراقب كل شيء، ويتنصت على كل شيء..

لا سبيل للإنكار طويلًا على أي حال؛ لأنه سيعرف عاجلًا أو آجلًا.. وحينها

لا مفـر مـن الصـدام..

لكـن لا يجـب أن أنشـغل بهـذا الآن.. فلـدي عمـل مهـم لأنجـزه، والوقـت ضيـق حقًّـا.. عمليـة الإخـلاء الرسـمية سـتبدأ في أوائـل الشـهر المُقبِـل.. وبعدهـا بشـهر، سـيبلغ مـدار الكوكـب الحـد الحـرج، وسـتبدأ الكارثـة بشـكلها النهـائي..

فقط أتمنى أن يكون «لويس» قد أنهى بناء الغواصة حينها..

***

((مانشيت بجريدة نيويورك ديلي نيوز بتاريخ 29 مايو، سنة 2128))

«المدعـي العـام السـابق مارتـن: العـالم عـلى وشـك أن ينتهـي، وهـم يهربـون الآن!»

نص الخبر:

«صرح المدعـي العـام السـابق جـون مارتـن في حديـث صحفـي خـاص للديـلي نيـوز، أنـه يملـك معلومـات مؤكـدة عـن أن مؤسسـة جينيسـيس والإدارة الأمريكيـة حاليًـا يقومـون بتنفيـذ مـشروع كامـل يدعـى بمبـادرة (الأرض - صفـر)، وهـو مـشروع إخـلاء نـووي إلى باطـن الأرض، في أنفـاق القطـار السريـع التـي كانـت تُنشـأ مـن قبـل كجـزء مـن اتفاقيـة الـ RFTA التجاريـة.. حيـث قـال إنـه يملـك مصـدرًا خاصًـا بداخـل الإدارة الأمريكيـة، ورفـض الإدلاء باسـمه، ولكنـه أكـد عـلى كـون المـشروع في مراحلـة النهائيـة حاليًّـا، وأن الرئيـس ومعـه الحكومـة الأمريكيـة ومجلـس إدارة جينيسـيس وبعـض العلـماء ومواطنـي العضويـات المميـزة بجينيسـيس سيُخلون في أوائـل الشـهر، بنـاءً عـلى منظومـة اختيـار سريـة لا يعلـم بهـا المواطنـون والأعضـاء العاملـون أو المنتسـبون.. أكـد مارتـن أيضًـا أن المـشروع ليـس خاصًـا بجينيسـيس وحدهـا، وإنمـا هـو مـشروع عالمـي متكامـل، تـم بالاتفـاق بـين مجالـس إدارة العظـماء الأربعـة، وحكومـات الـدول التـي مـا زالـت قائمـة، وأنـه يملـك مداخـلًا بداخـل كل واحـدة مـن مسـتعمرات العـالم الكـبرى.. وحـول سـؤاله عـمَّا إذا كان عضـوًا في تلـك المبـادرة المزعومـة، رفـض الإدلاء بـأي تصريحـات

جديـدة، حيـث إن..»

***

((من مذكرات فرانك جودوين، يوم 3 يونيو 2128))

إنهم يعرفون..

الصحافـة العالميـة كلهـا الآن تملـك معلومـات شـبه مؤكـدة عـن (الأرض – صفـر)، وكلهـم يريـدون قطعـة مـن الكعكة..

السياسـة بكاملها خرجـت عـن السـيطرة، والمسـتعمرات الكـبرى أصبحـت فوضى بالكامـل.. حتـى الآن، أكتُـب هـذه المذكـرات وأنـا أسـمع هتافـات المتظاهريـن بالأسـفل عنـد بوابـات بـرج جينيسـيس، وتصلنـي عـلى ارتفـاع عشريـن طابقًـا، كأنهـم بجـواري.. المسـتعمرة بأكملهـا تقريبًـا تقـف في الأسـفل.. حتـى الجيـش توقـف عـن الحـرب تحـت تأثـير الصحافـة، وأظننـي أفهمهـم.. مـا الـذي يمكـن أن يدفعـك لتقاتـل، والأخبـار تجيئـك مـن كل حـدبٍ وصـوب، بـأن حكومـة دولتـك، ومؤسسـتك الكـبرى التـي أنـت عضـوٌ فيهـا، تخونـك وتلقـي بـك إلى الـكلاب، وفي النـار حرفيًّـا؟.. ليـس الأمـر عـدلًا..

أعـرف أنـه ليـس عـدلًا، وأتمنـى لـو كانـت هنـاك طريقـة أخـرى غـير تلـك، ولكـن الأمـر لم يكـن لينجـح لـو صـار معلومـة عامـة يعرفهـا الجميـع.. ليـس بوسـع مدينـة (هـوب Hope) أن تسـتوعب كل هـذا العـدد مـن اللاجئين.. فمـن أجـل حفـظ الحيـاة بصـورة كاملـة، لفـترة قـد تطـول طيلـة قـرون طويلـة، يجـب أن يكـون العـدد قليـلًا للغايـة.. ويجـب أن يكـون هـذا العـدد القليـل هـو أكـثر الأشـخاص كفـاءةً وعلـمًا وتمكنًـا مـن إعـادة البنـاء وإقامـة الحضـارة.. لا توجـد طريقـة أخـرى..

«جـون مارتـن» الوغـد أخـبر الجميـع بعـد أن اسـتُبعد، وهـي حركـة دنيئـة، ولكنهـا ليسـت غـير مـبررة.. كيـف يمكـن أن يتقبـل أنـه ليـس جـزءًا مـن مـشروع النجـاة، وأن نهايتـه عـلى بعـد أقـل مـن شـهرين؟.. لـو كنـت مكانـه، فأجـرؤ عـلى

أن أقـول إننـي كنـت سـأفعل المثـل..

موهبتـي دائمًـا كانـت أننـي أملـك قـدرة عـلى تخيـل الأمـور كـما لـو أننـي كنـت في موضـع الآخريـن.. كنـت دومًـا أفهـم (لمـاذا) يفعلـون مـا يفعلونـه، ولكـن هـذا لم يكـن ليمنعنـي مـن فعـل مـا ينبغـي عـليَّ أنـا أيضًـا فعلـه عـلى أي حـال، فالأمـر ليـس مزاحًـا.. خصوصًـا هـذه المـرة..

خذ عندك على سبيل المثال أمر «إدوارد تاسك»..

رجـال الــ G.C.I الذيـن عينتهـم لحراسـته يؤكـدون لي أنـه لم يكـن في جناحـه يـوم العـاشر مـن مايـو بأكملـه.. أكـد لهـم أنـه سـيذهب لينـام في جناحـه الخـاص، وأنـه لا يريـد إزعاجًـا مـن أي نـوع، وقـام باخـتراق كامـيرا المراقبـة السريـة التـي زرعتهـا في جناحـه دون أن يعلـم، وأوقـف عملهـا تمامًـا.. الوغـد ذكي فعـلًا، ويعـرف أيـن يبحـث.. لم يصـل لأن يكـون أشـهر عـالم وباحـث في تاريـخ البشريـة بسـهولة، أو بالتزويـر.. كان هـذا متوقعًـا..

ولكنـه لم يكـن يعلـم أن هنـاك كامـيرا مصغـرة أخـرى عـلى سـطح جناحـه الخـاص، وأن هـذه الكامـيرا لا يعلـم مكانهـا أحـدٌ سـواي.. قـد رأيـت الحوامـة التـي أتـت لتقلـه، ورأيتـه وهـو يصعـد عـلى متنهـا، وينطلـق بالسرعـة القصـوى لهـا في اتجـاه نيـو ميكسـيكو.. مبـاشرة نحـو المنطقـة المظلمـة، وعبرهـا..

لم يكـن مـن الصعـب جـدًا تخمـين اتجاهـه نحـو واشـنطن العاصمـة.. خصوصًـا بعـد أن خـرق «لويـس» وباقـي ذوي الـدم المزيـف الهدنـة بعدهـا بأيـام، ليبـدأوا الاشـتباكات مـن جديـد في بالتيمـور.. مـن بـين كل الأماكـن الاسـتراتيجية التـي كان يمكنهـم مهاجمتهـا، اختـاروا بالتيمـور بالـذات.. فلـماذا؟..

لم يكــن مــن الصعــب أيضًــا أن أخمــن أنهــم كانــوا يســعون خلــف مصنــع آريـس فيلـد النـووي، خصوصًـا وأن الأمـر قـد تأكـد بعدهـا بأيـام.. مـا لا أفهمـه أو أسـتوعبه، هـو كيـف قامـوا بتشـغيل المصنـع بطاقتـه القصـوى مـن الأسـاس.. الجيـل الثالـث لا يملكـون علـمًا متقدمًـا إلى تلـك الدرجـة.. وليـس باسـتطاعتهم تشـغيل مصنـع نـووي متقـدم مـن خـلال التجريـب.. لا بـد أنهـم كانـوا يملكـون

شـفرات التشـغيل، وتعليـمات الإدارة.. لا سـبيل لهـم لفعلهـا سـوى ذاك..

بالتأكيد قد أعطاهم «إدوارد» شفرات التشغيل بنفسه..

ولكن لماذا؟..

لمـاذا يجـازف بـكل شيء، ويخاطـر بـأن يتـم محاكمتـه عسـكريًا، فقـط مـن أجـل أن يمنحهـم فرصـة لتشـغيل مصنـع نـووي؟.. هـل هـم بصـدد تصنيـع قنبلـة نوويـة جديـدة؟.. هـم بالفعـل يملكـون العـشرات، بـل المئـات مـن الصواريـخ النوويـة.. وليـس هنـاك حتـى سـبب لاسـتعمالها الآن..

لا أفهم..

كل ما أعرفه، هو أن هناك قرارًا يجب أن يُتخذ بشأن «إدوارد»..

***

أنت ترى معي معمل إدوارد تاسك المتطور يتمثل أمام ناظرك..

الأنـوار المتطـورة التـي تـأتي مـن الجـدران ذاتهـا، والمسـاحة البيضـاء الشاسـعة الممتـدة، حتـى ليبـدو أشـبه بملعـب كـرة قـدم مـن الملاعـب القديمـة..

بعـض الأجـزاء فيـه خاليـة، يـشي منظرهـا بالأجهـزة والمعـدات التـي كانـت فيهـا مـن قبـل، قبـل أن يُقصـف بـرج جينيسـيس أثنـاء بدايـة الثـورة.. مـا زال مكانهـا خاليًـا حتـى بعـد التجديـدات، لم يُسـتغل..

الشاشـة الهولوجراميـة في وسـط القاعـة تنقـل صـورة للقنـاة الإخباريـة السادسـة عـشر، ويـأتي الصـوت مجسـمًا مـن الحوائـط ذاتهـا.. ليـس عاليًـا، وإنمـا هـو فقـط يكفـي للسـماع والـشرود.. الجـو المعتـدل، المائـل قليـلٌ للـبرودة، يتشـكل قوامـه مـن أجهـزة التكييـف المركـزي المختفيـة في أركان السـقف المـضيء..

ثم هو.. إدوارد تاسك..

يجلـس هنـاك في الركـن، عـلى مكتـب متطـور شـفاف، يعبـث بأصابعـه في جهـاز كمبيوتـر كمـي هولوجرامـي متطـور يقبـع أمـام عينيـه.. يرتـدي نظـارة طبيـة فضيـة

الحـواف، يبـدو شـكلها أنيقًـا، ويشـترك بريقهـا مـع شـعره الـذي بـدأ في الشـيب فعـلًا، وتوقـف هـو عـن صبغـه بذلـك اللـون الأبيـض المميـز.. شـيبه يختلـط بلـون شـعره الحقيقـي الأشـقر، ويخفـي خصلاتٍ بارقـة هنـا وهنـاك.. لحيتـه الناميـة غـير المشـذبة تـشي بأنـه لم يكـن يعتنـي بهـا لفـترة.. وهـو مـا يبـدو لـك غريبًـا، نظـرًا لشـخصيته المنمقـة المنظمـة لدرجـة الوسـواس، التـي لا تحتمـل عـدم الترتيـب أو الهنـدام..

يبـدو شـكله متوتـرًا كأنـه ينتظـر شـيئًا مـا، أو شـخصًا مـا.. ويتبـدى التوتـر عـلى ملامحـه، وفي ارتجافـة أصابعـه التـي يحـاول إخفاءهـا بـأن يمسـك سـاعده ليمنعـه مـن الاهتـزاز..

مـاذا ينتظـر؟.. لا نملـك فكـرة كمتابعـين للمشـهد، ولا يمكـن لـك أن تخـترق عقلـه لإرضـاء فضولـك الخـاص.. ولكـن شـيئًا مـا يحدثـك بـأن مـا ينتظـره ليس بعيـدًا..

وبالفعـل، تـرى بطـرف عينـك بـاب المعمـل المتطـور ينفتـح، فكأنمـا جـزءٌ مـن الحائـط يختفـي، ويصـير شـفافًا ليمـر عـبره ذاك الـذي لا بـد أنـك حفظـت شـكله الآن، ولا يبـدو مختلفًـا جـدًّا حتـى بعـد تقدمـه في العمـر نسـبيًّا..

هذا هو فرانك جودوين..

يبـدو الهَـمُّ عـلى ملامحـه، ويـصرخ بمـا يثقـل كاهلـه، ويحملـه عـلى كتفـه طـوال السـنين الماضيـة.. لا تنـس أن هـذا رجـلًا رأى كل شيء تقريبًـا.. مـن حـروب وثـورات ومؤامـرات، وكارثـة قريبـة.. رأى القتـل والذبـح والسـلخ الـذي يحـدث في المنطقـة المظلمـة، وفي حـروب السـيطرة عـلى المـدن، ويظهـر كل هـذا عـلى ملامحـه، ويبـدو عليهـا جليًّـا..

يعـرف أن هـذا كلـه ناتـج مبـاشر لعملـه وتمويلـه، وسياسـة شركتـه المتعسـفة.. يعـرف أنـه المسـئول الأول عـمَّا وصـل إليـه العـالم الآن.. والأدهـى أن أحـدًا لم يحاسـبه فعليًّـا، ولذلـك هـو يشـعر بالذنـب طيلـة الوقـت، ويوشـك عـلى يأكلـه مـن الداخـل.. فلـو نـال جـزاءً أو وجَّـه لـه أحدهـم اتهامًـا حتـى، وعوقـب بشـكلٍ مـا، فلربمـا كانـت نفسـه قـد ارتاحـت قليـلًا، وتوقفـت عـن التـأكل تحـت وطـأة النـدم،

وذنـب المعرفـة الزائـدة..

يتقـدم في خطواتـه بثبـات نحـو تاسـك، الـذي نهـض مـن مكانـه في سرعـة وهـو ينظـر لـه دون أن يتكلـم..

شيءٌ مــا في المشــهد، أو في تفاصيلــه يجعلــك تجــزم أنــه يعــرف مــا يوشــك جودويــن عــلى أن يقولــه، ويتوقعــه.. ولــذا لم يبــدُ متفاجئًــا جــدًّا حينــما خــرج الــكلام مــن حلــق جودويــن، بنــبراتٍ رنانــة:

- «أين كنتَ يوم العاشر من مايو يا إد؟»

هــذه هــي المـرة الأولى التــي يناديـه فيهـا بلقـب «إد».. وعـلى الرغـم مـن كونـه تبسـيطًا يوشـك عـلى أن يكـون حميـمًا، تشـعر أنـت بأنـه يحمـل التهديـد بـدلًا مـن أن يظهـر الـوِد..

يصمــت تاســك للحظــة يتطلــع فيهــا إلى عينيــه مبــاشرة، ثــم يتكلــم في هــدوء كأنــه قــد حســم أمــرًا مــا في ذهنــه:

- «كنت في زيارة لـ «لويس» في واشنطن..»

تطلـع إليـه جودويـن لحظـة وهـو يتفـرس في ملامحـه.. لم يكـن يتوقـع أن يكـون مبـاشرًا، وكان يعتقـد أنـه سـيحاول الكـذب بعـض الوقـت، حتـى يواجهـه بلقطـات كامـيرا المراقبـة التـي تظهـره وهـو يغـادر الجنـاح، ويضغـط عـلى أعصابـه بهـا.. لم يكـن حتـى يملـك لقطـات غيرهـا تظهـر بالدليـل القاطـع أنـه قـد ذهـب فعـلًا إلى واشـنطن، فأقـمار التجسـس الصناعيـة لم تعـد تعمـل بكامـل كفاءتهـا، ولم تعـد أجهزتهـا وأجهـزة الاسـتقبال قـادرة عـلى التقـاط الصـور في كل الأوقـات، أو ممارسـة عملهـا بالشـكل الطبيعـي، بسـبب أزمـة الوقـود والمـوارد التـي جعلـت الطاقـة المتبقيـة منهـا متوجهـة بالكامـل إلى حمايـة المسـتعمرات الكـبرى.. لم يكـن مـا يملكـه أكـثر مـن شـكوك، وبالتأكيـد لم يكـن ليقـدر عـلى إثباتهـا بالدليـل القاطـع..

ولكنها ثبتت، وترسخت حينما أردف تاسك:

- «أنـت تعـرف كـما أعـرف أننـي لم أكـن لأقـدر عـلى تركهـم يواجهـون الفنـاء

بمفردهـم.. دون إنـذار حتـى..»

ابتلـع جودويـن لعابـه، ثـم جلـس عـلى المقعـد المجـاور للمكتـب في هـدوء وهـو ينظـر إلى تاسـك، ثـم قـال بعـد لحظـة صمـت:

- «أعـرف.. ولكننـي كنـت أظـن أنـك أذكى مـن أن تحـاول إفشـاء الأمـر لهـم.. كنـت أظنـك سـتختار مسـتقبل بنـي جنسـك، عـلى مسـتقبل جنـس هجـين، لا صالح لـه بالحيـاة التـي يحتلهـا، ولم يكـن يفـترض بـه أن يوجـد بهـا مـن الأسـاس..»

لم يرد إدوارد وهو يقف في مكانه ويتطلع إليه بينما هو يردف:

- «سـبق أن قلـت لـك منـذ فـترة طويلـة أننـا نعبـث بقواعـد الطبيعـة.. سـبق أن أخبرتـك أن مـا نفعلـه ليـس صحيحًـا.. وكنـت محقًّـا.. الطبيعـة ذاتهـا أعلنـت غضبهـا، وهـا هـي ذي تحـاول تصحيـح المسـار الـذي خرجنـا عنـه نحـن، وتمردنـا.. ألم تسـأل نفسـك يومًـا عـمَّا إذا كان كل هـذا الـذي يحـدث صدفـة فعـلًا؟.. هـل الثـورة أولًا، ثـم الحـرب وسـقوط النظـام السـياسي العالمـي ثانيًّـا، ثـم كارثـة الكوكـب العـاشر أيضًـا في نفـس الوقـت صدفـة حقًّـا؟.. هـل هـو نحـسٌ مبالـغ فيـه، أم هـو شيء آخـر؟»

لم يرد إدوارد أيضًا وهو يجلس في مكانه من جديد، بينما تابع جودوين:

- «ربمـا هـو انتقـام كيـان علـوي مقـدس لا نعـرف عنـه شـيئًا، وكنـا نظنـه ليـس هنـاك.. ربمـا نسـينا وضعنـا، ومكاننـا بـين المخلوقـات، وحجمنـا الحقيقـي وسـط الكواكـب والمجـرات، والفضـاء الشاسـع، وظننَّـا أننـا قـد ارتقينـا درجـات الـسر الأعظـم، وصـارت لنـا قـوة الآلهـة..»

تراجـع إدوارد في مقعـده وعقـد ذراعيـه عـلى صـدره وهـو يسـتمع إليـه في صمـت..

- «الحقيقـة هـي أننـا لسـنا آلهـة.. ولم نكـن كـذا أبـدًا.. كل مـا فعلنـاه هـو التلاعـب بقواعـد الطبيعـة، والعبـث في مقاديرهـا وأساسـها.. ولهـذا فنحـن نسـتحق مـا هـو عـلى وشـك الحـدوث، ولا يجـب علينـا بـأي شـكل أن نمنـع محاولاتهـا السـامية لتصحيـح أخطاءنـا.. فربمـا كانـت تلـك هـي توبتنـا عـمَّا كان، وما سـيكون..

ربما كان في هـذا فداؤنـا الأعظـم، وخلاصنـا مـن الذنـب الـذي سـببناه بما فعلنـا واقترفنـا في حـق الكوكـب بأكملـه..»

ثم مال في مقعده إلى الأمام، وتعالت نبرة صوته نسبيًّا وهو يضيف:

- «خلاصنـا الـذي تحـاول أنـت الآن أن تمنعـه بمحاولتـك إنقـاذ وتبريـر الخطـأ الـذي سـببنا بـه غضـب الطبيعـة، ومنحـه فرصـة أخرى نحـو حيـاة جديـدة.. وهـذا هـو مـا لـن أسـمح بـه..»

تكلـم إدوارد هنـا أخـيرًا، وهـو عـلى نفـس وضعيـة جلوسـه، وجاهـد لكبـح توتـره الـذي بـدا جليًّـا عـلى نبراتـه التـي خرجـت مـن بـين شـفتيه:

- «أيُ خـلاصٍ ذاك؟.. وأي ذنـبٍ يسـتحق أن نفنـى جنسًـا كامـلًا مـن الوجـود، لمجـرد شـعور أنـاني بالذنـب؟.. لمـاذا لا يكـون مـبرر كل مـا حـدث هـو أنهـم يسـتحقون الحريـة فعـلًا، ويسـتحقون أن يعيشـوا كـما يريـدون، بـلا توجيـه مـن أحـد، ولا اسـتعباد مـن أحـد..»

ثـم غلبـه الانفعـال، وبـدا واضحًـا في تهـدج صوتـه، وارتجـاف أصابعـه الـذي حـاول جاهـدًا أن يخفيـه، وهـو يتابـع بعيـون تلتمـع فيهـا دمـوع حبيسـة:

- « منـذ اليـوم الـذي جئنـا فيـه إلى العـالم لأول مـرة، ونحـن نحـارب ونقتـل بعضنـا البعـض، ونرتكـب المجـازر التـي لا يمكـن تسـميتها، لأسـباب مثـل لـون البـشرة أو العِـرق، أو الدِّيـن وأيُّ ربٍّ ينبغـي أن نعبـد.. منـذ قـرون عديـدة ونحـن نرتكـب المذابـح باسـم الجنـس أو الوطـن أو العقيـدة، ويقتـل بعضنـا البعـض فقـط لأنـه مختلـف.. قُـل لي أنـت؛ مـا الـذي يجعلنـا أحـق بهـذا العـالم منهـم؟.. عـلى الأقـل هـم يقاتلـون مـن أجـل حريتهـم نفسـها.. مـن أجـل أن نشـعر بألمهـم، ونعـترف بأنهـم ليسـوا عبيـدًا، وأن لهـم حيـاة تسـتحق أن يحيوهـا مثلنـا بالضبـط.. مـن أجـل حقهـم في أن يكونـوا مختلفـين.. ونـأبى نحـن أن نسـمع، كعادتنـا منـذ آلاف السـنين..»

رمقـه جودويـن بنظراتـه، وتعلقـت نظراتـه بالعـبرة التـي فـرت مـن مقلتـه، وسـالت عـلى وجنتـه خفيفـةً، تجـري كرافـدٍ تحـرر مـن نهـرٍ حبيـس..

- «لم يتغير البشر أبدًا بالتطور التكنولوجي، ولم يتغيروا حتى بعد أن ارتفعت مرتبتهم لمصاف الآلهة، وصاروا هم مانحي الحياة لكائنات أخرى مثلهم، تتنفس وتشعر، وتحلم.. لم يتغيروا أبدًا، بل صاروا أكثر سوءًا وتدنيًا.. صار هناك مبررٌ يقنن ما يفعلون بغيرهم من الكائنات الأدنى، هو مبرر العبودية بتعريفها الأصلي، ووجهها القبيح غير المتجمل.. نحن من أتينا بهم إلى الدنيا، وإلينا مصيرهم.. ولذا لنا وحدنا حق استعبادهم وتعذيبهم ومنافاة أبسط قواعد الإنسانية التي سُمِّينا باسمها.. أيُّ عدلٍ ذاك؟، وأي عدالة أو تبرير يجعلنا نحن نستحق النجاة أكثر منهم؟»

نهض جودوين من مكانه، وصاح وهو يقترب بوجهه من تاسك، حتى صار مواجهًا له تمامًا:

- «التبرير هو أننا نحن أصحاب الكوكب، ونحن من أتينا بهم إليه.. لو كان مستقبلنا ومصيرنا مرهونًا بعدم وجودهم، فإفناؤهم هو الخيار الصحيح الذي لن نتردد عنه لحظة، مهما كان الثمن.. المبادئ والقيم لن تحفظ البشر من الانقراض، ولن تعيدهم مرة أخرى إلى الحياة..»

ظل إدوارد يتطلع له للحظات بنفس الانفعال، فأتبع جودوين ما قال بعبارة أخيرة:

- «وكل ما تقوله أنت الآن يحسم الأمر.. أنت لا تصلح لأن تكون جزءًا من مشروع الإخلاء.. ترشيحك سيُسحب، ابتداءً من هذه اللحظة..»

تطلع إليه إدوارد بنفس النظرة، وتعبير وجهه يتغير إلى الهدوء بطريقة مريبة، بينما أردف جودوين بصوتٍ تجلَّى التردد واضحًا في نبراته:

- «أنا آسف فعلًا، لكنك لم تترك لي خيارًا آخر..»

تراجع تاسك إلى الخلف ببطء وهو يرفع كفيه إلى الأعلى علامة الاستسلام، وهو يضغط بأسنانه على شفته السفلى لحظات، ثم قال في هدوء وهو يفرقع بإصبعيه:

- «كنت أعرف أن هذا هو ما سيحدث.. ولم تترك لي أنت أيضًا خيارًا

آخـر..»

تبـع عبارتـه تلـك الحركـة الغريبـة التـي صـدرت مـن خلـف جودويـن، فاسـتدار بسرعـة ليتطلـع إلى مـا خلفـه، وارتفـع حاجبـاه بتعبـير ذهـول، امتـزج بفـزعٍ بـدأ في الظهـور تدريجيًّا عـلى ملامحـه..

- «هذا هو فرانك جودوين 2.0..»

انعقـد لسـان جودويـن تمامًـا وهـو يتراجـع، ونظراتـه متعلقـة بذلـك الـذي يتقـدم منـه..

نسـخة تامـة منـه.. نفـس ملامحـه وشـعره وطولـه.. نفـس طريقـة حركـة جسـده حتـى.. لـو لم يكـن يعـرف أنـه الآن في المعمـل، لظـن أنـه ينظـر في مـرآةٍ مـن نـوعٍ مـا..

- «جودويـن 2.0 ليـس جيـلًا ثالثًـا لـو كنـت تسـأل.. فلـم يعـد لـدي مقـدرة عـلى إجـراء عمليـة الخلـق مـرة أخـرى، ولم تعـد هنـاك مـوارد تكفـي هـذا.. بالإضافـة إلى أن سـلوك الجيـل الثالـث الوليـد غـير متوقـع عـلى أي حـال، فلـن يكـون مفيـدًا جـدًّا..»

تراجـع جودويـن أكـثر، وتعـثر في رجوعـه ليسـقط أرضًـا وهـو يحـدق في شـبيهه الـذي وقـف أمامـه تمامًـا، وتسـارعت ضربـات قلبـه إلى حـدٍّ صـارت معه مسـموعة، بينـما تابـع تاسـك بصـوتٍ يرتجـف انفعـالًا، حـاول أن يخفيـه في هدوئـه:

- «هـذا الـذي يقـف أمامـك هـو نسـخة مـن روبوتـات الخدمـة المنزليـة القديمـة، أو مـا كنـا نسـميه بالجيـل الثـاني.. ولكنـه نسـخة قمـت أنـا بتطويرهـا، فلـم تعـد روبوتًـا طبيعيًّـا، بـل هـي إنسـان آلي حقيقـي مُمَيكَـن، أو مـا كنـا نعرفـه في روايـات الخيـال العلمـي القديمـة باسـم الأندرويـد Android..»

ظـل جودويـن يتطلـع إليـه بنفـس الإرتيـاع، وهـو لا يقـدر حتـى عـلى الـصراخ، بينـما أردف تاسـك:

- « يملـك ذكاءً اصطناعيًّـا حقيقيًّـا، يعمـل بنظـام كمـي حقيقـي، ولكنـه مبرمـج

على أوامر معينة، لا تتغير، ولا يمكن له أن يخرقها.. تلك الأوامر هي أن يطيع كل حرف أمليه إياه، بلا نقاشٍ أو شروط..»

ابتلع جودوين لعابه وهو يحاول السيطرة على صوته، ولكنه خرج فَزِعًا، مرتاعًا:

- «ماذا.. ماذا تفعل؟!»

فرك تاسك كفيه ببعضهما وهو يقترب قائلًا:

- «فقط ما يتوجب عليَّ فعله، فأنت لم تترك لي خيارًا آخر.. كل شيءٍ يوشك على أن ينتهي على أي حال، فلا أعتقد أن أحدًا سيلحظ اختفاءك، أو يستنتج أن هذا ليس أنت.. فرصة أن يحدث هذا ضئيلة للغاية، فهو كما ترى يملك نفس صوتك وشكلك وملامحك، وحتى بصمات أصابعك وعيناك..»

فقد جودوين هنا سيطرته على أعصابه، فانطلقت صرخاته المرتاعة كصفارات الإنذار، ولكن لم تصدر أي حركة من تاسك تدل على أنه يهتم..

- «جدران المعمل عازلة للصوت يا صديقي.. أنت تعرف هذا بالتأكيد، فأنت من أعطيت الأمر بصنعها بعد كل شيء..»

تابع جودوين صراخه لحظات أخرى، حتى أدرك أنه لا فائدة هناك، فجعل يزحف على يديه وظهره إلى الخلف، وشبيهه يقترب منه، حتى ارتطم ظهره بالحائط.. لم يعد هناك مهرب آخر.. الموت يحدق إليه، من عيون لا فرق بينها وبين عيونه، ولا اختلاف..

- «إدوارد.. أنت لست مضطرًا لأن تفعل ذاك.. هذا ليس أنت.. أرجوك لا تفعل هذا..»

مط تاسك شفتيه وهو يقترب حتى يقف بجوار تصميمه بالضبط، وقال بنبرات يتبدى فيها الصدق واضحًا:

- «أنا آسفٌ يا فرانك.. أنا آسفٌ فعلًا، وكنت أتمنى أن لا تسير الأمور على هذا النحو.. ولكنك لم تترك لي خيارًا آخر.. لن يمكن أن نتجاوز عن الأمر الآن،

وليـس باسـتطاعتي أن أدعـك تذهـب، لتخبـر الجميـع بمـا حـدث.. مـا خططتـه بـدأ فعـلًا ولا سـبيل هنـاك لإيقافـه..»

ثم أشار بسبابته بحركة معينة، وهو يضيف:

- «أتمنى لو كانت الأمور مختلفة..»

تبـع عبارتـه صـوت النصـل الحـاد الـذي شرع يخـترق جسـد جودويـن، مصحوبًـا بدمائـه التـي تطايـرت في كل مـكان، حتـى غطـت الأرضيـة والحائـط المجـاور، وتناثـرت عـلى ملابسـه وهـو يتراجـع في اشـمئزاز..

ظـل يرقـب ابتـكاره الـذي يواصـل طعـن جسـد جودويـن الهامـد بنصـل المديـة التـي يحملهـا بـلا توقـف في صمـت، ثـم أدار وجهـه في شرود إلى بـاب المعمـل المغلـق، الـذي يبـدو كجـزءٍ مـن الحائـط الأنيـق..

قـد بـدأ كل شيء، وعـبر خـط اللاعـودة.. لـن يمكنـه أن يتراجـع عـمَّا فعلـه الآن، وكل مـا يملكـه هـو أن يحافـظ عـلى هـدوء أعصابـه، ويكمـل الـدور الـذي رسـمه لنفسـه ولنسـخة جودويـن التـي ابتكرهـا في زمـنٍ قيـاسي، بعـد أن عـاد لأبحاثـه القديمـة قبـل مـشروع الخلـق..

يجـب أن يُخـدع حـرس جودويـن الخاصُّـون، وعمـلاء الــ G.C.I ومجلـس الإدارة ذاتـه.. وهـذا ليـس سـهلًا عـلى الإطـلاق، حتـى لـو كان الأندرويـد نسـخة طبـق الأصـل مـن جودويـن.. لا بـد أن أحدهـم سـيلحظ شـيئًا مـا لم يلحظـه هـو.. قـرأ مـن قبـل في كتـابٍ لا يذكـر اسـمه عـن القاعـدة الشـهيرة التـي تقـول أنـه لا يوجـد قاتـل يمكنـه أن يرتكـب جريمـة كاملـة دون أن يـترك خيطًـا أو تفصيلـة تقـود الشرطـة إليـه في النهايـة مهـما طـال الوقـت.. وهـو يؤمـن بـذاكَ حقًّـا.. لـذا فيجـب أن يقلـل تعاملهـم مـع النسـخة إلى الحـد الأدنى، حتـى يقلـل تلـك الفـرص إلى الصفـر..

لم يعـد هنـاك الكثـير مـن الوقـت عـلى أي حـال، فعمليـة الإخـلاء سـتبدأ بعـد يومـين..

فقـط يجـب أن يتمالـك نفسـه، ويتظاهـر بأنـه لا يخفـي جثـة رئيـس مجلـس

إدارة أقوى وأكبر شركة عظمى في العالم والتاريخ، في معمله الخاص..

ما مدى صعوبة الأمر؟..

***

((من مذكرات إدوارد تاسك المسجلة على جهازه اللوحي يوم 6 يونيو 2128))

قد بدأت النهاية..

أُسجِل هذه الحروف للمرة الأخيرة بداخل مذكراتي الشخصية على جهازي اللوحي الخاص، بعد أن نسخت مذكرات جودوين أيضًا عليه لأطالعها عَمَّا قريب..

عملية الإخلاء بدأت في المستعمرات الكبرى بأكملها، ونقل مجالس الإدارة والعلماء الكبار يتم حاليًّا في هذه اللحظة.. أقبع الآن في مقعدي بداخل الحوامة الحربية الخاصة بجينيسيس، التي تنطلق بسرعتها القصوى تجاه المدخل 31 لمدينة «هوب Hope» في صحراء نيفادا، الذي يشكل واحدًا من مداخل عديدة تقع في مختلف بلدان العالم.. صحراء العراق وثلوج روسيا وغابات بيرو، وغيرها الكثير مما لا حصر له..

كل شيءٍ يسير كما خططت، ولم يكتشف أحد قط ما فعلته.. خطتي لتقليل التواصل بيني أنا وجودوين، وبين باقي مجلس الإدارة والحراس الشخصيين أتت بثمارها.. وها هو يجلس جواري الآن، وسط حرس القوات الخاصة للـ G.C.I، ننطلق إلى وجهة لا نعرف ما ينتظرنا بعدها.. سعيًا نحو مستقبل يوشك على أن ينتهي، ونحاول أن نمضي عبره قِدمًا..

أنظر عبر النافذة الهولوجرامية الشفافة إلى الكوكب البرتقالي الجميل، الذي صار حجمه في السماء أكبر من حجم قرص القمر بثلاثة أضعاف على الأقل،

حتـى يمكـن رؤيـة تفاصيـل سـطحه بالعـين المجـرده، في وضـح النهـار..

أتذكر ما قاله لي جودوين، قبل أن ينتهي كل شيء..

هـل هـذا فعـلًا هـو عقـاب الطبيعـة لنـا عـلى مـا اقترفنـاه؟.. عقابهـا لي عـلى طموحـي الزائـد، ومحاولتهـا لتصحيـح مسـارها، والعـودة إلى فطرتهـا الأوليـة؟..

هـل هـذا هـو المنتهـى، والمصـير؟.. هـل كان مقـدرًا لهـذا أن يحـدث منـذ آلافِ السـنين، ومنـذ اللحظـة التـي نشـأ فيهـا كوكبنـا، أم أنـه عقـاب إلهـي حقيقـي كـما يقـول جودويـن؟..

هـل كان مقـدرًا لـ «لويـس» أن يصـير هـو نـوح الجديـد؟.. هـل كان مكتوبًـا عليـه أن يقـود بنـي جنسـه، وأزواج الحيوانـات في غواصتـه النوويـة عـبر نهايـة العـالم، وصـوب بدايـة جديـدة؟.. وهـل سـينجح في هـذا فعـلًا، أم سـتكون هـذه هـي نهايـة جنسـه بأكملـه؟..

هـل الأسـاطير التـي كانـوا يحكـون عنهـا قديمًـا في أديانهـم المزعومـة تحـدث الآن فعـلًا، أمـام عيوننـا جميعًـا؟..

مـا الـذي ينتظـر جمـوع النـاس الغافلـين عـن حجـم الكارثـة الحقيقيـة في الأسـفل؟..

ما الذي يخبئه المستقبل فعلًا؟..

لا أعرف..

ولكـن مشـهد الكوكـب البرتقـالي الـذي يمـلأ السـماء ضيًّـا ونـورًا يرسـم للمسـتقبل طلعـةً بهيـةً فعلًا..

بهيةٌ إلى حدٍّ يثير التوجس..

***

يـوم السـادس مـن يونيـو سـنة 2128 يحـدد نهايـة مذكـرات إدوارد تاسـك المكتوبـة والمسجلة عـلى جهـازه اللوحـي الشـخصي، الـذي لم يعـثر عليـه أحـد قـط.. ويظـل مصـيره غامضًـا حتـى هـذه اللحظـة التـي تطالـع فيهـا هـذه السـطور..

(نهاية الجزء الثاني)

خاتمة

أسفار النهايات
(جون لايدر – إدوارد تاسك)

يرفع «جون» عينيه من على المذكرات..

عقله يوشك أن يذوب..

لا يستوعب كل هذا الذي قرأه، ولا يجرؤ حتى على أن يفكر في معناه.. لا يجرؤ على أن يفترض أنه يفهم، ويشعر أنه قد عرف حقيقةً لا يقوى امرؤ على أن يحيا بعد أن أدركها..

حقيقة لا تستوعب، وما زالت غيرَ واضحةٍ أو مفهومة..

يدير عينيه إلى «جيما» و«رشيد» الواقفين جواره يتطلعان إليه في ذهول، قد فرغ من القراءة، وكأنما قد فرغت منهم أرواحهم..

يشعر أن قلبه يدق كالطبول، ويسمع دقاته بأذنيه المجردة.. يوشك على أن يسمع قلوبهما كذلك..

ما معنى كل هذا الذي طالعه؟..

هل «إدوارد تاسك» هذا هو من ينتظرهم ها هنا؟!.. هل هو ذاك الذي بنى كل هذا؟!.. هل يمكن؟!..

كيف جاء إلى عصرنا هذا إذن؟.. كيف أتى من مستقبلٍ بعيد، إلى ماضٍ سحيق؟!.. كيف وكيف وكيف.. أسئلة كثيرة تتردد بداخل أروقة ذهنه، وبداخل أذهانهم، ولكنما لا يجرؤ أحدهم على السؤال، أو التفكر..

شيءٌ ما غامض.. شيءٌ ما لا يُعقَل ولا يصدق..

هل كل هذا الذي قرأه كذب؟.. هل هي خرافات رجل مجنون، أوهمته عظمة اكتشافه بأنه الرب ذاته؟.. أم هو حقيقة؟..

حقيقة مخيفة..

شيءٌ ما لا يستوعبونه.. شيءٌ ناقص..

يحاول أن يتكلم، فلا يُفلِح الكلام في مغادرة حلقه.. عيناه تتطلعان إلى

«جيـما» و«رشـيد»، فـيرى في ملامحهـما صراعهـما النفـسي، تجـاه كل مـا سـمعوه يحكيـه، وكل مـا طالعـوه معًـا..

هـل يصدقـان؟.. أم هـل هـذا كلـه أكذوبـةٌ كـبرى؟.. ولـو صدقـا؛ فكيـف جـاء «تاسـك» هـذا مـن ذاكَ المُسـتقبل البعيـد؟.. وكيـف؟!..

أفكار..

أفـكار كثـيرة تسـبح في سـماء العدميـة واللاإجابـة.. اللاوجـود، واللامغـزى ذاتهـما يحلقـان حولهـم، ويرمقونهـم في سـخرية.. فهـا هـم ضحاياهـم الجـدد قـد جـاءوا.. ولربمـا لا يغـادرون..

ثـم إن «جيـما» تتكلـم أخـيرًا.. تفلـح في أن تحـرك شـفتيها، فتخـرج مـن بينهـما الكلـمات:

- «الأسطورة حقيقيةٌ إذن !..»

ينظـر لهـا الاثنـان بـلا اسـتيعاب.. بتوجُـسٍ وهلـع لا يدريـان لـه مـبررًا، ويسـأل «جـون»:

- «أيُّ أسطورة؟!..»

تتطلـع إليـه لحظـات والـشرود يُطـل مـن خلـف عينيهـا، ثـم تقـول بنـبراتٍ تثـير خيالهـما، فكأنمـا هـي تمـر عـلى آذانهـما، فتزلزلهـا:

- «الأسـطورة التـي يعمـل مـن أجلهـا تنظيـم المصدقـين الحقيقيـين منـذ بدايـة الزمـان.. أسـطورة المدينـة المقدسـة، التـي يختفـي فيهـا الـرب القديـر ذاتـه !.. خالـق البـشر !..»

طريقـة إلقائهـا للحـروف، وشرودهـا وهـي تركـز بعينيهـا عـلى نقطـة معينـة مـن الأرض، تبـدو وكأنهـا لا تراهـا ولا تـرى سـواها في آنٍ واحـد، تثـير خيالهـما أكـثر.. هـي تحـدث نفسـها.. تحدثهـا بمـا لم يسـمعه بـشرٌ مـن قبـل..

- «مـن أجـلِ هـذا المـكان الـذي نقـف فيـه الآن، خُضنـا حروبًـا، ونسـجنا مؤامـراتٍ، وشـوهنا التاريـخ والحقيقـةِ ذاتهـا ليختفـي صنيعنـا، ولنعـود إلى الظـلال

التـي منهـا نشـأنا، وإليهـا ننتمـي.. دولٌ قامـت وسـقطت، وملـوكٌ تولـوا وقُتِلـوا، وبـلادٌ كاملـة احتلـت وفَنَـت تطلعًـا إلى الـسر الأعظـم، وبحثًـا عنـه.. عـن الإجابـة الكـبرى.. مـن أجـل هـذه اللحظـة، وانتظـارًا لهـا، بدأنـا رحلـة دامـت قرونًـا طويلة.. منـذ فجـر التاريـخ، ومـا قبـل المسـيح ذاتـه.. منـذ مـا هـو قبـل كل شيء.. كل هـذا مـن أجـل هـذه اللحظـة التـي نقـف نحـن فيهـا هنـا الآن..»

كلامهـا ونبراتـه قـد بلـغ مرحلـة ينحفـر معهـا في عقـل وأذن مـن يسـمعه، ويمـلأ قلبـه وجـلًا وتهيبًـا، وإجـلالًا..

- «هو لم يأتِ من المستقبل..»

نظر لها «رشيد» في ترقب، بينما سأل «جون» وفؤاده ينبض انفعالًا:

- «هل تقصدين..»

ترتجـف نبراتـه ويتهـدج صوتـه ولا يقـوى عـلى إكـمال السـؤال، فترفـع هـي عينيهـا إليـه في بـطء، وهـي تجيـب ضاغطـةً عـلى كل حـرفٍ مـن كلماتهـا:

- « قد آتى من الماضي.. الماضي السحيق!..»

وساد الصمت بعد عبارتها..

صمـتٌ طويـل.. طويييييييييـل.. لا يقطعـه شيء، ولا يلوثـه شيء.. حتـى صـوت الأنفـاسِ نفسـه بـدا كـما لـو أنـه توقـف.. كـما لـو أنهـم عـادوا إلى بدايـة الخليقـة، حيـث العـدم واللامـكان.. حينـما لم يكـن هنـاك شيء، ولم يكُـن هنـاك مـا يُطلـق عليـه لفـظ هنـاك..

صمـتٌ دام لثـوان.. فكأنمـا هـي تمـر عليهـم دقائـق وسـاعاتٍ وسـنين.. قـرونٍ ودهـور، لا يستشـعر فيهـا أحدهـم شـيئًا، ولا يسـتوعب إجابـةً..

ثـم يمـزق السـكون صـوت التصفيـق الـذي تعـالى في تدريـجٍ، دفعهـم لأن يجفلـوا جميعًـا وهـم يسـتديرون في سرعـةٍ ليطالعـون مـا هـو خلفهـم، وينظـرون إلى حيـث يأتي..

وحينها شَهِدُوهُ..

الرب..

***

أبيض الشعر ناصعُه..

أبيض اللحية طويلها..

أبيض الكساء، وأبيض البشرة..

كل ما فيه أبيض.. ينعكس من على جسده الضي الأبيض الساطع الآتِ من اللامكان، فيشع في العيون وعلى الموجودات.. الضياء الذي يطل من لباسه ذاته ينعكس في كل ركن، فيبدو كأنه يشع نورًا شديد البهاء..

يبدو عليه السن إلى حدٍّ ما، ولكنه ليس ملحوظًا إلى هذه الدرجة.. طلعته كتصورات الملائكة في الرسوم الكاثوليكية القديمة، فكأنما هو قد خرج لتوه من لوحة لمايكل أنجلو.. لحيته الطويلة تتطاير تحت تأثير نسماتٍ لا تدري لها مصدر، ويتطاير معها شعره الطويل الناعم ناصع البياض، فلا تلتقط العيون سوى مظهره جميل الطلعة..

يصفق وهو يقترب مبتسمًا في هدوء.. بسمته تلقي شعورًا ليس كمثله شعور في نفوس هؤلاء الذين يرقبونه، وتغلف أفئدتهم برعبٍ ليس كمثله رعب..

هم يشهدون بأعينهم إلهًا..

يشهدون ذاك الذي طمح للسمو والعلاء، فصار ساميًا، وغدا عاليًا.. بنفسه التي كانت ترنو إلى الألوهية، فكانت وأصبحت..

يصفق وهو يقترب منهم في هدوء..

ملامحه تشابه تلك التي عُرِضَت في مذكراته، وتلك التي كانت تخص ذاك الذي كان يُدعى «جودوين».. ملامحه هي نفسها بالضبط.. ولكن كيف؟.. كيف بعد كل هذا الوقت؟!..

خلفه على اليمين يمشي ذاك الذي وصفه «رشيد» من قبل، وعرفنا أن اسمه «شموئيل».. بطوله الفارع، وجماله الأخاذ.. وعلى اليسار يمشي آخر.. أسمر اللون، ملامحه فيها من سحر القدماء، وحرارة الشمس، وغموض الظلام.. طويل القامة، فارع الطول، تتبدى عضلاته من تحت كسائه عاري الكُمين، ويشع منه النور هو الآخر، فكأنما هو هالة من الضوء تمشي على قدمين.. وهو..

يصفق في بطءٍ وهو يقترب.. على وجهه نفس البسمة الهادئة.. يتقدم حتى يتوقف عن الخطو على بُعدِ أمتارٍ قليلات.. يتطلع إلى وجوههم ويتفرس في ملامحهم، فلا يدري أحدهم ماذا يقول أو يفعل.. قلوبهم تهوي من حالق، وترتفع من جديد، ثم تهوي بلا قرار.. كأنها تعبر عن تقلبات أنفسهم التي لا وصف لها ولا استيعاب..

هم يحدقون الآن إلى ذاك الذي كان يعتبره القدماء إلهًا.. هذا هو رع أو آمون أو زيوس أو حورس أو بوذا أو المسيح.. هذا هو الرب ذاته.. أو كذا كان القدماء يعتقدون .

يتملى هو في تفاصيلهم لدقائق تمضي كالسنين، ثم يخرج صوته لأول مرة، فلا تدري إن كان هذا صوتًا، أم هي الأقدار ذاتها، والطبيعة تتكلم.. فلا وصف هناك أو كلماتٍ تعبر..

- «أحسنتم.. أحسنتم يا أبنائي..»

يحدقون فيه، ولا يجرؤ أحدهم على الكلام.. كأنما لسانهم قد انعقد، وأصبحت الحروف ذاتها شحيحة..

يتقدم هو ويرتقي الدرجات مقتربًا، فتتراجع أقدامهم دون أن يشعروا، ويوشك «جون» على أن يتعثر ويسقط، قبل أن يتمالك توازنه..

يرقبونه وهو يجلس على العرش في هدوءٍ، ثم يستدير به بلا التفافٍ أو حركة، كأنه يطير في الهواء ذاته، وعلى نسماته يسري.. يتطلع إليهم من فوق عرشه بعينيه الزرقاوين العميقتين، فتشعر أنهما يسحبانك لمحيطٍ واسع

الزرقـة، تغـرق فيـه بـلا قـرار.. بـلا مهـربٍ مـن كلماتـه الرنانـة، التـي تتشـكل مـن بـين شـفتيه الرفيعتـين كأنهـا جسـدٌ وحيـاة، ليحتـل صوتـه الأذهـان وينحفـر فيهـا حفـرًا:

- «قـد كان ذاك اختبـارًا.. وقـد نجحتـم.. قطعتـم شـوطًا طويـلًا للغايـة في سُـلَّمِ التطـور، وصرتـم قادريـن فعـلًا عـلى الاسـتيعاب والتفكـير والفهـم.. يتضـح هـذا لي فعـلًا، وإلا مـا كنتـم قادريـن عـلى الولـوج إلى مذكـراتي الخاصـة ومطالعتهـا..»

«جيـما» تنظـر إليـه وعينيهـا تترقـرق فيهـما الدمـوع، التـي تتحـول إلى عـبراتٍ غزيـرة تنحـدر عـلى وجنتيهـا بـلا شـعور، وهـي تتقـدم إلى الأمـامِ خطـوات، ثـم تخـر سـاجدةً عـلى ركبتيهـا، وتلمـس بجبهتهـا الأرض..

- «سـيدي الأعظـم.. سـيد الكـون والطبيعـة والكائنـات.. أشـهد الآن أنـك خالقـي وصانعـي ومهنـدسي الـذي ليـس غـيره أحـد..»

يتطلـع إليهـا في موضعهـا في تعبـيرٍ لا وصـف لـه.. ربمـا هـو حنـانٌ أو حنـين، يمتـزج بخيـلاءٍ وغـرور وتكـبر.. مزيـج معقـد مـن الشـعورات والتعبـيرات لا يمكـن معـه التمييـز.. ثـم إنـه يقـول:

- «أنـا أرقبكـم منـذ زمـن، ومنـذ فـترةٍ طويلـةٍ للغايـة يـا «جيـما»، وعليكـم قـد رضيـت.. أنتـم عظمـة صنعـي وخلاصـة مـا كنـت صوبـه أرنـو وأطمـح.. أنتـم المصدقـون الحقيقيـون الذيـن كنـت أسـعى لإيجادهـم عـلى مـر الأزمنـة، لأجـل أن نلتقـي يومًـا..»

لم تـرد ونهضـت مـن مكانهـا وهـي تمسـح عبراتهـا التـي تسـللت مـن عينيهـا رُغـمًا عنهـا، فـأدار هـو عينيـه إلى «جـون»..

- «قـد طالعـت أنـت كلَّ مـا كتبـتُ، وعرفـت كل مـا كنـتُ فيـه أفكـر، وإليـه أسـعى.. ولكنـك بعـد لا تـدري مـا حـدث، ومـاذا صنعـت.. ولا لمـاذا أنتـم هنـا..»

ثـم ألقـى نظـرة قصيرة بطـرف عينـه عـلى «رشـيد» الواقـف يتطلـع إلى كل هـذا بعيـون يطـل منهـا الانبهـار جليًّـا، قبـل أن يتابـع:

- «بعـد أن دخـل الجميـع إلى المدينـة، وبـدأت عمليـة التجميـد، لم أنضـم لهـم.. لم يكـن طموحـي هـو أن أظـل حبيـس غرفـة صغـيرة لآلافٍ مـن السـنين، أسـتيقظُ بعدهـا لأجـد العـالم قـد صار كلـه ضيـاء شـمسٍ وزهـور.. لم أكـن أتوقـع أن يحـدث هـذا مـن الأصـل، لـو ظـل هـؤلاء الذيـن كانـوا مسـئولين عـن العمليـة في مواضعهـم.. الأمـر كان يحتـاج إليَّ أنـا وليـس غـيري.. بالإضافـة إلى أن مـا كنـت أخطـط لـه كان طموحًـا.. طموحًـا أكـثر مـن الـلازم.. ولم يكُـن ليتحقـق لـو كنـت حبيـس جهـاز إعاشـة..»

تراجـع في مكانـه عـلى كـرسي العـرش، وتابـع وهـو يتكـئ بمرفقيـه عـلى مسـندي الكـرسي، ويشـبك أصابـع كفيـه معًـا أمـام ذقنـه:

- «نجحـت في نيـل ثقـة أفـراد الطاقـم المُكلـف بالمهمـة، خصوصًـا مـع أندرويـد جودويـن الـذي كان يعمـل بكفـاءة وقتهـا، وأقنعتهـم بـأن هـذه هـي رغبـة جودويـن، وأنـه قـد كلفنـي بالمهمـة، وكنـت أنـا مسـتعدًا للتضحيـة بأدائهـا.. وكان هـذا هـو آخـر مـا عرفـوه عـن الأمـر، قبـل أن يولجـون إلى داخـل غـرف تجميدهـم الضيقـة، ويغيبـون في سُـباتٍ عميـق لم يسـتيقظ منـه أحدهـم إلى اليـوم..»

«رشـيد» و«جـون» ينظـران إليـه وهـو يتكلـم، بينـما تعبـيرات وملامـح وجهـه يبـدو عليهـا الـشرود.. كأنـه يتذكـر أحداثًـا قـد مـرت عليهـا قـرون وعقـود..

- «كامـل تعـداد المرحلـة الثانيـة مـن مـشروع الأرض صفـر كانـوا قـد دخلـوا إلى غُـرف التجميـد، وغابـوا في سـباتهم.. وكان حينهـا هـو الوقـت الـذي اسـتعملت فيـه تكنولوجيـا (لازاروس Lazarus) المتنقلـة لأول مـرة..»

صمتَ للحظة، ثم تابع:

- «غرفـة (لازاروس) كانـت هـي المـشروع الـذي كنـت أعمـل عليـه قبـل أن يواجهنـي جودويـن مواجهتـه الأخـيرة.. مجسـات إلكترونيـة تعمـل بنفـس تقنيـة التخليـق الصناعـي للأنسـجة التـي كنـت أسـتعملها في عمليـات التخليـق، وأجهـزة استشـعار طبيـة متطـورة، يتـم إيصالهـا بجـدران أي غرفـة تحليـل طبيـة ضيقـة، وإعدادهـا للعمـل أوتوماتيكيًّـا.. تلـك المجسـات الإلكترونيـة كانـت صـورة متطـورة

مـن تكنولوجيـا خلايـا الـرب، وكانـت تملـك القـدرة عـلى شـفاء الخلايـا الحيويـة، وإعـادة إنتاجهـا وتجديدهـا، مـن خـلال إشـعاعات معينـة مـن الطاقـة، يمكنهـا أن تعيـد الخلايـا ذاتهـا إلى العمـل، وتجددهـا.. نفـس التكنولوجيـا التي كانت تسـتعمل في إنتـاج عقـار الـ (لازاروس سي بـلاس) الـذي كان الجيـل الثالـث يسـتعملونه لإنضـاج الخلايـا.. هـذا كان هـو ينبـوع الخلـود الخـاص بي.. تلـك التكنولوجيـا التـي ابتكرتهـا، ووضعـت العـالم بأكملـه عـلى طريـق الهـلاك والفنـاء، كانـت لي في النهايـة هـي طـوق النجـاة والخلـود.. نحـو مسـتقبلٍ بعيـد لا يسـتوعب..»

قطع عبارته وتوقف لوهلة، قبل أن يردف:

- « كان كل مـا يمكـن أن تقـع عليـه عـينُ أحـدٍ وقتهـا، هـو الخـراب والفنـاء الـذي حـل بـكل شـبر مـن رقعـة العـالم بأكملـه.. جـزر بأكملهـا اختفـت وغرقـت إلى قـرار المحيـط.. معـالم الـدول والحضـارة امحـت تمامًـا مـن عـلى الكوكـب بأكملـه، كأنمـا لم تكـن.. بعضهـا تبخـر بفعـل انفجـارات النيـازك، وبعضهـا الآخـر غـرق تحـت أمـواج المحيـط التـي بلـغ طـول أقصرهـا في تلـك الأوقـات مـا يقـرب النصـف كيلومـتر.. المصعـد الفضـائي الـذي كان قائمًـا وقتهـا انتُـزِع مـن مكانـه انتزاعًـا، وقذفتـه جاذبيـة الكوكـب التاسـع إلى الفضـاء البعيـد، ومعـه كل الأقـمار الصناعيـة ومحطـات الفضـاء الدوليـة.. دُكَّـت الأرضُ دكًّا لفـترة طويلـة للغايـة، كان تأثيرهـا يصـل حتـى إلى مـكاني في قلـب (هـوب)، ويبـدو واضحًـا.. الـزلازل المدمـرة صـارت تتكـرر كتعاقـب الليـل والنهـار.. بقـاع بأكملهـا ابتلعتهـا الأرض إلى غـير رجعـة، وبقـاع أخـرى انبثقـت مـن أعماقهـا، ومـن قيعـان المحيطـات.. كامـل معـالم الأرض كانـت تتغـير وتتشـكل.. حتـى البراكـين المدمـرة انفجـرت بأكملهـا، وخلفـت دمـارًا أسـوأ مـن مئـات القنابـل النوويـة، وسـببت شـتاءً نوويًـا كامـلًا غلـف الأرض بعدهـا.. كل هـذا كان بجانـب أمـواج التسـونامي العملاقـة، والـزلازل والنيـازك الضخمـة التـي كانـت تـضرب الأرض بأكملهـا بصـورة مسـتمرة.. فلـو كانـت هنـاك نملـة حيـة بالأعـلى، فـلا بـد أنهـا اندثـرت إلى غـير رجعـة..»

التقط أنفاسه، ثم تابع:

- «سنون طويلة للغاية تشكلت فيها معالم الأرض ذاتها واختلفت.. أجزاء عديدة من (هوب) نفسها اندثرت واختفت للأبد تحت أنقاض الانهيارات الأرضية التي كانت تبلغنا هنا في جوف الأرض ذاتها، واندفنت معظم المداخل التي كانت في المدن الكبرى، فلم يعد باقيًا سوى أقل القليل، والذي كان في مناطق متطرفة غير مأهولة، بعيدًا للغاية عن أي مكان يمكن أن يريد أحدٌ الذهاب إليه أو الخروج منه.. حتى البشر الذين احتموا بالأنفاق ومداخل المدينة في بداية الكارثة، فنوا جميعًا مع الانهيارات، ولم يعد أحد منهم باقيًا ليرى ما تبقى.. سنين طويلة مرت كالدهور، وعشت كل لحظة منها ككابوسٍ قاتم لا يمر ولا ينتهي.. أكثر من مرة كِدتُ أن أموت في أحد الانهيارات أو الزلازل، وأُصِبتُ كثيرًا جدًّا، ولكن كانت تكنولوجيا (لازاروس) تعيد خلايا جسدي إلى الحياة كالجديدة دومًا.. أذكر مرة بعينها انهار عليَّ فيها جزء من السقف، وكان أندرويد جودوين هو من أنقذني في اللحظة الأخيرة، قبل أن تنهار عليه الصخور لتدفنه تحتها.. لم أره قط بعدها.. حاولت البحث عن بقاياه لشهور عديدة بلا أي نتيجة، قبل أن أتوقف تمامًا عن البحث مع كمية الانهيارات والتداعيات التي كانت تحدث، فقد كان واضحًا أنه لا يوجد أي شيء يمكنه النجاة في وسط ظروف كتلك، سواء كان بشريًّا، أو آلة.. حتى أماكن غرف التجميد التي كان موقعها في أعمق نقطة ممكنة من المدينة في مخازن مصفحة الجدران والحوائط، لم تسلم من الكارثة، وتحطم بعضها تحت انهياراتٍ عديدة.. ولكن البعض الأكبر بقي.. ومع مرور الوقت والسنين في وسط تلك الظروف الكابوسية، صار واضحًا أن الكارثة تنحسر، وأن الكوكب التاسع يبتعد.. توقفت الزلازل، وانحسرت الأمواج إلى أطوالٍ أقل بكثير.. لأول مرة، صارت الحياة ممكنة بعد أن انمحت كل صور الحضارة تمامًا من على الكوكب، ليعود أرضًا بِكرًا كما كان منذ ملايين السنين.. لكن هذا لم يكن يعني أنه صار صالحًا لاستقبال الحياة البشرية من جديد.. الشتاء النووي الذي نتج عن انفجار البراكين، والظروف البيئية التي تولدت في خلال الكارثة وأعقابها، سببوا عصرًا جليديًّا جديدًا.. الجليد احتل كل شيء، ولفترة

طويلة للغاية، صارت الأرض كلها بيضاء.. الشمس نفسها انحجب ضوءها عن العالم بفعل سحابات الغبار والتراب التي غطت الغلاف الجوي بأكمله، الذي تأثر بدوره بالكارثة، فلم يعد هواؤه صالحًا للتنفس إلا بصعوبة بالغة.. صار واضحًا أن هذه كانت النهاية.. وبالفعل عِشتُ لسنينٍ طويلة مؤمنًا بهذه الحقيقة، وأنا أحاول مراقبة السطح بين الحين والآخر باستعمال طائرات التجسس المتطورة التي أنقذنا منها عددًا ضخمًا في مخازن معدات (هوب)، تحسبًا لظروفٍ كتلك.. ثم بعدها بسنينٍ عديدة مرت طويلة كالدهور، رصدت إحدى طائرات التجسس لأول مرة غواصة لويس التي أرشدتُه صنعها، وهي راسيةٌ على أحد جبال ما كان يومًا يُدعى بدولة تركيا.. وشهدت بعيني الجيل الثالث وهم يحاولون بدء الحياة مرة أخرى.. كانت أجسادهم قادرة على تحمل تلك الظروف البيئية، فقد صُنِعوا لتحمل الأعمال الشاقة في الأساس.. ولذلك السبب نجوا، وكانوا قادرين على التحمل، والعبور بجنسهم من الكارثة..»

شرد ببصره للحظاتٍ إلى اللامكان، ثم أردف:

- «وكانت رؤية التاريخ ذاته يبدأ من جديد تجربة ملهمة وفريدة للغاية..»

***

قال «تاسك»:

- «لعقودٍ طويلة، لم يكن لي أي تسلية سوى مراقبة القِلَّة القليلة التي تحاول بدء الحضارة من جديد في أسوأ ظروف مرت بالكوكب في تاريخه.. سخَّرتُ طائرات التجسس بأكملها لمراقبة ما كان يدور هناك في الخارج.. وكان ما رأيته على مر العقود مُلهِمًا لدرجة لا تستوعب، ولربما كان يدفع أحد علماء التاريخ أو الأنثروبولوجي ذراعه، لكي يشهد منه يومًا واحدًا..

أن تتوفر لك فرصة لدراسة سلوكيات الكائنات الحية من الصفر، وترصد

انحدارهـم مـن العلـم إلى الظـلام ثـم إلى النـور مـن جديـد.. ـن تشـهد تخلفهـم ثم تطورهـم مـن جديـد بعينيـك، وتـرى الحقيقـة كاملـة بـلا تأويـل أو أقصوصـات.. أن لا تنظـر بداخـل كتـاب التاريـخ، بـل تصـير أنـت التاريـخ ذاتـه.. أنـت الكتـاب والصفحـات، وأنـت مـن تـدون الحـروف، وتراهـا تتشـكل أمـام عينيـك.. أيُّ عظمـةٍ تلـك التـي كان مقـدرًا لي أن أعيشـها !..

في البدايـة، كان «لويـس» وباقـي مـن اختارهـم مـن بنـي جنسـه هـم من عاشـوا فـوق ذاك الجبـل، انتظـارًا لانحسـار الأمـواج، والأمطـار التـي كانـت تغطـي سـطح الكوكـب بأكملـه لفـترة طويلـة للغايـة.. تزاوجـوا مـن بعضهـم البعـض، وتحملـوا العيـش في وسـطِ ظـروفٍ قاسـية للغايـة، بأقـل القليـل مـن المتـاح لهـم من المـوارد.. مـر الزمـن بعدهـا، ومـضى منـه شـطرٌ طويـلٌ للغايـة..

الأمـواج انحـسرت، والغيـوم انقشـعت، والسـماء صَفَـت، وأشرقـت الشـمس مـن بـين سـحابها مـن جديـد.. الجليـد بـدأ في الذوبـان، ولأول مـرة بـدأ العـالم يتنفـس، ويحيـا مـن جديـد..

وكان حينها هو الوقت الذي اختفى فيه «لويس» تمامًا..

لفـترة طويلـة حاولـت البحـث عنـه في كل مـكان، ولكننـي لم أجـد لـه أثـرًا.. كأنـه قـد تبخـر تمامًـا، أو لم يوجـد يومًـا.. كان افـتراضي ومـا سـكنت إليـه هـو أنـه قـد سـقط في حفـرةٍ مـا أو كهـفٍ مـا، أو صـار طعامًـا لمخلـوقٍ مـا لم يـره شـخصٌ مـن قبـل.. المهـم أنـه قـد خـرج مـن المعادلـة تمامًـا، ولم يعـد لـه وجـود..

لفـترة طويلـة رأيـت أبنـاءه وهـم يحاولـون بنـاء الحيـاة.. رأيـت كل مـن كانـوا معـه في السـفينة وقـد صـار أصغرهـم عجـوزًا، وتبـدت عليهـم علامـاتُ الزمـن والعمـر الطويـل.. رأيـت بعينـي حكايـات الحضـارة القديمـة، وشـكل العـالم قبـل الكارثـة وهـي تتحـول إلى خرفـات عجائـز، لا يصدقهـا أحـد.. فقـط يسـتمعون للأجـداد وهـم يحكونهـا لهـم ليـلًا بجـوار الحطـب المشـتعل، عـلى ضـوء اللهيـب وقرقعـة الـشرر، فتمـلأ نفوسـهم خيـالًا.. أسـطورة قديمـة وليـس أكـثر.. أسـطورة لم يعـد أحـد يصدقهـا، أو يذكـر عنهـا شـيئًا.. وبـدا أن العجائـز الذيـن كانـوا يذكرونـا،

وقد عايشوها رأي العين، قد رحلوا جميعًا إلا أقل القليل، الذين كانوا على حافة القبر بدورهم..

رأيت الأبناء وهم يتشاجرون، ويقتل أحدهم الآخر من أجل فتاةٍ كانت تعجبه، وتملأ قلبه غيرةً وبغضًا تجاه أخيه الذي كان يحظى بها كل يومٍ لكونها زوجته.. رأيته وهو يدفن جثته في باطن الأرض، ويهيل عليها التراب، ثم يبكيه قهرًا وحُرقة.. رأيته وتذكرت أسطورة قابيل وهابيل..

رأيت أعدادهم وهي تتزايد، ويبدأون في النزوح من الجبل إلى مُختلف بقاع الأرض.. كُل سُلالَةٍ تتحول إلى قبيلة، وكل قبيلة تتزايد وتتزايد، حتى تنزح إلى بقعة، وتبدأ فيها حضارتها الخاصة..

كل هذا رأيته رأي العين مع مضي سنيني التي لم يكن تأثيرها ظاهرًا على جسدي بفضل تكنولوجيا (لازاروس) الفائقة التي كانت تعيد خلاياي إلى الحياة من جديد، وتجدد نشاطها وطاقتها، حتى لتعيدني إلى شبابي مرة أخرى، كلما تقدم بي الزمن.. كان الأمر أشبه بما لو كنت قد حظيت بالخلود.. بل صرت خالدًا بالفعل.. صرت أقوى من الموت، ومن الزمن ذاته..

راقبت محاولاتهم البدائية لإقامة حضاراتهم الخاصة من جديد، ثم قررت أن الوقت قد حان لإيقاظ البشر، حتى يصعدون للسطح من أجل استعادة كوكبهم وحضارتهم الزائلة من جديد.. وحينها كانت المفاجأة التي لم تكن سارة للغاية..

الخوادم الإلكترونية أو السيرفرات Servers الخاصة بغُرف التجميد والإعاشة كانت قد أصيبت بعطبٍ فيزيائي وكسور أثناء الكارثة، صارت معه غير قابلةٍ للإصلاح، ولا تقبل عمليات الإيقاظ المبرمجة من قبل Pre Programmed.. النظام الآلي الذكي بأكمله لم يعد يعمل كما يفترض، وأصبحت عملية الإفاقة الإلكترونية غير ممكنة عمليًا.. كانت هذه مشكلة كبيرة، ولكنني كنت مستعدًا للتعايش معها، وإيقاظ العدد الذي كان يقترب من العشرين ألف فرد يدويًا.. لم لا؟.. كنت أملك كل الوقت الذي في العالم على أي حال..

ولكنني حينما أيقظت الفرد الأول، أدركت الحجم الحقيقي للمشكلة.. كانت تلك كارثة كبرى، تهدد بفناء الجنس البشري بأكمله..»

نظر إليهم للحظات، وتملَّى في عيونهم التي تحدق إليه بلا نُطق، ثم تابع:

- «كان الفرد الذي استيقظ غير مكتمل الوظائف العقلية.. بمعنى أنه كان لا يفكر، ولا يعقل، ولا يفهم اللغة أو الكلام أو حتى الإشارة.. قدراته لا تبلغ حتى الإنسان البدائي، فالأمر كان أشبه بما لو كان هذا كائنًا بلا عقلٍ يفكر.. بلا عقل من الأساس..

بعد دراسة قصيرة لنظام الإعاشة والإفاقة اليدوي، كانت النتيجة هي أن النظام اليدوي غير مبرمج بطريقة تحفظ وظائف المُخ لو تمت محاولة الإعاشة يدويًا.. بالإضافة إلى أن العديد من الأوامر، وأكواد كاملة كانت ناقصة بسبب الضرر الذي وقع بالسيرفرات، ولم يكن هناك سبيل لبلوغها إلا عن طريق إصلاح السيرفرات ذاتها، ومحاولة استعادة البيانات المفقودة.. وهو ما لم يكن ممكنًا بأي وسيلة، نظرًا إلى الظروف المحيطة.. كيف أصلح أجهزة إلكترونية شديدة التطور، وأنا لا أجد بحوزتي أي موارد متطورة، ولا أملك فكرة عن هندسة الإلكترونيات من الأساس؟!.. صحيح أنني عالم فيزياء، ولكن حتى أنا لست عبقريًّا لهذه الدرجة..

صار واضحًا أنه من الواجب تأجيل عملية الإفاقة إلى أجلٍ غير مسمى.. وكان هذا يعني أنني قد أصبحت وحيدًا تمامًا..

أنا البشري الوحيد.. الأخير الذي ما زال حيًّا، وما زال يملك إرادة حرة، ووعيًّا حرًّا غير متصل بآلة إعاشة متطورة.. مهمة إنقاذ الباقين كانت تقع على عاتقي أنا.. ولفترة طويلة للغاية فكرت في حلول..

لفترة طويلة للغاية، حاولت وحاولت وحاولت.. أيقظتُ أكثر من واحد، بلا نجاحٍ يُذكر.. كان هؤلاء ما زالوا لا يفكرون.. عقولهم أشبه بما لو كانت قد مُسِحَت تمامًا، كقرص صلب في جهاز كمبيوتر..

راقبـت في هـذه الأثنـاء بدايـات الحضـارة التـي بـدأت تنتـشر عـلى الأرض.. في كلِّ بلـدٍ قديـم، وفي كل بقعـة، كانـت هنـاك حضـارة وليـدة تتشـكل.. وأورثنـي هـذا هاجسًـا خفيًّـا جعلنـي أتابـع عمليـة التجسـس والمراقبـة لأرى مـا كان يحـدث بالضبـط، وكان مـا وجدتـه واسـتنتجته شـديد الغرابـة، ومفاجئًـا للغايـة..

كل حضـارة كانـت تبـدأ، كانـت شـديدة الشـبه بالحضـارة البشريـة القديمـة التـي نشـأت منـذ زمـنٍ سـحيق في نفـس المـكان.. المجموعـة التـي نزحـت إلى مـصر، بـدأوا حضـارة أشـبه بالفراعنـة.. شـبيهة بهـا لدرجـة التطابـق.. النازحـون إلى العـراق أقامـوا حضـارةً سـومرية وبابليـة.. النازحـون إلى اليونـان أقامـوا حضـارةً إغريقيـة سـحيقة القِـدَم.. وكانـت أسـاطير آلهتهـم تشـبه أحـداث مـا قبـل نهايـة العـالم القديـم إلى درجـة لا مجـال فيهـا للشـك.. مـا حـدث هـو أن حكايـات عجائزهـم عـن البـشر وعـن الحضـارة القديمـة المتطـورة التـي صنعتهـم، وكانـت تسـكن الأرض قبـل أن يأتـوا هُـم إلى الحيـاة، تحولـت إلى أسـاطير دينيـة عـن الآلهـة القدامـى الذيـن وهبوهـم الحيـاة.. وكان هـذا الأمـر شـديد الوضـوح في أسـاطير الحضـارة السـومرية عـلى الأخـص، الذيـن ابتدعـوا جنسًـا خياليًّـا سـموه الآنونـاكي Annunaki، وافترضـوا أنـه قـد جـاء مـن كوكـب تاسـع مفقـود في مجموعتنـا الشمسـية، وأنـه هـو مـن صنـع البـشر وأسـكنهم الأرض، مـن أجـل أن يخدموهـم ويسـاعدوهم في أعـمال التعديـن واسـتخراج الذهـب الـذي كانـوا يطمحـون لإنقـاذ كوكبهـم بـه.. كان ذاك واضحًـا في الرسـومات التـي رسـمها القدمـاء الذيـن عايشـوا البـشر، حـين نزحـوا إلى صحـاري الجزائـر، وعاشـوا في الكهـوف.. عـلى جـدران كهـوف تاسـيلي، كانـت اللوحـة العظمـى تتشـكل.. كان هـؤلاء يذكـرون شـكل الحضـارة القديمـة، ولم ينسـوه أبـدًا..

تخيـل ذهـولي وأنـا أشـاهد كل هـذا يتحقـق أمامـي رأي العـين.. مـن موقعـي في جـوف الأرض، وطائـرات التجسـس التـي تمتلـك القـدرة عـلى إلغـاء معـدل انعـكاس الضـوء مـن عـلى معادنهـا، لتكتسـب شـفافية تامـة وسـط الجـو، كأنهـا ليسـت هنـاك.. هـذا بجانـب القـدرة عـلى التجسـس والتنصـت طويـل المـدى.. كانـت هـذه الطائـرات العديـدة هـي عيـوني في كل بقعـة مـن بقـاع الأرض.. شـهدت بهـا

أساطير الفناء القديم، وأساطير العالم الجديد، والجنس الذي عدَّ نفسه البشر، ولم يكن لديهم أدنى فكرة عن ماهيتهم الحقيقية..

نسوا كل ما حدث، وكل ما أدى للنهاية، وظنوا أنهم هم البشر الذين ورثوا هذا العالم الذي أهداه إليهم ربهم، حين أمر جدهم الأكبر أن يهرب من الكارثة في سفينته، ويحمل فيها عشيرته وأزواج الحيوانات.. تمامًا كما قلت أنا لـ (لويس).. قصة (نوح) القديمة كانت تتكرر من جديد، ولكن بوسيلة جديدة، وحكاية مختلفة..

العالم كان يتطور، ويتشكل كما كان القديم، وبشكلٍ شديد الشبه لدرجة تثير التساؤل.. هل كانت هذه قوانين الكون؟.. هل التاريخ يتكرر بالفعل، ويترسخ في عقول الكائنات الحية، حتى تحدث الكارثة العظمى، فيفنى الجميع، ويعيد الناجون بناءه من جديد بنفس قوانين القديم وتاريخه، ولكن باختلافات طفيفة؟!.. هل هذه هي ماهية التاريخ؟..

هل البشر ذاتهم تطوروا عن جنس قديم قدم الأزل، وورثوا منهم الأرض بعد كارثة مماثلة، وتابعوا حياتهم وبدأوا تاريخهم وأساطيرهم وأديانهم بناءً على ما كان قبلًا، دون حتى أن يشعروا أو يفهموا؟..

هل التاريخ دائرة مفرغة؟.. يتكرر من جديد بأكمله، كل بضعة آلافٍ من السنين؟.. كان الاحتمال يثير الخيال.. ويفسر كل الألغاز القديمة والأبنية المتطورة التي كانت موجودة في كل ركنٍ من الأرض القديمة، التي لم تكن تتماثل مع مستوى تطور الحضارات التي نشأت حينها.. كل هذا كان موجودًا في عالمنا القديم، وورثه الجيل الثالث كأنه ملكهم هُم.. والأدهى أنهم حتى لم يكونوا يفقهون ما كان يحدث..

لم يكن مقدرًا لبشري أن يفهم كل هذا، إلا حينما قررت أنا البقاء بمساعدة تكنولوجيا (لازاروس)، ورأيت كل هذا رأي العين..

العالم كان يتطور، ويتقدم، والجيل الثالث البدائيون كانوا يزدادون ذكاءً.. قدرتهم القديمة على التخاطر العقلي بدأت في الاندثار، وبدأت تندفن تحت

غبار الحضارة، والتطور التقني الذي بدأ على استحياء.. وحينها، عرفت أنا ما يتوجب عليَّ فعله.. رأيته كما الرؤيا، وفهمت دوري، والطريقة التي سأصلح بها سيرفرات الإعاشة..

لو أردتُ أن أعيد الحياة كما كانت من قبل، فيجب أن أقود التاريخ الجديد في اتجاهٍ واحد، هو نفس ما جاء قبلًا، ولكن بتغييراتٍ طفيفة تساعد على أن نتلافى ما حدث من قبل..

من أجل أن أعيد تشكيل الحضارة الجديدة حتى تبلغ مرحلة معينة من التقدم تمكنني من أن أستعمل مواردها لإصلاح السيرفرات، وإعادة إيقاظ البشر، كان يتوجب عليَّ أن أكون الرب ذاته !..

داعب هذا أحلامي القديمة التي كنت أعيش من أجل أن أحققها أيام مشروع الخلق، وتكنولوجيا خلايا الرب وحديقة عدن ومشروع الجيل الثالث بأكمله.. كل هذا صنعته، والآن كانت لدي الفرصة لأن أعيد صُنع التاريخ ذاته من جديد في الاتجاه الذي كنت أطمح له، وأتمنى لو كان قبلًا..

وكان هذا ما فعلته..

على مرِّ قرون طويلة، وألفيات، كنت أصعد إلى السطح بين الحين والآخر، لأعيش حياة كاملة بين الجيل الثالث، وأوهمهم أنني شخصٌ ذو فِكرٍ ورؤى، وأعلمهم أسرار العلم الحديث.. كنت أنا من علم إيمحوتب العلوم، وعلمته كيف يبني الهرم الأكبر.. أنا من علم أرشميدس قوانين الطفو، وأنا من علم فيثاغورس الرياضيات، وغيرهم الكثير جدًّا.. في كل عصرٍ وزمنٍ كنت موجودًا، ألقن القدماء وأعلمهم قوانين الكون وأسراره كلٌّ على حدة، ودون أن يشعر أي شخص بأي شيء.. كنت موجودًا جوار من تسمونهم الأنبياء، والذين لم يكونوا ينقلون لكم سوى ما أريده أنا أن ينتقل من تعليمات، ظنًّا أن هذه رسالتهم من الرب القدير، وأنه قد كلفهم بإرشاد جنسهم إلى الهداية.. لم يكونوا يعرفون أو يفقهون أن هذه هي تكليفاتي أنا، التي كنت أحاول بها إصلاح الخلل الذي تفشى في العالم القديم بفعل العنصرية الزائدة والتطرف

الديني، والذي عانيت أنا نفسي بسببه لفترة طويلة، وكان سببًا في بداية كل شيء ونهايته في آنٍ واحد.. وكيف يعرفون؟!..

سرية مشروع (الأرض – صفر) كانت أهم ما أعمل لأجله، و(هوب) كانت أساسًا لكل ما هو قادم، وللصحوة الكبرى التي أخطط لها منذ قرون.. لم يكن من الممكن أن تتحمل الخطة مرور كل هذا الزمن، دون أن يكون كل هذا سرًّا.. صحيح أن العجائز القدامى الذين عاشروا (لويس) قد حكوا عنها، وأنها تحولت لأسطورة قديمة عن المدينة المفقودة في باطن الأرض، التي تُخفي السر الإلهي ذاته، ولكنها كانت يجب أن تظل كذا.. مجرد أسطورة..

فقط المدخل الذي كان يقع في قلب صحراء العراق كان مكشوفًا للغاية، وقريبًا جدًّا من السطح.. ولذا كان من الواجب حمايته من الأنظار غير المرغوب فيها..»

ثم أدار عينيه إلى «رشيد»، وتطلع إليه وهو يستمع إلى كل هذا بعيونه المتسعة التي لا تستوعب..

- «وكان هذا هو دور قبيلتكم.. قمت باستعمال الحواسيب الكمية لغرف الإعاشة الطبية التي كانت موجودة في مقر المدينة في إجراء عملية مسح ذاكرة وتلقين نفسي شامل لهؤلاء البشر الذين أيقظتهم وكانوا لا يملكون وظائف عقلية.. لقنتهم أنني الرب ذاته، وأنهم ملائكتي، وأن دورهم هو أن يلقنوا القبائل العربية أن سر المدينة المفقودة من المحرمات، وأنه يجب عليهم حمايته.. كان هذا أمرًا وتكليفًا من ربهم ذاته..»

توقف عن الكلام للحظات شرد فيها بعينيه وهو يتذكر.. ثم تابع بنبراته الرنانة التي تنحفر في القلوب، وتشكل مسامعها الأذهان:

- «سنون وقرون طويلة قضيتها منذ بداية التاريخ، بين الجيل الثالث، وهنا في (هوب)، ثم بين الجيل الثالث من جديد.. قرون عشتها وأنا أرى الزمن يتكرر، والتاريخ ذاته يُكتب من جديد.. سنون زادتني حكمة بما لا يقاس، وأنا أرى في كل زمنٍ الصراعات والحروب والخلافات التي شكلت الحضارة

ذاتها، وكانت أساسًا لكل ما فني، وكل ما تبقى حتى عصرنا الحالي.. سنون ألهمتني، وأكدت لي أن الكائنات الحية العاقلة جميعها أنانية.. يتأصل الشر والاستعمارية والعنصرية في جيناتها، ولا تتطور إلا حين يقتل بعضها البعض، ويفني بعضها البعض الآخر، أو يستعبده ويجعل من عذابه تسليته، ومتعة..

كنت أعرف أنني أُشكل العالم من جديد، وحاولت أن أنقيه من الشرور والذنوب، ولكن حتى أنا لم أقدر.. الشرور كانت متأصلة في العالم وفي دماء المخلوقات كالزروع الفاسدة.. الشر كان أساسًا، وكان ضروريًا.. وجوده واستمراريته كان مرهونًا به توازن الطبيعة وبقاؤها..»

ثم أدار عينه إلى «جيما»، وأردف:

- «كان هذا هو السبب الذي تشكل لأجله تنظيم المصدقين الحقيقيين.. كنت أنا الرب الأكبر، والكاهن الأعظم الذي كان أبًا لهم جميعًا، منذ ما هو قبل عصر المسيح ذاته.. هذا كان التنظيم الذي تربى وشب آباؤه وأجداده على فكرة أن البشر القدماء أو الـ (Ancients) هم سادة العالم، وأنهم في يومٍ ما سيعودون ليستعيدون مكانتهم الطبيعية، ويرثون كوكبهم من جديد، ويحررونه من كل الشرور والحروب التي تفشت فيه.. كذا كانوا مصدقين حقيقيين، ومن هنا جاء اسمهم.. هذا التنظيم كان من إنشائي وهندستي دون أن يراني أحدٌ منهم يومًا.. كل ما رأوه هو المهندسون الأوائل الذين كانوا يتلقوا التعليمات مني، وكان من بينهم «إندوبسار» الذي كتب قصة اللوح السومري المفقود الذي وجدتموه أنتم.. كانت مهمة التنظيم عبر القرون هي حماية المداخل السرية، ومطاردة من يحاولون السعي خلفها، وخلف أسطورة (هوب).. وعبر مضي الزمن، ضموا خلال صفوفهم عددًا خياليًا من الأعضاء السريين، وصاروا يتحكمون في العديد من المواقع والاقتصاديات العالمية من خلال رجال الأعمال الكبار، والبنوك، ويرون كل شيء بعيونهم التي لا تنام.. نفوذهم صار أعتى من الدول، وأعمق وأكثر تأثيرًا من أجهزة الاستخبارات الكبرى.. حتى عتادهم لم يكن يضاهيه شيء، وتسليحهم كان كافيًا لخوض

حـربٍ عظمـى ضـد دول كاملـة.. كل هـذا كان مـن هندسـتي أنـا، وإرشـاداتي وتعليـماتي لآبائهـم وقادتهـم عـبر القـرون..»

ثـم التقـط أنفاسـه وهـو يرفـع يـده مشـيرًا لـ «جيـما» أن تقـترب.. فاقتربـت، ورفـع هـو يـده ليربـت عـلى وجنتهـا، ويمسـح عـلى شـعرها حانيًـا، وسـط ارتجافاتها وتهيبهـا، بينـما هـو يتابـع:

- «وكانـت هنـا بدايـة معرفتـي أن (لويـس) لم يمُـت كـما تصـورت، وكـما اطمـئن قلبـي عـبر كل هـذه الألفيـات.. «

«جيـما» ترتجـف، ثـم تنحنـي أمامـه، وتسـجد مـن جديـد، بينـما هـو يتابـع وهـو يربـت عـلى شـعرها كـما الـكلاب:

- «كان حيًّـا.. وظـل حيًّـا عـبر كل تلـك القـرون بطريقـة لا أفهمهـا بالضبـط، ولا أسـتوعبها.. وكانـت مهمتـه، ومـا كان يسـعى لأجلـه هـو إفسـاد تعاليمـي التـي نقلتهـا للأنبيـاء، وحاولـت مـن خلالهـا إصـلاح العـالم مـن الـشرور، وجعلـه يتقبـل صعـود البـشر مـن جديـد، ويؤمـن بأنهـا نبـوءة لا بـد وأن تتحقـق عنـد نهايـة الزمـان.. أسـطورة هرمجـدون Armageddon في العقيـدة الكاثوليكيـة، وصعـود يأجـوج ومأجـوج ويـوم القيامـة في الإسـلام.. كان هـو يفسـد كل هـذا عـبر الأزمنـة والعصـور، ويتمثـل للأنبيـاء الجـدد الذيـن أرسـلتهم أنـا، محـاولًا إفسـاد الدعـوة والتعاليـم.. ومـن أجـل هـذا، صنـع عـبر العصـور تنظيـمًا كامـلًا، لا يعـرف عنـه أي أحـد أي شيء، وليـس لـه حتـى اسـم.. تنظيـمٌ متطـور تكنولوجيًـا بدرجـة غـير مسـبوقة، سري وواسـع النفـوذ العالمـي إلى حـدٍّ لا يسـتوعب.. حـد بلـغ مـن حجمـه وقوتـه أنـه فـاق قـوة تنظيـم المصدقـين الحقيقيـين الأصـلي الـذي أنشـأته أنـا نفسـي..»

ثـم نهـض مـن مكانـه عـلى العـرش.. نهـض، وتقـدم في صمـتٍ حتـى توقـع في منتصـف القاعـة التـي لا تسـتوعبُ عـينٌ حجمهـا وأطرافهـا الشاسـعة..

أردف في نبراتٍ تثير الخيال:

- «كان (لويـس) قـد حمـل عـلى عاتقـه مهمـة أن يصـير الشـيطان ذاتـه.. يحـارب

تعليـمات الـرب الأعظـم، ويحـارب خطتـه النهائيـة التـي كانـت تحمـل النهايـة لجنسـه بأكملـه.. يحـارب القيامـة ذاتهـا، ويحـاول منعهـا.. ومـن أجـل ذاك بـذل جهدًا نفيسًـا وغاليًـا، وتحمـل الحيـاة عـبر العصـور، وعـبر كل مـا رآه وتكـون لديـه مـن معرفـة لا يسـتوعبها عقـل، ولا يتحملهـا كائـن حـي.. تحمـل الحيـاة، وعـاش عـبر السـنين، بطريقـة لا أفهمهـا بالضبـط.. وإن كنـت لا أسـتبعد أنـه قـد اكتُشـف أحـد المداخـل أو أحـد المواقـع القديمـة التـي كانـت تعمـل بتكنولوجيـا خلايـا الـرب، واسـتعملها عـلى نفسـه، أو طـور مـن خلالهـا تقنيـة خاصـة بـه هـو وحـده.. تلـك التقنيـة التـي كنـت أسـمع أن اسـمها هـو (الميـاه السـوداء Black Water).. ولم أكـن أدري ماهيتهـا، أو يـدري أحـد مـن أعضـاء المصدقـين الحقيقيـين..

كانـت قـدرة التخاطـر مـا زالـت لديـه، لم تنمـحِ ولم تـزل.. كان قـادرًا عـلى الولـوج لعقـول الجيـل الثالـث، وتلقينهـم مـا كان يفكـر ومـا كان يسـعى إليـه.. تمامًـا كوسوسـة الشـيطان الحقيقـي في الميثولوجيـا الدينيـة عـبر عصـور التاريـخ.. لم أتصـور أن (لويـس) أخـي الـذي صنعتـه مـن جديـد، ووهبتـه حيـاةً جديـدة، وأنقذتـه مـن الفنـاء، سـيصبح في يـومٍ مـن الأيـام هـو (لوسـيفر Lucifer).. هـو حامـل الضيـاء.. الشـيطان ذاتـه.. شـيطان يسـعى لإنقـاذ جنسـه، ومنـع فنائهـم عـلى يـد الإلـه الحقيقـي الـذي صنعهـم ووهبهـم الحيـاة مـن الـلاشيء.. لكـم تبـدل التاريـخ، وتباينـت الأدوار بـين الحقيقـة والخيـال..»

ثم استدار لهم وقال وهو يشير لملائكته أن يقتربوا:

- «ولكـن كل هـذا لم يكـن مهـمًّا، لأنـه لم يقـدر عـلى التوصـل إلى مـكاني، ولم يسـتطع الدخـول إلى شـبكة أنفـاق (هـوب) الحقيقيـة أبـدًا.. برغـم كل نفـوذه ونفـوذ تنظيمـه الـسري العالمـي، لم يقـدر عـلى إيجـادي أو إيقـاف عمليـة إصـلاح السـيرفرات الرئيسـية لأجهـزة التجميـد والإعاشـة..»

اقـترب الملائكـة، ورفـع هـو يـده بإشـارة بسـيطة إلى الأعـلى، ليبـدأ المشـهد المهيـب..

مشـهد الحوائـط البيضـاء الناصعـة ذات الإضائـة المتموجـة، وهـي تنسـحب إلى

الأعـلى، وتكشـف مـن خلفهـا ضـوءًا سـاطعًا أعمـى عيونهـم، ثـم أخـذ يتضائـل رويـدًا حتـى صـاروا قادريـن عـلى التحديـق عـبره.. صـاروا قادريـن عـلى رؤيـة الأسـطورة، والنبـوءة.. وهـي تتحقـق..

- «العملية التي انتهت بالكامل، وتمت بالفعل..»

رقبـوا بأعينهـم أعـداد البـشر الهائلـة التـي تبـدت مـن خلـف الحوائـط، وهـم يفتحـون أعينهـم وسـط الضـوء الأبيـض السـاطع، وينظـرون حولهـم وإلى بعضهـم البعـض بعيـونٍ خاويـة، مـا زالـت تسـتوعب حقيقـة المشـاعر والتفكـير مـن جديد.. لا يقـدرون عـلى النهـوض بعـد.. لا يسـتطيعون تحريـك عضـلات أجسـادهم بعـد بسـبب ضمورهـا مـع الوقـت العظيـم الـذي مـر عليهـم في موضعهـم.. يسـتوعبون أجسـادهم العاريـة، والـبرد القـارس الـذي يسـتولي عـلى كل خليـة في أجسـادهم، فترتجـف.. ترتجـف معلنـةً لهـم أنهـم قـد اسـتيقظوا أخـيرًا، وعـادوا إلى الحيـاة مـن جديـد، بعـد سـباتٍ طويـل.. سـبات لا يفقهـون مقـدار مـا مـضى عـبره مـن زمـنٍ، وقـرون..

خفض «تاسك» يده في هدوء، وهو يقول:

- «لا بد أنكم تتساءلون لماذا حكيت لكم كل هذا؟.. لأي غاية؟»

اسـتدار بجسـده لينظـر إليهـم، فبـدا منظـره مـع الضيـاء السـاطع الآتِ مـن المشـهد الدائـر خلـف جسـده مهيبًـا، يثـير الرجفـة والقشـعريرة في نفـس مـن يـراه.. الضـوء المتمـوج يغلـف وقفتـه الشـامخة، ويغمرهـا كاسـيًا إياهـا غموضًـا يكسـبه صفـة إلهيـة غـير بشريـة.. عـلى مظهـره وكلماتـه ورنينهـا سـمات العظمـة، والخلـود..

- «لأن مشـيئتي هـي أن تكونـوا أنتـم الشـاهدين عـلى النهايـات، وعـلى البدايـات.. أنتـم الذيـن سـتتبقون مـن جنسـكم بعـد كل مـا سـيصير.. بثقافاتكـم المختلفـة، وعلمكـم الواسـع.. أنتـم تقـدرون عـلى حفـظ كل هـذا الـذي سـيحدث، وتأريخـه حينـما يحـين الوقـت..»

رمق «رشيد» بنظراته وهو يتابع:

- «العـربي الشرقـي المسـلم الـذي عـاصر الحـرب والفنـاء والعنصريـة والتطـرف الدينـي، ومـضى عـبر كل هـذا إلى قـدره المحتـوم..»

ثم أدار عينه إلى «جون» وهو يردف:

- «والبريطـاني الغـربي المسـيحي الـذي رأى بعينـه كل شيء، واسـتقى مـن علـوم بـلاده وتاريـخ العـالم، قبـل أن يـأتي بحثًـا عـن غايتـه، وعـن المصـير..»

ورفع يده نحو «جيما»..

- «وأحـد بنـاتي وأبنـائي الذيـن أمضـوا حياتهـم وأفنوهـا تصديقًـا لي وإيمانًـا بقـولي وبتعليـماتي.. هـؤلاء الذيـن أعـدوا كل شيء، ومهـدوا العـالم بأكملـه انتظـارًا للصحـوة الكبرى..»

أقـدام «جـون» لا تقـدر عـلى حملـه تحـت تأثـير الانفعـال، فتتخـاذل ليخـر سـاقطًا عـلى ركبتيـه وهـو يرقـب كل مـا يـدور، ويسـمع كل مـا يُقـال..

- «تذكـروا أنكـم أنتـم مـن شـهدتم نهايـة خطـة الـرب الأعظـم.. أنتـم مـن رأيتـم كل شيء، وأنتـم الشـاهدون عـلى عـالمٍ يفنـى، وعـالمٍ جديـد يتشـكل، ويعـود إلى مكانتـه الطبيعيـة.. يعـود إلى مُلاكـه، وسـادته الحقيقيـين..»

أتبـع عبارتـه هـؤلاء الذيـن بـدأوا في تمالـك أجسـادهم وعضلاتهـا والنهـوض مترنحـين..

أعدادهـم التـي تتزايـد، وهـم ينهضـون ليخرجـون من غرف الإعاشـة بأجسـادهم العاريـة، وتتقـدم خُطاهـم بـلا هـدى إلى حيـث يقـف «تاسـك».. يسـتوعبون كل مـا حولهـم، وأفكارهـم تـزداد صفـاءً.. ولأول مـرة، يتذكـرون.. يتذكـرون كل مـا جـرى، وكل مـا حـدث..

يتطلعـون إلى «جـون» الذاهـل، وإلى «جيـما» و«رشـيد» الذيـن خـارت قواهـم، وتخاذلهـم أقدامهـم عـن حملهـم ليسـقطوا بدورهـم تحـت تأثـير عظمـة مـا يـدور أمـام أعينهـم..

يتذكرون ماهيتهم، ومهمتهم الحقيقية..

ومـن خلفهـم، اسـتيقظ المزيـد، وفتحـوا أعينهـم للمـرة الأولى، بينـما تسـاطع الضـوء المتمـوجِ، الآت مـن الجـدرانِ ذاتهـا، وتزايـدت شـدته لتنعكـس عـن الموجـودات، وتعمـي العيـون بضيهـا الأبيـض البهـيِّ..

تزايدت لتغلف مسرح المشهد بأكمله..

محمود علَّام

للتواصل مع الكاتب على حسابه الشخصي بفيسبوك :

https://www.facebook.com/mahmoud.dafirenze

للتواصل مع الكاتب على صفحته الرسمية :

https://www.facebook.com/mallam1994/

كيان للنشر والتوزيع

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235688678 – 0235611772**

هاتف محمول: **01001872290 /01000405450**

وللاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصدراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية

يمكنكم متابعتنا على الروابط التالية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpublishing

+KayanPublishing

KayanPublishing